سلطنة عُمان

وزارة التراث القومي والثقافة

في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيّوض

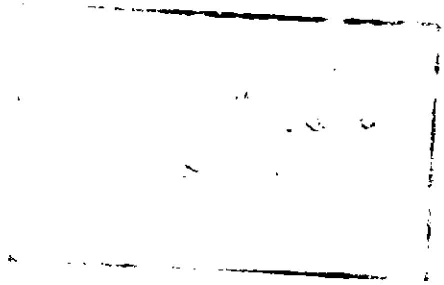
[سور : الكهف ـ مريم ـ طه ـ الأنبياء]

اختصره ورتبه وأشرف عليه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م



كلمـة الـوزارة

بقلم الدكتور: صالح بن أحمد الصوافي
مشرف عام الدراسات والتراجم وتحقيق الكتب

إن هذا الجزء من تفسير القرآن الكريم مـن أهم التفاسير وأعمقها، فهو تفسير جمع بين تفسير الخلف والسلف من علماء هذه الأمة ومفسريها.

والعلامـة المحقق الدرّاكـة الشيخ: إبراهيم عمـر بيوض يـرحمه الله بذل جهـداً مضنيـاً في إلقـاء هذا التفسير القيّم على مستمعيـه فما أحـوج الأمـة الإسلاميـة إلى مثل هـذا التفسير الهام الذي جمع بين صفحاتـه علومـاً شتى ودروساً كثيرة.

إن كل فرد مسلم مطالب أن يعرف واجباتـه ومحظوراته من كتاب الله عز وجل، ومن سنـة النبي الكريم محمـد بن عبدالله ﷺ.. وهـذا التفسير الذي بين أيـدينـا فيه مـن بيان تلك الـواجبـات والمحظـورات مـا يثقف الجاهل ويزيد العالم.

ويطيب لنا هنا أن ننـوه بالجهد الكبير الذي بـذله الشيخ العالم الجليل: الناصر بن محمد المرموري ـ حفظه الله ـ مشكـوراً من عناية فائقة قضاها في ساعـات مباركـة لإخراج هـذا التفسير العلمي النفيس ليرى النـور في عالم المكتبات العربية والإسلامية.

ولقـد أولت «وزارة التراث القومي والثقـافـة» هذا التفسير اهتمامـاً كبيراً

كما هي عادتها في الاهتمام بكتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغيرها، وليس ذلك بغريب عليها، فمنذ انشئت وعلى رأسها صاحب السمو السيد : فيصل بن علي بن فيصل آل سعيد ــ الموقر، وهي مهتمّة بإخراج هذا التراث العظيم ليكون في متناول أيدي القرآء الكرام.

والحمد لله أولاً وآخراً على هذه النهضة العلمية المباركة التي تهتم بها دولتنا الفتية بقيادة حضرة صاحب الجلالة «**السلطان قابوس بن سعيد المعظم**» أبقاه الله.

تقــديم

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الـذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق،وأيـده بنصره وبالمؤمنين أهل الصدق، وجعل علماء أمته ورثة الأنبيـاء ذوي الدرجات والسبق، أحمده وهو أهل الحمد والثناء، وأشكره ولا أحصي ثناءً عليـه، وأصلي وأسلم على من أمرنا بالصلاة عليه ﷺ وعلى آله وصحابته نجوم الهدى ومصابيح الدجى وسرج الإهتداء .

وبعد.. فقد سألني من لا أرد قـوله أن أضع تلخيصا لدروس شيخنـا وأستاذنا الشيخ بيـوض رحمه الله وذلك في حياتـه، وبعـد إتمامه دروس تفسير كتـاب الله في مسجـد القرارة الكبير فسـاعفتهم إلى ما طلبـوا واستعنت بالله العلي الكبير وهـو حسبي ونعم المعين ونعم المولى ونعم النصير .

فـرجعت إلى مـا انتقش في ذاكرتي مـن مواظبتي على حضـور دروسـه وحسن استماعي وانتباهي لما يلقيه علينا من درره الغالية مما يفتح الله عليه في تفسير كلامه العزيز، واستعنت بـالأشرطة التي حفظت هذه الدروس منـه، وقد ابتدأ التسجيل وذلك عنـد وصولـه في قـوله تعـالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيباتِ وَفَضَّلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ـ الإسراء : ٧٠﴾ .

وقد كفاني مـؤونة السَماع من الأشرطة ابن خالتي وتلميـذي الأستاذ عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، فأخرج الكلام المسجل إلى الكتابة فكنت ألخص من الكتابة عوض السماع، جزاه الله خيراً، وكـان ذلك قبل أن يخرجه مهذَّبـاً على النحو الذي طبعه ونشره .

وقد ابتـدأت تلخيصي من أول سورة الكهف واختصرته بعض الاختصـار، وقد

عرضـت باكورة عملي على الشيـخ، رحمه الله، فارتضـاه وقال لي: انح هـذا النحو واجتهـد أعانك الله. وأول مـا لخصتـه من تفسيره تفسير سورة النـور، عسى الله أن يفيض عليَّ من نوره وعلى أستاذي وعلى من أعـانني في هذا الأمر العظيم وعلى كل من استفاد منـه وقرأه ونشره.. آمين. ﴿ربَّنـا أتمِم لَنا نُـورَنا واغْفِر لَنَـا إنَّكَ عَلَى كُل شيءٍ قَدِير ـ التحريم ٨ ﴾ .

مقدمة في التعريف بالشيخ وبتفسيره وذكر بدايته ونهايته والاحتفال بختمه

هـو الأستاذ العـلامة النحـرير العبقـري الشيخ إبراهيم بن عمـر بن بابـا بن إبراهيم بيـوض، وأمه عائشـة بنت القائد كـاسي بن بهون بن كاسي. ولد بـالقرارة ولا يـة غـرداية (وادي ميـزاب) جنـوب الجزائر، ولـد يوم ١٢ من ذي الحجـة عـام ١٣١٦هـ الموافق ٢١ إبريل عام ١٨٩٩م ثم التحق في سن مبكرة بمدرسة الشيخ الحاج إبراهيم بن عيسى البريكي رحمه الله، حيث تعلم القرآن ومبادئ علم الدين واللغة العربية والحساب. وقد استظهر كتاب الله تعالى سنة ١٣٢٨ هجرية وعمره إثنا عشر سنـة، استظهره على معلمـه الفقيه بهون علي محمد بـن الحاج يوسف بن محمـد، وفي الليلة التي استظهـره فيها أصبح شيخـه الحاج إبراهيم البريكي ميتـاً رحمه الله بعد أن ترك بعـده من أعز تلاميذه من يحمل رايـة العلم ويخلفه في الإنذار والتبليغ ولو بعد حين .

وقد خلف الشيـخَ الحاج إبراهيم البريكي في التدريـس في داره الشيخُ عبدالله ابن إبـراهيم أبو العـلا فاستمـر الشيخ بيوض في التعلم عنـده سنتين، ثم التحق بمدرسة الشيخ الحاج عمـر بن يحيى ويرُّو، وكل هؤلاء الشيوخ الثلاثـة من تلاميذ القطب الشيخ اطفيش رحمه الله، واستمـر في التعلّم عنده وفي مـدرستـه إلى وفاتـه رحمه الله .

وقد توفي الشيخ الحاج عمر ليلـة سبع وعشرين من رمضان من عام ١٣٣٨هـ الموافق ١٩٢١م، وقـد لازمه سبع سنـوات في حضره وأسفـاره وفي مدرستـه متعلما وفي بيته خـادما أمينا، وبعـد وفاته خلفـه في التدريس بعده مع بعض كبـار طلبة الشيخ، ثم إنه استقل بفتح معهـده على النمط الذي يريده ويثمـر الثمار المطلوبة سنة ١٣٤٣هـ في أواخر شوال الموافق ٢١ مايو سنة ١٩٢٥م.

وقد استمرت هـذه المدرسة المباركة إلى يومنا هـذا ولا تزال، وهي التي تخرجنا فيهـا وتخرج فيها آلاف الطلبـة الذين تـولـوا فيها بعد تسيير الحركـات الإصلاحيـة العلمية والاجتماعية داخل الجزائر وخارجها، ثم إن الشيخ رحمه الله رأى بما أراه الله أن إصـلاح الفـرد والمجتمع لا يتم إلا على نور كتـاب الله الحكيم تـلاوةً وتفسيراً، فشرع في تفسير القـرآن الكـريم في مسجـد القرارة الكبير بـدايـة من يـوم ١ محرم ١٣٥٣هـ الموافق ٢ مـايـو ١٩٣٥م إلى أن أختتمـه يـوم ٢٥ ربيع الثـاني سنـة ١٤٠٠هـ الموافق ١٢ فبراير سنة ١٩٨٠م، وعقدت لختمـه حفلة حافلة بهيجة في مهـرجان عظيم يـوم ٦ جمادى الثانيـة ١٤٠٠هـ الموافق ٢٣ مـايو ١٩٨٠م، وقـد وزعت في الحفل على العـزابة والأضيـاف الكبـار والمشايخ نسخٌ من تفسير سـورة النور من تلخيصي بعد أن عُرضت على الشيخ رحمه الله وقُـرئت عليه فَرَضِيَها، وقد لقيني بعـد ذلك فشجعني على إتمام التلخيص لتفسيره وقـال لي: إنحُ هذا النحـو واجتهد أعانك الله وسدد كتابتك ووفقك .

● منهجي في التلخيص :

وكنت أراعي في التلخيص الإختصار وأحـافظ ما استطعت على روح المعنى وربما أمر على آية أو آيات لم تأخذها المسجلة فأجتهد في تفسير معناها وأرجع إلى ما بقي في ذاكرتي من تفسير الشيخ، وكذلك صنعت في تفسير جزء من سورة الأنبياء، فإني لم أعثر حتى الآن على تسجيلهـا كاملـة في الأشرطة، فـاجتهدت ورجعت إلى مذكرتي وكتبت تفسيره على النمط والوِجهة التي كان يوليها الشيخ رحمه الله.

وكان غرض الشيخ من التفسير تركيز الـوعي الديني في النفوس وغرس عقيدة التـوحيد الخالص في القلـوب وتهذيب النفوس بـالـوعظ والتذكير، فلنستمع إليـه يقـول في أثناء تفسيره لسـورة النجم: «وتفسيرنـا إنما هـو لـلاتعاظ والاعتبـار ولا ندخل إلا بمقـدار الضرورة الملحة في تقريـر معنى كلمة لغويـة أو ربما إشارة الى إعراب أو إلى تصريـف كلمة عندمـا تلح الحاجة، وإلا فأصـل التفسير المراد هو هداية الناس».

وكانت دروسه في التفسير وعظاً بليغاً وتوعيـة صادقة للأفراد والمجتمعات وقد ظهـر أثـره والحمـد لله في نفـوس وأخـلاق المستمعين والمستمعـات وانصهـر بـه المجتمع في بوتقة الوحدة الإيمانية والأخوّة الإسلامية.

ولعل الـذي أقول في تفسير الشيخ رحمه الله واختصـاري لـه لا يبعد عن قـول الخازن في اختصـاره لتفسير البغـوي، يقـول الخازن: «إن تفسيري هـو اختصـار لكتاب (معالم التنـزيل) للإمام البغوي رحمه الله، الـذي هو من أجلّ المصنفات في علم التفسير، وأعلاها وأنبلهـا وأسناها جامعا للصحيح من الأقـاويل، عارياً من الشبه والتصحيف والتبـديل، محلّى بالأحاديث النبـوية، مطرزاً بالأحكـام الشرعية، موشى بـالقصص الغريبـة وأخبار الماضين العجيبـة، مرصّعاً بـأحسن الإشارات، مخرّجاً بأوضح العبارات، مفرغا في قالب الجمال بأفصح مقال..» .

ثم يقول الخازن في تعليل اختصـاره له: «ولما كـان الكتاب كما وصفت أحببت أن أنتخب من غـرر فوائده ودرر فـرائده، وزواهر نصـوصـه، وجواهـر فصوصـه جامعـاً لمعاني التفسير ولبـاب التأويل والتعبير حـاوياً لخلاصـة منقولـه، متضمناً لنكته وأصـوله».. ثم يقـول: «إلا أنه رحمه الله طبع الكتـاب بطابع آخـر وزاد عليه زيادات وكان الأولى في نظرنا أن تُفرد في سفرٍ خاص».. أهـ .

وأنا أقـول: إني أجد في استعراضي لتفسير الشيخ مواضيع في إصـلاح العقيدة

والمجتمع توسع فيها وكان الأولى في نظري أن تفرد بسفرٍ خاص أو أسفار، وقد كتبت قائمة لتلك المواضيع المهمة والمفيدة أشرت فيها إلى المناسبات والآيات التي تطرق في تفسيرها إلى هذه المواضيع.

ولعل الله يهيء من تلاميذ الشيخ من يفرد لهذه المواضيع الموسعة كتابات توفي بحقها فتكون خير خدمة في توعية المجتمع المسلم.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا ومن سلك طريق الوعظ والإرشاد بالتدريس أو الكتابة في ميزان حسناتنا ورفعاً لدرجاتنا، ويرحم مشائخنا الذين تركوا لنا هذا التراث الضخم، ويرفع درجاتهم في عليين، ويجمع بيننا وبينهم في جنات النعيم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا، ذلك الفضل من الله.. وكفى بالله عليما. وأن يغفر لنا ما كان من التقصير في حق كلامه العزيز.. آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الناصر بن محمد المرموري

القرارة يوم الثلاثاء ٢٢ / ٢ / ١٤١٦هـ

الموافق ٢٠ / ٧ / ١٩٩٥م

كلمة كاتب الشيخ بيوض

الأستاذ/ صالح بن أحمد حدبون

رقم: .... / القرارة يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى ١٤١٣ - ٢ نوفمبر 1992

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد فإنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن أتذكر ذلك العهد الذهبي من حياتي لما حباني الله بمجاورة أبي الروحي فضيلة الإمام الشيخ بيوض ابراهيم بن عمر - رحمه الله - فكنت ما يزيد على عقد من الزمن 1970/1981 ملازما لجنبه أقرأ له ما طاب من نفائس المطبوع والمخطوط وأكتب له ما يشاء من أبحاث ورسائل.

وإنني لا أنسى فرحته الكبرى ودعواته الخالصة لما اطلع على الطبعة الأولى من تفسير سورة القمر لسورة النور التي أعدها فضيلة الشيخ الناصر بن محمد المرموري حفظه الله - خصيصا لمهرجان ختم تفسير القرآن العظيم في 23 ماي 1980م.

فقد قام الصديق الوفي عيسى بن محمد الشيخ بالحاج بتحويل الدروس من الشريط المسموع إلى السجل المكتوب وتولى فضيلة الشيخ الناصر المرموري مهمة التصحيح والترتيب والإدراج في تبويب فنسيب. فكان ذلك الكتاب النفيس (في رحاب القرآن) عملا عظيما تحول من دروس مسموعة إلى شرح مستوعب منسق محكم.

إني قرأت الكتاب على الشيخ مرارا وأعجب لما يسمع ويتمتع لمرة حمادة وثناء إذ هل كل ما سمعته الآن قد قلته من قبل؟ ودعا دعوات خالصة وبارك هذه المبادرة الطيبة وطلب من الشيخ الناصر حفظه الله أن يتوج هذا الموقف بنفيته ما حفظه الشريط المسجل من كنوز هذه الدروس القيمة رحم الله إمامنا الشيخ بيوض وبارك لنا في خليفته في العلم فضيلة الشيخ الناصر المرموري وأعانه في مهمته الجليلة حتى ينعم المسلمون بهذا التراث العظيم وهذا العلم المنير والله ولي التوفيق، وبه نادم العلم والعلماء

حدبون

بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير
سورة الكهف

١٨ سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ۝١
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣
وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ
إِلَّا كَذِبًا ۝٥

السورة تسمى سورة الكهف وسورة أصحاب الكهف وآياتها مائة وعشر آيات في مصحفنا وهو المشهور، وورد في فضل السورة شيءٌ كثير: أحاديث مرفوعة من طرق متعددة في فضل قراءة سورة الكهف خاصة ليلة الجمعة ويوم الجمعة، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء لا يزال يضيء له إلى يوم القيامة وغفر له بين الجمعتين». وورد أيضا حديث آخر: «أن البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان». وجاءت رواية أخرى: «من قرأ سورة الكهف أضاء له نور ما بينه وبين البيت العتيق، وهو البيت الحرام». وورد عن الحسن بن علي رضى الله عنه أنه كان يقرأ سورة الكهف كل ليلة، وذهب كثير من أئمة العلم إلى أن قراءة سورة الكهف سُنّة في يوم الجمعة وليلتها، ورووا أن ذلك من فعل النبي ﷺ.

وذكر بعض أهل التفسير أنها نزلت جملة واحدة وشيّعها سبعون ألف ملك وإن ثبت هذا فهو يدل على فضلها ومكانتها بين سور القرآن، وذكر البعض

الآخر أنها نزلت منجمة،وأنا أرى الجمع بين الـروايتين. فلا مانع أن تكون نزلت جملة واحدة ثم نزلت بعد ذلك منجمة والله أعلم.

وورد في فضل حفظها وقـراءتها أن صاحبها يحفظ من فتنة المسيح الـدجال، وورد أن من قرأ خواتم سورة الكهف عند نومه ورغب من الله أن يوقظه في ساعة معينة أنه يستيقظ في تلك السـاعة بإذن الله تعالى، ولا غرابـة في هذا فإن في آيات الله سرا، والله على كل شيء قدير.

وجـاءت سـورة الكهف في الترتيب بعـد سـورة الإسراء،والترتيب تـوقيفي، والمناسبة بين السـورتين قوية وظاهرة، نلمسهـا بين أول سورة الكهف وبين آخر سورة الإسراء، كما نـراها بين أول سورة الإسراء وآخـرها وهـذا شيء ملحوظ بين سور القرآن كلها، فهي حلقات ذهبية متماسكة متناسقة.

فُتِحَت سـورة الكهف بـذكـر الحمـد ونسبتـه إلى الله، وقبلهـا فتحت سـورة الإسراء بـالأمر بإسنـاد الحمـد إلى الله تعالى، كما فتحت بتسبيح الله تعـالى، فبين فاتحتهـا وخاتمتهـا وفاتحة الكهف وخـاتمتها تكتمل حلقـات الكلمة التي وردت ووصفت بالباقيات الصـالحات وهي : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وجـاء ذكر البـاقيـات الصـالحات في مطاوي سـورة الكهف، وإن كـان معنـاها لا يقصر فقط على هـذا الـذكر بل هي لجميع الأعمال الصـالحات التي يبقى أجرهـا وذخرها عنـد الله تبارك وتعالى، فـالصلاة والصوم والصـدقة والحج والعمـرة والأمر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر وأداء الحقـوق والعدل والإحسـان وأنواع الذكر والبر كلها باقيات صالحات .

ولنـرجع إلى المناسبـة القويـة بين فـاتحتي السورتين: الإسراء والكهف لنـرى بـديع كلام ربنـا تعالى: فتحت الأُولى بـالتسبيح، وفتحت الثانيـة بالحمـد وتمام الـذكر بـاقترانهما: سبحان الله والحمـد لله ففي التسبيح تنزيـه للمولى تعـالى عن جميع النقـائص ممـا لا يجوز في حق مـولانا العظيـم، وفي الحمد إسنـاد أوصـاف

الكمال والكبرياء والعظمة والبر والرحمة والإحسان إلى مولانا العظيم، فما ألزم هذين الذكرين بعضهما لبعض وكثيرا ما يقترنان معا كما جاء في القرآن ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ـ الإسراء ٤٤﴾، ﴿**إنما يومن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم** ـ السجدة ١٥﴾، ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده**ـ الفرقان ٥٨﴾.

وجاءت الأحاديث أيضا باقتران التسبيح والتحميد، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم؛ سبحان الله العظيم وبحمده فهما ذكران متلازمان متكاملان في حق الله تبارك وتعالى .

ثم لننظر في الآيتين كرة أخرى نجد الله يمتن على عبده ورسوله بالإسراء في السورة الأولى، وبإنزال الكتاب في السورة الثانية، ويختار من الأوصاف في كليهما أشرفها وألطفها فإضافة العبودية في شخص محمد ﷺ إلى الله تعالى يشرفه ويشعره بلطفه تعالى به، فما أحلى وقع هذا الوصف عند أولي الألباب فهو أحلى من كل وصف سواه، ولولا ذلك ما اختاره الله لحبيبه وصفيه من خلقه، فمحمد عبد الله خاضع له قبل أن يكون نبياً ورسولاً ولم ينل شرف النبوة والرسالة، ولم يرفع الله مقامه بالإسراء والعروج إلى السماء وبإنزال الكتاب عليه إلا بعد أن قام بحق العبودية متذللاً لمولاه تعالى، فتواضعه لمولاه هو الذي رفع درجته عنده حتى أصبح محلاً لحفاوته وتكريمه، وناهيك بمن يرفعه الله إلى مقام لا يتسامى إليه جبريل أمين الله، المكين عند ذي العرش، عليه من ربنا السلام وعلى سائر الملائكة الكرام، وهو مقام دونه كل مقام لم ينله نبي مرسل ولا ملَك مقرب، لقد شرف الله من قبل نبيه موسى بميقاته الذي وقته له بعد أربعين ليلة، غير أن شرف هذا النبي أعظم فميقات موسى عليه السلام في جبل الطور وميقات محمد ﷺ فوق سبع سموات، وميقات موسى بعد موعد أربعين ليلة ليتطهر ويستعد، وميقات محمد ﷺ من غير موعد سابق، وفي هذا ما فيه من بيان فضله

ﷺ وصدق الله العظيم ﴿**وكان فضل الله عليك عظيما** ـ النساء ١١٣﴾.

﴿**الحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب**ـ الكهف ١﴾ انظروا إلى شرف هـذا الوصف، وصف العبودية،ثم انظـروا إلى تشريف إضـافته إليـه، وقد يبـدو لبعض أن لو اختـار له وصف النبوة لكان أفضل، كـلا بل اختيار الله أفضل من اختيارنا وفيه ما فيه من التعبير على سر التواضع، وإن تـذللنا بالعبودية لربنا رفع لمقامنا عنده وعـزٌ لنا، وأي عز، وكذلك نجد هـذا التعبير يجري في القرآن بالنسبة إلى سائر أنبيـاء الله ﴿**ولكن الله يمن على من يشاء من عباده** ـ إبراهيم ١١﴾ وفي لفظ التشهد «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

ثم لنـرجع إلى المنـاسبـة بين سـورتي الإسراء والكهف نجـد من بينهـا ذكـر الأجوبـة على الأسئلة الثلاثة الموزعـة بينهما، وذلك أن اليهود قالـوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد ﷺ ؛ قـالوا لهم: اسألوه عن أمور ثلاثـة، فإن هو أجاب عنها كلها فليس برسول، وإن عجـز عن الجواب عنها كلها فليس برسول، وإن أجـاب عن بعضهـا وترك بعضـا مفـوضا فيهـا الأمـر إلى الله فهـو رسول حقـا. فأجاب بإذن ربـه عن بعضها وفـوّض البعض الآخر إلى الله. سألـوه عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فكان جوابه عن الروح ما أوحي إليه في حقهـا وهو قولـه تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ـ الإسراء ٨٥﴾ فقـامت عليهم الحجـة بهذا الجواب وبما بعده، ومـا منعهم من الإيمان برسـالته إلا الحسـد والجحود، وقـالوا كيف يقول لنا ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ـ الإسراء ٨٥﴾ وقد أوتينـا التوراة وفيهـا علم كل شيء، فأنزل الله في أواخـر هذه السـورة : ﴿**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا** ـ الكهف ١٠٩﴾.

وفي قصة مـوسى مع الخضر عليهما السـلام عبرة لهم ومزدجر، ومـن لطائف الموضـــوع أن جاء الجواب عن سؤال الروح في سورة الإسراء وجاء الجواب عن

المســـألتين الأخريين في سورة الكهف، ذلك لأن قضية الروح من علوم الغيبيات ومن أمـور ما وراء المادة، فنـاسب أن تذكـر في هذه السورة التى فيها قصة الإسراء والمعراج ومـا شاهد هنـاك رسول الله ﷺ من أمور الغيب والملكـوت مما يمكن أن يظهره الله عليه فلا مطمع بعـد ذلك في الإطلاع على ما وراء ذلك من علوم الغيب التى اختص الله بها ﴿**عـالم الغيب فلا يظهـر على غيبه أحـدًا، إلا من ارتضى من رسول** ... الآية ـ الجن ٢٦: ٢٧﴾ وهذا الإظهار لا يكون إلا بمقـدار، فلو كان علم الروح ممكنا لكان أولى من يُظهَر عليه هذا الرسول الذي فتح الله له من آيات الغيب مـا طوى عن غيره، فـلا مطمع بعد لأحـد من المخلوقـات في الاطلاع على حقيقة الروح. فسبحـان ربنا العليم الحكيم المتفرد بالعلم المطلق والحكمـة البالغة لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

﴿**الحمـد لله الـذى أنـزل على عبـده الكتـاب ولم يجعل لـه عـوجـا قيما لينـذر بأسا شـديدا من لـدنه ويبشر المومنين الـذين يعملون الصـالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيـه أبدا وينذر الذين قالـوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا**﴾

الحمد هو الثناء باللســان على ذي الكمال والجلال والإنعام والإفضال، تبارك ربنا وتعـالى، وفيه معنى الشكـر وهو الاعتراف بالجميـل لصاحب الجميل، والله جل وعـلا مجمع المحامـد ومفيض النعم، أنعم علينا بنعمـة عظيمة وهي إنـزال كتـابه هـدىً ورحمة للمـؤمنين. يقـول علماء اللغة: تعليق الحكم بـا لمشتق يـؤذن بعلية مـا منه الاشتقاق وتعليق الحكم بالصلـة يدل على أن ما في حيز الصلـة هو العلة فإنزال الكتـاب هو النعمة الكبرى التي لا تتناهى بـركاتها، كيف لا، وهو الهادي إلى السعادة الأبدية بالنعيم المقيم ورضوان الله أكبر .

واختار الله هنـا لرسولـه الكريم صفة العبوديـة ونسبها إليه تشريفـا وتكريما وهي الصفـة التي لا أشرف ولا أحلى منها في قلـب النبي ﷺ وهو الـذى يتشرف

أن يكون عبـدًا لله ويعلو مقـامه بتواضعـه لربـه، وهو القـائل: (ولا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله) .

ثم إن الله يسمى كتابه ﴿الكتاب﴾،فهو الكتاب الجامع من الآيات البينات والهدى والفرقان، تقاصرت دونه الكتب، فهو الكتاب حقا يستحق اسم الكتاب، وغيره لا يستحق هذا الوصف وإن تسمى به.فـ ﴿**تبارك الذى أنـزل على عبده الفرقـان ليكون للعـالمين نذيرا** ـالفرقان ١﴾، و ﴿**الحمد لله الـذي أنزل على عبـده الكتـاب ولم يجعل له عـوجـا** ـ الكهف ١﴾ . وجاء في آيـة أخرى وصفـه: ﴿**قرآنـا عربيـا غير ذى عـوج** ـ الزمر ٢٨﴾ والعوج هو الانحـراف عن القصد وهو عكس الاستقـامة، وكتاب ربنـا هو الصراط المستقيم لا انحـراف ولا عوج ولا جور في دلالته ولا في أحكامه ولا في أغراضـه ومقاصده ولا في أمثاله وقصصه ولا في شيء من معـانيه، ولا اختـلاف ولا تنـاقض بين سـوره وآياتـه فهي تفسر بعضها بعضاً ويؤيد بعضها بعضا ويكفل بعضها بعضا وكلها معجز لا ينقضي العجب منها ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كـان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ـالنساء ٨٢﴾ .

فهو الكتاب المستقيم في مبناه وفي معناه، نـزل بالحق وبالحق أنزله الله لا ريب فيه هـدى للمتقين لا يزال النـاس يغترفون من بحـور بلاغته ومعـانيه وأحكـامه، ويستخـرجون منـه درر البيان وجـواهـر المعاني وحقـائق العلوم وفصل الخطـاب ومقاطع الحقائق وقوانين الأحكام، من قـال به صدق ومن عمل به نجا ومن حكم به رشـد ومن دعا به هُدِيَ إلى صراط مستقيم. نفى الله عنـه العوج وسماه ﴿قيما﴾. يقول بعض المفسرين في القيم تأكيد للمعنى الذى سبق، غير أن الوصف السابق جاء بطريق النفي وجاء هـذا بطريق الإثبات، فالكتاب ﴿قيم﴾ أى مستقيم غير ذى عوج، ونقـول أنه لا يصار إلى التأكيـد إلا إذا لم نجد معنى للتأسيس جـديدا، والعلماء يقولون التأسيس خير من التأكيد وإذا نظرنـا في اللغة وما تدل عليه كلمة

﴿قيم﴾ نجد لها مدلولا قويا فوق مدلـول الاستقامة فهي تدل على القيام والقائمية ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ـ الرعد ٣٣﴾ وهي تدل كذلك على الهيمنة وسلطة الحكم، فـالقيّم هو المهيمن على جميع الكتب التي سبقته ولا كتاب بعده فهـو القيم عليها، ما وافقه منهـا قُبِلَ وما خالفـه تُرِكَ لأن القرآن لا ينالـه ما نـال الكتب التى قبلـه من التبـديل والتغيير والتحـريف،فهـو الكتـاب الخالـد ﴿**الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ـ فصلت ٤٢﴾ والقرآن هو القائم على شؤون الناس وهو الحَكَم العدل بينهم، فهو القيم بهذا المعنى أيضا فهو القائم على المؤمنين يعلمهم ويربيهم ويصلح شؤونهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، له السلطـة والإشراف والقيام في كل شأن من شـؤون الدنيـا والدين، ولـه الحجة البالغـة والشهادة المعدّلـة يوم القيامـة، فهو قيّم أبـدا لأنه كلام قيـوم السموات والأرض، قيوم الدنيا والآخرة، فما أحراه بهذا الوصف وما ألزمه به أبدا.

وفي اللغة أيضـا يقال قيم لما لـه قيمة غاليـة وعظيمة ﴿**فيها كتب قيمة** ـ البينة ٣﴾ تقول هـذا كتاب قيم أي نفيس لا يوجـد مثله، فقد ظفرنـا والحمد لله بكتــاب ليـس مثلــه في النفاسة كتاب، وهو قيمنا وهادينا ومربِّينا ومهذبنا وهو حجتنا بين يدي الله إن نحن عملنا بما فيه وجعلناه إمامنا وقيّمنا .

وينبغى وقفة قصيرة بين كلمتي ﴿**عوجا، قيما**﴾ حتى لا يتوهم أن الثـانية نعت لـــلأولى وهـذا تنــاقض لا يصح ولا يستقيم في المعنى، فقد نفيت الأولى وأثبتت الثـانية، فينبغي الفصـل بينهما بوقفـة قصيرة نفيـا للوهم ودفعـا للغلط، فـالكلمة الأولى تتعلـق بما قبلها، والكلمـة الثـانية وصف ثـابت للكتـاب، ولها اتصال وثيق بما بعدها .

﴿**قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه**﴾

فالغـرض من إنزاله النـذارة والبشارة، أنزل الله الكتاب على عبـده محمد ﷺ لينذر الناس بأسا شديدا وعذابا أليما من قبل الله إن هم تمادوا على ما هم عليه من

الكفر والضلال والفساد، إن لله بأسا شديدا أعده للكافرين وبأسا شديدا ينزله على المتمردين من خلقه الذين يخالفون أوامره ويعصون أنبياءه ورسله ويتهادون في الغي والضلال. ثم بعد بيان الغرض الأول وهو النذارة والتحذير من سوء المصير ويعطف عليه بالبشارة للمؤمنين والنذارة للمشركين الذين نسبوا الولد إلى الله فيقول:

﴿ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ .

ذكر الإنذار أولا ثم ذكر التبشير وأردفه بالإنذار مرة أخرى، وللمفسرين تأويلات في هذا التكرار للإنذار؛ قال بعضهم: الإنذار الأول للكفار عموما، والإنذار الثاني خصوصا للذين قالوا اتخذ الله ولدا، كما يظهر من ظاهر التعبير، قالوا لأن من الكفار من لم ينسب الولد إلى الله فجاء الإنذار هنا خاصة للذين نسبوا الولد إلى الله زجرًا لهم، وهذا تأويل جمهور المفسرين، ومنهم من قال غير هذا، ونحن نقول في تأويل ذلك غير ما قالوا ونكشف إن شاء الله عما هوأروع وأنسب لكلام الله البديع . نقول: من المعلوم أن الله تبارك وتعالى أرسل رسلاً كثيرين، ونجد أسلوب القرآن البديع يختار وصفهم بالنذارة أولا **﴿إني لكم نذير مبين** ـ هود ٢٥﴾ ويسميهم نُذرا ﴿ **وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه** ـ الأحقاف ٢١﴾ فكأن الوظيفة الخاصة بالرسل هى النذارة، ولا يذكر البشارة إلا في مقامات أخرى يقرنها بالنذارة كما نرى في هذا الموضع، بينما نراه يقول في شيخ المرسلين سيدنا نوح عليه السلام **﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال ياقوم إني لكم نذير مبين** ـ نوح ١ : ٢﴾ نراه يقول في خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ. **﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يومنون** ـ يس

١ : ٧﴾ ويقول في أول سورة السجدة ﴿ **أَلَم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون** ـ السجدة ١ : ٣﴾ ويقول في سورة القصص ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ـ القصص ٤٦﴾ ويقول في سورة الحجر ﴿**وقل إني أنا النذير المبين** ـ الحِجر ٨٩﴾ .

فما هو سر هذا الوصف المخصص بالنذارة لرسله في كلام ربنا تعالى؟

يجب أن نبحث لنعرف السر في هذا الاختيار القرآني المتكرر في غير موضع. لم أر الجواب عن هذا فيما اطلعت عليه من التفاسير فاستمعوا إلى السر الذى فتحه الله لي لعله يكون فيه الشفاء بالجواب الكافي: إنه من المعلوم أن كل رسول إنما يرسل إلى قوم ضالين كافرين سادرين في غيِّ الشرك والجهالة وفساد الأخلاق، والظلم في المعاملات وسيئات الأعمال،فهم في الظلمات تائهون، فناسب إذن أن يكون الرسول الذى يرسل إليهم نذيرا والحالة هذه، ينذرهم من عواقب ما هم فيه من الغفلة والإعراض والظلم والإفساد، ففي مثل هذه الحالة يجدر ذكر الإنذار أولا،ويختفي التبشير هنا فكان من الطبيعي أن يقول لهم رسولهم إن ما أنتم عليه من الضلال والفساد يوجب عليكم نقمة الله وسخطه وعذابه، فاتقوا الله واتقوا عاقبة ما أنتم عليه وتلك هى النذارة .

وكذلك فعل رسول الله ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى ﴿ **وأنذر عشيرتك الآقربين** ـ الشعراء ٢١٤﴾ ونزل عليه قوله ﴿**ياأيها المدثر، قم فأنذر** ـ المدثر ١:٢﴾ فجمع قومه وعشيرته فقام فيهم خطيبا فقال : «ياقوم أريتم لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل خيلا مغيرة عليكم تصبّحكم أو تمسِّيكم ماذا تقولون؟ أكنتم مصدقيَّ ! قالوا ما جربنا عليك كذبة». قال لهم : «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فنطق بالنذارة كما أمره الله لأن حالتهم تدعو إلى النذارة، فالنذارة

هى الوظيفة الأولى للرسل كما هو نص القرآن وما فسر القرآن مثل القرآن فعلى ضوء هذا التحقيق نهتدي إلى سر الابتداء بالإنذار أولا ثم بعده يأتي التبشير لمن اتبع وسمع وأطاع، والإنذار لمن أعرض وتولى واتبع هواه وعصى، وهذا الإنذار الثاني له وقع خلاف وقع الإنذار الأول كما يظهر مما تقدم، فليس في التكرار إشكال، ولا تكرار في المعنى وإن تكرر اللفظ، والحمد لله على فتحه وهدايته.

ثم ننتقل إلى الآية التاليه :

﴿ ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبداً ﴾

يبشر رسول الله الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه أن لهم أجرًا حسنا ومثوىً كريما يمكثون فيه أبدا لا يبغون عنه حولا، يبشر المؤمنين الذين عادتهم وديدنهم أن يعملوا الصالحات من الفرائض والسنن والنوافل، أن لهم أجرا حسنا، جعل الله جزاءهم على إيمانهم وعملهم أجرا حسنا، نَكّرَهُ لتعظيمه ثم وصفه بالحسن، والحسن ما حسنه الله، ثم وصفه بالدوام والبقاء، ولا يعلم إلا الله مدى هذا الحسن وتمتع الماكثين فيه أبد الآبدين، والسر الأكبر في الخلود، فلو أن إنسانا خُيِّر بين قصر عظيم يسكنه لمدة قليلة ثم يخرج منه، وبين دار متواضعة يسكنها طول عمره ويمتلكها، لاختار الدار المتواضعة التي تكون ملكه وسكناه طول عمره على القصر الذى لا يستقر فيه، هذا إذا كان ما يدوم أقل قيمة مما يزول، فكيف إذا كان ما يدوم مقروناً بالحسن والجودة؟ لا محالة هو الكمال الذي يصبو إليه العاملون، فما قيمة عمر الإنسان في هذه الدنيا الفانية بالنسبة للأبد؟!

ثم ننتقل إلى آية الإنذار قال تعالى :

﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾

أمر نبيه ﷺ أن ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، وقولهم هذا من أقبح أنواع

الكفر وهـو شرك فظيع من أفظع أنواع الشرك وأشنعـه، وذلك أن نسبة الـولد إلى الله زيـادة على ما فيـه من الكفر والإشراك يستلـزم اتخاذ الصاحبـة، وهذه جـرأة كبيرة في حق ذي الجلال والإكرام ﴿ **أنى يكون لـه ولد ولم تكن له صـاحبة** ـ الأنعام ١٠١﴾ ﴿**وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا** ـ الجن ٣﴾ ذلك لأن اتخاذ الولـد يستلزم الزوجـة، واتخاذ الزوجـة شرك فظيع وشنيع وخسيس لأنه أمر يستلزم الشهوة البهيمية، وهذا أمـر يَجِلُّ عنه ربنا، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، ﴿**وقالت اليهود عزيـر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قـول الذين كفـروا من قبل قاتلهم الله أنى يـوفكون** ـ التوبة ٣٠﴾ وقالوا هـم وغيرهم من الكفار : الملائكة بنات الله . فنسبـوا الولد إلى الله وجعلوه أنثـى وهو ما يكـرهون، وليتهم جعلـوه مما يشتهـون وكل ذلك شرك وبعضـــه أشـد من بعـض، أنكـر الله عليهم كل ذلـك وحـاجهم بما يعلمـــون استحالته، ولا تقبله عقولهم وهو وجود الولد مع عدم الصاحبة ﴿ **أنى يكون له ولد ولم تكن لـه صاحبة** ـ الأنعام ١٠١﴾ ونفى عنه الصاحبـة والولد ونسبهم إلى الجهل والقـول بغير علم ﴿**مـا لهم بـه من علم ولا لآبـائهم**﴾ نفى عنهـم العلم، فهم يقولون ما لا يعلمون حقيقتـه ولا وجوده،ولا آباؤهم الذين يقلدونهم في هذا القـول يعلمـون ذلـك، ونفي العلم هنـا يعني نفي وجـود لا نفي علم فقط بل المدعى معـدوم فكيف يُعلم مـا لا وجـود لـــه ، وكـذلك ينفي الله علم الشريك والـولـد حتـى عن نفسـه ﴿**قل أتنبئـون الله بما لا يعلم في السمـوات ولا في الأرض** ـ يونس ١٨﴾ فالمقصود إذن من نفي العلم هنا هو نفى الوجود مطلقا .

﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾

ما أعظمهـا وما أفظعهـا كلمة تخرج من أفـواههم، صيغة تعجـب واستنكار لهذه الكلمة التى يتجـرأ مخلوق فيتفوه بها كفـرا وجهالة، وليتـه إذ جال في خاطره نوع من هذا الكفر كبته ولم يتفوه بـه، إذن يكون كفره هينا ولا يؤاخذه الله إذا كره ذلك من نفسـه،ولكنهم كفار جهلـة يجهرون بكفرهـم ويجادلون في الله بغير علم

ولا هدى ولا كتاب منير، إن هو إلا الهوى وتقليد آبائهم، ﴿**إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون** ـ الصافات ٦٩: ٧٠﴾ وما قولهم هذا إلا كذب وزور لا شيء فيه من حقيقة فهو كذب محض باطل كله، لا علم لهم به ولا وجود لما يقولون .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥

لعل هنا للتحذير من أمر واقع وهو الأسف وأمر متوقع وهو إهلاك النفس وراء هذا الأسف والحزن الشديد، لأن النبي ﷺ حزن حزنا شديدا ممزوجا بالغضب على قومه الذين لم يؤمنوا بالقرآن كلام الله الحق بعدما تبين أنه من عند الله، لأنهم عجزوا بعد التحدي أن يأتوا بسورة من مثله .

نهى الله نبيه أن يهلك أسفا على عدم إيمانهم، والبخع إجهاد الشيء وتحميله فوق طاقته، يقال: فلان بخع أرضه إذ أجهدها بالحرث في كل عام ولم يتركها تستريح وتسترجع قوتها، ونهي الله وتحذيره لنبيه فيه رأفة به وتسلية وتطمين بأنه قد بلَّغ ولم يقصِّر، لأن حزن النبي ﷺ على عدم إيمان قومه فيه إشفاق وخوف من أنه ربما يكون ذلك لعدم قيامه بواجب التبليغ كما ينبغي، فسلاه الله وطمأنه وقال له: لا تهلك نفسك ولا تقتلها أسفا فما عليك بعد أن بلغت ألَّا يؤمنوا فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ونفسك أعز عند الله من أن تهلكها على آثارهم أسفا .

وللمفسرين في قوله على آثارهم تأويلات، منهم من قال وراءهم أي بعد إعراضهم، ومنهم من قال بعد موتهم، والأمر أبسط من ذلك ونحن نعبر بلغتنا العامية فنقول: لا تهلك نفسك في جرَّتهم أى بسببهم، والجرَّة في لغتنا العامية هى أثر الأقدام في الأرض ونستعملها في مثل هذا التعبير للسبب والعلة، أي لا تقتل نفسك بسببهم لأنَّهم أعرضوا ولم يؤمنوا بهذا الحديث، والمقصود بالحديث هنا هو كلام الله،القرآن المنزل عليهم .

والأسف يكــون بمعنى الحزن ويكــون بمعنى الغضب وذلك في قوله تعالى ﴿**فلما آسفـونـا انتقمنـا منهم فأغـرقنـاهم أجمعين** ـ الزخرف ٥٥﴾ أي أغضبــونـا، ويــلاحظ أن الأسف يفسر بــالغضب إذا كــان من القــوي على الضعيف، أمـا إذا كان من الضعيـف على القوي فيكـون حـزنا، وإذا كـان من الأعلى إلى الأدنى ولا يقوى على الانتقام فهو حزن ممزوج بغضب كما في قوله تعالى في حق موسى عليه السلام ﴿**ولما رجع مـوسى إلى قــومـه غضبان أسفـا** ـ الأعـراف ١٥٠﴾ فهـو في هذا الموضع حزن ممزوج بغضب وحيرة على عدم إيمانهم بعدما قـامت عليهم الأدلة وسطعت الحجج على الحق الواضح، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء فـالأمر له وحده ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل** ـ النحل ٣٧﴾ .

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨

زين الله تعالى هذه الأرض بما أنبت عليها من الأشجـار وسائر النباتات وبما أجرى عليهـا من العيون والأنهار، والماء أصل الحياة، وبما ذرأ عليهـا من أصناف الحيوانات وبما خبأ فيهـا من المعادن وفى بحارها من الجواهـر واللآلى واليواقيت، فهذه الأخيرة وإن لم تكن على ظهـر الأرض فهي في قشرتها العليا، فكأنها عليها، ويستخرجهـا الإنسان فهى على الأرض زينـة، جعل الله مـا على الأرض زينة لها نعمـة للنــاس وابتـلاء لهم ليختبرهم أيشكــرون فيستعملـونها في طاعة الله، أم يكفــرون فيفتتنــون بها ويطغون ويستعملونها في محاداة المنعم بها عليهم بأنواع المعاصى والظلم، فيستحق المحسن الشاكـر ثواب الله، ويستحق المسيء الكافر عقاب الله، ومصير كل ذلك إلى الزوال والفناء .

﴿**وإنا لجاعلـون ما عليها صعيـدا جرزآ**﴾ الصعيد هو مـا صعد على وجه الأرض من ترابها وأحجـارها، والمراد هنا وجه الأرض الخالي من النبـات والزينة،

والجرز هو المحق والمحو، تقول: جرز الجراد الأرض، و جرزت الدواب إذا جردتها من كل حرثها ونباتها ولم تترك عليها من ذلك أثرا، وهذا الجعل الذي وعد الله به يقع في كل عام مرة أو مرتين، وفى كل مكان، كما ضرب الله ذلك مثلا للحياة الدنيا ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا** ـ الكهف ٤٥﴾ وهو ما نشاهده دائما من تقلب الأرض من حال إلى حال ولنا في ذلك اعتبار وذكرى تذكرنا بمصير زينة الحياة الدنيا .

وفى الآية تفسير آخر وربما يكون هو المقصود وهو حالة الأرض بعد فناء ما عليها يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴿**وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت** ـ الإنشقاق ٣ : ٥﴾ ذلك هو مصير الأرض الأخير فناء وزوال كل ما عليها ومن عليها، وفي تذكر الإنسان لهذا المصير موعظة له بليغة حتى لا يفتتن بما عليها من الزينة ويلهو عن النذر التي جاءته من قِبَلِ خالقه على يد أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وتلك هى المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أول السورة و إن اضطرب فيها المفسرون، أي في وجه المناسبة وذهبوا في التكلف مذاهب، وحوموا ولم يقعوا على وجه الصواب، وقد نظرت في التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى وفي تفسير الألوسى فوجدت تكلفا ظاهرا والمناسبة ظاهرة في غاية الوضوح .

من المعلوم أن الغرض من إنزال الكتاب على نبينا محمد ﷺ إنما هو التذكير والإنذار والموعظة وهي الوظيفة الأولى والأخيرة لجميع رسل الله عليهم السلام، فكان من المناسب جدًا أن يُخاطب المُنْذِرين والمُنْذَرِين بالغرض من خلق الأرض وتعميرها وتزيينها لهم وبمصير ذلك كله، فهو لرسله تسلية لهم وتزهيد لهم في زينة الحياة الدنيا وترغيب لهم فيما يبقى، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى مخاطبا نبيه محمدًا ﷺ ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة**

الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ـ طه ١٣١﴾ فهذا الخطاب صرف لنظر النبي ﷺ عن زهرة الدنيا وأصحابها وأن ذلك زائل لا بقاء له وأن ما عند الله لأوليائه خير وأبقى، هذا ما كان من مخاطبة الرسل والمنذِرين وأما ما كان من مخاطبة المنذَرين فوعظ لهم وزجر حتى لا يفتتنوا بزهرة الحياة الدنيا ويميلوا إليها فتصرفهم عن الإيمان بالله والاستعداد للآخرة كما هو حال أكثر الناس، يذكّرهم الله تعالى أن ما جعله الله من الزينة على ظهر الأرض إنما هو للإبتلاء والإختبار لاغير، وأن الذين حسبوه للتمتع مخطئون خاطئون، فهم يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير .

﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب** ـ آل عمران ١٤﴾ فلا تغرنكم أيها الناس زينة الحياة فإنها ستفنى قريبا ولا يبقى لها أثر، وما أعظم خسارة من آثر ما يفنى على ما يبقى، وما أعظم ربح من اشترى ما يبقى بما يفنى، فهو التاجر الرابح، تجارته لن تبور، ولا يوفق لهذا إلا من انتفع بكتاب الله القيم الذي أنزله رحمة للعالمين، أولئك الناجحون في الامتحان لم يفتتنوا بزينة الحياة الدنيا بل اشتروا بها الآخرة فكانوا أحسن عملا جزاؤهم عند ربهم أن لهم أجرا حسنا ما كثين فيه أبدًا، فالمناسبة متينة وواضحة بين هذه الآية وما قبلها من الآيات كما ترون، والابتلاء المذكور في الآية هو إظهار علم الله في خلقه فالله عليم بما يصنعون قبل أن يصنعوه ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ـ الملك ١٤﴾ فمن ظن غير ذلك فقد ضل وجار عن القصد، لا إجبار ولا إنكار لعلم الله وقدره وعدله في خلقه، يُضل من يشاء ويهدي من يشاء ومن ضل منهم فإنما يضل على نفسه وبنيته وبمحض اختياره ومن اهتدى فبفضل الله وتوفيقه ﴿**وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ـ الأعراف ٤٣﴾ فإذا ظهر من الناس ما علمه الله منهم بعد البيان والاختيار قامت حجة الله عليهم، لا سيما وقد أخبرهم بهذا الابتلاء قبل وقوعه،

وهذا تفضل منه وإعذار ولو شاء ما فعل، لو شاء ربنا لابتلى خلقه بما يريد من غير أن يخبرهم بذلك، ولكان ذلك عدلاً لا ظلم فيه، ولكن الله كتب على نفسه الرحمة فأخبرهم حتى يستعدوا ويصلحوا من أحوالهم كي ينجحوا في الامتحان، وفتح باب التوبة واسعا يسع الذنوب جميعا، فما أعظم رحمة الله وما أوسع فضله، فلا يحرم منه إلاّ شقي.. نعوذ بالله من سوابق الشقاء، أفيظن بعد هذا عاقل أن الناس خُلِقُوا عبثا ويتركون سدى وأنهم لا يفتنون أم يستبعدون البعث والنشور يقولون: ﴿**ذلك رجع بعيد** ـ ق ٣﴾ إن الذي أنشأهم أول مرة هو الذي سيعيدهم وما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، ولحكمة خلقهم ولحكمة يعيدهم ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

ثم يذكرنا الله بقصة فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى وربط على قلوبهم وتقبلهم قبولا حسنا لعلنا نقتدي بهم ونسعى مثل سعيهم وهؤلاء هم أصحاب الكهف والرقيم الذين آمنوا بربهم ونابذوا قومهم المشركين وهجروهم إلى الله فآواهم الله إليه وجعلهم في حصنه الحصين وحرزه المكين .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠

قبل الشروع في بيان هذه القصة العجيبة الجارية على أسلوب القصص القرآني في إبداء مشاهد العبر من القصة الطويلة لأن هذا الكتاب نزل للتذكير والاعتبار لا للتسلية بحكايات القصص بتفاريعها وجزءياتها، قبل الشروع في بيانها ينبغي أن نعلم وجه المناسبة بينها وبين ما قبلها وما الحكمة من إيرادها في هذا المقام، ولتقريب ذلك يجب أن نعلم سبب نزول هذه الآيات وما اكتنفها من الظروف وبهذا يظهر تمكنها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها .

﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا**﴾ ، أما الكهف فهو الغار الكبير في الجبل، وأما الرقيم فاختلف فيه المفسرون، فقال قوم

اسم كلبهم، وقال آخرون اسم بلدتهم، وقال آخرون غير ذلك. والذي نراه أخذا من مادة الرقم وهو الكتابة والنقش، أنه اسم لوح كتبت فيه قصتهم وأسماؤهم، قيل ووضع ذلك اللوح على باب البلد على عادة القدامى يخلدون أخبارهم في النقوش والألواح يرقمونها فيها رقما، وهذه الرواية هي الأنسب بالإسم .

أحسبت يا محمد وتالي القرآن أن قصة أصحاب الكهف كانت عجبا من آياتنا، إن آيات الله كلها لعجيبة وإن فيها ما هو أعجب من أصحاب الكهف وإن كان قريش قوم النبي ﷺ جعلوها علامة على صدق النبي ﷺ وأنه رسول إن أجاب عنها، وإن لم يجب عنها فليس برسول، ولقد أجاب عنها، وما نفعهم ذلك بل أمعنوا في الكفر والضلال، ولو أنصفوا لعرفوا الحق قبل هذه القصة وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يجحدونه، ولقد اشتدوا في معارضته وحاولوا إعجازه ومن ذلك أنهم أرسلوا من فتيانهم شابين من أهل المكر والدهاء وهما النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط أرسلوهما إلى المدينة حيث اليهود أهل الكتاب يعلمون أخبار النبوات الأولى يسألونهم عن حقيقة هذا الذي يدعي أنه نبي ورسول، ما آية صدقه؟ فقال لهم اليهود: إسألوه عن ثلاثة أشياء إن أجاب عنها كلها فليس بنبيّ، وإن لم يجب عنها وعجز عنها فليس بنبي، وإن أجاب عن بعضها فهو نبيّ، وقد تقدم بيان هذا السبب في تفسير سورة الإسراء .

اسألوا عن خبر فتية ذهبوا قديما إلى غار في جبل فضرب الله على آذانهم قرونا ثم بعثهم وكان من شأنهم ما كان واسألوه عن رجل طوَّاف طاف الأرض حتى بلغ مغرب الشمس ومطلعها وبلغ بين السدين، واسألوه عن حقيقة أمرِهِ، فسألوه عما أمروهم وظنوا أنهم بهذا يعجزونه ويظهرون عليه، فلما سألوه قال لهم سأجيبكم غدًا، ولم يقل إن شاء الله، فتأخر عنه الوحي خمس عشرة ليلة حتى ذهبت به الظنون مذاهب، وما ذلك إلا تأديبا له من ربه حتى يرد أمور الغيب كلها إلى مشيئة الله، وما كان تأخر الوحي عنه بِمُغْضٍ من مقامه وصدق رسالته،

وإن كان قومه سروا بذلك وذهبوا يرجفون بالخبر، يحاولون تشكيك الضعفاء في نبوته، فقطع الله حجتهم بالجواب الشافي الذي نزل به جبريل عليه السلام على قلب النبي ﷺ فأخبرهم بخبرهم على طريقة القصص القرآني البديع في استخلاص مشاهد العبر والموعظة من القصة لا على طريقة سرد القُصَّاص الذين يملأون الفراغ لتسلية الناس لا غير.

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم﴾

نحن نقص عليك يا محمد الرسول المبعوث بالحق نبأهم بالحق إنهم فتية شباب آمنوا بربهم فزادهم الله هدى، وقوّى قلوبهم وثبتهم على الإيمان، وكذلك يزيد الله الذين اهتدوا هدى ويؤتيهم تقواهم ويثبتهم، إنهم فتية شباب أعلنوا إيمانهم بالله الواحد،وأووا إلى كهف في الجبل فرارًا من بطش قومهم الكفار وملكهم الجبار، ولجئوا إلى ربهم الذي آمنوا به وحده متضرعين إليه بالدعاء الخالص،وكذلك يفعل المؤمنون.

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾

دعاء بليغ ألهمهم الله إياه لأنه أراد بهم خيرًا . إن حالتهم عجيبة فقد فروا من الملك وقومهم الكفار إلى هذا الغار الكبير في الجبل، وهم يجهلون عاقبتهم ولا يدرون بعد هذا الفرار مصيرهم، ولم يكونوا خططوا لفرارهم هذا من قبل، ولا رسموا بعده خطة يسلكونها، وذلك حسبما يبدو من دعائهم هذا، وهم يعلمون أن قومهم سيتقصون آثارهم، فكيف يكون المخرج من هذا المأزق؟ وكيف يصدرون من هذا المورد الذي وردوه من غير اختيار؟ إلا أنهم أُلجئوا اليه إلجاءً فوكلوا أمرهم إلى خالقهم الذي هداهم ورغبوا إليه أن يهب لهم من لدنه رحمة ويهيء لهم من أمرهم رشدا، رغبو إلى ربهم أن يهب لهم من لدنه رحمة وهم أمس الناس حاجة إلى رحمة الله تغمرهم، ومَنْ غير الله يرحمهم في حالتهم هذه ولذلك سألوها من لدنه.

ورحمة من لدن رحيم تكون عظيمة وشاملة، والهدية على قدر المُهدِي .

فاستجاب الله دعاءهم وغمرهم برحمة الدنيا ورحمة الأبد وهيأ لهم من أمرهم المبهم الرهيب رشدا، ولم يكونوا هيئوا له خطة قبل فرارهم هذا فالتجأوا إلى العليم الخبير أن يُهَيِّئَ لهم من لطفه وقدرته رشدا يصيرون فيه إلى العاقبة الحسنى، فكان الله عند ظنهم،وكذلك ينجّي الله المؤمنين به ويجعل لهم من أمرهم يسرا، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه عاقبة الأمور.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

هيأ لهم ربهم من لطفه رشدا فضرب على آذانهم حجابا من النوم يحجب عنها كل أصوات الدنيا حتى يناموا نوما هنيئا يخرجهم من عالمهم المليء بالهواجس والمخاوف إلى عالم كله سبات وراحة، ورد عنهم أيدي الظالمين وحجبهم عن أعين الطالبين وأطال نومهم هذا سنين طويلة حتى تغير أمر قومهم وسلطانهم، ثم بعثهم بعد نومهم ليظهر أمر الله العجيب في إنامتهم هذه المدة الطويلة التى لا يعتادها النائمون، وحفظ أجسادهم من التآكل والبلى.

ويظهر أمر الله العجيب في بعثهم بعد نومهم الطويل الذي يشبه البعث بعد الموت ليظهر العلم الحقيقى من الله بهذه المدة الطويلة ومقدارها، والناس يختلفون كثيرا في أبسط من هذا فنصب الله العليم لمدتهم علامة وهي هذه العملة التي نقشت باسم ملك زمانهم، ولذلك ذكرها الله نصا في نبأهم منها يتضح للناس مقدار مدة لبثهم التي أخبر الله عنها بالنص وهى ثلثمائة سنين وزيادة تسع سنوات، وهى الفرق ما بين الحساب القمري والحساب الشمسي جعلها الله ثلثمائة بالحساب الشمسى حتى يستيقظوا في نفس الطقس والفصل الذى ناموا فيه ولا يتغير عليهم الجو فيظنوا أنهم ناموا يوما أو بعض يوم ثم بعد ذلك يظهر لهم الفرق الكبير كما سيأتي في الآيات التالية.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾

النبأ هو الخبر الذي له شأن وقيمة وهذا كذلك لأن فيه أمرا عجيبا من آيات الله وفيه معتبر وموعظة للمتقين، نحن نقص عليك نبأهم بالحق بما هو الصدق واليقين، وبطريقة الحق التى جاء بها القرآن في إيراد القصص مورد الاعتبار، لا مورد التفكّه والتسلية، كما اعتاد القصاصون، أما كلام الحق فهو حق لا باطل فيه ولا لغو ولا فراغ بل هو القول الفصلُ، تنزيل من حكيم حميد، وفي العبارة إشارة لطيفة إلى أن القُصَّاصَ قد زادوا في القصة وحَرفوا وغيروا كعادة أكثرهم، فجاء النبأ الحق من لدن عالم الغيب والشهادة يقول الحق جل جلاله.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

إنهم شباب ويقال إنهم من أبناء الأغنياء والخاصة، هداهم الله وهم في سن الشباب والفتوة وثبتهم على الهدى على دين المسيح عليه السلام وشريعته، وربط على قلوبهم أي ملأها قوة وشجاعة لم يهابوا الملك حين صارحوه بعقيدتهم في ربهم بكل إيمان وثبات، ويقال إنهم من مدينة تسمى «أفسُوس» وأكثر المفسرين أنها المدينة المشهورة اليوم باسم «طرسوس» وهى مدينة قصدها الملك في بعض رحلاته التى تحرك إليها ليفتن الناس وينظر هل يعبدونه ويعبدون آلهته أو هم على دين المسيح وكان في المدينة مؤمنون على دين المسيح يكتمون إيمانهم ومنهم هؤلاء الفتية الأبرار، ولم يكن بعضهم يعلم ببعض حتى هيأ لهم من لطفه فرصة يتعارفون فيها ويطلع بعضهم على حقيقة البعض الآخر، وذلك في عيد من أعياد قومهم الدينية التى اعتادوا فيها أن يخرجوا كلهم من مدينتهم ويتقربوا إلى آلهتهم بالقرابين ويذبحون لها ويقدّمون لها من طعامهم، فخرج الناس ولم يتخلف عنهم إلا المؤمنون المسترون، ومن هؤلاء المتثاقلين وراء الناس هؤلاء الشباب، كل واحد على حاله، جلس أحدهم في ظل شجرة يتفكر أسفا في حالة

قـومـه الضالين، فـرآه الثـاني وظن أن الـذي قعـد به عن النـاس هـو نفس الهم والأسف الــذى في قلبه فتقدم منه فتعارفا وتصارحا وبث كل منهما لأخيه ما في قلبه، ثم جاء الثالث فالـرابع إلى تمام عدتهم التى يعلمها الله، فبث كل منهم ما في نفسه فإذا هـم على دين الواحـد الأحد الإلـه الصمد الـذي لم يلد ولم يـولد ولم يكــن له كفؤا أحد، فاتخذوا لأنفسهم مكانا سِريا يخلون فيه لعبادة ربهم فكانوا بعـد ذلك يجتمعـون مستخفين من قـومهم، ولم يمض عليهم وقت طـويل حتى حانت رحلة الملك الجبار ولم تسلم مدينتهم من فتنته فدخلها وأقام لهم مهرجانا دينيــا أمر جميع النـاس بالخـروج فخـرجـوا وجعلت جواسيس الملك يتعقبـون المتخلفين ويفضحـون أمـرهم للملك فيقتل مـن يشـاء ممن يأبى عبـادة آلهتـه، ويسـجن ويعـذب من يشاء منهم، حتى رفع إليه أمر هـؤلاء الفتيـة فجيء بهم إليـه فلما مثلوا عنـده فـرض عليهم أن يسجدوا لآلهتـه، فأبـوا ذلك وقالـوا ﴿**لن ندعو من دونه إلهًا لقد قلنا إذن شططا**﴾ فغضب الملك وهددهم بالتعذيب والقتل فاصروا على الثبات على عقيدتهم فعـزم على قتلهم لولا أن بهره ما رأى من هيئتهم الحسنـة وغضارة شبـابهم ونضـارة وجوهـهـم فأشفق على هذه الغصـون الطــريـة أن تهصر في صبــاهـا فأمهلهم أيــامـا ليتفكــروا في أمرهم وظن أنهم سيرجعون عـن دينهم الجديد إلى وثنية أجـدادهم الموروثة، ومـا درى الجاهل أن بشاشـة الإيمان إذا خالطت القلوب لن تـزايلها وأنها لن يثنيها عن دينهـا تهديد بالقتل والصلب أو التعذيب، فسلموا أمـرهم لله الذي ربط على قلوبهم وزادهم الله هـدى وثبتـوا على إيمانهم ولم يرهبـوا من تهديـده إيـاهم، فتركهم وخـرج إلى مـدينة أخـرى على أن يرجع إليهم بعـد أيام، وقيل إنـه أمر أن يجردوا من ثيـابهم. الحسنة وأن تنـزع منهم خواتمهم الذهبية وزينتهم إهـانة لهم، ومن لطف الله بهم أنه لم يقيـدهم ولم يسجنهم وتركهم أحـرارا وأمهلهم ليتفكروا في أمرهم. فجلسوا يتفكرون في طـريقة تنجيهم منّ هذا الجبـار الذي لا يرحم، فاهتـدوا أن يفروا في وقت يغفل فيـه النـاس إلى غـار في جبل من الجبال القريبة من مدينتهم، ففعلوا

ذلك بعدما جمعوا لهم شيئا من المؤونة لا يكفي إلا لأيام قليلة. كان هذا قرارهم فمضوا فيه قائلين :

رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

والشطط القول البعيد عن الحق الذي لا يفوه به عاقل لبيب ولا ينطق به إلا من أعمى الله بصيرته، فلم يعد يبصر الأشياء على حقيقتها وأعماه التقليد فهو في ضلاله يعمه من غير سلطان بيّن، قالوا ربنا الذى خلقنا وخلق السموات والأرض هو الذى نعبده وحده،وندعوه وحده لن ندعو من دونه إلهاً آخر.إننا إن فعلنا ذلك نقول إذن باطلا وزورًا تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيرا .

هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

إن قومنا هؤلاء يعبدون آلهة من دون الله خالق السموات والأرض ما لهم بها من سلطان بيّن بل هم يفترون على الله الكذب، ولا أحد أظلم ممن افترى على الكذب،تبرأنا منهم ومن عبادتهم وبدا بيننا وبينهم العداوة والبغضاء وانا إذ اعتزلناهم في عبادتهم ونبذنا شركهم فلنعتزلهم في سكنهم ولا نخالطهم، ولنأو إلى الكهف لعل الله يرحمنا ويهيء لنا من أمره مرفقا، أحسنوا الظن حين أحسنوا العمل فكان الله عند ظنهم فلم يخيبهم فنشر الله لهم رحمته وهيأ لهم من أمرهم رشدا ومرفقا وكذلك ينجي الله المؤمنين ويجعل الله للمتقين مخرجا من كل ضيق ويفتح بينهم وبين قومهم بالحق وهو خير الفاتحين.

أخذ كل منهم مقدارا من الدراهم وكانوا أولاد أغنياء فذهبوا في الموعد المضروب إلى المكان المقصود خرجوا مستخفين لا يشعر بهم أحد إلا كلباً لأحدهم كان قد رباه وألفهم فتبعهم فطردوه ورموه بالحجارة فأنطقه الله قال لهم: ما الذي يخيفكم منّي اتركوني اتبعكم فإني أحبكم يا أولياء الله اتركوني

أحرسكم، فتركوه، والعبرة من أمر هذا الكلب أن رفيق أولياء الله لا يشقى ولو كان كلبا وأن محبة الرحمن وأولياء الرحمن ترفع مقام الكلاب فتدنيهم من رحمة الله مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

مضوا سائرين وكلبهم يتبعهم حتى وصلوا إلى الكهف المقصود فأووا إليه ومكثوا فيه أياما يعبدون الله يصلون له ويسبحون ويصومون ويفطرون على بُلْغة الأقوات و إذا نفذ زادهم بعثوا أحدهم إلى المدينة مستخفيا في ثياب أحد الرعاة يشتري لهم طعاما، ويتنطس لهم الأخبار، وهم على ذلك حتى رجع الملك من جولته ودخل المدينة ثاني مرة واقترب الموعد المضروب لهم، ففتش عنهم فلم يجدهم، وأمر بإحضار آبائهم فأمر الآباء بإحضار الأبناء وتوعدهم بالعقاب إن لم يفعلوا، فاعتذروا بأنهم لا يعلمون من أمرهم شيئاً وأنهم متحيرون على مصيرهم وأنهم آسفون غير راضين على هذا التصرف، وقد يكون هؤلاء الآباء من الذين يكتمون إيمانهم وأنهم راضون على أبنائهم داعون لهم بالرحمة والتوفيق، ثم إن الملك أمر قواته بالتفتيش عنهم فسلكوا في ذلك كل سبيل وصعدوا الجبال وتتبعوا كهوفها وشعابها حتى عثروا على الكهف الذي أووا إليه ووقفوا على بابه وأبصروهم وهم رقود وكلبهم باسط ذراعيه نائم بباب الغار ولكن الله إذا أدخل مَنْ يشاء مِنْ عبيده في حرزه فلن تناله الأيدي ولو كانت بطّاشة وقوية، حفظهم بحفظه وحرسهم بجند من الرعب ألقاهُ في قلوب كل من يطلع عليهم، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فتولى الملك ومن معه فارين مرعوبين لا تنفعهم قوتهم ولا يغني كيدهم شيئا .

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم

بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾

يخاطب الله نبيه وتالي القرآن كأنه يراهم ويشاهد آياته فيهم، ذلك لأن أسلوب الخطاب أشد تأثيرا في النفس، فرؤيتها وهي تسمع كلام الله الصادق رؤية اعتبار وإيمان، فكأن الله يرسم لنا لوحا لهيئة كهفهم واتجاهه، ويبدو أنه يتجه نحو النجمة القطبية أي نحو الشمال حتى تكون الشمس تميل عند طلوعها عن يمين الكهف وتقرضهم عند غروبها أي تقطعهم ذات الشمال ويمين الكهف هو يمين الواقف على بابه متجها نحو خارجه وشماله، كذلك وهم في فجوة منه أي في براح واسع لا يزحم بعضهم بعضا، كل ذلك وما تقدم من شأنهم وما سيأتي في الحديث عنهم من آيات الله التى تملأ النفس والقلب إيمانا بالله وقدرته ورحمته بأوليائه ولطفه بهم .

﴿**من يهد الله**﴾ من يرد الله هدايته فهو المهتدى حقا ومن يضلل ويخذل فلن تجد له في أهل السماوات ولا في أهل الأرض وليا يرشده، فالمهتدي من هداه الله والضال من أضله الله ولم يرد هدايته، فاجعلنا ممن هديت ياهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

﴿ **وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾

فهيئتهم وهم نيام كهيئة الأيقاظ على هيئة حسنة لا تنكشف لهم سوءة ولا يبدو فيهم شعث وهم يتقلبون بأمر الله حتى لا تتآكل جنوبهم من هذا الرقاد الطويل ولا يضرهم حر ولا قر ولا ريح صر، وحتى كلبهم شملته عناية الله ولطفه وهو الآخر آية من آيات الله ينام هذا النوم الطويل باسطا ذراعيه على باب الغار يحفظه الله كما يحفظهم من تقلبات الأجواء الجبلية عبر الفصول المتعاقبة، من يراه باسطا ذراعيه يرهبه ويظنه أسدا ترتعب منه النفوس، وترتعد منه الفرائص فيولي فارًا بنفسه خائفا، فيا لعناية الله إذا لحظت من يريد من عبيده، فهو الآمن لا تناله

المزعجات، ينام مطمئنا ولا تزعجه الليالي التي هي بالعجائب حبالى مثقلات ولا يبليه كر القرون المتعاقبات، تلك آيات الله الهاديات.

ولنرجع إلى التأمل في أسلوب القرآن وعرضه للقصة فهوأسلوب بدْع من الأساليب وكلام فيه روح الدعوة والتذكير لا كسائر الكلام، إذ كلام غير الله لسرد القصة سردا متتابعا خاليا من الروح، أما كلام الله ففيه العجب العجاب الذي لا ينقضي ولا يبلى على التكرار بل لا يزداد إلا علوا وتمكنا وحلاوة في قلوب المتدبرين، فهو في أثناء الكلام عن هيئتهم وحالتهم يلفتنا إلى آيات الله فيهم حتى لا ننسى المقصود من عرض نبأهم وهو الاعتبار والاهتداء، ويتبين لنا على ضوء هذا البيان القرآني العجيب أن الناس في كل زمان ومكان على فريقين شتان ما بينهما: فريق يتولى الله هدايته فهو المهتدي، وفريق يخذله الله ويتركه وما اختار لنفسه من تقليد الآباء والأجداد، لا ينظر في آيات الله بالعقل الذي وهبه الله إياه، بل يعمى عنها ويتصامم عن النذر كأن في أذنيه وقرا فهو في الضلال يعمه لن تجد له وليا مرشدا ولو حرصت على هدايته، ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ـ القصص ٥٦﴾، ثم يستأنف ويعود إلى بقية الحديث في موضوع قصتهم فيعرض منها المشاهد الباقية التي لها اتصال وثيق بالموعظة والاعتبار كما تقدم بيانه، ثم لننتقل إلى المشهد التالي وهو استيقاظهم بعد نومهم الطويل وما جرى لهم فيه. قال الله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ
قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن
يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا
أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم

بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم
مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم
مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا

وكـذلك مـن آيـات الله العجيبـة بعثهم من نــومهم على هيئتهم الأولى من الصحة والنضارة والشبـاب بعد هذه القرون المتعددة، لم ينل الـدهر منهم شيئا، فـذلك من آيات الله وحكمـة هذا البعث أن يشعـروا بلطف الله بهم واستجابتـه لدعـائهم وليـزدادوا إيمانا على إيمانهم بعـد أن يعرفـوا قدرة ربهم وعنـايته بهم في إنامتهم هذه المدة الطـويلة، وبعثهم منها فيزدادوا يقينـا بالبعث، وكذلك يثبت الله الذين آمنوا بـالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة، كما طمأن قبلهم قلب خليلـه إبـراهيم في قضيـة البعث بعـد الموت، والقصـة مشهـورة وهي في سـورة البقرة، فالقصـد من هذا البعث الأول إذن هو التذكير بالبعث الآخـر، ليتساءلوا بينهم، ثم تنكشف لهم الحقيقة بعـد التساؤل. استيقظُوا من نـومهم قُبيل غروب الشمس وكــانـوا قد ناموا في صدر النهار فشعروا بالراحة فظنوا أنهم ناموا أكثر من يوم وقـال بعضهم بعض يوم أي من الصباح إلى المســاء، غير أنهم لم يطمئنوا لهذا القـول وبقــوا حـائرين في أمرهـم لا يدرون الحقيقة ولن يتركهم الله في هذه الحيرة، بل سيكشف لهم جلية أمـرهم. فأرسلوا واحـدا منهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاما وأوصوه أن يتلطف ولا يشعرن بهم أحـداً من الناس ظنا منهم أن أهـل المدينة هم الذيـن تركوهم في غلبة وقهـر من الكفر فخافوا إن هم ظهروا عليهـم ــ أي كشفـوا على أمرهم ــ سيرجموهم أو يعيـدوهم في ملتهم، أي في ملة الكفر بـالاكـراه والفتنة ولا يَأمَنُـونَ على أنفسهم الفتنـة فإنهم إن يفتنـوا على دينهم لن يفلحوا أبدا، والذي خافوه من العودة في الكفر أعظـم من الذي خافوه من الرجم والقتل، فإنهم علقوا الخسران الـدائم وعدم الفلاح على الثـاني لا على الأول، وما دروا أن الله قد هيأ لهم من أمرهـم مرفقا كما هيأ لهم من أمرهم رشدا.

بعثوا أحدهم بدراهم فضية من بعض ما احتفظوا به لِقُوتهم وأمروه أن يقتصد ويلتمس لهم من أزكى الطعام ومن أبركه وأرخصه وأطهره لأنهم عهدوا أن أهل مدينتهم يذبحون لأصنامهم وقد علموا أن ما ذبح عليها حرام في شريعة الله التي آمنوا بها، أرسلوه وأوصوه أن يبالغ في التلطف.

فذهب إلى المدينة فإذا الناس غير الناس الذين تركهم تغيرت الوجوه وتغيرت كثير من المعالم حتى ظن أنه ضل طريقه، فسأل عن اسم المدينة فإذا هو «أفسوس» لم يتغير فاستغرب أمرهم فسأل عن الملك فإذا هو اسم جديد وسأل عن اسم الملك المعهود فاستغرب الناس وقالوا ذلك ملك مضى، ومضى زمانه، وطوته القرون فلم يبق له أثر فإذا ملكهم مؤمن، ثم إنه قصد السوق ليشتري الطعام فلما ناولهم دراهمه قالوا هذه دراهم مضى زمانها فلم يعد لها وجود، فاجتمع عليه الناس وكثر التساؤل وظنوا أنه اكتشف كنزا قديما فاشتد طمعهم أن يقفوا على هذا الكنز، وبعد المحاولة ارتفع أمره إلى أهل السلطة فأقبلوا عليه يسألونه عن جلية أمره فأخبرهم وقد اطمأن على نفسه لما وجد أكثرهم مؤمنين ويحكمهم ملك مؤمن.

وقد كثر الجدل في زمانه في أمر البعث فاعتزلهم الملك ولبس مسوح العبادة، فرغب إلى الله أن يثبّته ويعينه عليهم، فأرسل الله له هذا الشخص من أهل الكهف الذين كثر فيهم الجدل ليظهر الله له على يده أمر البعث وتظهر آية الله في نوم هؤلاء الناس قرونا عديدة ثم يبعثون على حالتهم الأولى، ليدل نومهم وبعثهم على قدرة الله .

وأمر عجيب كهذا الأمر، يدل على صدق أخبار الرسل، وإذا ظهر أمر الله في جماعة دل تحققهُ في جميع الناس، وبعث في الدنيا مثل هذا البعث يدل على البعث الآخر بعد الموت والله على كل شيء قدير.

﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾

العثور على الشيء هو الوقوف عليه فجأة ومن غير سابق معرفة به، كذلك أعثر الله الناس على هؤلاء الفتية الذين ناموا قرونا واستيقظوا فكان نومهم الطويل وبعثهم آية على ما آمن به الملك. وأغلب الناس من رعيته من آمن بالبعث يوم القيامةللجزاء، فعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله الذي بعث أهل الكهف يبعث من في القبور. فانحسم النزاع وأفلجت حجة المؤمنين وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

ثم إنّ الملك ورعيته رافقوا ذلك الرجل إلى الغار حيث يثوي أصحابه فوقفوا بباب الغار ودخل هو على أصحابه فأخبرهم الخبر وازدادوا إيمانا بما شرح الله له صدرهم من أمر الساعة والبعث والجزاء، ثم إن الله أعادهم إلى نوم آخر وهو النوم الذي لا بعث بعده حتى تقوم الساعة، قبض الله أرواحهم إليه وآواهم إلى رحمته وجعلهم آية للناس فوقع فيهم نزاع بين الناس.

﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾.

لايزال النزاع قائما إلى يوم الناس هذا في أمر أصحاب الكهف في موطنهم وقومهم وفى عدتهم ونومهم، وكذلك تنازع الناس الذين وقفوا على كهفهم ومرقدهم، حين ضرب الله على آذانهم الكرة الثانية فمن قائل ابنوا عليهم باب الكهف ربهم أعلم بحقيقة نومهم الأول والثاني، وهو أعلم بعاقبتهم ومصيرهم.

وإضافة الرب إليهم إشارة إلى أن قائلي هذا القول مؤمنون وموالون لهم وواثقون أن الله سيتولى أمرهم كما تولاه من أول يوم وأكرم مثواهم، ولا يكون مصيرهم بعد نومهم الثانى إلا حسنا،فهؤلاء ناس فازوا بمعيّة الله وهذا ما تدل عليه كلمة ﴿ربهم﴾، وقال الذين غلبوا على أمرهم وهم الملك ووزراؤه وأعيان القوم لنتخذن عليهم مسجدا يصلي فيه الناس ويذكرون الله ويتخذونه عيدا، والفرق بين العبارتين يدل أن هذا هو الذي وقع فعلا فإن ضعفاء الناس

اقترحوا رأيهم اقتراحا ولم تكن لهم قوة التنفيذ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا، أما الغالبون فقرروا رأيهم قرارا قالوا لنتخذن عليهم مسجدا فكان قرارهم هو النافذ، ثم إن النزاع وقع فيمن علم بأمرهم بعد زمانهم، تنازعوا في عددهم.

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾

تنازعوا في عدتهم والنزاع مستمر، سيقول الناس هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، ويقولون هم سبعة وثامنهم كلبهم، أخبرالله تعالى بتنازع الناس فيهم ولم يحسم النزاع جريا على أسلوب القرآن الفصل الحكيم، لأن الحكمة لا تتعلق بذكر عدتهم قلّت أو كثرت، فالتنازع في هذا لا يفيد وهو من ترف العلم وإن كان المتأمل في الآية يلاحظ أن العبارة تشير إلى أن القولين الأولين من الرجم بالغيب وتعرض عن القول الثالث، ولا تنفي العلم بعدتهم عن جميع الناس بل تثبته للبعض، ولذلك يقول ابن عباس أنا من القليل الذى يعلمهم، هم ثمانية، ولابن عباس وجهة نظر ولهُ معتمده في استدلاله على صحة قوله، وهو ترجمان القرآن آتاه الله الفهم وعلمه التأويل، ويؤيد ابن عباس في رأيه هذا كثير من العلماء، واستدلوا بأدلة بسطها الإمام الفخر الرازي في تفسيره، والحكمة تتعلق بما قص الله عنهم لا بما طوى من أمرهم، ولذلك نهى نبيه أن يجادل فيهم الناس إلا جدالا بسيطا، والمراء ممقوت عند الله.

﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾

فلا تجادل في أحوال أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا إلا لحاجة فيه ولا تستفت فيهم من أهل الكتاب أحدا إنهم لا يعلمون تفاصيل أمرهم، وقد علمك الله من أمرهم ما تقيم عليهم به الحجة، وتجلي به العبرة، وفى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما القول فيهم بغير علم فهو رجم

بالغيب، شبهه الله بالرجم، ورمي الشيء بالغيب وهو لا يراه يذهب طائشا لا يصيب الغرض، فما أبين هذا التشبيه وما أدله على المقصود، وفيه تقبيح لكل كلام بغير علم ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم- الإسراء ٣٦ ﴾ ، ثم إن الله علّم نبيه وكل من يقتدي به إلى كلمة هى من حسن الادب مع الله عالم الغيب والشهادة مقدر الأمور بمقاديرها ومواقيتها، فقال جل من قائل:

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

إرشادات وتوجيهات من الله العليم الحكيم تأتي في نواهٍ وأوامر حكيمة يوجهها الله تعالى إلى نبيه ﷺ ولكل قاريء للقرآن من أمته هي الهداية لهم وهي التي توجب لهم من الله الرحمة وحسن العواقب في الدنيا والآخرة.

جاء هذا النهي مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة لأهميته وتأكد الأخذ به، ذلك لأن عواقب الأمور كلها بيد الله تعالى والمخلوق لا يملك منها شيئا ولو كان نبياً من أنبيائه وهو أولى الناس أن يتأدب مع الله فلا يقول لشيء أراد أن يفعله غدا أو بعد حين إني فاعل ذلك إلا أن يشاء الله فيعلق الأمر بمشيئته تعالى إيمانا ويقينا أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما.. وهكذا يؤدبنا ربنا تعالى ويعلمنا ما ينفعنا ويحسن عواقبنا في الدنيا والآخرة .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾

ذلك لأن النسيان طبع في الإنسان لا يسلم منه أحد فأمرنا عندما ننسى أن نذكره حين نتذكر ولو بعد حين، وذكر الله نور لنا وحصن حصين من عدونا الشيطان الرجيم.

﴿ وقل عسى أن يهديني رَبّي لأقرب من هذا رشدا ﴾

أكثـر المفسرين جعلـوا دلالـة اسم الاشـارة ﴿هـذا﴾ على حـال أصحـاب الكهف أو آيتهم العجيبـة، فقال بعضهم معنـاها: عسى أن يهديني الله لأقـرب من حال أصحـاب الكهف في الهداية والـرشد، وقـال آخرون معنـاها: عسى أن يـؤيـدني الله من المعجـزات والآيـات بما هـو أقـرب من آيتهم رشـدا وأدل على صدق نبوءتي ورسـالتي، وكأن هذا عود على بدء حيث يقول ربنـا تبارك وتعالى: ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا**﴾ .

إن عنـد الله من الآيـات البينـات ما هـو أقـرب رشدا وأهدى للحق من آية أصحاب الكهف، وحملـوا معنى إسم الاشارة (هـذا) هنا على هـذا المعنى، وقال غيرهم بغير هذا التأويل واضطـربوا كثيرا في تفسيرها . ولكن يبدو أن في كلامهم شيئـاً من التكلف، والذي يظهـر لي من معناهـا ـ والله أعلم ـ وهو الأقـرب إلى الصواب في نظـري أن معناها يـرجع إلى أقرب آيـة تليها والتي هي توجيـه رشيد من ربنا، وتأديب حسن منه لنبينا ولنا جميعا .

﴿ **ولا تقـولن لشيء إني فـاعل ذلك غـدا إلا أن يشـاء الله واذكـر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لاقرب من هذا رشدا** ﴾

إذا عـزمت أيها المؤمن على عمل فتـوكل على الله واعلم أن مقـاليد الأمـور كلها بيده وهـو العليم بعواقب الأمور وإليه مصيرهـا، وقل سأفعل إن شاء الله، وإذا نسيت أن تذكـر الله في مبدإ أمـرك فأذكره حين تتـذكر، ولا تكن سـاكنا كل السكون إلى عـزمك فلعل عزمك هذا يكون ضرراً لك وأنت لم تشعـر به، فكثيرا ما تنبـه الناس أو ينبههم أخـوانهم وأصدقاؤهم إلى أخطـار كادوا أن يقعـوا فيها لعزمهم على أشياء تكمن فيهـا هذه الأخطار وما كانـوا يتصورونها لولا أن نبههم نصحـاؤهم، فإذا كان هـذا يقع بين العباد الـذين لا يعلمون الغيب ولا يـدرون بالعواقب إلا تفرسا وتخرصا، فكيف بعالِـم الـغيب والشهادة ومالك العواقب؟ ما ظنك به، فتوكل عليه وفوض جميع أمورك إليه.

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينِي رَبّي لأقرب من هذا رشدا ﴾

لا تطمئن إلى الأمر الذي عزمت عليه وفوض فيه أمرك إلى من بيده عواقب الأمور عالم الغيب والشهادة وقل عسى أن يهديني لأقرب من هذا الأمر رشدا وأسلم منه عاقبة، ولله عاقبة الأمور.

هـذا الذي أراه من معنى اسم الاشارة (هذا) في هذه الآية ولم أره لأحد من المفسرين قبلي وهو معنى قوي لا ينبغي إلا أن نعتمد عليه لأن فيه تقوية لإيماننا بربنا وتفويضنا لأمورنا إليه وتوكلنا عليه، وفيه حسن الرضا بما قضى الله لنا وقدَّر، إذا لم يكن ما نريد فلنرد ما يكون،عسى أن يكون ما كان أقرب رشدا لنا مما أردناه وما اختار الله لنا خير مما اخترناه لأنفسنا لدنيانا وآخرتنا، ونحن نؤثر الحياة الدنيا والله يؤثر لنا ما هو خير وأبقى فَلنُردَّ جميع أمورنا إليه ولنتوكَّل في كل ما نفعله ونعتزم فعله عليه ولنتوجه إليه وحده بالدعاء الخالص أن يجعل عاقبة أمرنا سلامة ورشدا إن الله يحب المتوكلين.

وللفقهاء في تأويل هذه الآية نظر فيما يتعلق بالأحكام فقال بعضهم في معنى: **﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾** أي إذا نسيت الصلاة فصل إذا ذكرت وهذا وإن كان معناه صوابا غير أن الآية لا يقتصر معناها على هـذا الحكم الذي عرف من الحديث النبوي الصحيح: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها أنَّى ذكرها». وقال آخرون إن في الآية حكما للاستثناء المنقطع المتأخر في الأيمان إلى عام وإلى ما بعد عام، وعزوا هذا القول إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقالوا «إذا حلفت على أمر ونسيت أن تستثني في أثناء قسمك، فاستثن إذا ذكرت وينفعك الاستثناء إذا قلت إن شاء الله، ولو بعد مدة طويلة، فلا يلزمك الحنث ولا الكفارة». وهذا التأويل بعيد يأباه المحققون من الفقهاء إذ لو كان الأمر كذلك ما لزمت أحدا كفارة يمين بل كان يستثني في أي وقت تذكر كيف وقد شرع الله في كتابه الكريم

كفارة الأيمان وفصَّلها تفصيلا كما أرشد عبده «أيوب» إلى التحلل من قسمه على أن يضرب امرأتـه مائة سـوط إن شفي من مـرضه فلما شفـاه الله أفتاه الله بما يبره في قسمه فقال ﴿**وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ـ ص ٤٤﴾

أمره الله أن يأخذ مائة سوط حـزمة واحدة فيضرب بها امرأته حتى لا يحنث في قسمه ولـو كان الاستثنـاء المتأخر ينفع لأرشـده إليه، ثم إن النبـي ﷺ يقول: «من حلف على يمين فرأى غيرهـا خيرا منها فليكفر عن يمينه وليأت الـذي هو خير» فظهر بما تقـدم بطلان قـولهم إذ لو كـان صحيحا لقـال ﷺ «فليستثن» ولم يأمرنـا بالتكفير الذي فيه التكليف والمشقـة، والتيسير أحب شيء إلى نبى الرحمة ﷺ. أمـا فتـوى جمهـور العلماء في الاستثنـاء في اليمين فهي أن يكـون متصـلا بالقسم غير منفصل عنـه كأن يقال «والله لأفعلن كذ إن شـاء الله» وقال بعضهم يجب أن يذكر الاستثناء قبل الفعل المقسـم عليه فيقول «والله إن شاء الله لأفعلن كذا أو لا أفعل كذا» حتى يكون نافعـا في عدم انعقاد اليمين، وأوسع ما افتوا به في الموضـوع أن يكـون الاستثناء في المجلس نـافعـا حتى ولـو تأخـر عن القسم بعض دقائق، ولعل هذه الفتـوى تكون مقبولة واليمين عقـد كسائر العقود والله يخاطبنا بالإيفـاء بالعقود ﴿**يا أيها الـذين آمنوا أوفوا بـالعقود** ـ المائدة ١﴾ فلو كـان الاستثناء ممـدودا غير محدود لتحلل النـاس من جميع العقـود. وهذا طبعـا كلام لا يصح في العقل ولا في النقل، وزعمـوا أن ابن عباس أفتى بمـد الاستثناء إلى عام، ولو صح هذا عنه لكانت فتـوى الرسول ﷺ بالتكفير مقدمة على فتوى غيره، وما من عالم إلا وفي علمه مأخوذ ومتروك ما خلا رسول الله ﷺ .

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦

من المعلـوم أن أصحاب الكهف لبثـوا في كهفهم مدة طـويلة وأن النـاس

اختلفوا في تحديد هذه المدة كما هو الشأن في أمثال هذه الأحداث العجيبة، يختلف فيها الرواة، وللقصاص حظهم من المبالغة، فبين الله تعالى مقدار لبثهم وقطع النزاع ولم يحك أقوال المختلفين في مدة اللبث كما حكاها في عدتهم ولعلها لكثرتها أعرض الله عن تفصيلها إذ يقتضي ذلك إسهابا ليس هو من أسلوب القرآن الحكيم، بل ذكر القول الفصل وذيَّله بقوله ﴿**قل الله اعلم بما لبثوا**﴾ وفى هذا إشارة إلى أقوالهم المختلفة، وإن العلم الحقيقى عند الله .

ثم إن الله تعالى أضاف الكهف اليهم هذه المرة وفى هذه الإضافة نكتة لطيفة وهى أن هذا الكهف لما صار مأوى لهم وطال مكثهم فيه ثم صار مدفنا لهم نسب اليهم واختصوا به فهو منزلهم الذي سيمكثون فيه إلى الحشر وما أروع التعبير القرآني .

﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾

وهنا تأتى نكتة أخرى لطيفة، وهى كيف أنه تعالى أخر ذكر التسع في الذكر ولم يذكرها مع العدد الاول فلم يقل ثلثمائة وتسع سنين؟

ذلك لما سنذكره وهو أنه في هذا المقام يفصل الحكم بين طائفتين: طائفة تحسب بالحساب الشمسي وهم أهل الكتاب اليهود والنصارى وطائفة تحسب بالحساب القمري وهم العرب فذكر أولا مقدار لبثهم بالحساب الشمسي كما هو عند أهل الكتاب، وزاد بعده الفرق بين الحسابين وهو تسع سنوات الزائدة لمن يحسب بالحساب القمري ثلاث سنوات لكل مائة عام، وقد تنبه لهذا الإمام علي (كرّم الله وجهه) وهو تأويل صحيح ووجيه، ولا معنى لرد الفخر الرازي على الإمام علي في هذا التأويل بدعوى أن الفرق ليس تسع سنوات بالضبط بل فيها زيادة ثلاثة وسبعين يوما، والعجب أن مثل الإمام الفخر الرازي يغفل عن طريقة حساب العرب في أمثال هذه العقود فهم يلغون الكسور الزائدة أو الناقصة ولا يجعلون لها اعتبارا في الكلام الموجز البليغ فكم تكون نسبة ثلاث

وسبعين يوما التي هي أقل من ربع العام بالنسبة لهذا العدد الضخم من السنين. إن تأويل الإمام علي هو الصحيح المقبول، ولا عبرة لمن يعترض عليه بمثل هذا ثم يذهب في تأويل هذه الزيادة إلى أقوال سخيفة لا ثبات لها ولا اعتبار، والقرآن نزل بلسان عربي مبين فهو يجرى بأسلوب التعبير العربي وفي القمة العليا من البلاغة والإيجاز .

﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع﴾

الله وحده يعلم مقدار لبثهم في كهفهم وهي المدة التى ذكرها بتفصيل السنين بالحسابين الشمسي والقمري ويقطع نزاع المختلفين، فله لا لغيره غيب أخبار السموات والأرض، ما أبصره بحقيقة المبصرات وما أسمعه للسر والنجوى، وما هو من ذلك أخفى، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا، وفى هذه الصيغة: صيغة التفضيل الواردة في الآية في أوصاف الله تعالى رد على من زعم أن صيغة التفضيل لا تصح في حق الله تعالى، والقرآن في تعبيره هذا يرد عليهم فلا معنى لاعتراضهم، وقد وردت في الآثار عبارات توافق ما ورد في الآية ففي الحديث الشريف الوارد عن النبي ﷺ «سبحانك ما أحلمك على من عصاك وما أسمعك لمن دعاك وما أعطفك على من سألك»، وفي الابتهال الذي روي عن جبريل عليه السلام «سبحانك سبحانك، ما أعظم شأنك وأعز سلطانك» ابتهالات فيها روعة وجلال وتعظيم لله عز وجل فلنسلك طريقة القرآن والسنة ولا عبرة بمن ذهب يتكلف خلافهما والله أعلم .

﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾

هذا تقرير لعقيدة التوحيد في قلوب الذين يتلون القرآن، وهي طريقة القرآن الذي هو كتاب ذكر، يذكّر الناس بعظمة ربهم ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يكاد يعرض قصة من القصص إلا ويستخلص منها العبرة التي هي المقصود من إيرادها، وفيما تقدم من نسبة العلم لله وحده ونسبة البصر

والسمع إليـه يتجلى هـذا المعنى العظيم، وهنا ينفي معنـى الولايـة لغير الله، فما للناس من ولي يلي أمورهم إلا الله، فهـو وحده يحكم ويقضي ولا يشرك في حكمه وقضائه أحـدًا، لا ملكا مقربـا ولا نبيا مرسلا، تفـرد بالأمور قضـاء وقدرا، حكما وتنفيذا، ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ـ الأنعام ٥٧﴾.

ورد بعض المفسرين الضمير هنا إلى المشركين الـذين يلتمسون من غير الله الـولايـة والشفـاعـة، والحق أنـه لا ولي لهم دون الله خـالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، يلي جميع أمورهم وتجري فيهم أحكامـه قضاء وقدراً دون اعتراض منهم أو اختيار .

ورد البعض الآخر ضمير الآيـة إلى أصحاب الكهف الـذين جاء الحديث عنهم وعن قصتهم، فكـان محط الإعتبـار من هذا الخبر أننـا رأينـا من لطف الله بهم وعنايتـه بمصيرهم ما يـزيدنا إيمانـا بأن ولاية الله لعبـاده المؤمنين خير ولاية فهو وحده لاغيره يلي أمورهم ويجعل عاقبتها سلامة ورشدا وهو وحده جعل لهم من أمرهم يسرا، ﴿الله ولي الـذين آمنـوا يخرجهم من الظلمات إلى النـور ـ البقرة ٢٥٧﴾ ﴿ذلك بأن الله مـولى الـذين آمنـوا وأن الكافـرين لا مـولى لهم ـ محمد ١١﴾ وهـذا المعنى الـذي ذهبوا إليـه صحيح غير أن البعض جعلـوا مـرد الضمير لعمـوم الناس جميعـا فقـالوا إن ولايـة الله على جميع خلقـه قضاء وقـدرا فأحكامه تجري وتنفذ في جميـع مخلوقاته. ﴿ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا﴾، فالحكم لله وحـده لا شركة لأحد سواه فيـه ولا حول ولا قوة إلا بالله تفرد ربنا بالملك والأمر وتعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا .

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

أمران ونهيان من الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ موجهان إليه وإلى أمته الذين يتبعون هداه، الأمر الأول تلاوة كتاب الله الكريم والذكر الحكيم الذي هو الحق لا مبدل لكلماته لأن الذي أنزله عليم خبير يعلم غيب السماوات والأرض وبيده مقاليدها وإليه تصير الأمور، ولا تبدو له البدوات فكل كلام لغيره يحتمل التبديل والتغيير، حاشا كلام رب العالمين .

اتل كلامه اقرأه وتدبره واعمل بأحسنه إنك يا محمد لن تجد من دونه ملتحدا، لن تجد من دون كلام الله بديلا ولن تجد من دون الله وليا ولا نصيرا، فاستمسك بالذي أوحي إليك ولا تمل عنه، وكل ميل عن كلمات الله فهو إلحاد عن طريق الحق، إنه لا مبدل لكلمات الله. ومن ذا الذي يبدل كلام الله إلا أن يكون الله هو الذي يريد نسخ آية من الأحكام لا من الأخبار ثم يأتي بخير منها أو مثلها رحمة بعباده الضعفاء تقتضيها حكمته وهو اللطيف في أحكامه الحكيم بتشريعاته .

أما سبب نزول هذه الآية فهو أن كبراء قريش قالوا للنبي ﷺ: إن شئت أن نجلس إليك ونستمع إليك ونحادثك، فاطرد هؤلاء الفقراء والضعاف والعبيد من مجلسك فإنه لايجمعنا وإياهم مجلس واحد، وذلك يحط من شرفنا ويغض من قدرنا، ويريدون بهؤلاء ضعاف المسلمين الأوائل أمثال بلال وسلمان وصهيب وعمار وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن أم مكتوم وأبي ذر وأمثالهم من ضعاف وفقراء الصحابة الأوائل ـ رضى الله عنهم ـ ممن تزدري عين الكبراء من قريش، فهم يحتقرونهم ويعظمون أهل الثراء والشرف والعظمة والأنساب.

لما قالوا ذلك للنبي ﷺ أنزل الله عليه هذه الآية تثبيتا لمقامهم ورفعا لشأنهم عند الله وعند رسوله والمؤمنين فواحد منهم عند الله خير من طلاع الأرض من هؤلاء المتعاظمين بدنياهم، وميزان الله في تقدير الناس هو الإيمان والتقوى ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ـ الحجرات ١٣﴾ أما موازينهم الخاطئة فهي ترفع أهل الدنيا، والله يريد أن يحق الحق بكلماته فيضع نسبهم ويرفع نسبه، والله عزيز حكيم، أمر نبيه أن يصبر نفسه أي يحبسها مع هؤلاء وأمثالهم الذين

يدعـون ربهم بالغداة والعشي يريـدون وجهه، فهؤلاء هم أهل الإكـرام عند الله وعند رسـوله وعنـد المؤمنين بما معهم من الإيمان والتقوى والتـواضع والإخلاص لربهم، فهم يريدون بعبادتهم وجه الله ويطلبون رضاه ولا يدعون سواه .

أصبر نفسك معهم ولا تعـد عينـاك عنهم لا تترك عينيك تميـلان عنهم ولا تتجاوزهم بنظـرك إلى أهل السيادات والمال وإن كنت لا تريد بـذاك دنياهم بل تـريد استمالتهم إلى الإسـلام فما عليك ألا يسلمـوا إنما عليك البلاغ، فإيـاك أن تميل نفسك إلى زينة الحيـاة الدنيا أو تطيع من أغفلنـا قلبه عن ذكرنـا ولم يرد إلا الحياة الدنيـا فهم يتبعون أهواءهم فصار أمـرهم باتباع الهوى فرطـا أي ضياعا، فهم الغـافلون أغفل الله قلـوبهم عن ذكـره وانطمست بصـائرهم باتبـاع الهوى وكذلك الهوى يعمِي ويصم.

﴿وقل الحق من ربكم﴾ هذا هـو الحق الذي أنزله ربكم عليكم فـاتبعوه أيها الناس تهتـدوا ولا تتبعوا السُّبُل فتفـرق بكم عن سبيله، أعْلِنهـا دعوة صريحة ثم أترك الناس بعد ذلك أحرارا لا إكراه في الدين .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ

قل يامحمـد هذا هـو الحق من ربكم الذي كتب على نفسـه الرحمة خلقكم ولم يترككم سـدى بل هـداكم للإيمان وبين لكم النجـدين فمن أبصر فلنفسـه ومن عمي فعليهـا، من شـاء فليختر سبيل الإيمان ومن شـاء يختر سبيل الكفـر، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة ، أمّـا جزاؤكم عند الله فإما نار يدوم جحيمها و إما جنة يدوم نعيمها.

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

المقام هنـا مقام وعيد وتهديد شـديد لأهل الكفر والضلال والكبريـاء بعد

إعـراضهم عن الحق واحتقارهم لمن آمن بـه، وقـد تبين لهم الهدى فأعرضـوا عن ذكر الله واتبعـوا أهواءهم واشتروا الضـلالة بـالهدى، إن الله أعد لهم عـذابا أليما وهيأ لهم ناراً، ناراً عظيمـة نكَّرها الله لأنها فوق وصف الـواصفين فهي نار لا يأتي عليها وصف ولا تُدرِك حرها وهولها العقول.

﴿**أحاط بهم سرادقها**﴾، جاء التعبير هنا بصيغة الماضي لتحقق وقوعها وقـرب زمـانها وكل آت قـريب فكأنهم في وسطهـا وبين طياتها يستغيثـون فـلا يغاثون إلا بما يزيدهم عذاباً، وقد أحاط بهم سرادقها فهي من تحتهم ومن فوقهم ومن جميع جهاتهم، ﴿**لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش** ـ الأعراف ٤١﴾ .

والسرادق في لغـة العـرب هي الحواجـز التي يحيط بها النـاس خيـامهم ومضاربهم، وقـد يطلق على المخيمات والفساطيط سرادقات، ضرب الله لنـاره مثلا بالسرادقات حتى نتصور إحـاطتها بهم من جميع جهاتهم فهم لا يستطيعون التفلت منها ولا الفرار، وأنى لهم ذلك وهي مطبقة عليهم وهم مبلسون، يستغيثون، يطلبون ما يبرد قلـوبهم من الحر الذي لا يطاق فيغاثون بحر مثله أو أشد منه، بماء كالمهل، والمهل دَرديُّ الزيت تشتعل فيـه النار فيكون أشد حـرارة من الماء وألصق ببدنِ صـاليه، والمهل أيضـا يطلق على ذائب الحديـد والنحاس وهـو مـا هو في شـدة حرارته يشوي الوجوه بأواره عندما يقبلون عليه ملهوفين يظنونه ماء فيسقط لحم وجوههم من شـدة حره قبل أن يصب عليهم ويجرعوه ثم يسقونـه جبراً وبالرغم منهم يتجـرعونـه ولا يكادون يسيغـونه ويصب من فـوق رءوسهم فيصهر مـا في بطونهم والجلود، أيّ شراب هذا؟!! بئس الشراب، وأي مـرتفق هذه النار ساءت مرتفقـا، صيغتا تعجب في قبح الشراب وسوء المرتفق، والمرتفق هو المنـزل الذي تعد فيه وسائل الـراحة وكانوا في الدنيا يتنعمون بـالظلال والمرافق والمياه الباردة ولا يشكـرون هـذه النعم، بل ازدادوا بها طغيـانا وكفـراً فعـاقبهم الله بما يشـوي وجوههم المنعمـة في دار الهوان والصغار، فيها كـل أنواع العذاب، لا راحـة فيها

ولا نعيم، ما أقبحها من دار، وما أسوأها مرتفقا، هذا مثوى المتكبرين لا مفر لهم منه ولا محيص ولا سامع لاستغاثتهم ولا مجيب لدعائهم، وقانا الله هذا المصير وحشرنا مع الفريق الذين يقول تعالى في ثوابهم ونعيمهم :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بعد ذكر الوعيد في الآية السابقة يثني الله هنا بآية الوعد، يبسط فيها بعض أنواع النعيم تشويقا لعباده المؤمنين حتى يصبروا على أذى الكفار وعلى تحمل مشقة العبادة، والعبادة إيمان بالقلب لا يشوبه ريب، وعمل صالح بالأركان، وما يذكر ثواب الإيمان في القرآن إلا ويذكر معه العمل الصالح إيذانا من الله أنه لا ينفع القول باللسان مجردا عن العمل الصالح لأن الإيمان الصادق هو الذي يتحقق بأداء الفرائض وترك المناهي والتخلق بالأخلاق الحسنة، والتحلي بالآداب التي دعا إليها القرآن الكريم، فإذا امتثل المؤمن قول ربه كان مؤمنا حقا يستحق من الله الثواب والنعيم في جنات عدن، والعدن هو الإقامة الطويلة دائما ومنه سميت المعادن معادن لاستقرارها في الأرض دواما، والعدْن أيضا عَلَم لإحدى الجنَّات أو عَلَم من أعلام الجنة .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ تبتدىء الآية بإنّ واسمها، فأين خبرها؟ يقول بعض المفسرين إن خبرها أولئك وما بعدها فهو إخبار عن حال الذين آمنوا وصدقوا إيمانهم بالعمل الصالح، أنهم منعمون في جنات عدن بما ذكر من النعيم جزاء بما كانوا يعملون ويقول البعض الآخر إن خبرها ما يليها وهو قوله تعالى: ﴿**إنَّا لا نضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عَمَلا**﴾ أي أن الله لا يضيع أجرهم وسيجزيهم الجزاء الأوفى ويزيدهم من فضله، وأظهر مكان الإضمار هنا

ليبين لنا أن الذي استحقوه من الجزاء الأوفى إنما هو لإحسانهم في الاعمال ﴿**هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان** ـ الرحمن ٦٠﴾ إن الله بر رحيم لا يضيع أجر من أحسن عملا ولو كان حقيرا لأن الأعمال بالنيات وربما ينساه عامله لقلته وحقارته، ولكن الله يحصيه له ولا ينساه، وعلى كلا التفسيرين فالمعنى صحيح والتصريح باسم الاشارة ﴿أولئك﴾ للعناية بهم وتكريمهم ورفع مقامهم، فهم في جنات لا في جنة واحدة، جنات كثيرة ينتقلون بين ظلالها وقصورها وأنهارها التى تجري دائما ولا تنقطع. وجري الأنهار ضمان لحياة الأشجار وزينة ومتعة للناظرين ولا يعرف الناس منتزها أحلى من ضفاف الأنهار وهناك تبنى قصور الملوك والمترفين من أهل النعيم، ونعيم الآخرة أعظم وأبقى .

ثم يعرض لنا لوناً آخر من ألوان النعيم في الجنة وهو ما يحلون به من أنواع الحلي والحلل، فهم يحلون فيها من أساور من ذهب وقد اعتاد ملوك الدنيا وأُمراؤها أن يحلوا أنفسهم بأسورة الذهب وقديما فخر عدو الله فرعون على نبي الله موسى بهذا النوع من الزينة فقال: ﴿**لولا ألقي عليه أسَاوِرَةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ـ الزخرف ٥٣﴾ .

فأساورة الذهب زينة عرفها الناس قديما تحلى بها الملوك والأمراء، وأصحاب الجنة يوم القيامة ملوك منعمون يحلون بأنواع الحلي من ذهب الجنة وفضتها ويلبسون ثيابا خضرا من أنواع حرير الجنة من سندسها واستبرقها، وهذان نوعان من الحرير الناعم الرقيق والخشن، والكلمتان قيل أصلهما من اللغة الفارسية استعملها العرب وعرفوهما قديما، وجرس الكلمتين يدل على النعومة والليونة والبهاء وأقصى ما وصل إليه الناس من الترف والزينة الذهب والحرير، وشتان بين ذهب الدنيا وحريرها وذهب الجنة وحريرها، الذهب والحرير حليّ أهل الجنة ولباسهم وليس ذلك فحسب، بل وقصورهم وأوانيهم وسجفهم وفرشهم وأرائكهم، فهم متكئون على سرر موضونة من قصب الذهب بطائنها من استبرق أكِلّتها من سُندس، والإتكاء يرد في كثير من مواطن

الكلام عن أحوالهم وليس معناه أنهم متكئون دائما بل هم يترددون في رحاب الجنة الفسيحة ويتزاورون ويتنزهون في بساتينها وعلى ضفاف أنهارها، والتعبير بالإتكاء كناية عن تمام راحتهم في ترفها ونعيمها وأنهم غير مطالبين فيها بأي عمل من الأعمال، فلا صلاة فيها ولا صوم ولا جهاد ولا تكلف فيها لكسب أرزاقهم، إذا خطر شيء من ذلك ببالهم فدعواهم سبحانك اللهم فإذا هو مهيأ بين أيديهم، حتى الماء يسكبه لهم في أكواب الذهب والفضة غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون يطوفون عليهم بما يشتهون وأي نعيم هذا وأي ثواب؟ ﴿**نعم الثواب وحسنت مرتفقا**﴾ ما أعظمه من ثواب وما أحسن الجنة منزلا ومرتفقا يجد أهلها فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون ورضوان ربهم فوق كل نعيم ودونه كل ثواب.

ولنرجع إلى نكتة لطيفة فيما تقدم من وصف حال أهل الجنة وهي أنه لما وصف حليتهم قال ﴿يُحلون﴾ ولما ذكر لباسهم قال ﴿ويَلْبسون﴾ فنسب الأولى للمجهول، ونسب الثانية للمعلوم، وذلك لأن تمام نعيمهم أنهم لا يتكلفون بتحلية أنفسهم بأنفسهم بل هناك من الخدم والوصائف والحور العين من يحليهم، أما اللباس فنسبَهُ لهم وهو أنسب لأن في اللباس ستر العورات فناسب أن يتولوا ذلك بأنفسهم، وفي ذلك صون لعوراتهم وستر لها فلا يطلع عليها غيرهم، فما أدق تعبير القرآن وما أدله على المقصود . ثم إن الله تعالى وصف لون ثيابهم بالخضرة لأن اللون الأخضر أزهى الألوان وأحلاها في العيون وهو اللون الذي تناسبه ألوان حلي الذهب والفضة وسائر الجواهر والدرر التي يحلون بها فتتجلى هذه الألوان في أروع وأحلى مناظرها وصدق الله العظيم ﴿**فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون** - الزخرف ٧١﴾ اللهم متعنا بنعيم الجنة وخلودها وروحنا برضاك يوم لقاك يا أرحم الراحمين .

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ
بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ
يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ
مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

بعد ذكر ما تقدم من احتقار الكفار للفقراء والضعفاء وتعظيمهم لأهل الدنيا فهم يستنكفون من مجالسة فقراء المسلمين وضعفائهم، ولكن الله يأمر نبيه أن يصبر معهم ولا يعدوهم ببصره إلى أهل الدنيا، وما ذلك إلا لهوان الدنيا على الله، يضرب الله لنا في هذه الآية مثلا لحقارة الدنيا وزوالها، وأن الذين فتنوا بها هم الخاسرون النادمون على ما أشركوا بالله غيره وأن الولاية الحقيقية هي ولاية

الله الحق هو خير ثـوابا وخير عقبـا . واضرب يا محمـد لهؤلاء مثلا رجلين جعلنـا لأحـدهما جنتين من أعناب وحففنـاهما بنخل وجعلنـا بينهما زرعا، الجنتـان على شكل متناسق بديع، جنتان من أعناب محفوفتان بنخيل ولا يزال الناس يحوطون الكروم بـالأشجار وبـالنخيل ترد عنهـا عواصف الـريح والسَّمـوم وقساوة الجو، والنخل يصلح بتعـرضه للشمس والهواء فتجـود بـذلك غلته، والـزرع يصلح في أرض عـراء لا غرس فيهـا، وإذا كان بين جنتين فهـو أحفظ لنباتـه من الريـاح الهوج ومن رمالها ومن قسـاوة الجو حره وقره فهـو تخطيط رباني عجيب فيه إرشاد لنـا إلى نظـام غـرس النخيل والكـروم والـزرع، والـذي يـزيـد من قيمـة الجنتين ويضمن بقاءهما ـ لـو أن صاحبهما شكر نعمـة الله ـ تفجير الماء الغـزير خلالهما فهو نهر دائم الجريان يسقيهما .

والقصـة قـال بعـض المفسرين إنها رمـزيـة ضربت مثـلا من واقع النـاس ومحاورة أهل الإيمان لأهل الكفر، وقال البعض الآخـر إنها واقعية لأخوين من بنى اسرائيل وقيل من غيرهم مـات أبوهما فترك لهما ثمانيـة آلاف دينـار ذهبا اقتسماهـا بينهما نصفين فأنفق أحدهما ألف دينار في شراء جنـة والقيام بها وأنفق الآخر ألف دينـار في سبيل الله يبتغي بها جنة عنـد الله في دار كرامتـه ورضاه، ثم أنفق الآخـر ألفا أخرى في شراء دار وتأثيثها، وأنفق أخـوه ألف دينار في شراء دار في الجنة يدوم نعيمها، ثم أنفق الآخـر ألفاً في نكـاح امرأة والانفاق على عـرسها فتصـدق أخوه بألف دينـار، وقال: اللهم إني اتصـدق بهذا مهرًا للحور العين فـزوجني من الحور عندك وفي جنتك ومتعني بها في دار الخلـود يا أرحم الـراحمين وتصدق بـالباقي في سبيل الله وطلب رضـاه بينما أمسك الآخر الألف البـاقية لينفقهـا في نيل شهواتـه وحاجـاته، فمر بأخيـه الفقير في أبهته وخيـلائه بين خدمه وحشمـه وهو معجب بدنياه فخـور بها فقال له ﴿**أنا أكثـر منك مالا وأعـز نفرا**﴾ وأنت أنفقت مالك كله وتـركت نفسك للفقـر وحرمتهـا متعتها فـانظر إلى كثـرة أموالي ووفرة أولادي وأنصاري وخلاني وبقيت أنت وحيداً لا ناصر لك ولا حميم .

﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منهما منقلبا﴾

راح يقول هذه الكلمات في صلف وتيه وإعجاب بأمر دنياه مُعرضاً عن نصح أخيه وصاحبه،غير خاش عاقبة الكفر والطغيان، ولا متعظ بتقلبات الزمان، فهو مطمئن إلى جنتيه متوكل على نهره الجاري خلالهما لا على خالقه وخالقهما ومفجر الماء خلالهما ولا يتوقع لمصيره يوم القيامة الذي أصبح يشك فيه أن يكون مثل ما هو فيه من النعيم أو أوفر وهو شعور أمثاله من الطغاة في كل زمان وما أبعده عن الصواب ويعجز عن طلبه حين يذهب كل شيء ويبقى فقيرا .

﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يوتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا ﴾

ظلم نفسه بالركون إلى الدنيا وفتنتها والإعراض عن الله وكفر نعمته، فذكره صاحبه بأصل خلقته الأولى وبخالقه قال له: أكفرت بربك الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟ كلنا مخلوقون من تراب وهو المادة التي خلق منها أصلنا الأول، ومن التراب غذاؤنا ثم من نطفة وهي المادة التى منها خلق كل واحد منا، ثم تطورت من طور إلى طور حتى سوانا ربنا تبارك وتعالى رجالا، كيف نكفر بهذا الخالق العليم؟ إن هذا لظلم عظيم، وعظه صاحبه وحذره من عاقبة هذا الكفر والطغيان ويبدو أنه لم يقبل منه وعظه شأن المتكبرين ولذلك رد عليه قائلا:

﴿ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ﴾

لكن أنا إيماني واعتقـادي هو الله ربي أعبده وحده وأشكـر نعمته ولا أشرك بـه أحدا هـو الـذي خلقني وأنعم عليّ بنعمـه التي لا تحصى، أشكره ولا أكفـره وأذكره ولا أنساه .

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾

ليتك حين دخلت جنتك ورأيت أثر نعم الله عليك علمت أن جميع النعم من الله تعالى وقلت بلسـانك ما شـاء الله كل هذا بإرادة الله وتيسيره، مـا شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا قـوة إلا بالله بيده الخير وهو على كل شيء قـدير، لا قوة إلا بالله، لا يقـوى أحد من مخلوقـاته على شيء إلا بإذنـه وقوته وتيسيره، فبقـوته أثمـرت جنتك هذه، وبقـوته تفجـر نهرها، وبقـوته تمتعت بخيراتها. علّمنـا الله تبـارك وتعالى أن نقـول هذه الكلمـة التى تنبع من الإيمان العميق بـالله المنعم أن نقول هـذه الكلمة الطيبـة التى تنبىء عن شكر النعمـة كلما رأينا مـا يعجبنا في أموالنا وأولادنا .

﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾

هي شكر للنعمة ورُقيـا مما عسى أن يصيب المرئي من العين، فإذا قلت هذه الكلمة مخلصا من قلبك حفظ الله ما رأيته من إصابة العين وبورك لك ولغيرك فيه فسلمت وسلم الناس منك، ثم حاور صاحبه قائلا له:

﴿إن تـرنِ أنـا أقل منك مـالاً وولـدا فعسـى ربى أن يـوتينى خيرًا من جنتك ويـرسل عليهـا حسبانـا من السماء فتصبح صعيـدا زلقـا أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا﴾

لا تفتخـر عليّ بمالك ولا بـأولادك إن تـر قلـة مـالي وولـدي فعسى الله أن يذهب بمالك ويـؤتينى خيراً من جنتك ويرسل عليهـا عذابـاً أو ناراً من السماء فيهلكها فتصبح صعيداً زلقـاً أرضا جرداء يزلق فيها الزالق لا أثـر فيها لزرع ولا

شجر، أو يذهب الله بمائها فيغور في الأرض فلن تستطيع له طلبا، فتيبس هذه الأشجار وتنقطع ثمارها وتصبح هذه الزروع هشيما تذروها الرياح، نفى عنه استطاعته طلب الماء لا وجوده، لأنه حينئذ ييأس من طلبه ويعجز عن طلبه حين يذهب كل شيء ويبقى فقيرا .

وفسَّروا الحسبان بالنار أو بالعذاب وسمى حسبانا لأن الله ينزل ذلك على من يريد تعجيل عقوبته محاسبة له على طغيانه وكفره والله سريع الحساب.

﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربي أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خيرثوابا وخير عقبا﴾

جاء أمر الله بعد أيام معدودة،وأمره لابد واقع، فهلكت الجنتان وهلك كل ما فيهما من ثمار كما تدل صيغة الجمع، ويبدو أن الهلاك جاء والأشجار محملة بغلالها حتى يكون وقعهُ أشد على من كفر بنعمة الله وأعرض عن الناصحين، هلك كل شيء وغار الماء وقضي الأمر، فأصبح الرجل المغتر بدنياه يقلب كفيه أسفا وندما وحسرة على ما أنفق فيها من الأموال الكثيرة الوافرة، فهى اليوم ذاهبة ولاأثر لها، لا يملك من أمرها إلا الندم والحسرات، وتقليب الكفين إشارة إلى كل ذلك، فهى عبارة إعتاد العرب استعمالها لتدل على الندم العميق مع العجز الكامل عن طلب التالف أو استدراك بعضه، ذهب كل شيء وفات كل شيء وانهارت الآمال وبارت الأموال فالجنة خاوية على عروشها كل شيء فيها يدل على الخراب حتى الأعمدة التى كانت منصوبة للأشجار المعروشة هي الآن ساقطة يا لهول المنظر ويا لعظم الكارثة، وقف الرجل يقلب كفيه ويقول :

﴿يا ليتنى لم أشرك بربي أحدا﴾

ولم تكن منه هذه العبارة ندما على شركه بربه وما أدركه التوفيق بعد إنما هي تعبير منه على الندم على تلف ماله، ندم على الشرك الذي كان سببا في هلاك

جنتيه وذهاب غناه فلو لم يتلف المال ما كان يتحول عن شركه، فندمه هذا صورة للإيمان الذي لا ينفع يوم يأتي بعض آيات ربك، هذا هو المعنى المتبادر من موقفه هذا ، وأبواب ربك مفتحة بعدُ لو أراد الرجوع إلى الله ولعله يرجع فتقبل توبته والفرصة لم تفت .

أما الجانب المعروض من القصة فهو جانب الإعتبار والإتعاظ بحال هذا الكافر وما آل إليه من زوال النعم وذهاب الأنصار، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا، لم يبق له من أنصاره الكثيرين من يقدر على نصرته، ولم يكن منهم من يقوى على رد الأمر بعد وقوعه، كما أنهم لم يقدروا على دفعه قبل وقوعه بل وقفوا متفرجين لا يملكون لصاحبهم ولا لأنفسهم حولا ولا طولا ﴿**وما كان منتصرا**﴾ ولم يكن هو الآخر يملك حيلة يدفع بها المقدور أو يخففه وهو نازل، بل حُمَّ قضاء الله، وتم ماأراده ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا﴾

هنالك في هذه الحالة الحاسمة تمَحَّضَ الحق وتبين أن الولاية النافعة هي ولاية الله وكل ولاية غير ولايته لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا، ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فولاية الله هي الحق والله خير ثوابا وخير عقبا، من آمن به وتوكل عليه وفوض الأمر إليه نال ثواب عمله، ومن كفر به وأشرك به غيره وأعرض عن ذكر ربه لقى جزاء كفره، كل ينال جزاءه موفورا ويصل إلى غايته، وخير العواقب ما كان في طريق الإيمان بالله وشكر نعمه واتباع أنبيائه ورسله، ﴿**هو خير ثوابا وخير عقبا**﴾، هكذا يبيّن لنا هذا المثل العجيب من أمثال الله الفارق الكبير بين أحوال الشاكرين وأحوال الكافرين ومصير الجبارين الذين لا يحبون الناصحين كيف تكون عاقبتهم وخيمة في هذه الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ويبيّن للمعتبرين أن عواقب الأمور كلها بيد رب العالمين فمن أراد الولاية الحق والنصرة الحق فليتخذه وكيلا فهو نعم الوكيل وهو نعم المولى ونعم

النصير بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا
وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

مثل آخر يضربه الله تبارك وتعالى لحقارة الدنيا وسرعة زوالها وزوال ما فيها، ما أقصر الحياة فيها وما أسرع زوالها وما أعجب أمر من يغتر بها .

مضى لنا منذ أول السورة جولات في الذين غرتهم هذه الحياة الدنيا،أول ذلك:ملك أصحاب الكهف الذي تكبر بما ناله من عز الملك و إقبال الأيام، فطغى وكفر بالله ودعا الناس إلى عبادته وبطش بالذين عبدوا الله وحده.ثم جاء بعد ذلك أمر الله لنبيه أن يصبر نفسه مع فقراء المسلمين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه،ولا يصرف عنهم بصره ناظرًا إلى زينة الحياة الدنيا ولا يطيع الذين أغفل الله قلوبهم عن ذكره لافتتانها بالحياة فهي مرادهم ومبلغ علمهم فكان أمرهم فرطا. ثم يضرب لنا مثلا من الرجلين المتجاورين وقد أفتتن أحدهما بجنتيه وطغى وظن أن الحياة الدنيا باقية والساعة غير قائمة وكفر بالله وأعرض عن صاحبه الذي ظل يعظه ويبصره بالحقيقة، ويحذره عواقب الطغيان والكفران، ولكنه لم يتعظ فكان من أمره ما كان من وخيم العواقب، فانتهى بالحسرات والندم،ولات حين مندم. ثم يعقب الله هنا بمثل الحياة الدنيا ومراحلها الثلاث في جمل وجيزة بليغة: ماء ينزل من السماء فيهيج به نبات الأرض ويختلط بعضه ببعض نجمه وشجره وأعشابه وأزهاره وزروعه، فيصبح بعد مدة قريبة هشيما قد أصفرَّ وييبس وفارقته الحياة والنضارة، ثم يتصوح ويصير هشيما تذروه الرياح فتبدده وتذهب به في نواحي الأرض فيتلاشى ويفنى، تلك هي عاقبة الحياة الدنيا وقد انطوت كلها في هذه العبارات القليلة الموجزة .

﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾

وكـان الله على الخلق والافناء قـادرا بل هـو على كل شيء قديـر وقد جـاء التعبير هنا بهذه الصيغة ﴿مقتدراً﴾ ليـدل بهذه الحروف الزائدة على زيادة المعنى فهو كامل القدرة شـديدها،أحاطت قدرته الجبـارة بكل شيء لا يعجزها شيء،سواء عنده الأمور العظيمة والحقيرة والمخلوقـات الكبيرة والصغيرة، ثم يناظر بين حقارة الدنيا وفنائها وشرف الدار الآخرة وبقائها وأن العمل لها خير عاقبة وثوابا.

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا﴾

زين للنـاس أصناف الأمـوال،فهم يسعون وراءهـا ويجمعونها ويكنـزونها ويبخلون بها ويعصون ربهم في جمعها وإمساكها وهي ذاهبة وهم قبلها ذاهبون، فما هي إلا زينة هذه الحياة الدنيا ثم تزول ويصير حـلالها حسابا وحرامها عقابا، هذا مصير الأمـوال التى بها يغترون وعليها يقتتلـون وهم كـذلك يفتتنون بـزينة البنين ويعصـون الله من أجلهم، فهم يجمعون الحرام من أجل البنين ويبخلـون بما رزقهم الله ولا ينفقونه في حقه وهذه فتنة الأولاد كما جاء في الأثر «الولد مبخلة مجهلة مجبنة» وما هو إلا زينة الحياة الـدنيا، وكثيرا ما يكون غصة على والديه وغما ونكدا ونحسا لهما فليتهما لم يلداه وليتهما لم يجمعا لـه الحرام وليتهما لم يفتتنا به، وقد قدم الله ذكـر الأموال على البنين في الإعجاب بها والإفتتان ومـا ذلك إلا لأن فتنة المال أشد على الإنسان، وميلـه إليه أكثر، فالمال زينة ولـو بدون الولد، أمـا الولد بدون المال فهـو هم وغم، لاسيما إن كثروا وقـل المال، فيصير أمرهم حينئـذ ثقلا وغما على والديهم، فـالولـد زينة مع وجود المال ولـذلك قُرن بـه، والمال زينة على كل حال ولذلك بدء به، وما أعجب بلاغة القرآن .

﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾

الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة بنواياها الخالصة لا يبقى شيء من الحياة الدنيا إلا ما تتزوده منها من الحسنات الباقيات التى تبقى معك وتدخل معك القبر حين يذهب كل شيء، يذهب المال عند خروج روحك، ويذهب البنون والأهلون والأحبة حين يوسّدونك التراب في القبر وتبقى الأعمال فيا طوباك إن كانت صالحة .

وفسر بعض أهل التفسير الباقيات الصالحات بنوع من الذكر وهو: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وزاد بعض: «ولا حول ولا قوة إلا بالله» وهذا التفسير ضعيف إلا أن يكون هذا من جملة الباقيات الصالحات فلا مانع من ذلك أما أن يقتصر المعنى على هذا النوع من الذكر فهذا تحجير للواسع، فالباقيات الصالحات تبقى عند ربك ثوابا حين تفنى كل أشياء الحياة الدنيا وتزول ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ـ النحل ٩٦﴾ وهي خير أملا، نعم هو الأمل النافع، والنفع الدائم وهو الأمل الذي يرغبك في العمل الصالح ويذكرك الآخرة، لا الأمل الذي يصدك عن العمل وينسيك الآخرة، ذكر خير الثوابين وخير الأملين ولم يذكر ما دون ذلك لحقارته، فلا وزن له إلى جانب ما يبقى وكلمة ﴿ خير﴾ تدل على التفضيل ويكفي ذكرها تعريضا لحقارة ما سواها وتفاهته، فلا حاجة إلى ذكره ويكفي أن يفهم من فحوى الكلام ومما تقدم، فاعملوا أيها المؤمنون لما يبقى، ولا تلهينكم زينة الحياة الدنيا فإن مصيرها إلى الزوال والفناء، وموعدكم يوم الحشر حيث توفون أعمالكم وتجازون على ما قدمتم منها جزاء وفاقا عدلا لا ظلم فيه، إن الله سريع الحساب .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم
مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ
هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا
وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

لمناسبة الكلام المتقدم على زوال الدنيا وفنائها و إقبال الآخرة وقربها، يذكرنا الله تعالى بيوم القيامة بادئا بفناء الكون مثنيًا بالحشر وتحقق وقوعه فكأنه قد وقع وقد عبر عنه بصيغة الماضي في مشاهده الرهيبة لتحقق وقوعها في يومها المحدود ﴿**وما نؤخره إلا لأجل معدود** ـ هود ١٠٤﴾ .

اذكر يا محمد وذكّر أمتك بهذا اليوم الهائل القريب يوم نسير الجبال، هذه الجبال الرواسي التي هي أوتاد الأرض تكون كالعهن المنفوش وتسير كالهباء أو كالسراب، أيّ قوة هذه التي تنسف الجبال نسفا وتذرها قاعا صفصفا، سبحان الذي أحاطت قدرته بكل شيء وأتقن صنعه كل شيء وترى الأرض بارزة، تمد الأرض مد الأديم لا عوج ولا أمت فيها، مرت جبالها الرواسي مر السحاب فبرزت الأرض وأشرقت بنور ربها وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت، ذلك يوم البعث والحشر والعرض والجزاء يعرض الناس كلهم على ربهم، ويقع الخطاب مركزا على منكري البعث الجاحدين له الذين تقدم عنهم الكلام منذ أول السورة، يعرض هؤلاء وغيرهم ممن أنكر البعث والحساب، يعرضون على ربك صفا صفا. وقعت الإضافة على كاف الخطاب وذلك إهانة لهم و إبعادا لهؤلاء السفهاء عن شرف الإضافة فهم لتكبرهم وتكذيبهم و إعراضهم لا يستحقونها بل يكون نصيبهم يومئذ الهوان والنسيان كما نسوا آيات الله فهم لا يستحقون من الله إلا أن يخاطبوا خطاب الإهانة والتبكيت .

﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾

لقد جئتمونا أيها المكذبون بالبعث كما خلقناكم أول مرة، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، كان الأولى بكم أن تتفكروا بعقولكم في قضية الخلق الأول فتستنتجوا منها إمكان الإعادة، وهي أهون، ولكنكم ضللتم وزعمتم أن لا بعث ولا حساب وما ذلك إلا لطغيان نفوسكم، فآثرتم أن تَفْجروا وأنكرتم البعث لأن فيه جمعكم للعرض والحساب فالجزاء، والحق لا يتغير لأهوائكم،

وأمـر الله لابد واقع، فهـا قـد وقع وهـا قد حشركم الله فلـم يغادر منكم أحـدا، جمعكم صفوفا ولم يترك منكم أحدا .

ورد في الحديث عن النبى ﷺ أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «يا عبادي إني أنـا الله لا إلـه إلا أنـا أرحم الـراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين هيئـوا كتبكم ويسروا حسابكم فإنكم محاسبون، يا مـلائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أنـامل أقدامهم» يصطفـون كلهم منتظرين أمـر الله فيهم حينئذ يـؤمن الكافـر إيمانا لا ينفعه، ويوقن المرتاب،ويعترفون بذنوبهم، فسحقا لأصحاب السعير.

﴿ ووضع الكتـاب فترى المجـرمين مشفقين ممَّـا فيـه ويقـولـون ياويلتنـا ما لهذا الكتاب لا يغـادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجـدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾

خمسة أشيـاء متعاقبـة من أمور يوم القيـامة: تسيير الجبـال، وبروز الأرض مستويـة، وحشر الأولين والآخرين مجموعين وعرضهم على الله صفـوفا، ووضع الكتاب المحصي عليهم أعمالهم كلها، تعرض هذه الأشياء الهائلة بصيغة الماضي متعاقبـة في جمل وكأنها قـد وقعت، وما أقـرب وقوعهـا، والكتاب المذكـور وهو الكتـاب الذي يحصي على كـل مكلف أعماله، فـالألف والـلام للجنس، وبُني الفعل للمجهول لأن الغـرض يتعلق بالوضـع نفسه لا بالـواضع فترى المجرمين مشفقين مما فيـه لأنهم علموا أنهم سيفتضحون بجرائمهم ومعـاصيهم فأشفقوا من إحـاطته و إحصائه لكـل صغيرة وكبيرة من أفعالهم وأقـوالهم، لم يترك واحدة إلا أحصـاهـا ووجدوا مـا عملـوا من خير أو شر محضرا، تعجبـوا وأشفقـوا من إحصائه الـدقيق لأعمالهم ولم ينكروا منـه زيادة في سيئـاتهم، ولو وقع ذلـك لكان الإنكـار بدل التعجب،فهم مشفقـون من دقة الإحصـاء ومن عدالـة الجزاء، ولا يظلم ربك أحدًا بزيادة في سيئاته ولا نقص من حسناته .

لله ما أروع إيقـاع هذه الجمل المتعـاقبة في قلوب الذين يؤمنون بالآخرة، وما أشـد وقعها على الـذين يجحـدون آيـات الله ظلما وعلوا، وقـد استيقنتهـا أنفسهم وسـيأتي اليوم الـذي يعترفون بها كانوا يكـفرون به من قبـل، وقد فات الأوان . ثم ينتقل الأسلـوب القرآني العجيب إلى قصـة سجود الملائكـة المكرمين لآدم وإبـاء إبليس اللعين واستكباره وعتوه عن امتثال أمر ربـه وما كان ينبغى له أن يفعل لولا أن سبق في علم الله وقضائه خذلانه، فنعوذ بالله من الخذلان ومن سوابق الشقاء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝

بعـد ذكـر طوائف الطغـاة من البشر وكيف كـان تكبرهم عن آيـات ربهم وتجبرهم على المؤمنين بـالله واليـوم الآخر، وكيف كـانت عـاقبـة هؤلاء وهـؤلاء، يذكـر الله قصة سجود الملائكة لآدم امتثـالا لأمر الله ويذكر إبـاء إبليس لامتثال أمـر ربـه كبرًا وحسـدًا، وهذا منـاسب لما تقـدم من مصير المتكبرين والجبـابـرة وكـذلك نـاسب بعد ذكـر منتهى هـذا العـالم أن يذكـر مبـدأه، وكيف أن الحق والبـاطل في صراع دائم، وأصل هـذا كله قصـة السجـود الـذي أمر الله بـه لآدم فامتثل الملائكـة أمر الله وهم سلف المؤمنين وأبـى إبليس وهو سلف الكـافرين ورأس المجرمين المتمردين، وتتكـرر هذه القصة في مناسبـات متعددة من القرآن الكريم وبأساليب متنوعة مـن التعبير القرآني البليغ ما بين مسهب وموجز ولكل وقعه حسب موضعه ومناسبته .

تـرد القصـة هنـا في سورة الكهـف وقبلها في سورة الإسراء وفى سورة الحجر وفي سورة الأعـراف وفي سورة البقـرة وبعد هـذه السورة تـأتينا في سـورة طه وفي سورة ص، وكـذلك سائر القصـص منها مـا يتكرر ذكره مطـولا ومختصرا ولكل

حكمته ومناسبته وفى كل عبرة وموعظة وذكرى، يصرِّف الله القول ويبيّن للناس آياته لعلهم يتذكرون .

﴿ وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لأدم فسجدو إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ .

اذكر لهم يا محمد قصة سجود الملائكة لآدم وإباء إبليس، والقصة معروفة عند قريش وسائر عرب الجزيرة يتناقلونها عن أهل الكتاب، ذكَّرهم بها لعلهم يتذكرون، اذكر يوم خلق الله آدم ونفخ فيه الروح وأمر الملائكة ومعهم إبليس، أمرهم بالسجود لهذا المخلوق العجيب وقد نفخ الله فيه الروح فامتثل الملائكة وسجدوا لآدم كلَّهم أجمعون امتثالا لأمر ربهم إلا إبليس كان من الجن، عصى وتمرد عن أمر ربه فلم يسجد استكبارا وحسدا لآدم، وقد كان يعتقد أنه خير من آدم وأن العنصر الذي خلق منه وهو النار أشرف من الطين التي خلق منها آدم، ومنعه هذا الكبر وهذا الزعم الباطل أن يسجد امتثالا لأمر الله الذي خلقه وخلق آدم كما سجد الملائكة كلهم، ذلك أن الملائكة أطهار أبرار، خلَّصَ الله أصلهم من الشهوات، أما إبليس فكان من الجن، سلطت عليهم الشهوات ابتلاء من الله كما ابتلى بها آدم وبنيه.

ويستشكل بعض المفسرين الأمر فيقولون: ما دام أمر السجود موجها للملائكة كيف يطالب به إبليس إذا كان من الجن فيقول بعضهم إن الجن المذكور هنا نوع من الملائكة ويستدلون لقولهم بقول الله تبارك وتعالى في سورة الصافات **﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** - الصافات ١٥٨﴾ والجنة هنا باتفاق المفسرين هم الملائكة وسموا جنة لاجتنانهم أي استتارهم عن أبصار الناس، ويرد على هذا القول أن إبليس نسب الله له الذرية، والملائكة لا يتوالدون فإبليس إذن من جنس الجن الذين يتوالدون كالإنس، والجواب عن الاشكال الذي تقدم أن الخطاب موجه إليهم جميعا ومادام

إبليس معهم فيـدخل في الخطاب أو يكون قد وجه إليه خطاب خاص ولولا أنه فهم يقينا أنـه داخل في الخطاب لتخلص من الأمر بجـواب آخر يكون لـه عذرا يخلصه من العقاب، فـلا معنى لإشكالهم هنا، والمعنى واضح فإبليس إذن فسق عن أمر ربه وعصى متعمدا ومنعه من السجود الكبر والحسد لاغير .

﴿ **قـال أأسجـد لمن خلقت طينـا** ـ الإسراء ٦١﴾ قـال كيف أسجـد لمن خلقتـه من طين وأنـا خير منـه خلقتنى من نـار، تكبر على أمر ربـه واحتقـر آدم وحسده على هـذا الشرف الذي أراده لـه ولذريتـه الذين سيكون منهم أنبياء الله ورسله وأولياؤه فهو منذ ذلك اليـوم يعلنها عداوة صريحة لآدم وبنيه وأنه سيسعى جاهـدا في إغوائهـم فنبهنا الله وحذرنـا من هذه العـداوة التى لا تـزول ونهانا أن نطيعه هو أو أحدا من ذريته .

﴿أفتتخـذونه وذريتـه أولياء من دوني وهم لكم عدو بيس للظـالمين بـدلا مـا أشهـدتهم خلق السمـوات والأرض ولا خلق أنفسهم ومـا كنت متخذ المضلين عضدا﴾

عجبا لكم يـا بنى آدم إن أمركم لغـريب، أنى تؤفكون أتغفلـون وتجهلون فتتخـذون إبليس وذريتـه وأنصـاره وأعـوانـه أوليـاء من دوني وهـم لكم عـدو؟ تتركون عبـادة ربكم الذي خلقكم والـذى أسبغ عليكم نعمه ظـاهرة وبـاطنة، والذى أمْركم بيده وإليه المصير؟ أتتركـون ولاية الله وتستبدلون بها ولاية إبليس وذريته وهـم لكم أعداء؟ .

﴿ بيس للظالمين بدلا﴾

أظهـر مكان الإضمار وعبر بلفظ الظـالمين ليتبين لنا أن من فعل ذلك فقـد ظلـم نفسـه ظلما عظيما، وكل أنـواع الظلم تنبع من ظلـم الشرك بـالله وهو الـذي يعمي بصيرة الإنسـان فينطلق من كل القيـود فيطغـى ويظلم ظلم من لا يخشى يوم الحساب ولا يخاف عاقبة الظلم وعقـوبة الظالمين، وقرن بإبليس ذريته لنعلم

أن لإبليس ذريةً وأعوانا وجنودا حتى نحذرهم.

واستشكل بعض المفسرين نسبة الذرية وأوّلهم بالأنصار والأعوان ولا داعي إلى العدول عن ظاهر اللفظ ويمكن أن يكون لإبليس ذرية كما لأشكاله من الجن، ونحن نعلم أن الجن يتوالدون كما يتوالد الإنس وإن كنا لا نعلم كيفية تناكحهم وتوالدهم ولا يعنينا هذا الأمر، إنما حذرنا الله من ولاية شياطينهم وولاية أشكالهم من شياطين الإنس الذين يصدون عن سبيل الله، واتخاذ هؤلاء أولياء يكون إما بطاعتهم ومعصية الله والرسول، وإما بعبادتهم وقد عبد الناس الشياطين، وذبحوا لهم وتقربوا إليهم بأنواع القربات رجاء عونهم واتقاء ضرهم وما يملكون لهم من ذلك شيء، إنما النفع والضر بيد الله وقد علمنا الله تعالى أن نستعيذ بالله من شر الشياطين وما أضللن، وأنزل على نبيه المعوذتين وآية الكرسي التي من قرأها أمن شر الشياطين وكيدهم وأنهم لا يضرون أحدا إلا بإذن الله، ونبهنا الله أن عداوتهم لا تنقلب ولاية أبدا .

﴿وهم لكم عدو﴾

فما أبلغ إتيان هذه الجملة في هذا المقام فهي جملة متمكنة مفيدة للغاية ممهدة للحكم الذي يأتي بعدها وهو قبح العوض الذي استبدله الظالمون من دون الله،أيبتغون عندهم النصرة والعزة وهم الضعفاء الأذلاء ؟ لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾

خلق الله السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وما أشهد أحدا من خلقه ولا أشهد هؤلاءالشياطين، أنى يشهدون ذلك وهم بعد في العدم لم يبرزوا إلى الوجود؟ ولا أشهدهم خلق أنفسهم ولا كان لهم بذلك علم ولا اختيار، كيف يمكن أن يُتَّخذ من هذا حاله وليا من دون الله،يُطاع ويعصى الله ويُعبد

ويكفر بالله العظيم؟ ما كان الله ليأذن في ذلك وما كان ليتخذ من المضلين أعوانا وأنصارا ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً والله غني عن العون والعضد، وكيف وهو الخالق وما سواه مخلوق؟ وهو الرب وما سواه مربوب؟ وهو الصانع وما سواه مصنوع؟ وفى هذه العبارة إشارة وتأديب لنا أن لا نتخذ من الظالمين أعضادا وأنصارا، وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يستعين بأهل الشرك على أهل الشرك والظلم، وقد عرضوا عليه أن ينصروه فأبى نصرتهم واكتفى بمن معه من المؤمنين على قلتهم، وكانوا يتوكلون على ربهم ويستنزلون النصر من عنده وحده وما النصر إلا من عند الله، هذا هو تأديب الله لعباده المؤمنين وهذه هي سيرة أنبيائه ورسله وأوليائه، لا يعتمدون إلا على ولاية الله ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم** ـ محمد ١١﴾ .

ثم ينتقل بنا الأسلوب القرآني البليغ إلى مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة حيث يزايل الله بينهم وبين شركائهم فيعلمون أنهم كانوا في ضلال مبين وأنهم كانوا ظالمين في اتخاذهم الشياطين وذرياتهم أولياء من دون الله، وأنهم بئس البدل.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة وهو مشهد رائع ترتعد منه الفرائص حيث يوقف أهل الشرك موقف الذل والخزي ويؤمرون أمر تبكيت وتوبيخ، يوجه إليهم القول:

﴿ نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم ﴾

يقول الله تعالى لهم نادوا شركائى الذين زعمتم وتعالى الله عن الشركاء، ولكن يقول لهم ذلك تبكيتا لهم حيث يقفون على بطلان زعمهم وخيبة أملهم في هؤلاء الذين يزعمون أنهم شفعاء، يشفعون لهم، فدعوهم ولكن هل يجيبون دعوتهم؟ هل ينصرونهم ويشفعون لهم؟ كلا، ما أخيبهم يومئذ إنهم لا يستجيبون لهم وقد كانوا في الدنيا عن دعائهم غافلين .

واستشكل بعض بُعد الشركاء عنهم وعدم استجابتهم هنا بينما يذكر القرآن في موضع آخر أن حوارًا يجرى بينهم .

﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ـ يونس ٢٨ : ٢٩ ﴾ **﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مومنون** ـ يونس ٤٠ : ٤١﴾ والذي نراه نحن أن لا إشكال في الموضوع وإنما تختلف العبارات حسب اختلاف المقامات وتعددها في يوم القيامة الطويل فهنالك مقامات يجمع الله فيها بين المعبودين وعُبَّادهم فيجري بينهما الحوار، وهنالك مقامات يزايل بينهم فلا داعي ولا مجيب فهي أحوال متعاقبة واليوم طويل وطويل يقول الله تعالى هنا:

﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾

اختلف المفسرون في تحديد معنى الموبق بعد أن اتفقوا أن مادة وبق معناها الهلاك فالموبق إذن مسافة بعيدة دون اجتيازها الهلاك وهذه المسافة إما مادية وإما معنوية وقد يتراءون ولكن يزايل الله بينهم فلا يطمع أحد في نفع الآخر لا ينصره ولا يدفع عنه ما هو نازل به، خابت الآمال، وانقطعت الأسباب، ذلك

هـو الموبق. وقد يكـون الـذين عبدوهـم من دون الله أنبياءَ أو أوليـاء وأنّى لهم حينئـــــذ أن يدركوهم وهؤلاء في رحمة الله ذهبوا إلى الجنة وهم بقوا وراءهم، ﴿**فضرب بينهم بسـور لـه بـاب باطنـه فيـه الـرحمة وظـاهـره من قبلـه العـذاب** ـ الحديـد ١٣﴾ هؤلاء صـاروا إلى رحمة الله وهؤلاء صـاروا إلى سخط الله وعذابه أنّى لهم أن يطمعوا في لقياهم أو في محاورتهم.

﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا**﴾

سماهم الله تعـالى مجرمين لأن الشرك بـالله والتمـرد على أنبيائه ورسلـه هـو أصل الإجرام بل هو الإجرام بعينه، إنهم يوم يرون العذاب يعلمون أنهم مواقعوه لما شهدوا من مبادئه وعلاماته، فالظن هنا بمعنى اليقين، وكأنهم كانوا قبل رؤية جهنم وسماع زفيرها يطمعـون في النجاة منها أو الـرجوع إلى الدنيـا، ولكنهم يوم يرونها عين اليقين يعلمون علم اليقين أنهم صالـوها، فتختلط بجلودهم وأعصابهم وقلوبهم، لا مفر لهم منها ولا يجدون عنها مصرفا يصرفهم عنها أو يصرفها عنهم. ﴿**ما للظـالمين من حميم ولا شفيع يطـاع** ـ غـافر ١٨﴾ هنـالك تنهار آمـالهم الباطلـة في شفعائهم الذين كانـوا ينتظرون شفاعتهم، تبرأوا منهم وكفـروا وكفر إبليس بما أشركوهم من قبل، إن الظـالمين لهم عذاب أليم، يا له من منظـر هائل تزعزع منه القلوب .

﴿**ولقد صرفنا في هـذا القرآن للناس من كل مثل وكـان الإنسان أكثر شيء جدلا**﴾

ولقد ضرب الله الأمثال من كل نوع فيه للإنسان هداية وعبرة وصرف القول فيهـا تعريفـا أي تنويعا،في كل ضرب من التعبير تأثير خاص في القلوب الواعية والنـاس أصنـاف شتى، فاقتضـت الحكمة الإلهيـة أن يصرف لهم القـول لعلهم يتذكـرون، فمن أراد الله أن يهديه هـذاه القول الحكيم إلى صراط مستقيم، ومن لم يرد هدايته تمسك بالجدل ﴿**وكان الإنسان أكثـر شيء جدلا**﴾ ﴿**ومن الناس**

من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ـ الحج ٨﴾ يكثر الإنسان من الجدال ولديه من الـدلائل ما لو تأمله لارتدع عن الجدال وكـان يكفيه النظر إلى أصل خلقتـه من تـراب ثم من نطفـة ثم سـواه ربـه رجـلا، يكفيـه أن يعتبر رجوعه يوم البعث من أصل خلقتـه الأول فيستدل بذلك على كمال قدرة الله على كل شيء، ولكن الإنسـان المجـادل تطغى عليه الأهـواء والشهـوات، يريـد أن يتبعها ويتحلل من شريعة الله ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ـ القيامة ٥﴾ .

﴿ وما منع الناس أن يـومنـوا إذ جاءهم الهدى ويستغفـروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الآولين أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾

إذا كـان الله حقا وقـد صرف أمثلتـه كل مصرف فما الذي يمنع النـاس من الإيمان إذن؟ إنهم قوم خصمون معاندون مقلـدون لآبائهم متبعون لأهوائهم ما يمنعهم من الإيمان والاستغفار من شركهم وعصيانهم إلا أن ينزل بهم عقاب الله وحينئذ يؤمنون إيمانا لا ينفعهم، وعقاب الله لمعاندي رسله شديد، وأنواعه كثيرة ولـه في أوائل المشركين وأسلاف المتمـردين سنن فما عليهم إلا أن ينظروا في سنـة الله في قوم نـوح وقوم هود وقوم صـالح وقوم لوط وقوم شعيب وقـوم تبّع، وفي سنة فـرعون وهـامان وقـارون والنمـرود وأمثالهم من المتكبرين، أهلكهم الله وتـرك في أخبـارهم عبرة للمعتبرين، لعل قومك هـؤلاء المعانـدين ينتظرون يـوما كأمثـال تلك الأيام، وهذا تهديد من الله شديد وإنذار ووعيد لمن ظهر له الحق ثم لا يتبع الهدى ولا يستغفر ممـا فرط من شركـه وإعراضه عن الحق طـويلا بعـد إذ جاءه، فهل ينتظر هؤلاء إلا انتقام الله وبطشه يـأتيهم قبلا أي جهرا لا سر فيه ولا خفاء ﴿**إن بطش ربك لشـديـد إنـه هـو يبـدىء ويعيـد** ـ البروج ١٢/١٣﴾ وهو لمن استغفره غفور ودود.

﴿ وما نـرسـل المرسلين إلا مبشـرين ومنـذرين ويجادل الـذين كفـروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوًا ﴾

يجادلون رسلهم بالباطل ويقترحون عليهم أنواعا من المعجزات، ويسخرون بآيات الله البينات المجلوة في الأكوان، والمتلوة في القرآن، ويستعجلون الوعيد الذي ينذرونهم به، ويقولون متى هو؟ واتخذوا آيات الله ووعيده هزؤا وما علموا أن مهمة المرسلين هي التبليغ لا غير، فالتبشير لمن اتبع وآمن، والإنذار لمن أعرض وكفر لا غير، إنْ عليك إلا البلاغ، إن رسل الله لا يملكون من أمر الوعد والوعيد شيئا، لا يقربون البعيد من وعيد الله، ولا يردون بأس الله إذا نزل على القوم المجرمين، إن هم إلا مبلغون ومبشرون ومنذرون فما لهؤلاء الكافرين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق؟ أي ليزيلوا به الحق، والحق ثابت لا يقوى الباطل على دحضه،بل الباطل هو الداحض الزاهق لا ثبات له مع الحق، ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ـ الإسراء ٨١﴾ إنهم اتخذوا آيات الله البينات وما أنذروا من أصناف النذر بعذاب الله الواقع في الدنيا والآخرة اتخذوا كل ذلك هزؤا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

كل أنواع المعاصي كبيرها وصغيرها ظلم، فهي إما ظلم الإنسان لنفسه وإما ظلمه لغيره،وأقبح أنواع الظلم الشرك بالله والكفر بآياته والإعراض عن ذكره،فلا أظلم في الناس ممن بعث الله له من يذكره بآيات ربه ويدعوه إلى الإيمان به وإلى عبادته وحده فأبى وأعرض ونسي عاقبة ما قدمت يداه من المعاصي والظلم والإجرام . ولا تكون أعمال أولئك الكفار المعرضين إلا سيئة، ولا تكون أقوالهم إلا سيئة،وهي صورة لانعكاس كفر قلوبهم وجحودها على جميع

جـوارحهم، وإن جاء التعبير بما قـدمت أيـديهم فذلـك جري على الغـالـب من أحـوال الإنسان لأن غـالـب الحركـات تنسب للأيـدى وإلا فـالمقصود هنـا كل الجوارح وما يصـدر عنها من الأقـوال والأفعال ممـا يكون رَانـاً على القلب، تلك هي أسبـاب عمى القلـوب وصممها، ونسب الله جعل الأكنة لنفسـه، لأن كل شيء من الله قضـاءً وقـدراً وخلقـا وتكـوينـا ﴿**ومـا ظلمهم الله ولكن كـانـوا أنفسهم يظلمون** ـ النحل ٣٣﴾ ظلموا أنفسهم بالإعراض عن آيـاته ونسيان ما قدمت أيديهم فكان ذلك طبعـا لقلوبهم وطمسا لها، ووقرا في آذانهم، ما صمت آذانهم وإنها لمرهفـة السمع ولكنهـا لا تنتفع بها تسمع لأنها لا تقبل الحق فكـان ذلك وقرا وصمها لها يمنعها من فقه ما تسمع، فإن تدعهم يا محمد إلى الهدى فلن يهتـدوا أبـداً ختم الله على قلـوبهم بسبب فساد أعمالهم فـلا تبتئس إن لم يـؤمنـوا بـآيــات الله، ولا تظنن أن ذلك بسبب تقصير منك في التبليغ فقــد بلّغت ومـا عليك إلا البلاغ، إنما إعـراضهم وكفرهم لنغل قلوبهم وعمى بصـائرهم فليسوا أهلا للفقه والاستماع إنهم لن ينتفعوا بالنذر أبدا.

﴿ وربك الغفـور ذو الـرحمة لـو يـواخـذهم بما كسبـوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾

وربك يا محمد، نسب اسم الرب لكاف الخطاب والمخاطب هو رسول الله ﷺ إيناسا لـه وتطمينا لقلبه وجبرا لخاطره، وهي نسبة تشعره بمعيـة الله ولطفه به ثم عرف الخبر ﴿الغفـور﴾ لإفادة القصــر، إن الله هو الغفور العظــيم المغفـرة، ذو الـرحمة الـواسعـة بالمخلـوقين ولـذلك أمهلهم ولم يعجلهم بـالعقـوبـة وهم يستحقونها، لو يؤاخذهم بما كسبت أيـديهم لعجل لهم عذابه بل أجله وأمهلهم ولهم مـوعد لن يخطئهـم ولن يجدوا من دونه ملجأ ولا محيصـا، وهم يحسبـون أن إمـلاءنـا لهم خيرا لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، ولـن يفلتوا من عـذابنـا، وسنسلك بهم مسلك الـذين سبقـوهم من المتكبرين الـذين صرفهم الله بكبرهم

عن آياته، فهم لا يهتدون ولا يستمعون للنذر حتى يأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون، يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿**فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ـ فصلت ٢٤﴾، تلك هي عاقبة هؤلاء المعرضين فلا يغرنهم إمهال الله لهم ﴿ **ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون** ـ الأنفال ٥٩﴾ ، وكان الأولى بقومك أن يعتبروا ويتعظوا بمن سبقهم من الكفار المكذبين بالنذر، المعرضين عن آيات الله، فأهلكهم الله وتركوا قراهم خاوية بما ظلموا، أفلا ينظرون إلى تلك القرى التى أهلك الله أصحابها وضرب موعدا لإهلاكها ؟ فلما جاء أمر الله وأيقنوا بالهلاك لم يستطيعوا لأمر الله دفعا، ولم يجدوا عنه موئلا، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم وكيف أصبحت قراهم عبرة للمعتبرين؟ إنهم لم يعتبروا بمن سبقهم فجاء موعدهم فأنفذ الله فيهم حكمهُ ولم يستطيعوا له ردا، فقد أرى الله نبيه مصارعهم يوم بدر وأراه مصارع المستهزئين وغيرهم من المتمردين على الله بعد قريب من نزول هذه الآيات وصدق الله العظيم .

ما أبلغ هذه الآيات تعقيبا على ما سبق من أول السورة في أمر المكذبين بآيات الله المتكبرين على رسله المعرضين عما جاءهم من الهدى إنها صورة مطابقة لهم ولأمثالهم، ممن ختم الله على قلوبهم من الكفار حتى تقوم الساعة وهي أيضا تثبيت لقلوب الدعاة إلى سبيله أن يثبتوا على أمرهم ولا يضعفوا أمام هؤلاء العتاة فإن لهم موعداً لن يتجاوزوه، ﴿**إن أجل الله إذا جاء لا يؤَخر لو كنتم تعلمون** ـ نوح ٤﴾ ﴿**ألآ إلى الله تصير الأمور** ـ الشورى ٥٣﴾ . ﴿**استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ـ الأعراف ١٢٨﴾ . ثم ينتقل بنا الأسلوب القرآني إلى موضوع آخر شديد الاتصال بجو السورة العام :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا
قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى
ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا
عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

اذكر لهم يا محمد رحلة موسى إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالرجل الصالح الذي علمه الله علما لَـدُنّيًا، فكان من شأنه مع موسى ما كان، وتكلم أهل التفسير في موسى هذا هل هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل صاحب التوراة أو غيره، وإذا كان هو نبي بني إسرائيل المعروف فكيف ترك بني إسرائيل وذهب في رحلته هذه التي عزم أن يمضي فيها حقُبا، أبإذن من الله؟ ومن يترك لبني إسرائيل خليفته عليهم، استشكلوا هذا الغياب من هذا النبي الرسول؟ والراجح فيما يبدو وحسبما تثبت الرواية عن ابن عباس أنه هو نبي بني إسرائيل المعروف لا غيره، وأنه هو الذي يتحدث عنه القرآن كثيرا باسمه المعهود موسى، ولا نعرف هذا الإسم في القرآن كله إلا لهذا النبي الرسول صاحب التوراة، وأن الرحلة كانت بإذن من الله، وأن سبب هذه الرحلة أن بني إسرائيل سألوا موسى هل تعلم في الأرض أحدا أوتي من العلم ما أوتيت؟ فقال لا، وذلك إثر خطبة بليغة خطبها فيهم بيّن لهم فيها الحلال والحرام وبين حدود الله وأحكامه ووعده ووعيده وهذا بعدما جاءهم بالتوراة التي فيها هدى ونور من الله، فألقوا عليه هذا السؤال، وقد تعجبوا من سعة علمه وحكمته وبيانه، فأجاب حسب اعتقاده أن لا أحد في الأرض يعلم مثل هذا العلم، وكان ينبغي أن يرد العلم إلى الله ويقول: «الله أعلم»، فنبهه الله على خطئه هذا وأوحى إليه أن في الأرض عبدا من عبادنا عنده من العلم ما ليس عندك يا موسى، فطلب موسى من الله أن يدله عليه

حتى يستزيد من العلم الذي عنده ويضيفه إلى علمه وقد علم مما أوحي إليه أن طلب العلم فريضة وقربة هي من أعظم القرب إلى الله، فرغب أن يحصل على هذا الفضل ولو طالت الشقة وعظمت المشقة، فأذن الله له في ذلك ودله على طريقه وجعل له علامة على عثوره على الرجل، فعزم على قصده واصطحب معه فتاه يوشع بن نون وهو من ذرية افرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام، وكان قد صحب موسى وخدمه ولزمه تقربا إلى الله ورغبة فيما عنده من العلم، لا عبدا مملوكا له بل خادما متطوعا، كما كان أنس بن مالك لنبينا محمد ﷺ .

ولنرجع إلى جواب موسى بالنفي حين سأله بنو إسرائيل هل في الأرض أعلم منك؟ لا يجوز أن نظن به أنه قال ذلك اعتزازا وفخرا، إنما نفهم من جوابه أنه إنما قال ذلك اعتقادا لما يقول أنه الحق، وتحدثا بنعمة الله وفضله عليه، وسدا لباب المخالفة والمعاندة لقومه، وهم المعروفون بالعناد والمخالفة، ولو يظنون أن هنالك من هو أعلم منه لجادلوه ولامتنعوا من متابعته حتى ينظروا هذا الذي يجدون عنده من العلم ما لم يكن عند موسى، فلنحسن الظن بأنبياء الله تعالى وأوليائه، لقد سد عليهم هذا الباب حتى يتبعوا ما أنزل الله ويؤمنوا بالكتاب كله ويعملوا بما شرع الله لهم ويكفوا عن الاختلاف والسؤال المراد به العنت.

كان هذا هو السبب في هذه الرحلة من نبي الله موسى في طلب العلم؛ قال لفتاه لا أبرح سائرا حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا، والحقبة في مشهور استعمال العرب ثمانون عاما، يعني أنه لا يزال سائرا حتى يجتمع بالرجل العالم وقد جعل الله له علامة التقائه به في مجمع البحرين حيث تدب الحياة في الحوت الذي يتخذه زادا ويتسرب في البحر فذلك هو الموضع الذي يلتقي فيه بمراده، وقد تكلم المفسرون في مجمع البحرين أي مجمع هذا؟ أفي مجمع البحرين من مضيق هرمز؟ أو مضيق جبل طارق كما قال القرطبي؟ أو مجمع بحر الروم ببحر فارس؟ أو مجمع خليج العقبة بخليج السويس؟

والذي نراه ونرجحه هو هذا الأخير لأن جزيرة سيناء هي مضطرب موسى وبنى إسرائيل وما كان الله ليبعده عن قومه بعيدا وهو إمامهم ومعلمهم، هذا الذي نراه ولا يمتنع أن يكون غيره والله أعلم، ولا يفوتنا من القصة غرض الاعتبار بجهلنا هذا الموضع ولو تعلقت به فائدة لذكره الله وعيّن موضعه .

سار نبي الله موسى وفتاه يوشع يحمل الزاد وهو حوت في مكتل، وطويا مسافة السفر في مدة يعلمها الله حتى بلغا مجمع البحرين، وقد أوصى موسى فتاه أن يخبره إذا فقد الحوت لأن فقدانه وتسربه في البحر علامة على التقائهما بالعبد الصالح فاتخذ الحوت سبيله في البحر سربا بعد أن دبت فيه الحياة، ولكن قدر الله شاء أن ينسيا حوتهما ويغفلا عنه، تسرب الحوت داخل الماء وبعد مدة من السير شعر موسى بالجوع والتعب .

﴿فقال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾

حينئذ تذكر الفتى أنه عندما أوى إلى الصخرة، دبت الحياة في الحوت فقفز في البحر واتخذ سبيله في الماء ولكن الفتى نسي أن يخبر موسى بذلك وعبر بصيغة التعجب .

﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا﴾ .

وهذه العبارة (أرأيت) كثيرا ما تستعمل في كلام العرب ولا يراد به حقيقة معناها الاستفهامي، إنما يراد بها التعجب، وقد تكرر ورودها في القرآن قال له: **﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾**، والصخرة موضع قالا فيه أو باتا ثم استأنفا سيرهما، هنالك قفز الحوت في البحر فنسي الفتى أن يخبر موسى بذلك لأنه قال **﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾** كما نسي موسى أن يسأل الفتى عند استئناف السير لأنه صاحب الأمر الذي ينبغي أن يهتم له، ولذلك نسب

النسيان أول الأمر إليهما معاً فالفتى نسي ذكر الحوت لموسى، وموسى نسي أن يتفقد أمره عند الارتحال، هذا ما يبدو لي من الفرق ولم أره قبل، إذن فالمنسي عند الفتى هو ذكر الحوت وخبره لا الحوت نفسه، ونسب هذا النسيان لنفسه لا لهما ونسب الإنساء إلى الشيطان لأنه السبب فيه، وتعجب من أمر الحوت، وأمره حقا عجب،ترجع إليه الحياة بعدما أخذ منه النصف وقيل أقل وقيل أكثر، ثم يذهب سابحا في لجة الماء قال موسى ذلك ما كنا نبغي أي هو الأمر الذي نطلب لأنه علامة على وجود المقصود .

﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾

رجعا يقتصان آثارهما لا يحيدان عنه يمنة ولا يسرة حتى عثرا على مطلوبهما.

﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾

عند الصخرة وجدا عبدا من عباد الله نائما مسجى في شملته،وقيل وجده يصلي، نسبه الله إليه نسبة تشريف وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما لم يؤته غيره من العباد، ألقى موسى عليه السلام، فرد عليه الخضر: عليكم السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال موسى: ومن أنبأك أني نبي بني إسرائيل؟ قال أنبأني الذي أرسلك إليَّ، وهذا من العلم اللدني لهذا العبد الصالح الذي يكاد يتفق الرواة أن اسمه الخضر، ويختلفون في نسبه، ولا يتعلق الغرض باختلافهم في هذا ونحوه ويذكرون أنه لا يزال حياً يرزق، وأنه اجتمع به بعض الصالحين، وقد يكونون اجتمعوا بروحه كما اجتمع النبي ﷺ بأرواح الأنبياء ليلة أسري به، ولا نكذب بما يخبر هؤلاء الصالحون وعالم الأرواح أوسع من عالم المادة، أما أن نقطع بوجوده حياً كما يقول الكثير فلا، ثم يختلفون بعد ذلك في نبوته فيقول البعض أنه نبي لأن الله قال آتيناه رحمة من عندنا، والرحمة هنا هي النبوة لقول الله تعالى **﴿أهم يقسمون رحمة ربك ـ**الزخرف ٣٢**﴾** فالرحمة هنا قالوا هي النبوة ولا نرى هذا يكفي دليلا لإثبات النبوة، وقد قال أصحاب الكهف،ونحن نقول بعدهم

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا﴾ ولم يريدوا بها النبوة ولا أحد يقول بهذا فهو إذن عبد صالح ميزه الله واختصه بعلم من لدنه .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ
لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

عرض موسى طلبه على الخضر عرضاً، تأدبا معه وكم لنا من آداب نتعلمها من كتاب ربنا الحكيم، قال له:

﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلّمتَ رشدا﴾

يعلمنا القرآن أدبا آخر من آداب التعلم وهو أن طالب العلم تابع والمعلم متبوع لشرف العلم فهو الإمام ومن سواه مأموم، ثم يصرح موسى بطلبه وهو أن يعلمه مما علم من الرشد والهدى.

﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبرا﴾

أجابه العبد الصالح قال إنك لن تستطيع معي صبرا والحكم مؤكد بإنَّ، ونكر الصبر، والنكرةُ في سياق النفي تؤذن بالعموم فلا استطاعة لموسى إذن على أدنى صبر مع الخضر وكيف ذلك وقد جاء يطلب العلم؟ ذلك لما سيأتي .

﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾

قال له عاذرا وكيف يتأتى لك أن تصبر على أمور لم تحط بها تأويلا إنك ياموسى أوتيت علم التوراة فيها أحكام الله وفيها هدى ونور غير أن العلم الذي

اختصني الله به لا صبر لك عليه كيف يصبر موسى على أمـور ظاهرها يخالف ما عنده من الحكم وهو النبي الرسول المكلف بالنهي عما يراه في الظاهر منكرا فهو معذور إذن إن لم يستطع صبرا مع تصرفات الخضر، غير أنه قال له في هيئة طالب العلم المتأدب مع معلمه .

﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴾

وتأدب مع ربه فقال : ستجـدنى إن شاء الله صابرا، فقـد علق أمره بمشيئة الله، وهذا من الأدب العالي الذي نتعلمه من كتـاب ربنا والذي نقتدي فيه بأهل الهدى من أنبيـاء الله ورسلـه الـذين جعلهـم الله قـدوة لمن بعـدهم من المؤمنين ﴿أولئك الـذين هـدى الله فبهـداهم اقتـده ـالانعـام ٩٠﴾ وعده أن يصبر معـه الصبر الذي يرضاه وأكد هذا الصبر بعدم عصيانه فقال هو :

﴿لا أعصي لك أمرا﴾

لا أخالفك في أمـر ولاأعصى أوامرك مطلقـا، وهذا هو الأدب العـالي الذي يجب أن يتحلى به المتعلم في عِشرة معلمـه حتى ينال مما عنـده من العلم: التواضع والخدمـة والصبر والطاعـة الكاملـة، وينبغي أن يلين لـه القول حتى يطيب قلبـه فينـال منه مـراده، وكـذلك كنـا نعـامل مشايخنـا رحمهم الله: كنـا نتلطف لهم إذا أخطـؤوا بعبارات لطيفـة ننسب فيهـا القصـور إلى فهمنا حتـى إذا كرروا العبـارة وأولوها عناية خاصـة لتفهيمنا أدركوا خطأهم بأنفسهم ولا نجابهم بما يسوءهم، وربما نعرض وجه الصـواب عرضا إذا لم يتنبهوا له، ولانجابهم بـالتخطئة أو عدم الفهم تأدبـا معهم ورفعـا لمقـام العلم، نتقبل منهم اللـوم والعتـاب ونتلقى عنهم الصـواب، ونستأني بهم إذا أخطـؤوا، أيّ أدب هذا تحملـه هـذه العبـارة القرآنيـة البليغه وتفيضه على تاليها والمتدبرين لمعنـاها، هذا والطاعة المطلقة لا تكون إلا لله ولمن عصمهم الله، أمـا طـاعـة غير هـؤلاء فهي في معروف وهذا معروف عند أهل العقول الذين صنعت عقولَهم شريعةُ القرآن الحكيم .

﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾

قال أستاذ موسى لموسى إن اتبعتني لتتعلم العلم فلا تعاجلني بالسؤال عن شيء لم تفهم تأويله حتى أكون أنا الذي أكشف عن حقيقته وحقيقة القصد من فعله، وأكد له النهي، تأكيدا حتى يلزم متابعة هذا الشرط ويصبر ولا يستعجل وكأنه علم أنه سيغلب على أمره ولا يطيق الصبر لأن أفعاله لا تجري على الأحكام التي في علم موسى، وعقب نهيه بغاية كشفه له عن حقيقة الأمر الذي يأتيه حتى يصبر في انتظار الفائدة، وهل أجدى ذلك في موسى؟ وهل صبر كما أمره وكف عن السؤال والاعتراض؟ إن حدة موسى في الأمر والنهي لم تتركه يسكت بل أنسته ما كان قد قطعه على نفسه ووعد به معلمه .

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴾

انطلقا سائرين على سيف البحر حتى وجدا سفينة ففاوضا أهلها في ركوبها معهم فأذنوا لهما في ذلك من غير مقابل أجرة، ولم يحدثنا القرآن كما روى بعضهم عن ذلك ولا عن وجهتهما في هذا السفر ولا تكون الرحلة إلا في وجهة صالحة لأن هذا العبد الصالح المعلم لا يمشي إلا لقصد نبيل، وهذا ما لايحتاج إلى تنصيص، كما أنه لم يحدثنا عن مقدار المسافة التى قطعاها في البر والبحر، وهذا ما لا يتعلق به غرض، إنما يحدثنا عن نقط العبر من القصة، يقول: بينما هم سائرون في البحر إذا بالخضر يأخذ حديدة يخرق بها جدار السفينة فما إن يرى منه موسى ذلك حتى يسارع في الإنكار ناسيا كل شيء قال له: أخرقت السفينة ليدخل الماء فيها فيغرق أهلها إن هذا لأمر عظيم وما هذا بالجزاء الذي يجزى به المحسنون؟ قالها كلمات صريحة تفيض بالحدة والإنكار مخاطبا بها معلمه الذي كان وعده أن يصبر له ولا يعصيه في أمره ولا يعارضه في شيء يراه منه حتى يكون هو الذي يخبره بحقيقته والقصد منه. أجابه الخضر مذكّرا إياه بوعده وشرطه عليه :

﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾

جاء السؤال في صيغة التقرير وذلك أبلغ حتى يكون موسى هو الذي يقر بالحقيقة ويرجع إلى الصبر، وهذا من الأدب العالي الذي يشرعه القرآن في معاملة أهل العلم لأتباعهم ومريديهم، أليس قد قلت وأكدت القول أنك لن تستطيع الصبر على ما لم تحط به خبرا؟ وهذا تنبيه منه لموسى حتى لا يعود مرة أخرى إلى هذا الخطإ، فتلقاه موسى بكامل الأدب واعتذر لمعلمه بالنسيان وطلب منه أن لا يؤاخذه على هذا النسيان الذي صدر منه لأول مرة، وأن لا يرهقه بالمؤاخذة عليه ولا يعسر عليه في أمره .

﴿ قال لا تواخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾

عبارات يقولها موسى مخاطبا بها معلمه، فيها التلطف وحسن الاعتذار، وليس فيها أدنى شيء من المعارضة والتنطع، ولذلك سكت عنه معلمه عاذرًا له عافيا عنه كأن لم تقع مخالفة، وهذا ما ينبغي أن يقع في معاملات التلاميذ لمعلميهم وفي معاملات المعلمين لتلاميذهم من العفو عن السقطات الصغيرة التي لم يسبق لها مثيل، والتي مبعثها الغفلة والنسيان لاسيما إن سلم القصد منها .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ
نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾
قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

نزلا من السفينة واستأنفا رحلتهما سيرا في البر وانطلقا حتى لقيا غلاما وسيماً فأخذه الخضر، ففصل رأسه عن جسده فمات، لما رأى موسى هذه العملية أخذته سَوْرَةٌ في إنكار المنكر ولم يصبر ونسي ما كان وعد صاحبه من الصبر فأنكر عليه قال:

﴿ أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً ﴾

أتقتل نفسا بريئة طاهرة لم ترتكب إثما ولم تقتل نفسا لقد أتيت أمرا منكرا، كان إنكـار موسـى هذه المرة أشد على صـاحبه من الإنكـار الأول لأنه هنـا قتل محقـق، وفي الأول غرق متوقع ربما يترتب عليه موت، لذلك جاء جواب الخضر أشد من جوابه الأول .

﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾

أما قلت لك صراحة إنك لن تستطيع الصبر معي، ذكّره بالقول الذي قاله له فنسيه، وكـان هذا النسيان هذه المرة مكررا فهو أعجب وأبعـد عن العذر فهو نسيان يستوجب العتـاب وربما العقاب، لذلك فهم موسى فداحـة خطئه وحدّة معارضته، وما كان ينبغى أن يفعل لو صبر، فسارع إلى الاعتذار والإعذار:

﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا﴾

قال نـادماً على نسيـانه يعتـذر لمعلمه: إن سألتك عن شيء بعـد هذه المرة فـاطـردني إن شئتَ من مصـاحبتك، قـد بلغت من لـدني عـذرا لتكـرر خطئي وخُلفِي، إنما أطلب منك العفـو هـذه المرة وأرغب إليك أن تتركني في صحبتك ولا تطـردني،وأعدك أن لا أعـود فإن أنـا عدت فـلا عـذر لي معك، والأمر أمـرك حينئذ إن فـارقتني فأنت معـذور، من جهتي غير ملوم، قـال موسى هـذا الكلام ويعلم الله مـا في نفسه من الصبر على ما شاهده من صاحبه في هذه المرة والتي قبلها من عمل لا يتحمله عقله ولا يقره علمه، ولكنه تذكر وصبر آملا أن يحدث له معلمه ذكـرا عندما يريد هـو لا عندما يسأله تلميذه، فقبل منـه معلمه للمرة الثانية اعتذاره والعذر عند كرام الناس مقبول .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

فاستأنفا سيرهما حتى إذا أتيا قرية طلبا من أهلها طعام الضيافة فلم يفعلوا وأبوا ضيافتهما، و إطعام الضيف واجب في الدين، وفي حق المروءة والأخلاق، فقد ارتكب أهلُ القرية إذن إثماً يأباه الشرع، وتأباه الأخلاق والمروءة، بينما كان استطعام الخضر وموسى ليس فيه غضاضة لأنهما طلبا حقا لهما، وحق الضيف واجب قبل أن يستطعم يتعجل به كرام الناس ولا يؤخرونه .

وفي تعبير القرآن بالضيافة استثارة لشعور السامعين بحق إكرام الضيف الذي استقر في النفوس، وتفظيع لمنكِر هذا الحق و إبائه لتقديمه ورفع لمقام الخضر وموسى عن ذل السؤال وفداحته، فليس عملهما هذا تسولا، فمن ظنّه ذاك فقد أساء في حق العبدين الصالحين وأخطأ خطأً بينا، ولا شك أن هيئة الرجلين ليست في هيئة الشحاذين والمتسولين، بل هي هيئة أهل الهمة والمروءة، فما أحرى أن تستقبل هيئتهما بالحفاوة والإكرام، ولكن أهل القرية الذين استضافاهم بخلوا، وما أقبح البخل لاسيما في مثل هذا المقام وعلى مثل هذين الضيفين الكريمين.

﴿فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾

وجد الخضر وصاحبه في هذه القرية جدارا مائلا للسقوط، ولا غرابة في التعبير عن هذا الميلان بالإرادة، والجماد ليست له إرادة ولكن هذه العبارة مألوفة مستعملة في كلام العرب وغيرهم، وفي العبارة تعبير مبين عن مقدار هذا الميلان وأنه على وشك السقوط فكأن حالته حالة من يريد السقوط، فهو مجاز بليغ، فمر عليه الخضر بيده فأقامه، فاستقام بإذن الله، هكذا تؤذن العبارة بالاقامة لم يقل بناه ولا دعمه ولا رممه، وهي معجزة وكرامة لهذا العبد الصالح الذي علمه الله وقواه على ما يشاء لما يريد لحكمة يعلمها، عندها تأثر موسى لما رأى من صاحبه من الإحسان إلى من لا يستحقون الإحسان في نظر موسى فاعترضه قائلا:

﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾

قال لـه لو شئت لطلبت أجر عملك الكبير هذا، إنهم نـاس لا يستحقون الإحسان وهـم لم يقوموا بـواجب الإحسان لضيفهم، فلـو قطعت عليهم شيئـا يكون أجرة عملك نقيم بـه أودنا، ونحن في حاجة إلى طعام كما ترى، قال هذا الكلام ناسيا وعده الأول والأخير، فاستوجب العقاب من معلمه ولا يكون هذه المرة إلا الفراق.

﴿قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾

عندها قال الخضر لصاحبه هذا فراق بينى وبينك لا بقاء لك معي بعد هذا الاعتراض الذي استوجبت به ما قطعته على نفسك من الفراق وعدم المصاحبة، إنه هـذه المرة لا يستحق العفو لأنه كرر الـذنب ثلاث مرات وقد نطق هـو بنفسه بنوع العقوبة إذا هـو كرر السؤال، ولأنه في المرتين الأوليين أنكر ما رآه منكرا، وفي هذه المرة أنكر ما يراه معروفا وهـو الإحسان، وما ينبغى لمثله أن ينكر هذا الإحسان ولـو كـان في نظره واقعا فيمن لا يستأهلونه، ولكن هذا الإنكار من مثل موسى النبي الرسـول ذنب، وحسنات الأبـرار سيئات المقـربين، فحق الأنبياء أن يـدعوا النـاس أن يحسنوا إلى من أسـاء إليهم حتى لا ينقطع الفضل بين الناس، فإنكـاره هذه المرة منكر من مثله لا يستحق العفو، لذلك قال له معلمه :

﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾

هـذا الذي ارتكبته من الخطأ وما ينبغي من مثلك، سيكون سببا للفراق بيننا ولك عليّ قبل أن نفترق أن أنبئك بتأويل مـا فعلتُ مما أنكـرتَه عليَّ، وقـد وعدتك من قبل بذلك فاستمع:

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

أما السفينة التى سألتني عن خرقها فكـانت مِلكًا لمساكين يعملون في البحر يحملون عليهـا الناس وأثقـالهم، وقد يكونـون صيادين لـلأسماك، وليس لهم مورد

من الـرزق غيرها فهي معتمـد معيشتهم بعد الله، فأردت أن أحـدث فيها بخـرقي إياهـا وترقيعـه عيبا يكـون سبباً في إنقاذها من غصب الملك الجبار، وكان وراءهم ملك يغصب كل سفينة صحيحة ليس فيها عيب، فلو لم أعبها لأخذها منهم هذا الملك غصبـا، فيحـرمهم من مورد معيشتهم، فيكـون الضرر أعظم، فـاخترت أن أحـدث لهم هـذا العيب الذي هو وإن كان ضررًا خفيفا فسيكون وقاية لها من الضرر العظيم، وهو فقـدانها وحرمـانهم منها، فقـد أردت لهم خيرًا وما فعلتـه هو بإذن الله لا من أمري .

وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

وأما الغلام الذي أنكرت عليّ قتله فكان أبواه مؤمنين صالحين فخشيت أن يهلكهما ويحملهما بطغيانه وكفـره ما لا طاقة لهما به من المشقـة والعنت في الدنيا أو ما لا طاقة لهما به من عذاب الله يوم القيـامة إن هما طاوعاه على طغيانه وتمرده، وقد علمت مما علمني الله أن الولـد إن يَعِشْ فسينشأ شقيا عصيا، فأردت وإرادتي من إرادة الله وبإذن الله أن أقتله صغيرا وفي قتله راحة له من عذاب الله، وراحة لوالديه من تمرده وطغيـانه، وسيصبران على فقده محتسبين أجـرهم عنـد الله، وسيعوض لهما بصبرهما خيرا منـه زكـاة وأقرب رحما من ولـد صـالح ذكـر أو أنثى، علم الله ذلك وعلمني أياه، وسيبرهما هذا الولد الثاني وسيكون لهما رحمة من ربهما .

وإضافة الرب إليهما فيه إشعار بحفـاوة الله بهما وأنه مولاهما الذي يريد بهما خيرا، وفيه إشارة إلى ما يجب أن يكون عليـه المؤمن من الرضا بقضاء الله والصبر على بـــلائه ففي ذلك حسن العوض من الله تعالى على ما فات وخير الخلف عما فقد، وأن ثقـة المؤمن بربه تكـون أعظم من ثقته بما في يده ولا تكون عاقبة الصبر إلا خيرا، وقد قيل عوضهما الله عنـه بأنثى نشأت صالحة برة بـوالديها، وخرج من نسلِها عدة أنبياء، والله أعلم .

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

ثم يبين الخضر لصاحبه حكمة إقامة الجدار المائل فيقول: وأما الجدار الذي أقمته فهو لغلامين يتيمين من أهل المدينة تحته كنز لهما تركه لهما أب صالح فأراد ربك يا موسى أن يعيشا حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وذلك بفضل صلاح والدهما، وكل الذي فعلته مما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام و إقامة الجدار فهو من أمر ربي وبإذنه، ذلك يا موسى تأويل ما لم تسطع عليه صبرا، إذ لو علمت حكمة ما صنعت ما عارضتني بأسئلتك، ولو صبرت لأحطتك علما بما صنعتُ.

هكذا يحيط الخضر صاحبه خبرا بما رأى ولم يدرك تأويله، ثم يتكلم المفسرون في الرجل الصالح الذي يترك لأولاده كنزا كيف يكون هذا من رجل مؤمن متوكل على الله يكنز المال ويتركه لأولاده مدفونا تحت الأرض؟ قال بعضهم ليس الكنز مالا مدفونا إنما هى حكم مكتوبة في رق، ولا داعى إلى هذا التأويل إذ يجوز أن يترك لهم مالا وفي الحديث الصحيح: «لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»، ويقول ابن عباس رضي الله عنه: «كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولو كان مدفونا تحت سبع أرضين»، ونحن نقول يجوز أن يكون الأمران جميعا مال مدفون وحكم مكتوبة حتى يستفيد الولدان بالمال ويعملا بالحكم فينالا منفعة معيشتهما في الدنيا وثواب عملهما في الآخرة، أما إقامة الجدار فليبقى الكنز محفوظا، إذ لو سقط عليه الجدار لانطمر في أنقاضه فيصعب على الولدين استخراجه، وربما يعجزان عن ذلك وقد تضيع معالمه بسقوط الجدار وربما يظهر الكنز فيأخذه الناس بسقوط الجدار، أو يعثرون عليه حين يحفرون عن أساس الجدار لإعادة بنائه فينهبونه، ففي إقامة الجدار حفظ لمال حلال تركه أب

صالــح لولــديه، وفي صلاح الوالدين صلاح للذرية وضمان لحقوقهم بعدهما ببركة تقواهما، وهذا ما تفيده عبارة القرآن: ﴿**وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك**﴾ .

تلك هي إرادة الله ورحمته وعنايته تختص أهل الصلاح والتقوى في أنفسهم وأهليهم، كما رأيت يا موسى أمثال هذه الـرحمات من ربك، وهي ما تفيد إضافة الرب إلى كاف الخطـاب حتى يعتبر موسى بما وجد من رحمة ربه وعنايتـه به منذ ولادته وفي جميع مراحل حياته، وكان بالمؤمنين رحيما .

ولنـا في مطاوي القصة حكم وأحكام وعظات ترشدنا وتعلمنا أن نتقبل ما ينزل علينا من قضاء الله وقدره بقلوب مطمئنـة راضية بحسن تأويل ما نراه بلاء ومصائب إذ كثيرا ما تكـون عواقبها خيراً لدنيـانا ،أما الآخرة فهـو الأجر العظيم ورفع الـدرجـات ونـزول الـرحمات للصـابـرين، وفي الدنيا يعقب الصبر الظفر ﴿**فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ـ النساء ١٩﴾ .

والذي يظهر لنا من هذه المسائل الثلاث أمور كبرى من أمور الحياة:

(الأمر الأول) : الاعتنـاء بالفقـراء والمساكين ومساعـدتهم وتخليصهم من ظلم الأقوياء المتجبرين .

(الأمـر الثاني) : الاعتنـاء بـالـوالدين وتحذيـرهم من فتنـة الأولاد، وأن من الأولاد عدواً للوالـدين يكون سببا في فتنتهم وهلاكهم، وتعليمهم الرضا والصبر على مـا يهلك من أولادهم في سن الصبـا ولا يدرون كيف تكـون نشأتهم إذ ربما تكون نشأتهم مرهقـة لوالديهم فليصبروا على القضاء، وليرضـوا بقدر الله وليثقوا بـه، وليعلموا أن مـا اختـار الله لهم خير لهم ممـا اختاروا لأنفسهـم، ولا يريـد الله بعبده المؤمن إلا خيرا فليتق ويصبر .

(الأمـر الثالث): الاعتنـاء بأمر الأولاد مـن طرف الـوالدين والاحسـان إلى اليتامى ومسـاعدتهم على شئـونهم والمحافظـة على تركاتهم، وإن هـذا من أعظم

القربات. في هذه المسائل الثلاث التي أطلع الله نبيه موسى من عبده الصالح علمٌ واسع ينير نواحي الحياة ويزيد المؤمن إيمانا فيتمسك بأركان الدين الأربعة التي لا يتم إيمانه إلا بها وهي: التوكل على الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله ،والاستسلام لأمر الله والعلم بأن كل أمر واقع من قضاء الله وقدره لا يخلو من حكمة لله بالغة، وأن ثواب الصبر عند الله خير وأبقى .

هذا نمط من علم الله اللدني الذي علمه عبده الصالح والذي لا يظهر لموسى وغيره من الأنبياء، ولو صبر موسى لتعلم أكثر، ولا شك أن للخضر تصرفات بإذن الله قبل التقائه بموسى وبعده، وهذا نمط منها وفوق كل ذي علم عليم، وعلوم الله واسعة وحكمه بالغة وعواقب أهل الإيمان والصلاح حميدة ورحمة الله قريب من المحسنين .

ولنا في خرق السفينة قاعدة تنير لنا الطريق في باب واسع من الفقه وهو أن إحداث الضرر اليسير جائز إذا كان ذلك وقاية من الضرر الكبير، فلولا ذلك الخرق الذي لم يكن خطراً على السفينة لغصبت عليهم سفينتهم فيحرموا منها ويفقدوا معتمد معيشتهم وهذا أعظم من خرقها وترقيعها، فهو وإن كان عيباً فيها ولكنه لا يفوتهم مصلحتهم منها، تلك هي قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

أما قتل الغلام فليست من محيط علمنا ولا تجري وفق تصرفاتنا وليس في شريعة الله المنزلة علينا قتل الصبيان ولو ارتكبوا ذنوبا وهي في حقهم لا تكون ذنوبا تستوجب العقوبة لأن قلم التكليف مرفوع عن تصرفاتهم ما لم يبلغوا الحلم، ولنا فيها من الحكم ما تقدم مما يزيد إيماننا ويقيننا ورضانا بما يقدّره الله لنا، والذي نستفيده منها ومن التي بعدها أن تقوى الله تدفع المكروه الذي في غيب الله عنا وعن أولادنا، فما أعظم بركة التقوى على المتقين، وما أقرب رحمة الله من المحسنين.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ
وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ
نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾

في هـذه الآيات تأتي القصـة الثالثـة من القصص المعروضـة في هذه السورة المبـاركة التي تحمل هي الأخـرى عبرًا وعظـات لأولي الألباب، وهنـا يأتي الجواب عن السؤال الثالث من الأسئلة الثلاثـة التي اقترحها اليهود على كفار قريش حين سألـوهم عن خبر هذا النبى المرسل، اقترحـوا عليهم أن يسألوه عن ثـلاثة اسئلـة وقـد تقـدم بيانها فـإما أن يجيب عنهـا كلهـا أو لا يجيب، وكـلا الأمـرين مسقط لرسالته، وإما أن يجيب عن بعضهـا ويفوض البعض الباقي إلى الله فهو نبيّ حقا، وهذا السؤال الثالث يأتي جوابه كما يلي .

﴿ قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ﴾

قل لهم يا محمد سأتلو عليكم من شأنه ذكرا يكون لكم به موعظة واعتبارا . ولا تـرد في الآية كل تفـاصيل الحكـاية فليـس هذا من طـريقـة القرآن في عـرض القصص، فهو لا يعرض إلا ما تتعلق به الفائدة مـن تثبيت أصول الدعوة وقواعد الإيمان بالله واليـوم الآخر مما جـاءت به الرسـالات الربانيـة، ولذلك لم يتكلم عن هويـة هذا الرجل الذي يُسمَّى ذو القـرنين، ولا عن سبب تسميته بهذا الإسم، ولا عن تـاريخ ظهـوره ولا عن مـوطنـه الأصلي، كـل ذلك لا يتعلق بـه الغـرض من الدعـوة، وللمفسرين والقصاص حظهم مـن ذلك وقد اختلفوا فيـه كثيراً، فمنهم

من قال إنه نبي واستدلوا لقولهم هذا بقوله تعالى:

﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾

ولا يكفي هـــــذا في الاستدلال على صحة قولهم كما نرى ويراه كثير من المفسرين لأن هذا القول الموجه له من الله يمكن أن يكون بطريق الوحي المباشر، ويمكن أن يكون بطريق نبي من أنبياء زمانه، ويمكن أن يكون إلهاماً له من الله وإرشادًا، ويتفق المختلفون في نبوته وعدمها في أنه ملك صالح، ملك ملكا عريضا في مغرب من الأرض ومشرقها كما ينص على ذلك كلام الحق جل جلاله، ثم يختلفون في موطنه وهوّيته فيقول البعض إنه هو الاسكندر المقدوني اليوناني وموطنه مقدونيا وهى عاصمته ونقطة انطلاقه، ويقول آخرون إنه غيره، لأن الاسكندر كان تلميذاً لأرسطو طاليس اليوناني وهذا له فلسفة في الإلهيات مناقضة لأصل الدين الإســلامي الذي جاءت به الرسل، ولا نطيل في تفاصيل اختلافاتهم لأن ذلك يشغلنا عن المقصود، إلا أنا نعرض هنا خبراً قرأناه في بحث مهم لأحد الكتاب المعاصرين وهو عالم بحاثة مسلم من علماء الهند أبوه هندى وأمه عربية ولد سنة ١٨٨٨م وتوفي سنة ١٩٥٨ سكن المدينة وتزوج فيها وولد، وله مؤلفات كثيرة وهو ذو ثقافة عربية وهندية وانجليزية، وهو من الذين يعتمد على أبحاثهم .

وملخص بحثه في الموضوع كما يلي: يقول العالم البحاثة أبو الكلام آزاد: «ما دام السؤال جاء من طرف اليهود فلابد أن يكون لهم علم ببعض شأنه فمن أين لهم علم به؟ إنا نجد في سفر دانيال من أسفار التوراة أن دانيال عليه السلام رأى رؤيا عندما كان اليهود مأسورين عند الملك بختنصر الذي سلط على اليهود وخرب بيت المقدس وهيكل سليمان وكان هذا الملك وثنيا طاغية قتل عددا كبيرا من اليهود وأسر عددا وشتت شملهم وذلك عقوبة من الله لهم لقتلهم أنبياء الله بغير حق، في هذه الفترة من الزمن كان نبي الله دانيال رأى رؤيا، ورؤى النبيين وحي وحق، رأى في المنام كبشا ذا قرنين كبيرين ينطح بهما شرقا

وغربـا، ثم رأى تيسا جاء من جهة الغـرب له قرن واحـد صلب نطح به الكبش فكسر قرنيـه وأرداه قتيلا، ثم إن دانيـال عليه السـلام سأل جبريل عليـه السلام عن تفسير هـذه الرؤيا فقـال له جبريل: «أمـا الكبش ذو القرنين فهـو ملك ذو سلطـان يخرج في بلاد فارس يقوى أمره ويشتد، وأما التيس ذو القرن الواحد فهو ملك يخرج في أرض اليونان يتغلب على الأول ويخرب ملكـه » فكان الأمر كذلك، بعـد مدة خـرج في بلاد فـارس ملك مـؤمن يسمى « قورش » وحـد مملكة فـارس وضـم إليها مملكة أخـرى بجانبها تسمى « ميديا » فكون من المملكتين دولـة قوية الجانب مرهوبة ثم هجم إلى جهـة فلسطين وحرر اليهود من الذل الذي كانوا فيه، ووحد شملهم وأعاد بناء هيكل سليمان، وطهر بيت المقدس وعمره، ثم زحف إلى بلاد آسيا الصغرى وفتحها وضمها إلى امبراطـوريته، ثم توجه صوب المشرق وفتح بلادا واسعـة واشتهر أمـره اشتهارا كبيرا وهـو مؤسس دولـة الفرس وكـان هذا في القرن السـادس قبل الميلاد، وبعـد موت هذا الملك الصـالح بقي الملك في أولاده حتى آل إلى الملـك «دارا» الأكبر المشهـــور في التاريخ ثم ورثه بعده ابنه «دارا» الأصغـــر الذي هجم عليه ملك اليونان الإسكندر المقدوني فاستولى على مملكته وقتلـه وكان مقتلـه على أيـدي بعض حرسـه، وبقتلـه انتهى سلطان هـذه الأسرة فالإسكندر هو التيـس ذو القرن الواحد الذي جاء من جهة الغرب في رؤيا دانيال النبي عليه السلام ،وذو القرنين هو الملك «قورش» الذي آمن بدين الإسلام الذي هو دين أنبياء بني إسرائيل» .

ثم إن الاستاذ أبـو الكلام آزاد صـاحب هذا الكـلام بعد أن اطلع في سفر دانيال على هذه الاخبـار سافر إلى إيران ليتحقق من صحـة هذه الأنباء وبحث في تلك البلاد عن الحقيقة فدرس معالم التاريخ والآثـار القديمة وجغرافية البلاد فعثر على ما يؤيد ما قرأه في سفر دانيال وهو اكتشاف وقع على أيدى بعض الباحثين في حفـريات الآثـار القـديمة، عثـروا على تمثـال حجـرى «لقورش» الملك الفـارسي الكبير وللتمثال قرنان وذلك في القرن التاسع ولا يزال التمثال محفوظا في دار الآثار

فهذا التمثال ذو القرنين يؤيد ما ذهب إليه البحاثة الهندي أن الملك الفارسي «قورش» هو ذو القرنين وهو مؤمن صالح كما يروي الإسرائيليون في أخبارهم أنهم عرضوا عليه ديانتهم فاستحسنها واعتنقها، وهو ما تدل عليه الآية إنه مؤمن بالله واليوم الآخر، عادل في أحكامه رحيم برعيته. نشر هذا البحث لهذا العالم الهندي في مجلة صدرت في أثناء سنة ١٩٥٢ وهذه حجج قوية لا تقوم لها حجج من يقول إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني، وقد اكتفينا بما نشره هذا الكاتب عن التعرض إلى أقوال أخرى واختلافاتهم، في حقيقة هذا الرجل .

أما وجه تسميته ذا القرنين فقيل لأن رأسه فيها قرنان، وقيل كان يضفر شعره قرنين، وقيل لأنه رأى في المنام أنه أمسك الشمس من قرنيها، وقيل لأنه شجاع مقدام فأطلقوا عليه الاسم .

﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا﴾

التمكين هو التثبيت، ثبت الله قدمه في الأرض ومكنه من القوة ما استطاع أن يرسي به دعائم ملكه وقد استعمل القرآن كثيرا كلمة التمكين لهذا المعنى ثم قال:

﴿وآتيناه من كل شيء سببا﴾

والسبب في اللغة هو الحبل، واستعمل مجازا لكل قوة تساعدنا على نيل مرادنا، إذن فقد مكن الله هذا الملكَ من كل القوى التي يتمكن بها، من تصريف أمور الملك من سياسة الرعايا وعمارة الأرض ومحاربة الأعداء وغير ذلك من المواهب القوية التى تمكنه من إدارة ملكه إدارة رشيدة، وتمكنه أيضا من توسيع رقعة مملكته، هذا ما تدل عليه كلمة ﴿كل شيء﴾ أي من كل شيءٍ ينبغي لمثله من الملوك، ولا تحمل على عموم كل شيء إذ لا يكون هذا إلا لله خالق كل شيء وقد وردت هذه العبارة في القرآن في شأن بلقيس ملكة سبأ **﴿وأوتيت من كل شيء** ـ النمل ٢٣﴾ أي من كل شيء مما يصلح لإدارة الملك وعمارة الأرض، وكذلك جاء في ريح عاد **﴿تدمر كل شيء بأمر ربها** ـ الأحقاف ٢٥﴾ نعم تدمر كل شيء ولكن لا تدمر

الجبال ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا تدمر إلا ما على أرض عاد قوم هود وما وراء ذلك لا تدمره، هكذا تفهم المعلومات على ضوء المعقول والمنقول .

﴿فاتبع سببا﴾

وقد يستعمل السبب في الطريق، أى سلك طريقا في غزوه لما يجاوره من البلاد وقد مكنه الله بذلك فاتجه في غزوه إلى جهة الغرب .

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً ﴾

حتى إذا بلغ في سيره مغرب الشمس أي حيث تغرب الشمس من ساحل البحر، والمشهور أنه انتهى إلى ساحل آسيا الصغرى بلاد الأناضول شرقي البحر الأبيض المتوسط، مشى هو وجنوده حتى ردهم البحر الذي تغرب الشمس من جهته، وعلى سواحله عيون وأنهار وبرك تتجمع فيها المياه فتصير بطول المكث حمئة يقف الراكب دونها ويبدو للناظر أن الشمس تغرب فيها، هنالك وجد قوما يعمرون هذه الأرض وقد يكونون ممن يعيشون على صيد أسماك البحر، تمكن ذو القرنين من هذه الأرض واستولى على أهلها فصاروا تحت سيطرته يتصرف فيهم كما يريد .

﴿ قلنا ياذا القرنين إما أن تُعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾

قول الله لذي القرنين قد يكون بطريق الوحي إن كان نبياً، وقد يكون على لسان نبي من أنبياء الله في زمانه وفي شريعة من شرائع الله المنزلة يتبعها هذا الملك الصالح، فوَّضه الله فيما يستولى عليه من البلاد إما أن يعذب أهلها المحاربين له، وإما أن يتخذ فيهم طريقة العفو والإحسان فكانت طريقته فيهم طريقا وسطا وهو طريق الموفقين أمثاله .

﴿قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربّه فيعذّبه عذابا نكرا، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا﴾

أمـا من ظلم منهم بـالإعـراض عن الإسـلام فـاستبـدل الشرك بـالإيمان، والمعصية بـالطاعـة، فأولئك يلاقون منـا العذاب بـالقتل أو السجن والتقييد أو النفي أو غير ذلك من أنواع العـذاب المشروعة لأمثالهم من العصـاة المتمردين، وسيرد إلى ربه يوم القيـامة فيعذبه عذابا نكـرا، أي أليما فظيعا مقيما، وأما من آمن وعمل صالحا فلـه من الله الجزاء الحسنى وسنعامله بـالحسنى وسنقول له المقـالة الحسنى وسنكرمـه ونقربـه جزاء على إحسـانه، وهذا لا يتـم إلا بالإيمان والعمل الصالح، أمـا الإيمان فبالعقيدة التى بعث بها كل الأنبيـاء والرسل، ﴿**إن الدين عند الله الإسـلام** ـ آل عمران ١٩﴾ وأما العمل الصالـح فبما جاء في شريعة نبيهم وكتابهم: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر المبرات التي يدعون إليها .

هكذا يبين الله لنا دستور العبـد الصالح ذي القرنين في رعاياه ويبين الله لنا أن الإيمان لا يتم إلا بقرينه العمل الصالـح، وأن إيمانا بغير عمل صالح لا يعتد به، فهو كلا إيمان، فدستور ذى القـرنين إذن دستور رشيد ينبغى أن يتقفاه الملوك والـرؤسـاء في رعاياهم إن راموا فيها صلاحا، وذلك هو الميزان الذي نفرق به بين أصناف الناس لا اعتبـار للأجناس ولا للألوان ولا لـلأنساب ولا للفقر والغنى، بل الاعتبـار وحـده للفـرق بين الكفر والايمان والفسـاد والصـلاح، ليس هنـاك مقياس غير هذا، وكل شيء وراء هذا فهو باطل .

﴿ ثم اتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدهـا تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾

ثم اتبع سببا أي سلك طريقا آخـر صوب المشرق يغزو ويسـتولى على البلاد ينشر فيها الإسلام حتى إذا بلغ مطلع الشـمس، بلـغ ساحل البحر حيث تنتهـي رحلتـه البرية عنـد هـذا الساحل الشرقي وجـد قـوما ليس بينهم وبين الشـمس الطالعة حجاب من بناء ولا من جبـال أو كهوف، إنمـا هم قـوم بداة ينتشرون في بـاديـة واسـعة مترامية الأطـراف هـذا الذي نرجحـه من هذا المعنى ، و إن قـال

بعض المفسرين إنهم قوم عراة تطلع الشمس على أجسادهم العارية ليس بينهم وبينها من لباس، وعلى كل فهم قوم كفار جهلة غزاهم هذا الملك الصالح لينشر فيهم الدين الحق، وليعلمهم كيف يعبدون الله، وقد سلك فيهم نفس المسلك الذي سلكه في أهل مغرب الشمس، وإن كان القرآن لم يفصل ذلك بل أجمله في كلمة ﴿كذلك﴾ يعني كانت سياسته فيهم هي السياسة الشرعية التي سلكها فيمن قبلهم، وقد أحاط الله به وبالقوم الذين غزاهم خبرا وعلم سرهم ونجواهم، وهي السياسة التي لو سلكها الملوك والرؤساء المسلطون على الناس لصلح أمر العباد والبلاد، ولكن الله يولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون، فاعتبروا يا ملوك المسلمين ورؤساءهم بسيرة هذا الملك الصالح فإن الله إنما مكنكم في الأرض لتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ولا تطغينكم أبهة الملك ولاتسكرنكم نشوة الرئاسة والتسلط، فإن الله مستخلفكم فناظر ما تعملون، فمجازيكم عليه جزاءً وفاقا. ثم إن ذا القرنين استمر في رحلته في بلاد الله العريضة ينشر الصلاح ويدعو إلى الله .

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟
لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا
جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا
يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

كـانت رحلـة ذي القـرنين في هـذه المرحلـة داخل البر بعـد أن بلغ مغـرب الشمس من ساحل البحر الغربي ومطلـع الشمس من ساحله الشرقي سار في البر العريـض فاتحا وغـازيا **﴿ثم أتبع سببا﴾** أي سلك طـريقا **﴿حتى إذا بلغ بين السـدين﴾** أي بلغ فجاً بين سلسلتين مـن الجبال **﴿وجـد من دونهما قـوما لا يكادون يفقهون قولا﴾** وجد من دون السدين أي في الشق الذي يليه منهما قوما ذوي لغة تخالف لغته فهم لا يكـادون يفقهون قولا، و «كاد» في اللغة العربية نفيها إثبـات وإثبـاتها نفي، إنهم يخاطبونـه ويخاطبهم، ولكن كـانـوا يفهمونـه بمشقـة وصعوبـة ولو لم يفهمـوه مطلقا مـا خاطبـوه وما خاطبهم كما سيـأتي، وقال بعض المفسرين: لا يكادون يفقهـون قولا لبلادتهم وبساطتهم لا لاختـلاف اللغة ولكن هذا القـول مردود عليهم ولـو كانـوا كذلك لم تصدر منهـم تلك الأعمال العظيمة التى تحقق بها أعظم مشروع عـرف في ذلك الزمان وما يزال أعجوبة ولم يتحقق إلا بمساعدتهم، ثم إن اقتراحهم لبناء السد يدل على أصالة رأيهم .

﴿قالـوا ياذا القرنين إن ياجـوج وماجـوج مفسـدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا﴾

لما رأوا قوة عتـاد هذا الفاتح الجديـد، ووفرة أموالـه، وتوسموا فيـه الصلاح وحب الخير قالـوا يا ذا القـرنين: إن بجوارنـا قومـا مفسدين في الأرض يهلكون الحرث والنسل يغيرون على زروعنـا يهلكـونها ويـذبحـون أغنامنـا وحيـوانـاتنـا ويقتلـون منا عـددا، «قيل إنهم كانـوا يأكلـون بنى آدم»، إنهم يأجوج ومأجـوج قبيلتـان أو شعبان عظيمان لا قبل لنـا بهم، ولا قوة لنـا على رد غاراتهم وفسـادهم، فهل نجمع لك أموالا على أن ترد ظلمهم وفسادهم؟ نضرب لك في أموالنا خرجا، والخرج في اللغة هو الأجر الذي يدفع عن طواعية واختيار، والخراج هو الذي يؤخذ بـالقوة، وقيل هـو خراج الأرض أي جـزء من غلل الأرض المأخـوذة عنوة يأخـذه الفاتح، **﴿أم تسـألهم خـرجا** ـ المؤمنون ٧٣**﴾** أي أجراً، طلبـوا من ذي القرنين أن

يضربوا له في أموالهم خرجا يدفعونه له على أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا يـرد عنهم شرهم وفسادهم، وعرضوا لـه هذا الطلب عرضا يـدل على سداد رأيهم ورجاحة عقولهم، وحسن أدبهم مع هذا الفاتح القوي الأمين .

﴿قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما﴾

أجابهم ذو القـرنين بجواب حكيم يدل على نزاهتـه وأمانته وعفته، وأنـه ما جـاء يفتح البـلاد لجمع الأموال، والتمتع بها، كما هـو شأن أغلب الفـاتحين إنما جـاء ينشر الصـلاح في الأرض ويهدي الناس إلى صراط الله المستقيم، عرضوا عليـه الأمـوال فـأبى، وقـال في قناعة ونزاهة: ما مكنني فيه ربي مما ترون خير من جمع الأمـوال، فقـد مكنـه الله في الأرض وقواه بما أيده به من الجنود والعتاد والأموال ومعرفة استخراج خيرات الأرض وكنوزها وبركاتها ، وتلك هي أسباب الغنـى في الأمم لا مجرد جمع الأموال فإنها لا تغنى شيئا إذا أهملت الأسباب الأخـرى، وكأن هـذا الملك يضع بمقالتـه هـذه دستـوراً لما يجب أن يكون عليـه الأقويـاء الفاتحون إذا أرادوا إصلاح البـلاد وعمارتها وامتلاك الـرعايا بـالإحسان إليهم وحسن سياستهم لهم، قال لهم لا حاجـة إلى خرجكم، ولكن أعينوني بقوة أبدانكم أجعل بينكم وبين عدوكم بنيانا عظيما لا قبل لهم باختراقه .

﴿آتـوني زبـر الحديـد حتى إذا سـاوى بين الصـدفين قـال انفخـوا حتى إذا جعله نارًا قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾ .

اجمعـوا لي قطع الحديـد واجمعـوا الحطب الجزل، فـوضعـوا قطع الحديـد بعضهـا على بعض ووضعـوا خلالها حـزم الحطب وأشعلـوا فيهـا النار ونفخـوا عليها بمنافخ كثيرة لتشتد النار فتـذيب الحديد، كل ذلك بأمر ذي القرنين وعلى نظام وهنـدسة يتم بها العمل الجبـار وقد ساوى بين الصـدفين، والصدف أنف الجبل البـارز أي بلغ من ارتفـاع ردم الحديـد مستوى الجبلين وسـد مـا بينهما، ولا يقـوى على هذا العمل إلا من مكنه الله في الأرض بالقوة والعلم والجنود وسائر

الإمكـــانـــــات، فنفخوا في النار واشتد لهبها، فاحمر الحديد فصار مجموع الحديد والحطب نارا، وهو مـا تدل عليه العبارة البليغة (حتى إذا جعله نـارا)، عندها حمي الحديد والتـزقت زبره بعضهـا ببعض فصارت بنيـانا واحـدا تتخلله أخـاديد هي مواضع الحطب المشتعل، لذلك أمر بذائب النحـاس وهو القطر كان أوقد عليه في قدور راسيـات عظيمة فافرغت على الـردم فملأت تلك الأخاديـد والتحم الحديد بـالنحـاس فصـار أقـوى مـا يكون شدة وصلابة وهو ما يقرره علماء المعادن والتصنيع يقولون إن الحديد يشتد بمزجه بالنحاس، وهذا ما علمه ذو القرنين منذ ستـة وعشرين قـرنـا ولا يعلم إلا الله مقـدار مـا أوتي هـذا الملك مـن الـوسـائل والتمكين حتى يقـوى على إتمام هـــذا العمل العمـلاق في وسط هذا الجحيم من النـار، فإذا بالـردم العظيم يسد مـا بين الصـدفين والله يعلم ما بينهما من العـرض والعلو، وكم يستهلك هـذا السد السميك من الحديـد والنحاس في هندسة دقيقة وعمل متقن، شهد له القرآن الحكيم بعبارات صـادقة لم تحكها خيالات القصاص ومبالغات الشعراء .

﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾

سـد عظيم عـال سميك، لم يستطع الشعبـان الكبيران يأجـوج ومأجـوج أن يصعدوا عليه فيظهـروه، ولم يستطيعوا أن يحدثوا فيه نقبا يسلكـون منه، وما ذلك إلا لضخامته ومتـانته وعلوه ودقة صنعه، أتمـه هذا الملك الصالح بإعانـة هؤلاء القوم وبفضل ما مكنـه الله فيه من مختلف العلـوم والقوى، وحين أتمـه ورآه سـامقا بإذن الله لم يغتر بقوته ولم يتكبر ولم ينس فضل الله عليه، بـل ازداد تواضعا واعترافا بفضل ربه وتمكينه إياه .

﴿قـال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعـد ربي جعلـه دكـا وكان وعـد ربي حقا﴾

كلمات تنبع من قلب أفعم إيمانا ومحبة للـرب المنعم، واعترافا بفضله ورحمته،

فقد جاءت فيها كلمة « الرب » مكررة ثلاث مرات مضافة إلى ياء المتكلم إشعارا بشدة تمسك هذا الرجل بربه وحبه إياه وتوكله عليه، وأنه ملأ عليه وجدانه وكيانه، فلا يزال لسانه رطبا بذكره لا يذكر غيره، قال هذا رحمة من ربي أي هذا المشروع الضخم العملاق لم يكن من تفكيرنا ولا من قوتنا وإنما قيامه وتمامة برحمة ربنا وسيكون فناؤه وانتهاؤه بأمر ربي، فإذا جاء وعد ربى جعله دكا أي دكه الله وسواه بالأرض كما تندك الجبال عند قيام الساعة فسيكون هدمه بيد الله لا بيد الإنس ولا بيد الجن، ولابد سيتحقق هذا الأمر عند أجله المعلوم لأنه وعد الله ووعد الله حق وسيكون انهدامه من أشراط الساعة لأن أمورا تقع يومئذ عظاما منها النفخ في الصور .

هكذا ينطق هذا الملك المؤمن بكلمات تدل على إيمانه بربه وبما جاءت به أنبياء الله ورسله، إن كل شيء في هذه الدنيا سيأتي موعد هلاكه وفنائه فلا يبقى إلا وجه الله الكريم، إنه لم يطغ بملكه كما طغى من أغفل الله قلبه عن ذكره من الملوك والأغنياء أمثال النمرود وفرعون وهامان وقارون وصاحب الجنتين، لم يقل كما قال قارون ﴿**إنما أوتيته على علم عندي** ـ القصص ٧٨﴾، بل قال هذا ﴿**رحمة من ربي**﴾ كما قال العبد الصالح نبي الله سليمان حين مثل بين يديه عرش بلقيس العظيم ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر** ـ النمل ٤٠﴾ وهكذا يعلمنا الله في كتابه الكريم أن نقتدي بأمثال هؤلاء ممن أحبهم الله وأنعم عليهم بنعمة الإيمان والهدى ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم أقتده** ـ الأنعام ٩٠﴾.

ولننتقل إلى الكلام عن موضع هذا السد، فقد زعم كثير من المفسرين وأهل الأخبار أن موضعه في شمال شرقي آسيا في بعض سلاسل الجبال هناك، قال بعض في جبال أرمينيا وأذربيجان، وقال آخرون في سلسلة جبال من البحر الأسود وبحر الخزر، وقيل في ترمذ، وقال بعض في جبال منغوليا، ولا يزال الأمر غامضا لم نعلم

أنهم اكتشفوا سدا من حديد ونحاس، فلا نستطيع أن نرجح قولا على قول .

أما يأجوج ومأجوج فمن هؤلاء الأقوام؟ وهل خرجوا واختلطوا بالناس؟ يزعم كثير من العلماء أنهم التتار الذين أغاروا في القرن السابع الهجري على بلاد الإسلام هجوما عنيفا اكتسحوا فيه البلاد ، واكثروا الفساد في الحرث والنسل، ذبحوا مذابح رهيبة أرهبت الناس وشردتهم، وهم أقوام من المغول أطلقوا عليهم التتار لأنهم أفواج كثيرة متتالية، قيل هؤلاء هم يأجوج ومأجوج تنطبق عليهم أوصافهم، فهم من كل حدب ينسلون، وهل ظهروا السد ونقبوه أو خرجوا من أطراف الأرض وهل أندكَّ هذا السد أم لايزال قائما؟ أما حديث صح عن النبى ﷺ روته عنه أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: «أستيقظ النبى ﷺ ذات ليلة ووجهه محمر فقال: ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج قدر هذا ، وأدار السبابة مع الإبهام » ولا نعلم شراً أصاب العرب أعظم من هجوم التتار. فهل يكونون هم القوم؟ نرجح هذا ولا نجزم به، كان هجوم التتار ويلات متتابعة في مدة ستين سنة اكتسحوا فيها البلاد فكأنهم سيول من نار زاحفة تأتي على الأخضر واليابس، لا يرد سيلهم أحد، يقتلون الناس، ويهتكون الحرمات، ويتخذون المساجد مرابط لخيولهم وحيواناتهم ويخربون خزائن الكتب تمزيقا وتحريقا وتغريقا، وروي أنهم اتخذوها معبرا في نهر دجلة فضاعت بذلك ثروات لا تقدر من المخطوطات الفريدة التي أفنى العلماء أعمارهم في تصنيفها وتحقيقها، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الإسلام، فقضوا على خلافة العباسيين ودمروا ملكهم العريض وطووا خلافتهم في البلاد طي السجل للكتاب، فانهارت دولتهم، وهجموا على بلاد الشام وفلسطين وهددوا مصر بالهجوم عليها فبعثوا إلى ملكها «قطز» أن يستسلم ويدخل تحت طاعتهم وهددوه بأنواع التهديد، فأبى أن يستسلم واعتصم بالله واستنهض الناس لقتالهم وللدفاع عن الإسلام ضد هؤلاء الوثنيين الهمجيين وخرج هو بنفسه وخرج الناس معه لمقاومة هؤلاء الأعداء بعيدا عن قصبة ملكه، فكان موضع الملاقاه بهم في فلسطين

في موضع يسمى «عين جالوت »حيث وقعت الوقعة المشهورة، التي انتصر فيها المسلمـون على التتار لأول مـرة بعد ستين سنـة، ومـا كانـوا يظنون أنهم يغلبـون فخيب الله ظنهم وشتت شملهم وكسر حدتهم على يـد هذا الملك الأعجمى قطز كما هزم الله الصليبين على يد القائد العظيم صـلاح الدين الأيوبي، لقد أبلى الملك قطـز وقائده الأعلى «بيبرس» بـلاء حسنـا وضربوا أروع مثـال في الدفاع عن بيضة الإسـلام فأنـزل الله عليهم نصره وهـزم أعـداء الإسـلام على أيـديهم وقتل قـائد التتار«هـولاكو» فـانهد بنيانهم وتفرقت جموعهم فلـولاً، ثم إنّهم بعد هـذه الهزيمة تـوزعـوا في البلاد فابتلعهم الإسلام فاعتنقوه وانتهى أمرهـم، وكانت هذه الوقعة المشهـورة التى انتصر فيها الإسـلام في شهر رمضان المبارك من سنة ٦٦٨ هـ بعد اثنتي عشرة سنة من احتلالهم بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية .

فأعجبـوا لهذا الشهر المبارك شهر رمضـان الذي تحققت فيه للإسـلام منذ فجـره انتصـارات بـاهـرة كـانت السبب في قوته وانتشاره وبقائه، فغزوة بدر الكبرى وفتح مكة كانـا في شهر رمضان، وكذلك وقعة الـزلاّقة التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين في الأندلس لما استغاث به المعتمد بن عباد كانت يوم الجمعة منتصف شهر رمضان، فلله ما أبـرك هذا الشهر على المسلمين، كانت وقعة عين جـالوت التي انتصر فيهـا المسلمون على التتـار من أعظم الوقـائع بعد انتصـار القائد صلاح الدين الأيوبي على الصليبين .

﴿وتركنا بعضهم يؤمئذ يموج في بعض﴾

الموج تـدافع الميـاه الكثيرة في البحار يقول الله تبارك وتعالى : وتركنا الناس يـؤمئـذ يمـوج بعضهم في بعض، إشـارة إلى كثرتهم وابتعادهم عن الله، فهم متركون لحالهم وذلك قـرب قيام الساعة بعـدما يندك السد ويفيض هـذا البحر من البشر على العالم بحر يـأجوج ومأجوج، وقد رأينا اليـوم كيف يموج البشر في هذا العالم لارتفاع الحواجـز وكثرة وسائل المواصلات السريعة فيه، فـالعالم اليوم

كأنه دار واحـدة تدار الأحـداث فيه بأزرار، فإذا بالـوسائل الجهنميـة من وسائل التـدمير تجول شرقـا وغــربــا في لحظات لا يقوم لها مانع ،كل يسعى في إهلاك الآخــرين، مـرجت أحــوالهم، وارتفعت الثقــة من بينهم، واحتل الخوف محل الأمن، والفزع محل الطمأنينة، وكثـر الهرج، وتماوجت قوى الشرق وقوى الغرب، وهذا نـراه من أشراط السـاعة التي تـدل على قرب نهايـة العالم وفنـائه، فتفسيرنا اليـوم لهذا التماوج تفسير واقعي لا نظري كما فسره من قبلنـا، فنحن اليـوم نعيش في تأويل هذه الآية ولا ندري ما سيقع بعد ولا يزداد الأمر إلاّ تفاقما .

﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾

بعد هذا التماوج البشري ينفخ في الصور نفخة الفزع ونفخة الصعق والأمر قريب ولا يزداد إلا قـربا، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «كيف أنعم بـالدنيا وقد التقم إسرافيل الصـور؟!» فهو قد التقم الصور وأحنى رأسـه وأصغى سمعه ينتظـر أمر ربـه فينفخ، فالأمـر قريب، ولا يقـولن قائل كيف هـذا القرب وقـد مضى على الآية أربعة عشر قرنا، نعم هو قريب وصدق الله العظيم: **﴿اقتربت السـاعـة وانشق القمـر** ـ القمر ١ **﴾ ﴿اقترب للنـاس حسـابهم وهم في غفلة معرضون** ـ الأنبياء ١ **﴾ ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ـ النحل ١ **﴾** وأمثالها من الآيات التـي تدل على قـرب قيام السـاعة، وفي الحديث الشريف عن النبى ﷺ «بعثت أنا والسـاعة كهاتين، كـادت أن تسبقنى فسبقتها»، ولا يعلم مـدى هذا القرب إلا الله: **﴿وإن يومـاً عنـد ربك كألف سنـة ممـا تعدّون** ـ الحج ٤٧ **﴾** فالأمور نسبية ولا نفهم قرب ما بقى إلا على ضوء معرفة ما مضى على هذه الدنيا، وليس المهم أن نعرف المقـدار إنما المهم أن نعرف حقيقة القـرب لنستعد ولا نغفل ولا نفرط، وقد عبر الله هنا بصيغة الماضى لتحقق الوقوع وقربه فكأن قد وقع .

﴿فجمعنـاهم جمعا وعـرضنا جهنم يـومئذ للكـافرين عـرضا الـذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾

بعد نفخـة الصعق تأتي نفخة البعث فيجمع الله الأولين والآخـرين لميقات يوم معلوم، وكلمة الجمع هنا جاءت متمكنة في البلاغة بعد أن ماج بعض البشر في بعض، ما هي إلا زجـرة واحدة فإذا هم قيام ينظـرون لا يتكلمون إلا من أذن له الـرحمن وقال صـوابا كلهم ينتظـر أمر الله ﴿**يوم لا تملك نفـس لنفس شيئا والأمر يـومئذ** لله ـ الإنفطار ١٩﴾ وجاءت كلمة العرض مـرة مضافة إلى الكفار ومرة مضـافة إلى النـار ﴿**ويـوم يعـرض الـذين كفـروا على النـار أليس هـذا بـالحق قالـوا بلى وربنـا** ـ الأحقاف ٣٤﴾ ﴿**وعـرضنـا جهنم يومئـذ للكـافـرين عرضا** ـ الكهف ١٠٠﴾ وذلك لشدة اقترابهم منها وتحقق ورودهم لها فيـومئذ يؤمن الكـافر ولا ينفعـه إيمانـه وقد كـان في الدنيا معرضا عينه في غطاء، وفي أذنه وقر، فهـو لا يستطيع سمعا، ونفي الاستطـاعـة هنا ليس معنـاه عـدم القدرة إنما هـو تعبير عن شدة الكراهية التي تملكته وطغت على نفسه فكأنه لا يستطيع السماع، وقد يرد هـذا في تعبير العرب، وتستعمل الاستطاعـة ويراد بها الإرادة ورد هذا في سورة المائدة ﴿**إذ قال الحواريـون يا عيسى بن مـريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينـا مائدة من السـماء قال اتقـوا الله إن كنتم مومنين** ـ المائدة ١١٢﴾ أي هل يريـد ربك ويشاء موافقتنـا على طلبنا أن ينزل علينا مـائدة من السماء؟ إنا عرضنـا لهؤلاء المعرضين عن ذكرنـا المتصامين عن سماع الآيات والنـذر المتعامين عن النور، عرضنا لهؤلاء جهنم ليروا عين اليقين مصيرهم الأخير الذي ينتظرهم والذي سيـدخلـونــه داخـرين، وفي هذا التعبير الشديد الوقع ما فيه من روعة التخويف والإنذار لمن أراد الله هدايتـه فيقبل إلى حظيرة النجاة، وما يذكّـر إلا أولوا الألباب، أما الذين ختم الله على قلوبهم فهم يفرون منه، ويلغون فيه، ولا يزيدهم الوعظ إلا نفـورا واستكبارا، أولئك قسـاة القلـوب الذين قـال نبي الله نـوح عليه السـلام في حقهم: ﴿ **قال رب إني دعـوت قـومي ليـلا ونهارا فلم يزدهم دعـائي إلا فرارًا وإني كلما دعـوتهم لتغفـر لهم جعلـوا أصـابعهم في آذانهم واستغشـوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبـاراً** ـ نـوح ٥ : ٧﴾ ويوجـد هذا الصنف مـن الناس في

كل زمان، وقـد ظهرت هـذه القساوة في زماننا فأعرضت القلوب ومالت إلى الدنيا فليحذر قساة القلوب من هذا المصير المشئوم وبئس المصير .

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾

في الآيـة إظهار عـوض الإضمار فقـد ذكر الكـافـرين ومصيرهم قريبـا ثم صرح بالـذين كفروا وبـالكافـرين تشنيعا لهم على كفـرهم بربهم ورسلـه واليوم الآخـر، وتبييناً لنـا أن ذلك الجزاء السيء والمصير المؤلم إنما نـالوه بسبب كفـرهم فهم فيه مبلسـون لا يستحقون الرحمة ولا يقبل لهم عذر، أعَمِيَ الـذين كفروا عن الحق فحسبوا أن يتخـذوا من عباد الله أوليـاء من دون الله ثم ينفعونهم؟ كـلا لن ينفعـوهم إنهم اتخذوهـم أوليـاء في الدنيا، والولاية هي المحبة والنصرة، إنهم لن ينصروهم وسيكفرون بشركهم يوم القيـامة، اتخذ الكفار أنواعـا من الأولياء، منها الأصنام والأوثـان والشمس والقمـر والنجوم والشجـر، ومنها الأحيـاء والأموات يعبدونهم يخافونهم ويـرجونهم، ومنهم من يتخذ من عبـاد الله أولياء يشرعون لهم فيتبعـون تشريعهم ويعـرضون عن تشريع الله لأنهم يجدون في تشريعهـم موافقـة لأهـوائهم، هؤلاء شيـاطين الإنس والجن يـوحي بعضهـم إلى بعض زخرف القـول غـرورا ﴿**إنهم اتخذوا الشيـاطين أوليـاء من دون الله ويحسبـون أنهم مهتدون** ـ الأعراف ٣٠﴾ يحسبون أنهم على شيء يستمسك به ويعول عليه، إنهم ليسـوا على شيء، بل زينت لهم أهـواؤهم كفـرهم وضـلالهم وقلـدوا فيـه آبـاءهم ورؤسـاءهم فقد أعـد الله لهم جميعا جهنم تكـون لهم نـزلا ومقامـا، والإعداد هـو التهيئة، والنزل هو ما يهيأ للضيف النـازل من محل يقيم فيه، وطعام يأكله، وفراش وغطاء، وما يرتفق فيه، لقد هيأ الله لهؤلاء الكافرين جهنم منزلا يقيمون فيه، وأعد الله لهم طعاما من زقـوم وغسلين وشرابا من حميم آن، وعقارب وحيات وفـرشا من نار وأغشية ﴿**لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش** ـ الأعراف ٤١﴾ ذلك هو

نزل الكافرين المعد لهم، شتان مـا بينه وبين نزل المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم، وسيأتي قريبا ذكـره. ثم بين الله تعالى عظيم خسارة هؤلاء الـذين يحسبون الضلال هداية فهم في ضلالهم يعمهون.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦﴾

قل لهم يا محمد، الأمـر موجه من الله منزّل القـرآن لنبيه محمد ﷺ أن يخاطب أمته بهذا الخطاب المهم والذين بعده، وإذا جاء الخطاب على هذا النمط من الأمر بالتبليغ دل على عظـم أهميته، وهنا تسـتقبلنا ـ قبل ختـام السورة ـ ثلاثـة أوامر بالتبليغ مصـدرة بـ ﴿قل﴾ فيهـا إلفات لنا إلى الحق، وهي خـلاصة مـا تقدم من أول السورة، فيهـا القرارات النهـائية التى تستخلص من كل مـا تقدم عـرضه من القصص الخمس: قصـة أصحـاب الكهف ومصيرهم، وقصـة صـاحب الجنتين وعاقبة كفره وطغيانه، وقصة خلق أبينـا آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له وعصيان إبليس وتمرده على خـالقه ورجم الله إيـاه جزاء على كفـره، وقصة مـوسى والخضر عليهما السـلام وبيان مـا فيهـا من العلم بنـوعيه الظـاهـر والباطن واستخـلاص الحكمة من كل ذلك، وقصة ذي القرنين الملك الصالح وما جرى على يديه تحقيقه من نفع العبـاد ودرء الفساد، هـذه الآيات الثـلاث المصدرة بـ ﴿قـل﴾ الواردة في ختام هذه السورة **﴿قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا﴾**، **﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحـر قبل أن تنفد كلمات ربي ولـو جئنا بمثله مددا﴾**، **﴿ قل إنما أنـا بشر مثلكم يوحـى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجـو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾**

في كل من هـذه الآيـات تعرض لجانب كبير من المواضيع التـى تناولتهـا السورة بـاستخلاص العبرة منهـا، وتقريـر الخلاصة النهـائية التي فيهـا الحقيقة الثابتة، وسيأتي بيـان ذلك في تفسير معانى الآيات فلنبدأ بـالخطاب الأول منها: **﴿قل هل ننبئكم بـالاخسرين أعمالا الذيـن ضل سعيهم في الحياة الـدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾** أمر بالقول مـن الله يليه حرف استفهام يـراد به التحضيض، والنبأ هـو الخبر العام الـذي يحمل المعنى العظيم الذي لـه خطره، هل نخبركم بخبر أشد الناس خسارة لأعمالهم؟ بعض المفسرين جعلوا ما بعد هذه الجملة هـو الجواب والخبر، وهم:الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا إلى آخر خبرهـم، وبعض جعلوا الجواب والنبأ هـو قولـه تعالى: **﴿أولئك الـذين كفروا بآيات ربهم ولقائهِ فحبطت أعمالهم فـلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .. الخ﴾** ويكون ما قبله نعت للأخسرين أعمالا .

والـذي نرجح أن يكـون الخبر هو الأخير وهـو أروع في الدلالـة على المعنى والمصير الـرهيب لهؤلاء الأخسرين الـــذين ضل سعيهم في الحيـاة الــدنيـا وهم يحسبون أنهم يحسنـون صنعا، ذلك لأن أعمال الكفرة تكون هبـاءً منثورًا فهي في ضلال حتى الذي يبـدو منها حسنا ومفيدا، لأنـه لا ينفع مع الكفر عمل، ومن المعلوم أن هؤلاء الكفرة والمنـافقين لهم صنفان من الأعمال صنف منها قبيح وهو كل أنواع الشرك والمعـاصي الظاهـرة والإجرام والقتل والظلم، وقـد يحسبون أنها حسنة تزينها لهم أهواؤهم ويزينهـا لهم الشيطان فهم يحسبون شركاءهم شفعاء عنـد الله يقربـونهم زلفى وهـم يحسبون الحروب والقتل والتـدمير وطنية وانتصـاراً للمبـادىء التى يـرونها صحيحة ومفيـدة، ويحسبـون الـربا تجارة وبيعـا وتنميـة للاقتصاد، ويحسبـون السفور والغناء والرقص واختـلاط النساء بالرجـال ثقافة وفنا وريـاضــة وتقدما، ويحسبون الخداع والكيد ذكـاء وعبقرية، إلى غير ذلك من مفاسـد الأخلاق التـي يحسبونها حريـة وحضارة، وهم ضـالون في زعمهـم هذا المخالف لما جـاءت به كتب الله ورسله متورطـون في الخسارة، باعوا آخـرة باقية

بِدُنياً فانية، غلبت عليهم شهواتهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

والصنف الثاني من أعمال هؤلاء الكفرة حسن، ولكن ضيعه عليهم كفرهم بربهم، فهم يقومون بخدمات كبرى للإنسانية فيها رحمة للإنسان والحيوان، هم قد يكرمون اليتيم، ويطعمون المسكين، ويداوون الجرحى، ويعالجون المرضى، ويعطفون على المنكوبين، ولهم أعمال من هذا النوع يصرفون فيها أوقاتهم ويبذلون أموالهم، وقد يتركونها وقفاً بعد مماتهم، ولكنها لا تنفعهم لفساد نياتهم فهم لا يعملونها لله، ولو عملوها لله فهم لا يفردونه بالعبادة، **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ـ يوسف ١٠٦﴾، ومن الشرك بالله إنكار بعض رسله والكفر ببعض كتبه، أو هم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فقد ضرب الله المثل في القرآن بأعمال هؤلاء بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وبظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وبرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ضاع كل شيء وخسروا كل شيء بكفرهم بآيات ربهم ولقائه .

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذواآياتي ورسلي هزؤا﴾ .

أولئك الكفرة الذين ذهب نصيبهم في الحياة الدنيا هباء وحبطت أعمالهم فيها، والحبط داء يصيب بطون الإبل فتهلك وهو معروف عند العرب، حبطت أعمالهم لأنهم كفروا بآيات ربهم ولم يؤمنوا برسله، وكفروا بلقاء الله وظنوا أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون فهلكت أعمالهم، فلا يقام لها ولا لهم وزن عند الله، وربط هاتين الجملتين أفادنا أن ما قبلهما علة لما بعدهما كما هو ظاهر من كلام العرب، وفيه ما فيه من تحذير العباد من الكفر بربهم وآياته، وتحذيرهم من الشك في لقائه وإخبار من الله أن كل عمل خلا من الإيمان بالله ولقائه لا يزن عند الله ذرة، فما

هو إلا هبـاء منثور، ذلك جـزاؤهم ومصيرهم جهنم بكفرهم واتخاذهـم آيات الله ورسله هزؤا، إنهم كانوا في الـدنيا لا يسمعون ولا يعقلون، إذا حدثتهم رسل الله يهزأون بهم وبحديثهم، وإذا مروا بآيات الله يمـرون عليها صما وعميانا، فجازاهم الله جـزاء وفاقـا فكما لم يقيمـوا لآيـات الله ورسله وزنـا، كـذلك لا يقيم الله لهم ولأعمالهم يوم القيـامة وزنـا، ومن لا وزن له عنـد الله فجزاؤه جهنـم خالـدا فيها ولعنه الله وغضب عليـه وأعد لـه عذابـا عظيما، وأنواع الكفـر بآيـات الله ورسله كثيرة، منها الصريح ومنهـا كفر الأعمال المخـالفة لآيـات الله ورسله، فـالألسنة تصف والأعمال تخالف، ومنها الشك والارتياب، والشـاك في دينه وفي ربه ولقائه مشرك كما هو معلـوم، ومن الكفر ترك أركان الإسـلام كالصلاة والصوم والـزكاة ومنها كفر دون كفـر وهو كفر النعمة، وكل ذلك يورد النـار، ومنها كفر الإصرار على الكبائر وعـدم التوبـة، وكل ذلك مخلد في نـار جهنم والعياذ بـالله، فلنحذر جميع أنواع الكفر، ولنحـذر الاستهزاء بآيات الله ورسله، ولنحـذر هؤلاء الكفار والمستهـزئين الذين يـدّعون العلم والتقـدم ويكفرون بما وراء المادة، فقـد انتشر هذا النوع من الكفر عند كثير من الـذين اغتروا بعلمهم فهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ـ غافر ٨٣ **﴾**

اغتروا بعلم ظاهر الحيـاة الدنيا وأنكروا لقاء الله وجحدوا بـالله وآياته وظنوا أنهم وأنهم، إنهم يـوم القيامـة لاوزن لهم عنـد الله ولا وزن لعلمهم الدنيـوي ولا لأعمالهم .

إننـا لا نزهـد في العلوم فكلهـا مفيـد، ولكن نحذر من الكفـر بآيـات الله ولقائه اغتراراً بـالدنيـا وكفرا بـالغيب الذي يـؤمن به المؤمنون، ومـن الناس من ينكر السنة ويتظاهر بمظهـر التحقيق العلمي، ويقول إنه لا ثقة له فيما روي من

الأحاديث النبوية، وهذه فتنة حذر منها رسول الله ﷺ أنه سيأتي على الناس زمان ينكر فيه الحديث، فلا نستغني عن سنته وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ـ النحل ٤٤﴾ وقد حقق أهل السنة ما روي من الأحاديث ونقحوه تنقيحا، فما علينا إلا أن ندرس ونحقق المعنى ونتبع، فمن رد السنة دخل في الفتنة وحق عليه قول الله تعالى: ﴿**واتخذوا آياتي ورسلي هزوا**﴾ وقد افتتن كثير من الناس برد السنن وراحوا يشككون الناس في الآحاديث النبوية الشريفة فلنحذر هؤلاء ولنتمسك بالسنة كما نتمسك بالقرآن، فهي مكملة لمعانيه مبينة لها، ونعوذ بالله من البدع والضلالات، ونعوذ بالله من أنواع الكفر كلها ومن مصير الكافرين .

ثم إن الله تبارك وتعالى يعقب بذكر مصير أوليائه المؤمنين المحققين إيمانهم بالعمل الصالح، وبهذا التعقيب يتقابل المصيران، وشتان ما بينهما، وما أروع هذه المقابلات في القرآن بين مصير المؤمنين ومصير الكفار وبين الحق والباطل وبين التبشير والإنذار فهي المثانى المذكورة في سورة الزمر، قال تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد** ـ الزمر ٢٣﴾

بعد ذكر مصير الكفرة المستهزئين بآيات الله ورسله يذكر الله مصير المؤمنين الصادقين في إيمانهم فيقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨

هنا تأتي المقابلة الرائعة بين النزلين: نزل الكافرين ونزل المؤمنين، ذلك فيه كل أنواع العقوبات المؤلمة من نار وضرب وإهانة وطعام ذي غصة وشراب يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وهذا فيه كل أنواع الأطايب من الأطعمة والأشربة في

قصور وجنات وأنهار، ويزوجون بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وهم معززون مكرمون ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. ورضوان الله أكبر من كل ذلك النعيم، وهم فيها خالدون لا يبغون عنها حولا.

وهذه نكتة لطيفة تختص هذه الآية بذكرها وهي أنهم لا يرغبون في التحول عما فيه من النعيم إلى حالة أخرى، ذلك لأنهم راضون به لا يتصورون نعيما أفضل منه، ثم إن طبع الإنسان في هذه الحياة الدنيا الملل والسأم من كل حالة يطول مكثه فيها ولو كانت حسنة فهو يسأم الحياة الرتيبة التي هي على نمط واحد، ركب الله هذا الطبع في الإنسان في الحياة الدنيا ليرغب في البحث عما هو أفضل فيظهر على يده ما أراد الله إظهاره من بركات الأرض وأسرار الكون، ولولا ذلك لجمدت حركات العلوم ، وتوقفت الاختراعات والابتكارات ، وذلك خلاف لحكمة جعل الله ابن آدم خليفة في الأرض وتسخير ما فيها له، أما في الآخرة فليس هناك بحث ولا سعي ولا نصب ولا كد، فالإنسان الممتع هناك راض بما هو فيه من النعيم مطمئن لما أعطاه الله، لا يبغي سواه فهو في غاية الرضى والسرور والشعور بنعمة الله العظيمة يلهج لسانه بالحمد والثناء لربه الكريم الولي الحميد .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ـ فاطر ٣٤ : ٣٥﴾

هذا الجزاء الحسن للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات التى هى تحقيق لاستقرار الإيمان في قلوبهم وتصديق له لا للذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، ولا للذين يرتكبون من الذنوب والمآثم ما يخالف الإيمان ولا يتوبون ولا هم يذكرون، فالآية ترد على الذين يزعمون أن الإيمان يتم بدون العمل الصالح وهو زعم باطل يعوّل على الأماني الفارغة،وليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في

الصدر وصدقه العمل، أولئك كانت لهم جنات الفردوس نزلا، جاء التعبير بكانت التي هي للماضي لأنها أعدت لهم فهي لهم وهم لها ملكها الله لهم بفضله ورحمته، والفردوس هي معظم الجنة وأطيبها وأعلاها منزلة دخلوها برحمة الله ورحمة الله قريب من المحسنين، واقتسموا درجاتها بأعمالهم فطوبى لهم وحسن مآب، فيا خيبة من لا يعمل الصالحات وينتظر مصير العاملين، ويا خيبة من يعمل ولا يؤمن بالله ورسله ولقائه إن عمله لا ينفعه إنما ينفع الإيمان والعمل الصالح أولئك لهم خير النزلين عند الله جعلنا الله منهم آمين .

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

يضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا في سعة علمه ليقرب معنى ذلك إلى أفهامنا القاصرة، فكم من مثل قرب البعيد، ومهما تنوعت العبارات في وصف سعة علم الله وإحاطته فلن تبلغ في أفهامنا ما يبلغ هذا المثل الواضح الذي يدركه كل الناس، فالبحر يدرك كل الناس سعته وعظمته وكثرة ما فيه من المياه، وعلماء الطبيعة يذكرون أن مقدار البحر في هذه الأرض التي نعيش عليها ثلاثة أرباع اليابسة، فلو كان هذا الماء كله مدادا لكلمات ربي، والكلمات عبارة عن سعة علم الله وسعة كونه علويّه وسفليّه، علم الغيب والشهادة، علم الدنيا والآخرة، علم الملك والملكوت، علم المبصرات وغير المبصرات، لو كان البحر مدادا لكلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله، ونحن نعلم مقدار ما يأخذ القلم من الحبر ليكتب كلمات كثيرة وقد جاء في سورة لقمان أعظم من هذا .

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ـ لقمان ٢٧ ﴾

هذه آية تبين عظمة سعة علم ربنا تبارك وتعالى، وأنه لا يتناهى إذ ليس المقصود بعد السبعة الاقتصار على هذا العدد، إنما المقصود الكثرة كما يرد ذلك

كثيرا في كلام العرب، هذا ما نفهمه من الآية، وهي النداء الثاني من هذه الأوامر التى ختمت بها السورة وهي مناسبة لما جاء في أثناء السورة من قصة موسى والخضر عليهما السلام وما علمهما في علم الله إلا قطرة من بحر أو بحار، وفيها بيان ما جاء في الجواب عن سؤال الروح ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ـ الإسراء ٨٥﴾ والآية رائعة حقا في التعبير عن سعة علم الله وكثرة كلماته التي لا تحد ولا تتناهى، وقد اعترف العلماء الكبار بقصورهم وتضاؤل علمهم أمام علم الله في هذا المحيط الذي نعيش فيه، وهو جزء ضئيل جدا من هذا الكون الواسع، فهذا مخترعُ أو مكتشفُ نظام الجاذبية بين النجوم والكواكب، وإليها تشير الآية الكريمة في سورة الرعد ﴿ **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها** ـ الرعد ٢﴾ هذا العالم الكبير (أسحق نيوتن) الذي اكتشف هذه القوة العظيمة في كون الله التي بها تتماسك أجرامه، وترتفع السموات وهي قوة لا ترى، وأطلقوا عليها اسم الجاذبية، وكم لله من قوى في هذا الكون يجد الناس آثارها ولا يبصرونها، يقول إسحق نيوتن المكتشف لهذا السر العظيم، سر الجاذبية، يقول: «أنا لا أعرف قدر نفسى في هذا العالم الكبير ولكن قدري وقيمتي عند نفسي كطفل صغير على شاطىء بحر خضم يجمع الحصى الناعم والصدف»، فهو يعترف في تواضع أنه عاجز عجز الصبي أمام بحر الحقيقة أمامه، لم يخض بعد فيه ولو بخطوة إنما هو واقف على ساحله مندهش لما يشاهد من عظمته، كل ما عنده من حقائقه بعض الأصداف التى يرميها إليه بين الحين والآخر فيلتقطها، وفي بعض ما توصل إليه العلماء من نظريات ما ينقض نظريات من سبقوهم منذ قرون، كانوا يثقون بها ويعتبرونها مسلّمات، ولسنا ندرى ما يأتي به الغد، والعجب أن بعض المبتدئين في علم الفلسفة يلحدون في آيات الله ويغترون بنظرياتهم ظانين أنهم فهموا وأنهم علموا وهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وهم في الغابرين أشكال من نظرائهم قال الله تعالى فيهم: ﴿**فلما جاءتهم رسلهم**

بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سُنّة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ـ غافر ٨٣: ٨٥﴾ أولئك الذين اغتروا بعلمهم، وردوا ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات، فلما عاينوا بأس الله ندموا على كفرهم، فلم يكن لينفعهم إيمانهم يومئذ، وكانت عاقبة الكافرين الخسارة الكبرى .

ولا يزال العلم يصدق ما جاء به القرآن، ويظهر معجزاته يوما بعد يوم فالعلم يكشف عن حقائق كانت رموزا أشار إليها القرآن ولا يعرفها قدماء المفسرين ويردون العلم فيها إلى الله تعالى حتى آن أوانها فظهرت، والحمد لله فلا يزال إعجاز كتاب ربنا يتجدد يوما بعد يوم وصدق الله العظيم ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ـ فصلت ٥٣﴾ أما مبلّغ القرآن فقد أمره الله في القرآن أن يقول:

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

قل لهم يا محمد ولمن يأتي من بعدهم حتى تقوم الساعة، قل لهم لستُ إلا واحدا من البشر فأنا مماثل لكم في البشرية لا فرق بيني وبينكم إلا الوحي الذي يأتيني من الله وبدون اكتساب مني، أما في البشرية فهو بشر مولود من أب وأم، تقلب في بطن أمه أطوارا، وولد صغيرا ثم تنقل في النمو أطوارا، يمسه ما يمس غيره من البشر من حزن وسرور وتعب وراحة وجوع وظمأ وشبع وري وصحة وسقم، ويموت كما يموت الأحياء، ويدفن في الأرض كما يدفنون، فهو لا يمتاز عنهم إلا بعناية الله به وبأمه التي حملت به كرامة له، وتأديب الله له إعدادا لما سيحمل من عبء الرسالة وتكاليفها، فهو لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله إياه وما علمه في علم الله إلا قطرة من بحر، هو بشر اختاره الله ليكون واسطة

وبين عباده يبلغهم ما أوحى الله إليه بواسطة الملك أو بغير واسطة فهو وحي موهوب غير مكتسب ﴿ **وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ـ القصص ٨٦﴾ أوحى الله إليه أُسّ الدين وهو التوحيد الخالص، كما أوحى إليه فروع الشريعة، أوحى إلى نبيه محمد ﷺ أن إلهكم إله واحد لا شريك له ولا شبيه ولا مثيل ولا ند ولا كفؤ، فهو إلهكم وهو ربكم الذي خلقكم والذي رزقكم والذي يميتكم والذي يحييكم والذي إليه ترجعون، فيجازيكم على أعمالكم التي يحصيها لكم، فأنى تؤفكون، وما لكم تجعلون له شركاء تعبدونهم من دونه، وتجعلون له أندادا تحبونهم كحب الله وتخرقون له بنين وبنات بغير علم سبحان الله وتعالى عما تشركون: ﴿**إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما** ـ طه ٩٨﴾ وكل هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله سيكفرون بشرككم يوم القيامة ويتبرأون من عبادتكم:

﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾

هذه الآية من ربنا تطهير لعقيدة التوحيد في قلوب المؤمنين، وغسل لنواياهم من كل شائبة رياء، وتنقية لأعمالهم الصالحة من كل ما يدنسها أو يبطلها، وأنواع الشرك كثيرة منها الجلي ومنها الخفي، وإن من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل. ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه**﴾: فسر بعض العلماء الرجاء هنا بـ «الخوف» حتى يناسب معنى الموضوع، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿**إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يومًا عبوساً قمطريراً** ـ الإنسان ٩/ ١٠﴾ ولقاء الله فسروه بالوقوف بين يدى الله للعرض والسؤال، فمن كان يخاف ذلك الموقف الرهيب الذي هو آت لا ريب فيه :

﴿**فليعمل عملاً صالحا**﴾ فلابد من الأعمال الصالحة وهذه من جملة الآيات الكثيرة التي تبيّن أن الإيمان وحده بدون عمل لا ينجي صاحبه يوم

القيامة فلا ينفع القول بـدون عمل بل هو من الأماني الفارغة التي من استمسك بها فقـد استمسك بباطل من الـوهم. والعمل الصالح هـو جميع القربـات التي شرعها الله في القـرآن، أو سنها رسول الله ﷺ بأقوالـه أو أفعاله أو تقريـراته فهى قربـات موافقـة لشريعة الله يأتي بها الإنسـان مؤمنـا بالله متبعـا لشريعته قـاصدا لوجهـه الكريم وذلك هو الإخـلاص الذي ترمز إليـه الآية ﴿**ولا يشرك بعبادة ربـه أحـدا**﴾ ففيها نفي لجميـع أنواع الشرك . ﴿**إن الله لا يغفـر أن يشرك بـه ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بـالله فقد افترى إثما عظيما** ـ النساء ٤٨﴾ إنه لا ينفع مع الشرك بالله عمل .

﴿**فمن كـان يـرجو لقـاء ربـه فليعمل عمـلاً صالحًا ولا يشرك بعبـادة ربه أحدا**﴾

من كان يحب ربه ويتمنى لقـاءه، واللقاء هنا الفوز بقربـه ورضاه، والخلود في دار كرامته، هذا هو اللقـاء لا الرؤية كما فسر البعض، تعالى الله عن ذلك فهو لا يرى ولن يراه مخلـوق في الدنيا ولا في الآخرة وقـد تمدح بذلك فقال ﴿**لا تدركه الآبصار وهو يدرك الآبصار وهو اللطيف الخبير** ـ الانعام ١٠٣﴾.

وقد ورد في الحديث الشريف «من أحب لقـاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» .

﴿**فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾

فليعمل الأعمال الصالحة الموافقـة للشريعة، وليعبد الله ربه عبـادة خالصة لا يشرك فيهـا أحدا غيره، من دعـا مع الله أحـدا فقد أشرك، ومن سجـد لغير الله فقـد أشرك، ومن ذبح لغير الله فقـد أشرك، ومن حلف بغير الله فقـد أشرك، ومن أنكر وجـود الله أو أنكر نبيا من أنبيـائه أو كتابـا أو آية من كتابـه فقد أشرك، أو أنكر البعث والجزاء فقـد أشرك، ومن اتبع في الشريعة سبيـلا غير صراط الله فقد

أشرك، ومن عمل عملا من أعمال الآخرة يريد به غير الله، يريد أن يراه الناس ويمدحوه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك لا يقبل ما شورك فيه، لا يقبل إلا عملا خالصا لوجهه الكريم ليس فيه شائبة رياء. الله الذي وسع كل شيء علما، تنفَدُ مياه البحار لو كانت مداداً لكلماته ولا تنفد كلماته، الله الذي وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم، الله ربنا وإلهنا وإله كل شيء أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم .

تلك هي المعاني التي تقررها هذه الآية العظيمة التي ختمت بها هذه السورة العظيمة وهي خلاصة ما تقدم في جو السورة منذ افتتاحها، وهي تسند الحمد كله لمنزل الكتاب، وتنذر بيوم لقاء الله الذي فيه البأس الشديد للذين أشركوا بربهم وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، وتبشر الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا .

كان هذا هو المعنى الذي طرقته بداية السورة، وهو المعنى الذي استمر خلالها، يبرز ما بين مشهد وآخر وتوضحه الأمثلة المضروبة في أثنائها، وهو المعنى الذي سيقت من أجله قصة «أصحاب الكهف، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين الملك الصالح الذي سار في أرض الله ينشر فيها الدين ويدعو إلى الإيمان» .

بعد كل تلك الحقائق الجلية المعروضة تختم السورة بهذه الآية البينة تقرر القرار الأخير الذي يبين مصير المؤمنين العاملين المخلصين عند الله يوم القيامة فهم وحدهم الذين ينعمون بلقاء ربهم، وجاءت إضافة الرب إليهم مرتين إضافة تشريف وتقريب وتذكير وحفاوة وإكرام لمن اتبع الذكر .

﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ـ الرحمن ٧٨﴾

نسأل الله ربنا ورب المؤمنين ورب كل شيء ومليكه أن يجعلنا من الذين يسعدون بلقائه وسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

والحمد لله رب العالمين ..

●○●

تم تفسير سورة الكهف

○●○

تفسير سورة مريم

١٩ سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآءَ ۝٢
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ
يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦

هـذه سورة (مـريم) تسمى بهذا الإسم، والأسماء تـوقيفية، تسمى السـورة غـالبـا بما يذكر فيها أو تنفرد بذكره من بين أخواتها، وهنا في هذه السورة تأتي قصة مريم ابنة عمران ـ أم عيسى المسيح ـ عليهما السلام ـ مفصلة .

وتفتتح السـورة بالحروف الهجـائية المقطعـة، بخمسـة حروف وهـو أقصى عـدد تصلـه فواتـح السور مثل سـورة الشـورى «حم عسق»، ومنهـا مـا يفتتح بأربعة (ألمص) ــ (ألمر) ـ ومنها بثـلاثة (ألـم) ـ (ألـر) ومنهـا بحرفين (يس) ـ (طـه) . ومنها مـا هو بحرف واحد (ص) ـ (ن) ــ (ق) ولم يرد فيها تفسير عن النبي ﷺ، ولذا لم يتفـق المفسرون على معنى لها، بل تعددت تأويلهـم وهي كلها ظنية ليست قطعية .

قال بعضهم هي أسماء السور المفتتحات بها مثل ما نقول سورة «يس»، وسورة «ص»، وسورة «ن والقلم»، ولكن هذا الاستعمال في المفتوحة بالحرف الواحد لخفته على اللسان، وقال آخرون كل حرف منها بداية اسم من أسماء الله تعالى، فالكاف يرمز إلى «كافٍ»، والهاء يرمز إلى «هادٍ»، والياء يرمز «لاسم في علم الله»، والعين يرمز إلى «عليم»، والصاد ترمز إلى «صادق»، وجعلها بعض دلالة على بعض حسابات، واستدلوا بها على بعض أمور غيبية واغرقوا في النزع وابتعدوا عن الصواب ، وقال آخرون هي بمثابة حروف تنبيه في أوائل سور، وقال آخرون هي رمز للإعجاز القرآني، أي أن هذا القرآن منزل بلغتكم التي تنطقون بها أيها العرب مؤلف من حروفكم الهجائية المعروفة ولكنكم تعجزون عن الإتيان بسورة من مثله، وما هذا إلا برهان على أنه من عند الله العزيز الحكيم وكل ما قاله القائلون إنما هو تخمين وظن ليس يقطع به، والله أعلم بمراده من ذلك، ثم ندخل في تفسير السورة حسبما يتيسر لنا من معاني سائرها:

﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا﴾

أقرب ما قيل في تفسير هذه الآية أن كلمة «ذكر» خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا ذكر رحمة، **﴿رحمت ربك عبده زكريا﴾**، أي اذكر لهم يا محمد ذكر رحمة ربك عبده زكريا، واضطرب المفسرون في وجوه أخرى لإعراب الآية وليس يسع تفسيرنا هذه الاضطرابات، فلنأخذ بأشهرها وأقربها إلى الفهم وهو بيان الرحمة التي أضيفت إلى الرب، وإضافة اسم الرب إلى النبي ﷺ إضافة تشريف وتكريم، وإضافة العبد زكريا إلى ضمير اسم الجلالة إضافة تكريم وحفاوة، وزكريا هذا نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل من ورثة موسى ومن حملة التوراة من بعده، يدعو إلى الرشد ويحكم بما أنزل الله فيها بين بني إسرائيل .

﴿ إذ نادى ربه نداءً خفيا ﴾

هذه الرحمة موقعها حين نادى العبد الصالح زكريا ربه نداء خفيا بماسيأتي

بيانه، إنما كان هذا النداء في خلوة في مكان خفي لا يسمعه إلا الله تعالى، نداء ذو صوت مرتفع غير خافت، ولكنه في خفاء بعيد عن رؤية الناس وسمعهم، وفي هذا التعبير إشارة إلى أن أقرب الدعاء إلى الإخلاص وحضور القلب ما كان في خلوة وقد يكون من الدواعي التي دعت زكريا إلى إخفاء النداء أن لا يسمعه من يخافهم من الموالي كما سيأتي .

﴿ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربي شقيا وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾

قال سيدنا زكريا عليه السلام في ندائه لربه: **﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا﴾**

الوهن الضعف والاشتعال مجاز لانتشار الشيب في رأسه ولحيته انتشارا حثيثا وهي علامة للكبر ودنو الأجل، فهو تعبير بليغ عن الضعف والهرم، وهذا التقديم للاسترحام، والله أعلم به وبضعفه وشيخوخته ثم قال **﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾** زاد فاستعطف ربه فقال وما كنت شقيا بدعائك ربي، فقد عودتني الإجابة، واسعدتني بحفاوتك وأنت الحفي بمن دعاك، فكن عند حسن ظني ورجائي واستجب دعائي يا من هو لمن رجاه قريب .

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾

الموالي أبناء العمومة والأقارب، خافهم على التوراة أن يحرفوها ويبدلوها ويضيعوها، وشعب بني إسرائيل شعب غليظ الرقبة، عنيد، يقتلون الأنبياء بغير حق وسيقتلون زكريا نفسه، قال :

﴿ وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾

وكانت امرأة زكريا عاقرا طول عمرها لم تلد، فطلب من الله ولدا صالحا رضيا يرثه، وميراث النبيين الحكمة، فهم لا يورثون درهما ولا دينارا، إنما ميراثهم ما أتاهم الله من الهدى والحكمة، خاف سيدنا زكريا عليه السلام من التوراة أن ينالها بنو إسرائيل بالتحريف والتغيير، فدعا ربه أن يهب له غلاما رضيا يرث عنه التوراة ويرث عن آل يعقوب، ويعقوب هو جد بني إسرائيل وهو إسرائيل، طلب من الله وليه وطلب أن يكون هذا الولي رضيا، يرضاه الله لتقواه وصلاحه، ويرضاه الناس لسعة صدره وحسن أخلاقه، لكي يلتفوا حوله ويتبعوه ولا ينفروا عنه ويتركوه، فاستجاب الله دعاءه وناداه :

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾

يا زكريا أبشر فقد استجبنا لدعائك وإنا سنهب لك ولدا اسمه «يحيى» سماه الله قبل أن يولد باسم لم يسم به أحد قبله فهو «يحيى» باللغة العربية و «يوحنا» بالعبرانية والسميّ هو الشبيه في الاسم عن أهل اللغة، وعند بعضهم الشبيه في الخصال .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾

تعجب سيدنا زكريا كيف يأتيه الغلام بعد أن جاءته به البشارة المحققة من الله فسأل ربه يارب كيف يكون لي غلام وامرأتي عاقر لم تلد منذ تزوجت بها، وأنا كبير السن قد بلغت من الكبر عتيا، والعتي من الكبر عندما تتصلب الشرايين ويغيض ماء الشباب من المفاصل، فيشكو الشيخ وجع المفاصل، ويضعف عن الحركة. تعجب زكريا من الولادة بعد الشيخوخة والعقم وقال أنى يكون لي غلام، ولم ينكر ذلك بل آمن بوعد ربه واطمأن إليه، وإنما رغب إليه أن يعرّفه بكيفية ذلك، فأجابه الله :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

قال كذلك أمر ربك وحكمه، إذا أراد شيئا يكون كما أراد وهو عليه هين سهل، وقد خلقتك يا زكريا من العدم وما كنت شيئا، ضرب الله له المثل بخلقه من العدم ليعلم أن ولادة عاقر من شيخ كبير أهون من خلق الأشياء من العدم، وهما في قدرة الجبار الخالق سيان.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾

قال زكريا عليه السلام رب اجعل لي آية، أي علامة تعرفني بتحقق وقوع ما بشرتني به من الولد، وما ذلك من زكريا شكّ في وعد الله فقد آمن ولكن يريد العلامة ليطمئن قلبه كما طلب جده إبراهيم عليه السلام آية الخلق من ربه ليطمئن قلبه، فوافقه الله إلى ما طلب، وقال آيتك ألا تكلم الناس أي يحتبس لسانك عن كلام الناس ولا يحتبس عن ذكر الله لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وهذه كرامة لزكريا عليه السلام، لا يكلم الناس وهو سوي البدن سليم اللسان، ومظهر المعجزة أنه يذكر الله بلسان فصيح لكن لا يقدر على مكالمة الناس المدة المذكورة كلها، تلك هي الآية التي جعلها الله لعبده زكريا عليه السلام لوقوع الولد الموعود في بطن المرأة العاقر .

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

فلما حان الموعد لما أراد الله تحقيقه خرج زكريا على قومه بني إسرائيل من محرابه وهو ساكت لا يقدر على الكلام، فأشار إليهم بيده بالتسبيح صباحا ومساء، أوحى إليهم أي أشار إليهم أن سبحوا الله واذكروه بكرة وعشيا، وهو يذكر الله كما أمره ﴿**واذكر ربك كثيراً و سبح بالعشي والابكار** ـ آل عمران ٤١﴾ .

بقي ثلاثة أيام بلياليها في بيت العبادة يذكر الله ويسبحه ولا يكلم بني إسرائيل وهو نبيهم ورسولهم والقائم بشؤون دينهم، ولكنه أمر الله وآيته لابد وأن

تظهر وتستوفي مدتها، وفي ذلك موعظة وذكرى لأولى الألباب.

ثم ينتقل المشهد القرآني إلى مخاطبة الابن الصالح الذي تحققت بولادته آية الله، فها هو بعدما ولد يتلقى حكم الله في صباه قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، وتلك آية أخرى وكرامة من الله لهذا المولود الكريم.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

نداء من الله تبارك تعالى لهذا المولود باسمه الذي اختاره الله له، وهذا النوع من النداء الذي يقرن باسم المنادى فيه تشريف وحفاوة بالمنادى يشعر به الناس فيما بين بعضهم البعض، وناهيك إذا جاء من الله عز وجل. كذلك شرف الله عبده حين كرمه وقربه بهذا النداء الذي أمره فيه بأخذ الكتاب بقوة وعزيمة على الإيمان به كله والعمل بجميع ما فيه وأن يدعو إلى ذلك قومه بني إسرائيل، وفي إعداد الله عبده يحيى لأخذ الكتاب بقوة استجابة لدعوة أبيه زكريا الذي رغب إلى الله أن يهب له وليا يرث عنه الكتاب والحكمة والقيام على قومه بنى إسرائيل في رقابتهم وحملهم على العمل بما في الكتاب، وهذا الكتاب هو التوراة الذي جاء به موسى عليه السلام، وكان أنبياء بني إسرائيل يتوارثونه ويحكمون به ويدعون إليه، والقوة المقصودة هنا ليست هي الإكراه والجبر، بل هي العزيمة والصبر على الدعوة إليه والعمل بكل ما فيه، والصبر على أذى السفهاء من قومه، وقد كانوا يؤذون أنبياء الله ويقتلونهم، ثم إن الله تعالى أخبرنا أنه آتى يحيى الحكم صبيا، وذلك استجابة لعبده زكريا الذي بلغ من الكبر عتيا، حتى يطمئن على ما خاف ضياعه من ميراث العلم والحكمة.

وإيتاء الحكم يعنى به إيتاء النبوءة والوحي، أوحى الله إليه صبيا، كما أوحى إلى ابن خالته عيسى صبيا، وقد أعدهما الله إعدادا خاصا لتلقي هذا الأمر

العظيم في سن مبكرة، وزاده مع الحكم حنانـا في قلبه، وهو الخُلق العظيم الذي يكون سببـا لنجاح النبي في دعوة قـومه واجتـذابهم إليه، والحنان هـو رقة ورحمة وحب وعطف، تكـون في قلوب من أعدهـم الله لإرشاد عباده ورعـايتهم، حتى يلتفـوا حولـه ولا ينفضوا عنـه كما جاء في القـرآن في وصف رسول الله محمـد ﷺ ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولـو كنت فظـاً غليظ القلب لانفضـوا من حولك** ـ آل عمران : ١٥٩﴾ .

وجعله الله زكيا : والزكاء هـو الطهارة، طهارة النفس والروح ،وطهارة القلب والبدن من الأدران والآثـام، وكان تقيا لله مطبـوعا على التقـوى، والتقوى هي جماع الخير وتكون في القلـب فيصلح بصلاحـه الجسد، وهي خشيـة الله ومراقبتـه واتقاء سخطـه بـاجتنـاب الغفلـة عن ذكـره في حق أنبيـاء الله وأوليـائه المقـربين، وبهذه الأوصاف الثـلاثة العظيمـة: الحنان والـزكاة والتقى، تحققت رغبـة العبد الصـالح زكـريا عليـه السـلام في كون ولـده رضيـا، فهو مـرضي الأخـلاق مرضي الأقـوال والأفعال وهبـه الله من لدنـه حفاوة بـه وإكراما لـه ولأبيه، وحنـانا وزكـاة وتقوى، وجعله براً بوالديه، وبر الولد بـوالديه من أعظم نعم الله على الوالد والولد، وقد رفع الله مقام الأبرار وأجزل مثوبتهم وأثنى عليهم ثناء جميلا، فيا طوبى لهم وطوبى لهذا الولي الذي لا زال ثنـاء الله عليه يتعاظم في سرد هذه الأوصاف إثباتـا لطيبها ونفيا لخبيثها، ولم يكن جبارا عصيا، نفى عنـه الجبروت والمعصية لأنها ليست من أخلاق الأنبياء والمرسلين .

﴿**وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا**﴾

ثلاثة أطوار من أطوار تقلبات الإنسـان في الدنيا والآخرة وهي كلها أطوار ضعف يكون فيها أحـوج ما يكون إلى الرحمة والسلام: يوم ولادتـه ضعيفا، ويوم موتـه وانتقاله وحيدا من الـدنيا إلى الآخرة وما يتبع الموت من دخـول القبر، ويوم يبعث يوم القيـامة للحساب والجزاء، وهـو أخطر الأطوار وأحوجهـا إلى السلام،

والسلام هـو السلامـة والمعافـاة من كل مكروه وسـوء، والموت مكروه لابـد منه، وسلامة يحيى فيـه هي تخفيف شدته وتهوين سكراته عليـه، وجعل ما بعده خيرا مما قبله، وسلامة البعث هي استقباله بالبشارات بحسن المصير.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ
مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ
إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ
كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا
أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ
الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

هكذا يذكـر الكتاب في سياق عجيب القصة الثانية في هـذه السورة، قصة مريم التي نُسبت السورة إليها وسميت باسمها لبسط القصة فيها بتفصيل وهي أيضا القصة الخامسة من القصص المتوالية في هاتين السورتين المتتاليتين (سورة الكهف وسورة مـريم)، قصة أصحاب الكهف ،وقصة مـوسى والخضر ـ عليهما السلام ـ وقصـة ذي القرنين، ثم قصة زكريا وقصة مـريم وأمرهما عجيب كالتي في السورة السـابقة، أسرار وحكم ربـانية، وخـرق لسنن الله في خلقه بإذن خـالق الكـون مدبـر الأمـر، ولله في خلقه شـؤون، ومـا من قصة من هـذه القصص إلا وراءهـا أسرار وأسرار، يولـد ولد من غير أب، هـذا أمر لم يقع في الأرض في هـذه البشرية منذ خلق أبينا آدم، ولن يقـع حتى تقوم الساعة ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ـ آل عمران ٥٩﴾ .

ثم كانت قصة ولادة مريم من غير ذَكرٍ آية للعالمين قال تبارك وتعالى ﴿**وجعلناها وابنها آية للعالمين** ـ الانبياء ٩١﴾ لقد كان حملها بعيسى آية وامتحانا من الله وابتلاء لهذه البنت العذراء العفيفة المؤمنة ليرفع الله درجتها في العالمين، ولم يذكر في القرآن امرأة باسمها غيرها، وذلك تشريف لها ورفع لمقامها بين نساء العالمين، جاء ذكرها في القرآن الكريم مكرراً ونوديت باسمها غير مرة .

﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا**﴾

واذكر يا محمد في كتابنا مريم، هذه المرأة المصطفاة التي نشأت في بيت طاهر اصطفى الله أهله على العالمين كما اصطفى من قبل آل إبراهيم، نشأت في بيتها طاهرة وفي بيت المقدس، ذلك أن أمها نذرتها لله، لعبادته وخدمة بيته ﴿**إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم** ـ آل عمران ٣٥﴾ نذرت امرأة عمران ما في بطنها لله ولخدمة بيته، وكانت ترجو أن يكون المولود ذكرا كي يصلح لخدمة البيت، ولكن الله شاء أن يكون انثى ويتقبلها بقبول حسن وينبتها نباتا حسنا يحفها بعنايته ولطفه وأرزاقه، فنشأت في هذا الجو القدسي نشأة صالحة زكية، وأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، استجابة لدعوات أمها، والتعبير بالإنبات تعبير فيه ما فيه من الروعة والبلاغة، لاسيما وقد وصف بالحسن فهو يوحي بعناية الله البالغة وألطافه المتصلة التي لا تنفك عن مريم لحظة من اللحظات، وهي تنمو نمو النبات الحسن، لقد كانت العناية من قبل الله تتولى كل شأن من شؤون مريم وإن كانت الكفالة الظاهرية من زكريا، فقد ألقى الله القبول في قلوب ذويها فتنافسوا في كفالتها، واقترعوا بالأقلام يلقونها في نهر من ماء أيهم يكفل مريم، فجرف الماء أقلامهم إلا قلم زكريا فإنه جرى على عكس اتجاه الماء، وتلك إشارة من الله أنه هو الذي يكفل مريم وهو زوج خالتها، وقيل هي أختها، فكفل هذا النبي الصالح القائم بالتوراة هذه العذراء البتول، ورأى عندها من الكرامات الربانية ما رأى، كان كلما دخل عليها المحراب وجد

عندها رزقـا، قيل كان يجد عندها فـاكهة الصيف في الشتاء، وفـاكهة الشتاء في الصيف، فيتعجب ويسأل: أنى لك هـذا؟ فتقول هو من عنـد الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. ويبـدو أن هذا الرزق يتجدد ويتنـوع لأن التعبير بالنكرة بعد ﴿كلما﴾ يدل على ذلك، ولأنه لو كان نوعا واحدا لظنه بقية الأول .

اذكـر يـا محمد في الكتـاب مـريم إذ انتبـذت من أهلهـا مكانـا شرقيـا، إذ اعتـزلت أهلهـا وقصدت مكـانـا شرقيـا لبيت المقـدس تفردت فيـه بعيـدة عن النـــاس، ومــــا هي علة هذا الانتباذ؟ قيل إنها ابتعدت عن المسجد الأقصى واعتزلت عن محرابها فيـه لأجل الحيض الذي أتـاها وذلك أن حيضـة أتتها قبل حملهـا بالمسيح وهي في سن الثـالثـة عشرة وقيل في الرابعـة عشرة وقيل أكبر من ذلك، عكفت في ذلك المكان البعيـد أيام حيضها ريثما تطهـر ويزول الأذى فلما طهرت جاء أمر الله .

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سوياً ﴾

أرسل الله إليهـا الروح جبريل عليـه السلام فتمثل لها في صـورة بشر سوي تام الخلقة جميل الصورة حسن الهيئة وقد يتمثل الملك بإذن الله في صورة آدمي.

﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾

ذُعـرت المرأة الضعيفة وخجلت وخـافت منه سـوءًا فاستعـاذت بالـرحمن وتصوروا كم تعظم دهشـة امرأة تقية عفيفة تنشأ منفردة، في بيـت العبادة في بيئة طـاهرة لايخطـر السوء ببـالها، كم تكـون دهشتها عظيمـة حين تجد بجانبهـا في خلوتها شابـا وسيما سويا، كـم يكون ذعـرها شديدا من هـذا الفتى، فما أعظمها محنـة من الله لمريم البتـول بهذا الشـاب الـرســول، ولـذلك مـا لبثت أن نطقت بالاستعاذة ملتجئة بها إلى ربها الرحمن الذي لا راحم اليوم لضعفها سواه .

﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾

تذكره بـالله إن كان تقيا، أي فاجتنبني إن كنت متقيـا لله، وما تدري أن الله هو الذي أرسله إليها، وقال بعض المفسرين ﴿**إن كنت تقيا**﴾ أي ما كنت تقيا، جعلوها نافية غير أني أرى الـروعة في المعنى الأول لأن الوعظ والتخويف به أبلغ وهو نظير قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مومنين** ـ البقرة ٢٧٨﴾ .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾

أجـابها قائلا: مـا جئت إلا مرسـلا من الله ربك الذي أنبتك نبـاتا حسنـا، ورزقك وحفك بألطافه، أختيرت الإضافة إلى الرب ليذكرها بنعمه وألطافه ولتعلم أن هـذه الهبـة من جملـة نعمـه ورزقـه فلتتقبلهـا من الله بـرضى وصـدر منشرح، والـواهـب هـو الله، ومـا المَلَكُ إلا مبلـغ للهبـة حـامل لها وفى بعـض القـراءات ﴿ليهب﴾ لك ولداً ذكرا زكي النفسِ والقلب، صالح الأفعال مرضيا .

﴿ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾

تعجبت وقـالت كيف يكـون لي غـلام ولم يمسسنى بشر؟ إنها لا عهـد لها بالأمور الجنسية، ولكن الصـدمة أثارتها فتكلمت ولم تصرِّح وكَنَّت بالمسيس عن الجماع حيـاء منهـا، وبما أن المسيس يشمل الحلال والحرام وهي لم يسبق لها زواج زادت فصرحت بنفي النوع الثاني منه وهو الحرام، والبغي:هي المرأة الزانية، نفت عنها البغاء تشبثا بعفافها، وهو كـلام يدل على شدة وقع الصدمة على هذه المرأة المسكينة في محنتهـا هذه،ولولا دهشتهـا لأدركت أن الغلام الزكي الـذي يأتي هبة من الله لا يكون بطريق البغاء ولكنها الدهشة المفاجئة أنطقتها بما نطقت به .

﴿ قال كذلـك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آيـة للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾

قـال لها المَلك:كذلـك قال ربك أي هـو قـول ربك وحكمـهُ، وأمره لابـد

مقضي، ذكَّرها بالله وبقوله، لتعلم يقينا أن الهبة من الله وأن الأمر أمره حتى تطمئن إلى قول الله وأمره، ويسكن روعها، وتذهب عنها الهواجس، فليس ثمة ما ينكر، وأضيف القول إلى الرب كما أضيفت الرسالة إليه من قبل تذكيرا لها بربها الذي سبق إحسانه إليها فلتطمئن إليه فإنه لا يخزيها .

﴿ قال ربك هو عليّ هين ﴾

هذا الأمر الذي تتعجبين منه هيّن سهل ميسور في إرادة الله وقوته .

﴿ ولنجعله آية للناس ﴾

قال الله تعالى : لنجعل هذا الأمر آية للناس تريهم قدرة الله على خرق سننه في الخلق متى شاء، فليست السنن المطردة إلا بأمره وقدرته، وربما يظن كثير من الناس أن جريان الأمور على سننها حتم لا يمكن تغييره، ويغفلون عن قدرة الخالق المدبر الحكيم الفعال لما يريد، فاقتضت حكمة الله أن يريهم في بعض الأحيان بعض الخوارق التي تجري على خلاف ما يعتادونه ليعلموا أن الله هو الذي أجرى هذه الأمور على سنن خلقها وأرادها، وأن الله متى شاء خرقها وغيّرها، وفي ذلك تنبيه من الله عظيم للناس، إن كل شيء بإرادة الله وأمره لا يعجزه شيء ولا يستحيل في إرادته شيء .

﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا ﴾

كان هذا الأمر بإرادة الله آية للناس ورحمة من الله، نعم رحمة من الله لخلقه أن يرسل إليهم غلاما زكيا من امرأة زكية عابدة، من بيت اصطفاه الله، ليدعوهم إلى الله وليخرجهم من الظلمات إلى النور . ﴿ **أمرًا مقضيا** ﴾ هو أمر قضاه الله وقدَّره،وأمر الله لابد واقع لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، نعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما. قُضِي أمر الله بما أراده وقدره ﴿ **فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً** ﴾ لا ندرى كيفية حمل مريم لهذا الجنين وإن كان بعض المفسرين ذكروا أن جبريل

عليه السلام نفخ في جيب درعها، وليس في القرآن ذكر لهذا، ولو تعلق به غرض لذكره الله تعالى، وأسند الله النفخ إلى نفسه في موضع آخر من القرآن ففي سورة التحريم ﴿ **ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه، وكانت من القانتين** ـ التحريم ١٢﴾ وفي سورة الأنبياء ﴿ **والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ـ الأنبياء ٩١﴾ وكذلك يقول عز وجل في خلق أبينا آدم ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ـ الحجر ٢٩﴾ ولا يفسر القرآن مثل القرآن فلنؤمن بهذا النفخ ولنترك السؤال عن الكيفية، والروح من أمر ربي وما أوتينا من العلم إلا قليلا .

حملت مريم بعيسى ومضت تلتمس مكانا بعيدا عن قومها تنفرد فيه بعبادة ربها، ولا يعلم إلا الله ما في ضميرها من الخواطر بهذا الحمل الذي سيولد من غير أب ماذا تكون أقوال الناس فيه؟ ولكنها تفوض أمرها أخيرا إلى ربها وهو الذي يجعل لها من أمرها يسرا، وهي مصدقة بكلمات ربها وكتابه مؤمنة قانتة لله خاضعة له خاشعة تملأ به وجدانها فليس للشيطان إليه سبيل .

﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسياً ﴾

أجاءها فعل رباعى من « جاء » مزيد بالهمزة ، أي ألجأها المخاض ـ مقدمات الوضع ـ وهي حالة تعرفها الحوامل تحس فيها أن ما في بطنها على وشك الخروج، لما أحست ذلك التجأت إلى جذع النخلة، وكأنها نخلة كانت معروفة عندهم وليس البلد بلد نخل ــ ولذلك عُرِّفت بالألف واللام، التجأت إليها لتمسك بجذعها عند الطلق لعلها تجد بذلك قوة تعينها على الولادة، وما تدري أن الله قد جعل لها على رأس هذه النخلة المباركة رطبا يكون لها أفضل غذاء وأنفعه، ركضت هنالك وحيدة وفي قلبها ما الله به عليم من الهواجس،

هـا قـد أصبح الأمر حقيقـة واقعة، وها هـو المولود سيستهل بعـد لحظات فماذا تقول لقـومها ومن يصدقها منهم؟ إنـه أمر عظيم أحست به مـريم وهي راكضة للولادة .

﴿ قالت ياليتني متُ قبل هذا وكنتُ نسيا منسياً ﴾

تمنت أن تكون مـاتت قبل هذه الحالة، وكـانت خرقـة من ثوب بال مـرمية منسية، إنها صـدمة عنيفة هي من الله محنـة وبلاء مبين لهذه المرأة التي أراد الله أن ينقي عنصرها ويرفع درجـاتها عنده حتى تكون أفضل نساء العـالمين، ويريد الله أن تكون محلا لظهـور هذه الآيـة العظيمة التي ستبقـى ما بقي الـزمان يتنـاقلها الناس ويهتـدون بها إلى قدرة الله الفعال لما يريـد، لقد كان الله حفيـا بمريم فلم يتركها في هذه الحيرة طويـلا فما أن خرج منها المولود الذكر، وصـار حقيقة واقعة حتى خاطبها بلسـان فصيح خطابا تفهمه يزيل عنهـا الحزن ويسري عنها ما بها من الحيرة والاضطراب .

﴿ فنـاداها من تحتهـا ألا تحزني قـد جعل ربك تحتك سريا وهـزّي إليكِ بجـذع النخلـة تسـاقط عليك رطبـا جنيا فكلي واشربي وقـري عينـا فإما تـرين من البشر أحـدا فقـولي إني نذرت للرحمن صـومـا فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾

كانت هذه الكلمات التي خاطبها بها ولدها بصوت مرتفع في تعبير فصيح تفهمـه جيدا وتأنس إليـه. (نـاداها من تحتهـا) أي في سـاعة الـولادة، وبعدهـا مبـاشرة جـاءت «أَنْ» وهـي تفسيريـة، (لا تحزني) : أزيلي عنك الحزن وسري عن قلبك فإن ربك سيجعل لك من أمـرك يسرا فـاشتغلي بطعـامك الـذي هيأه الله لك ولا تشتغلي بما وراءه فإن الله معك ولن يخزيك .

﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾

وهنـا تأتي كلمـة الـرب التي تدل على التربية والعناية والكفالة والحفظ، مضـافة إليهـا تذكيرا لها على مـا سلف من إحسان الله إليهـا وكما أحسن الله فيما مضى كـذلك يحسن فيما بقي ما دامت تعبـده وتتوكل عليـه، ﴿**قـد جعل ربك تحتك سريا**﴾، قد خلق ربك وانبع لك سريا أي نهرا صغيرا، تحتك قريبا منك وخلق لك الرطب في النخلـة قريبا منك فما هو إلا أن تهزي إليك بجـذع النخلة حتى يتساقط عليك الـرطب الجني، الرطب الناضج المتهيء لـلأكل، فكلي منه واشربي من السري العـذب وقري عينـا وانبـذي عنك المخاوف والأحـزان، أربع كـرامـات تتحقق لهذه المرأة القصِّية عن قومها، ولكن الله معها فهو عندها يهيء لها من أمرهـا مرفقا، (**الكرامـة الأولى**): إن الله أنطق لها وليدهـا تحتها في لحظة الولادة ليطمئن قلبها ويزيل مـا به من حزن وخوف، (**الكرامة الثـانية**): إن الله خلق لها على رأس النخلة رطبـا جنيا وليس البلد بلـد نخل وتمر، ولا الوقت وقت جني الرطب، (**الكرامة الثـالثة**): إن الله أنبع لها سريا من ماء، ومـا كان موجودا من قبل، (**الكـرامـة الـرابعـة**): أنها تهز جـذع النخلة فيطـاوعها ويلقي عليهـا الرطب الجني الكثير وهذا يفهم من قولـه تساقط عليك رطبا جنيا، فكأن النخلة كلهـا تساقط رطبـا لكثـرته، ولم يقل يسـاقط الـرطب وهـذا المعنى يدركـه أهل البلاغة.

ثم إن الله اختار لها الـرطب ولو شـاء لساق لها رزقـا غيره، وما ذلك إلا لأن الرطب أوفق طعام لها ولوليدها تحنكـه به وهذا ما يقرره الأطباء، ثم إن الله كلفها أن تهز جذع النخلة وما هـذا إلا لأن حركتها أرفق بها وليعلّمنا الله أن التسبب في طلب الـرزق عبادة، وأن الأخـذ بالأسباب لا ينـافي التوكـل، وأن تظهر معجـزته وقدرته بمطاوعة جذع النخلة الغليظ لسـواعد امرأة نفساء ضعيفة، ولعل هناك كرامـات غير هذه لم تذكر فقـد يكون يسر عليها أمر الـولادة وخفّف عليها آلام الوضع والله على كل شيء قديـر، أطعمها الله وسقاها ثم أرشـدها إلى أمر تعتصم به عند مقابلة أهل بلدها حتى ترجع إليهم وهي تحمل طفلها .

﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾

إن رأيت أحدا من الناس عند رجوعك إلى قومك فقولي: إني نذرت صوما لله أي صوما عن الكلام، فلن أكلم اليوم إنسيا، اختار لها كلمة النذر حتى يحترم قومها نذرها لأنهم مؤمنون يعلمون حرمة النذر، والصوم المقصود هنا هو الإمساك عن الكلام وليس الصوم عن الطعام والشراب، لأن القرآن بينه وربطه بالفاء التفسيرية، ولأنه لا يشرع لامرأة نفساء أن تصوم فرضا ولا نفلا .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ﴿٣٠﴾
وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّۭا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى
وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّۭا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾

فرجعت إلى قومها قادمة إليهم من المكان القصي وهي تحمل طفلها الصغير متوكلة على ربها معتصمة به **﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ﴾** نادوها باسمها لأنهم عرفوها يقينا ورأوها تحمل الولد وترضعه قالوا لها لقد جئت أمرا عظيما فظيعا ولا أفظع من ولادة من غير زواج وما عهدوا ولا سمعوا منذ أبيهم آدم ولدا من غير أب، فلم يخطر ببالهم إلا أسوأ الظنون، ولذلك أردفوا قائلين لها **﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾** يا أخت هارون، تكلم أهل التفسير في هارون هذا المذكور في الخطاب ولا نعلم لها أخا من النسب اسمه هارون ولو نعلمه لكان هو المقصود، بل قال المفسرون إنه رجل صالح من قومها شُهِرَ بالعفاف والبر والتقى وكان الناس يتبركون بتسمية أبنائهم باسمه ،حتى قيل إنه لما مات حضر جنازته أربعة آلاف شخص

اسمهم هارون، فنسبوها إليه بإخوَّة الدين والشبه في العبادة والصلاة والتبتل، وقال بعضهم ـ وأرى هذا القول سخيفا ـ إنما قصدوا اتهامها بشخص اسمه هارون كان مريبا عندهم ـ ولا أرى هذا ـ. ولا مانع أن تكون هذه الأخوة نسبة لقبيلة مريم إن كانت من ذرية هارون أخى موسى عليهما السلام، وفى التعبير العربي الشائع إذا أرادوا نسبة شخص إلى عشيرة قالوا يا أخا بني فلان وقد يحذفون البنوة ويلغونها وينسبون إلى اسم القبيلة أو العشيرة الذي هو اسم جدهم فيقولون مثلا يا أخا العرب ـ يا أخا قريش ـ يا أخا هذيل، وهذا مستعمل كثيرا في كلامهم .

﴿ ما كان أبوك أمرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً ﴾

عرف الناس معنى الوراثة منذ القدم ولذلك تعجبوا من مريم أن يصدر منها هذا وهي بنت الأطهار الأعفة الأبرار، قالوا لها ما عرف أبوك بالفجور ، وما كانت أمك زانية، فمن أين أُصِبْتِ بهذا الخُلق الرديء الفاضح، ومن أين جئت بهذا الولد؟

﴿ فأشارت إليه ﴾ لم تكلمهم، وقد قالت لهم من قبل **﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم أنسياً ﴾** فأشارت إلى الولد وهو يرضع، أي كلموا هذا واسألوه، فتعجبوا من إشارتها وقالوا :

﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبيا ﴾

أتهزئين بعقولنا؟ كيف نكلم صبيا في المهد ولا يفعل هذا عاقل؟ قيل كان الصبى يرضع ثدي أمه فلما أشارت إليه ترك الثدي والتفت إليهم متكئاً على اليسرى مشيراً بسبابته اليمنى مخاطبا لهم بلسان فصيح :

﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾

كان هـذا الكلام المتزن المعقول المفهـوم الذي خاطبهم بـه الصبي الرضيع الذي ليس من شأنه الكلام، ولا يعهد من مثله الكلام، فالكلام من مثله آية بيّنة ومعجزة كبرى مـن الله، ليريهم الله أنه على كل شيء قـدير، وأن مـريم بريئـة مما يتهمـون، وأن طفلها مبـارك ونبي، وسـلام الله عليه أينما حل وارتحل، ولا يكـون هذا لـولدِ بغاء، ولـذلك سكتوا عن مريم وآمنـوا بأمر الله الذي أظهـره من هذه العـذراء البتول، ولم يشك في أمـرها إلا المنـافقون والـذين في قلوبهم مـرض، ولم يسلم من مثل هؤلاء نبي ولا رسـول، أما المؤمنـون فازدادوا بهذه الآية إيمانـا وقد علموا إنما أمر الله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

﴿**قال إني عبد الله**﴾ بـدأ بهذا الوصف الـذي هو العبـودية المحضـة لله تبارك وتعالى، حتى ينفي كل شبهة يتمسك بها من يزعم أنه إلّه في زمانه، أو بعد زمانه فما أبعـد العبودية عن صفـات الألوهية، تعالى الله عما يقـول المبطلون علوا كبيرا، إن عيسى بن مريم عبـد مخلوق خـاضع متذلل لربـه معترف بعبوديتـه له غير مستنكف عن ذلك، هـذا كلامه عنـد أول نطقه وهـذا اعتقاده ودينـه ما دام حيا وسيكون هذا كلامه بعد مبعثه وعند وقـوفه بين يدى ربه يوم القيامة، إن ربنا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا .

﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب** ﴾

الكتـاب المقـدس: التـوراة ورثـه عمن قبلـه من أنبيـاء بنى إسرائيل، والإنجيل نزل عليه مكملا للتوراة، فالكتاب هنا يعني به جنس الكتاب .

﴿ **وجعلني نبيًا** ﴾ جعله الله نبيا يوحى إليه كما أوحي إلى النبيين من قبله.

﴿ **وجعلني مباركاً أين ما كنت** ﴾

وجعله الله مباركـا، أينما حل كانت البركة، فهو مبـارك في بطن أمه، مبارك عليها، مبـارك ساعـة ميلاده، مبارك على قـومه، يبرىء الأكمـة والأبرص ويحيى

الموتى بإذن الله، مبارك عليهم يهديهم الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور لينجوا من سخط الله، وليزحزحوا عن النار ويدخلوا الجنة، وذلك هو الفوز المبين، فما أعظم بركة الله عليه وعليهم ببعثه فيهم .

﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾

قال أوصاني الله بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، أي أمره بإقام الصلوات المفروضات وأداء الزكوات ما دام على قيد الحياة، وهذا بلاغ من الله للمكلفين أن الصلاة فرضت على المكلفين مدى الحياة، ليست هنالك حالة تسقط فيها عنهم ولو في حالة قتال الأعداء في الميدان فإنها تؤدى حسب الامكان ﴿ **فإن خفتم فرجالا أو ركبانا** ـ البقرة ٢٣٩﴾ وكذلك الزكاة تؤدى إذا بلغ المال النصاب، وتجب في أموال الصغار والكبار والعقلاء والمجانين لا تسقط عنهم مدى الحياة، والوصية من الله أمر مؤكد واجب فعله، من تركه كان آثما متعمدا لمخالفة أوامر الله يستحق العقوبة من الله .

﴿ وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا ﴾

وجعلني ربي برًّا بوالدتي، والبر هو الإحسان وفعل الخير، أثبت صفات البر، ونفى الجبروت والشقاء، والجبروت هو الكبر والظلم وغلظ القلوب، والشقاء التنكب عن طريق البر وسلوك طريق الشر والفساد، هذه صفات نطق بها المسيح وهو صبي في المهد، طبع عليها منذ تكوينه الأول، وستظهر فيه عندما يبلغ مبلغها وذلك مثل النبوة والكتاب والصلاة والزكاة والبر، ومن المفسرين من فسر الزكاة بزكاة النفس وطهارتها لأن المسيح لم يمتلك مالا تجب فيه الزكاة ولا مانع عندي أن تكون الزكاة هي الحقيقة الشرعية للزكاة، وهي فرض عليه وعلى من اتبعه من أمته، فهو وإن لم يؤدها مؤمن بها، ناوٍ أداءها لو كان يملك نصابها .

﴿والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾

السلام معناه السلامة من الآفات، والسلم الذي هو ضد الحرب، وهو اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، لأنه الحفيظ العليم الذي إن كتب السلامة لعبد من عباده فلن يستطيع أهل الأرض والسموات أن ينالوه بمكروه، والسلام تحية أهل الجنة من ربهم ومن الملائكة وتحية أهل الجنة بعضهم لبعض، وإذا أردنا فهم السلام يومئذ حق الفهم فبالمقابلة بضده وهو العذاب، ففي سورة طه ﴿**إنَّا قد أوحي إلينا أنَّ العذاب على من كذَّب وتولى** ـ طه ٤٨﴾ وذلك بعد قوله ﴿**والسلام على من اتبع الهدى** ـ طه ٤٧﴾ فالسلام ضد العذاب وهو الرحمة والنجاة والفوز بالنعيم المقيم، لقد أنطق الله المسيح بالحق فأخبر أن السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، وهي الأطوار الثلاثة التي يكون الإنسان فيها أحوج ما يكون إلى السلام، فما أضعف الإنسان يوم ولادته، وما أضعفه المسكين يوم موته، وما أضعفه وأحوجه إلى الرحمة والسلام يوم يبعث حيا وتطالعه أهوال يوم القيامة، وقد رحمنا الله في الأولى، ونسأله أن يرحمنا ويسلمنا في الثانية والثالثة، وفى هذه الصفات الثمانية التي نطق بها الصبي المبارك، ووصف بها نفسه رد على الجانين من الكفار وتكذيب لهم في دعواهم، الغالين في بغضه، والمتهمين لأمه بالزنا، المحاولين لقتله بعد ذلك، إذ الأوصاف هذه لا تنطبق على ولد غير شرعي، والغالين في تقديسه، ومن جعله إلهاً، إذ الأوصاف هذه لا يوصف بها الإله فهي لا تكون إلا لمخلوق ضعيف يولد ويموت ويبعث، والله جل وعلا أولده وأماته وسوف يبعثه تقدست أسماؤه لا تناله هذه الأوصاف المتحولة، ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد** ـ الإخلاص ٣/٤﴾ فما أحكم كلام الله، وفيها بشارة لأمه ولمن آمن به من قومه .

﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾

ذلك إشارة إلى نبي الله وعبده عيسى بن مريم الذي اختلفت فيه الأهواء، قول الحق من إله الحق لو اتبعوا الحق ما تشتتت بهم الأهواء، ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن** ـ المؤمنون ٧١﴾

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

ما كان لله أن يتخذ من ولد، نفي للشأن وهو أبلغ في النفي ليس من شأن الله أن يكون له ولد، سبحانه تنزه عن الولد وتقدس وتعالى عن الصاحبة والولد علوا كبيرا، وهذا رد على الذين يزعمون أن المسيح ابن الله وما المسيح إلا عبد لله سبحان ربك رب العزة عما يصفون، إذا قضى أمرًا وأراده يقول له ﴿كن فيكون﴾ وليس ثمة قول، فلا كاف ولا نون، بل هي إرادة الله وقدرته إذا تعلقت بشيء كان كما أراد في الوقت الذي يريد، خلق المسيح من غير أب بإرادته وقدرته، كما خلق آدم من قبل من غير أب ولا أم بإرادته وقدرته .

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

توصل هذه الجملة بالواو عطفا على الجمل المفصولة السابقة التي بينها كمال الاتصال، وهي كسوابقها من كلام المسيح عليه السلام، وهذا الذي أراه ويراه أبو مسلم وجملة من المفسرين، فهي معطوفة على الجمل التي نطق بها المسيح من قبل ليثبت لقومه أنه مثلهم عبد لله وليس بإله وأن الله ربه وربهم فليعبدوه مخلصين له الدين وليوحدوه بالعبادة ولا يشركوا به شيئا، هذا هو الصراط المستقيم لا اعوجاج فيه ولا ضلال، بهذه الجملة يختم المسيح كلامه لقومه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، هذا الذي أرجحه وهذا ما يتفق مع قول المسيح يوم القيامة حين يسأله ربه ويجيبه، ومن جملة كلامه يومئذ **﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم** ـ المائدة ١١٧﴾ .

ويقول بعض المفسرين إن هذا ليس من كلام المسيح، وإن كلام المسيح انتهى عند قوله ﴿ **ويوم أبعث حياً** ﴾ فالآية عندهم من جملة سائر القرآن ويقدر فيها ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد: ﴿**وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا**

صراط مستقيم﴾ وكل يصح والوجه الأول أوضح وأتم لكلام المسيح عليه السلام وألزم للحجة على النصارى الذين يدَّعون ألوهية المسيح، ورد على جميع من يتخذ من دون الله شفعاء حتى الذين يعكفون على قبور الأولياء يتخذون عندها السرج، ويبنون عندها القباب والمحاريب والأنصاب، يذبحون عندها وينذرون يطلبون عندها الحاجات، ويستدفعون البلايا والآفات، وكل ذلك شرك والله بريء مما يفعلون .

﴿ وأن الله ربي وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾

الله ربنا وخالقنا ومربينا فهو الذي يستحق عبادتنا ومن يستحق العبادة غير الرب الخالق الرازق المحيى المميت؟ إن عبادته وحده هي الصراط المستقيم الذي يهدي إلى الحق، وهو الصراط الذي دعت إليه أنبياء الله ورسله من لدن أبينا آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين، وهو الصراط المستقيم الذي علمنا الله أن ندعوه ليهدينا إليه والدعاء في سورة الفاتحة وهي أم الكتاب التي لا تصح الصلاة إلا بها وهي السبع المثاني **﴿أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ـ الفاتحة ٦/٧﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾

الجملة مربوطة بالفاء السببية لأن الاختلاف بين بني اسرائيل إنما وقع بعد مبعث عيسى عليه السّلام، والحال أنهم لو أنصفوا واستمعوا وأطاعوا ما وقع بينهم خلاف، اختلفوا بعد ميلاده وبعد مبعثه وازدادوا خلافا بعد رفعه، اختلف الأحزاب من بينهم، قال من بينهم ولم يقل بينهم لاشتداد الخلاف وتشعب الأهواء، فهم أحزاب متعددة لا حزبان، منهم من ادعى ألوهيته، ومنهم من أبغضه واتهم أمه العذراء البتول، وأحزاب أخرى، جاء المسيح فوجدهم حرفوا الكلم من بعد موضعه وبدلوا وغيروا؛ يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا

من عند الله وما هو من عند الله، فبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه ونفى التحريف والتغيير الذي أدخل على التوراة، وأحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وما حرمه التوراة بل حرمه أحبارهم فأبغضوه وحاولوا قتله .

﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾

ويل للذين كفروا بالمسيح وبغيره من الرسل ولم يتبعوا النور الذي أنزل معه، ويل لهم من مشهد يوم عظيم يشهدونه ويشهده الأولون والآخرون وتشهده الملائكة ويأتي فيه أمر ربك وهو يوم عظيم في مشهده وأهواله، عظيم في أنواع جزاء الناس فيه، لهم الويل فيه وهو العذاب الأليم لا مفر لهم منه ولا خلاص وما لهم من ناصرين وهو يوم لا ينفع فيه نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

ما أرهف أسماع الذين كفروا وما أحد أبصارهم يومئذ حين يرون العذاب بأعينهم ويسمعون زفير جهنم وتغيظها بآذانهم، حينئذ يرون الحق ويستمعون القول وهم اليوم عن الحق عمون، وعن سماعه متصامون، ما أسمعهم للحق وما أبصرهم له يوم يأتوننا، يوم لا ينفعهم سمع ولا بصر ولا إيمان، وهذا محط العجب أن يعموا عن الحق ويصموا عنه اليوم، ولو سمعوا وأبصروا لنفعهم، وإن يسمعوا ويبصروا اليوم لا ينفعهم ذلك، وهذا زجر لهم عن كفرهم وضلالهم وتخويف من الله لهم من سوء مصير الكافرين الظالمين .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

أي خوفهم من يوم القيامة الذي هو يوم الحسرة على الكافرين لأنهم يرون العذاب محقّقا ويدركون أن سبب استحقاقهم له إنما هو تفريطهم وعدم إيمانهم فسيتحسرون أي يتندمون على ما فرطوا في جنب الله، ينادون بالويل والثبور

ويتقطعون حسرات ويعضون على أيديهم، وفي وصفه بيوم الحسرة تصوير بليغ لشدته وهوله، فهو يوم الحسرة الكبرى، ذلك لأنهم يعلمون أنهم فرطوا وأنهم أضاعوا كل شيء فلا ينفعهم اليوم ندمهم ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿**فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ـ فصلت ٢٤﴾، أما اليوم فهم في غفلة وهم لا يؤمنون، طغت عليهم أهواؤهم وطالت في الدنيا آمالهم، فهم عن الآخرة هم غافلون، وهم بآيات الله البينات لا يؤمنون، في الآية موعظة بليغة وبيان لمصير الغافلين المعرضين وقد قضي الأمر وانتهى كل شيء فلا مطمع في الرجوع ولا في المراجعة، قضى الأمر ومات الموت .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي به مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الامر وهم في غفلة وهم لا يومنون**﴾ وأشار بيده إلى الدنيا. رواه البخاري ومسلم والنسائي .

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

هكذا يختم هذا السياق بهذا التذييل الغريب الذي يحمل الحقيقة الثابتة وهي أن مرجع الأمور كلها إلى الله، وهم إليه يوم القيامة يرجعون مجردين مما خولهم الله من متاع الحياة الدنيا، كان التذييل بهذه الحقيقة لأن الله الخبير بعباده علم أن سبب كفر الكافرين والمنافقين وغفلتهم وعدم إيمانهم إنما هو لأجل تعلقهم بالدنيا فقد فتنوا بزينة الأرض وأطغاهم الملك والمال والجنود فأعرضوا عن الآخرة فهم صم عمي بكم، فأنبأهم الله بهذا النبأ العظيم لعله يزجرهم عن

غفلتهم ويردعهم عن غيهم، ﴿ **إنا نحن نرث الارض ومن عليها** ﴾ إنا نحن الوارثون للأرض وما عليها وما فيها ومن عليها من الناس، إنه مالك كل من عليها وما عليها ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والاكرام، فهو الذي خلق الأرض وما فيها وما عليها ومن عليها وهو الذي يرثها أخيرا ومن عليها بعد هلاك كل شيء وفناء كل شيء، ثم إليه المصير ليوم الحساب فلا يفلت منهم أحد ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ هكذا بتقديم ما حقه التأخير ليفيد الحصر، وبنون العظمة يأتي الحكم النهائي من الله ملك يوم الدين أن مرجع هؤلاء الغافلين إلى الله يوم القيامة، يوم يضع الموازين القسط فلا تظلم نفس شيئا، ومن ذا الذي يعقب هذا الحكم المحكم؟ ومن ذا الذي يفلت من هذا القضاء المبرم؟ ومن ذا الذي يتغيب عن هذا المصير الذي يرجعون إليه حتما ليمثلوا أمام المحكمة الإلهية العادلة؟ إنها آيات عجيبة مؤثرة وأحكام مبرمة وحقائق ثابتة لا مفر منها فلا ملجأ من الله إلا إليه!

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ
يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ
رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

بعد قصة مريم والمسيح عليهما السلام تأتينا من الله العلي الكبير هذه الآيات البينات في ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، ومحاورته لأبيه آزر

وبين القصتين مناسبة متينة، ذلك أن كلا القصتين تعالجان موضوع الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونفي الصاحبة والولد والشريك بحجج واضحة تعالى الله عن الصاحبة والولد والشريك علوا كبيرا.

في الآيات الأولى رد على المشركين من النصارى، وبيان للحق في مريم والمسيح عليهما السلام، وفي الآيات التاليات رد على قريش وعرب الجزيرة الذين يتخذون الأوثان والأصنام يعبدونهم من دون الله ويحبونهم كحب الله ثم يزعمون أنهم على دين إبراهيم، ويفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم فتبين لهم الآيات البينات أن أباهم إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين فهو بريء من الشرك والشركاء ومن الذين يعبدونهم، ويأتى الأسلوب في غاية الأدب والتلطف وذلك ما يقتضيه محاورة الإبن للوالد لاسيما والخطاب من إبراهيم الحليم الأواه المنيب، فلتكن صيغة المناداة والمحاورة درسا لشبابنا في حق التأدب مع الوالدين فهو في كل مقطع من مقاطع الكلام يستهل النداء بيا أبتِ وهذا ما ينبغي للأبناء والبنات في محاورة الآباء والأمهات وهو من تمام البر والرحمة بالوالدين، ونحن نعلم أن بعض شبابنا يستنكفون من هذه الكلمة التي هي عنوان المحبة والبر ولو كان من الآباء من تُنزع كلمة الأبوة من محاورته لكان أبا إبراهيم المشرك الجاحد الذي أعلن الحرب بينه وبين من يدعوه إلى التوحيد ونبذ الأصنام ولو كان ابنه، ولكن هذا الإبن البرّ الوَصُول أبى عليه أدبه الرباني إلا أن يستهل كل مقطع من محاورته لإبيه المشرك المعاند بيا أبت، فاعتبروا أيها الشباب واقتدوا بأبيكم إبراهيم .

﴿ واذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صديقا نبيًا ﴾

واذكر في الكتاب إبراهيم، والقصد من الذكر التذكير والموعظة بخبر إبراهيم أبي الأنبياء وسيد الحنفاء عليه السلام، وقبل عرض المحاورة اللطيفة يثني الله ربنا على عبده إبراهيم ويصفه بوصفين عظيمين: الصديقية والنبوة،

ويبدأ بـالصديقية قبل النبـوة، فما هي الحكمة من ذلك، والحال أن رتبـة الأنبياء فوق رتبـة الصديقين؟ ذلك فيما نرى أن إبراهيـم كان صديقا قبل أن يكـون نبيا على أن الصديقية هي من أبرز صفات الأنبيـاء، والصديق في اللغة صيغة مبالغة من الصدق والتصديق، فالعبد الصـادق لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عنـد الله صديقـا، كما جاء في الحديث الشريف، والصـديق أيضا الـذي يسارع إلى تصديق الحق إذا جاءه ولا يرتـاب ولذلك سمي أبو بكر رضي الله عنه صـديقا حين كـان أول المصدقين لصـاحبـه محمد ﷺ، وكـذلك صدق بقصـة الإسراء قبل أن يسمعهـا من صـاحبـه فسمي لـذلك صـديقـا، وإذا كـان هـذا الوصف مدحا لأحد فلأن يكـون بأنبيائه ورسله أولى وأحرى وبهم ألزم، ثم يأتي المدح بوصف النبوة وهي هبة من الله لمن يشاء، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

بدأ الله بالثنـاء الجميل بهذين الوصفين لخليله إبراهيم عليـه السلام حتى نتخذ منـه المثل الأعلى في الاقتداء بهداه، ملة أبيكم إبـراهيم ثم قص علينا خبر محاورته لأبيه يدعوه إلى توحيد الله ونبذ الأصنام .

﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾

يـا أبت لم تعبد من دون الله مـا لا يسمع لك دعاء ولا يبصر لك عبـادة ولا سجودا، فهي أصنام جامدة لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنك شيئا، لا تجلب لك نفعا ولا تـدفع عنك ضرا ولو قليلا، وهذا ما تـدل عليه كلمة « شيئاً » المنكـرة بعد النفي، وهي الحجة القاطعـة التي تنسف الشرك والشركاء، انها لا تسمع ولا تبصر ولا تعي مـا يأتيـه عابـدوها، وهـي عنهم غافلـة فَلِمَ إذن عبادتها، ثم هي لا تغني شيئا عن العاكفين عليها من جلب نفع ولا دفع ضر فما جدوى عبـادة من هذا وصفه؟، إن هـذا لهو الخطأ البيّن والضلال المبين، والحال أن الـرب الخالق الـرازق الـواجب الـوجـود الحى القيـوم السميع البصير العليم القدير لا يرضى لعباده الكفر ولا يغفر أن يشرك به .

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا﴾

يا أبت، نداء لطيف كالأول فيه حنان الأبناء البررة لآبائهم، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فيه تلطف آخر وأدب عظيم، وهو أنه لم ينسب لأبيه الجهل، وإنما ذكر له أن عنده علما ليس عنده، وليس من اكتسابه، بل جاءه من العليم الوهاب، فما على أبيه إلا أن يتبعه فيهديه صراطا سويا مستقيما لا عوج فيه ولا يخشى على سالكه ضلال، وما على الكبير من غضاضة في أن يتبع الصغير الذي عنده من العلم ما ليس عنده فالعلم نور والجهل ظلام، فكما لا يستنكف الذي هو في ظلمة أن يتبع من عنده نور ولو كان دونه في السن أو في القدر، فأحرى أن لا يستنكف الجاهل أن يتبع العالم، وهذه قاعدة يقررها القرآن في هذا الحوار الذي يجري على لسان أبينا إبراهيم عليه السلام تبيّن أن على العالم أن ينشر علمه ولا يكتمه، وأن على الجاهل أن يتبع العالم ولو كان ابنه، وأن درجة العالم هي العليا، وقديما كان الملوك والأمراء يجلسون بين يدي العلماء يأخذون من علومهم .

﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾

ينادي العبد الصالح إبراهيم أباه للمرة الثالثة باسم الأبوة مصدرا به نداءه تأدبا وتلطفا، يقول له لا تعبد الشيطان، لأن عبادة الأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان لأنه هو الذي زين لهم ذلك ووسوس لهم به ثم قال له **﴿ إنّ الشيطان كان للرحمن عصيا﴾**

والشيطان عند جميع الأمم هو رمز للشر والطغيان، ينفر كل الناس منه ويزعم حتى العصاة منهم أن أعمالهم حسنة ليست من أعمال الشياطين وذلك من مكر الشيطان يزين لهم سوء أعمالهم ويخيل إليهم أنها عبادات وأنها قربات لله كما زين لأبيهم آدم معصية الله وأقسم له بذلك فأغراه وزوجه فأكلا من الشجرة، ذكّر إبراهيم أباه أن الشيطان كان للرحمن عصيا منذ أن أمره بالسجود

لآدم فهو منذ ذلـك اليوم عصيٌّ للرحمن بعيد من رحمته محروم منهـا، ومثله في ذلك من عبده من الإنس والجن .

﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾

جـاء هذا النـداء الرابع من إبـراهيم لأبيـه على النحو الـذي سبق، مليء بالتحنن والتلطف، وفيـه تخويف و إنذار لأبيه إن هو لم يستمع إلى نصحـه، فهو يخاف على أبيه سوء العـاقبة وهي أن تحق عليه كلمة العـذاب فيمسه عذاب من الرحمن، واعجبـوا لعذاب يأتي من الرحمن ولا يكـون إلا لمن فرّ من رحمة الله وأبى وكـذب وتولى وأعـرض ، وهؤلاء هم أوليـاء الشيطـان تولاهـم واستحـوذ عليهم وأخذ بنـواصيهم فأبعدهـم من رحمة الرحمن، هـذا ما خافـه إبراهيم الحليم الأواه على أبيه آزر، فصرح له به أخيرًا لعله يرتدع وينصاع إلى سماع الحق، ولكن أباه لم يستمع لهذا النصح العميق والموعظـة البليغة من ولـده، ولم يـزدْه إلا عتوا ونفـورا وراح يهدد ابنه ونـاصحه بأقسى أنواع التهديـد، كأن قلبه قُدَّ من صخـر، فهو لم يلن لعبارات ولده اللطيفـة اللينة التي لو خاطب بها الحجـارة للانت وخشعت ولكن الله يهدي من يشـاء ومن يضلل الله فلا هـادي له، قلـوب قاسيـة ممعنة في الضلال لا تحب الناصحين.

﴿ قـال أراغب أنت عن آلهتـي يا إبـراهيم لئن لم تنتـه لأرجمنك واهجرني ملياً ﴾

كان هذا جواب الشيخ الكافر لـولده الناصح الأمين البر الوصول بعد تلك العبارات التي تفيض مودة وأشفاقا، قـال لابنه مجيبا له بصيغة الاستفهام التعجبي مناديا له باسمه تاركا اسم البنوة جانبا كأنه لم يعترف ببنوته له فهو لا يستحقها في نظره الحَرِد **﴿ قـال أراغب أنت عن آلهتى يا إبـراهيم ﴾** قال أمعرض أنت عن آلهتي كافـر بها يا إبراهيم، فهـي آلهة كثيرة ليست إلها واحدا، لقد همه أمـر آلهته في الدرجة الأولى ولذلك أخر عنها ذكـر اسم إبراهيم فهو في غاية التمسك بها معتزًا

بنسبتها إليـه، وفي غايـة التوتر والغضب لمن يـرغب عنها، غضبـا يمنعه من سماع الحق، والـرد على حجج ولده المحـاور لـه ولو بـالشبـه، بل لجأ إلى أسلوب القـوة والتهـديـد شأن الـذين تعـوزهم الحجـة، ويمنعهم الكبر عن الإذعـان والاستماع فيلجئـون إلى أسـاليب المكر والانتقـام انتصـارا لأهـوائهم، كذلك كـان جـواب الشيخ الكفـور لابنه البر النصـوح أنكر عليـه في شدة إعـراضه عن آلهتـه التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً، وهدده لئن لم ينته عن دعوتـه إلى التوحيد بالرجم، والـرجم أفظع أنواع القتل فهـو لا يكون إلا للكـلاب المسعورة، والهوام المؤذيـة، وأكد تهديده بلام القسم والنون المشددة ثم راجعته عاطفة الأبوة قليلا فقال :

﴿واهجـرني مليـاً ﴾ أي أنج بنفسك قبل أن انتقم لآلهتي منك واهجـرني مليـا، أبعد عني مـدة طويلـة مـا دمت على هذا الـرأي لا تخاطبني ولا أحب أن أراك أو أستمع إلى كلامك. هكذا بلغ الجفاء والكفـر من أبي إبراهيم هذا المبلغ المشتط،ولكن إبـراهيم الحليم الأواه المنيـب لم يقطع صلتـه بأبيـه، وراح يخاطبـه بخطاب آخر كله لين ورحمة وليس فيه هـذه المرة تعرض لآلهته بسوء ولا دعوة إلى نبذها وقد اكتفى بما تقدم لو كان نافعا .

﴿ قـال سلام عليك سأستغفـر لك ربي إنـه كـان بي حفياً وأعتـزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسـى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾

قال إبراهيم لأبيـه مودعا له ولقومه: سلام عليك، وهـي كلمة مليئة بالخير وحب الخير، سلام عليك: دعاء بـالسلامة من الآفات، تحية من عنـد الله مباركة طيبة تقـال عند اللقاء وعنـد الافتراق، قالها إبراهيم لأبيه قيـاما بحق أبوتـه عليه وأظهر له أنه يتمنى له الهداية من الله .

﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾

سأطلب لك المغفـرة من ربي إني رأيت مـن ربي الحفـاوة والبر والإكـرام

ولذلك أرغب إليـه وأدعوه أن يهديك للإسـلام ليكون لك إسلامك سببـا لمغفرة ذنوبك، فهـو لا يسأل له المغفرة على شركه لأنـه يعلم أن الشرك يحول دونه ودون المغفرة، ولكنه يتمنى لـه الهداية التي تكون سببا للمغفرة، ولـذلك لما تبين له بعد أنه عدو لله وأيس من إيمانه تبرأ منه ولم يعد يدعو له، ثم قال :

﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾

وهـذا القول منـه تصريح لهم بـالهجـرة ولم يعد ينفع مـع هؤلاء الطغـاة في كفرهـم إلا الاعتزال، فليعتـزلهم إذن مهاجرًا إلى ربـه ليفرغ لعبـادته وينجـو من رجم أبيه ولا تكون هجـرته لهم إلا بأذن من ربه، وهو أول المهـاجرين و إمامهم، وما هجرة الرسول ﷺ إلاقتداء بأبيه إبراهيـم. اعتزل إبراهيم أباه وقومه وهاجر إلى الشام مودعا إياهم بهذه الكلمات وهي آخر ما يسمعهم من الكلام .

﴿ وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾

أدعـو ربي الذي خلقني وهـداني وأكـرمني، ومن أحق بـالدعـاء ممن سبق إحسانه؟، وكل دعاء لغيره ضلال في ضـلال، عسى ألا أشقى بدعائي إياه، فأنا أطمع منه في الإجابـة والاسعاد، وقد رأيت منه الحفاوة والإكـرام، وهذا تعريض بآلهتهم التي لا تسمع لمن دعاها ولا تسعـده، فما أشقى من يدعو ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئا، يقول لهم هـذا الكلام عند الفراق لعلـه يؤثر فيهم، ولعلهم يرجعون إلى أنفسهم فيعلمـون أنه الحق، أما هو فقد وجد ربـه سميعا وله مجيبا، هداه وعوّضه عن بلده الذي هاجر منـه بلداً طيبا مباركا في الشام، وعوّضه عمن فارقهم من أبيه وأقاربه ذرية طيبة، وآمن له لوط ابن أخيه .

﴿ فلما اعتزلهم ومـا يعبدون من دون الله وهبنا لـه إسحق ويعقوب وكلا جعلنانبيئا، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾

هاجـر أبونا إبراهيم قـومه وبلده وذهب إلى ربه، وهـو أول من سن الهجرة

إلى الله، وفارق الأهل والوطن في ذات الله معتزلا الشرك والمشركين فارا بدينه من الفتنة، تاركا وراءه كل جبار عنيد من أعداء الله، وكان لغاية هجرته عاقرا، وكان يوم هجرته شيخا، قيل عمره خمسة وسبعون عاما، فعوضه الله وأهله سارة التي هاجرت معه، وتكبدت معه مشاق الهجرة ومفارقة الأهل والوطن، عوّضهما خيرا ممن فارقا من الأقارب، وَلَدَيْن ذَكَرَيْن صالحين نبيين يولد الأول ويكبر، ثم يعقب الثاني، والشيخان على قيد الحياة تقر أعينهما بهما جميعا، ذكر الله هنا إسحق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل لأنهما الوالدان اللذان يشترك فيهما المهاجران، أما إسماعيل فهو ولد لإبراهيم دون أهله المهاجرة معه، فهما الولدان اللذان بشرت بهما الملائكة سارة، وهما : ـ هي وزوجها ـ في مقر هجرتها والوالدان هبة من رحمة الله للأبوين المهاجرين إلى الله .

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

كلاً من الوالد والولدين، جعل الله منهم أنبياء ووهب لهم من رحمته الواسعة ما تقر به أعينهم من الهبات وفضلهم على العالمين وجعل لهم لسان صدق علياً، أي ذكراً حسناً صادقاً، وأعلى منزلتهم عنده وعند ملائكته وعند الآخرين ممن يأتون من بعدهم، وحسّن عواقبهم في الدنيا والآخرة والعاقبة للمتقين .

وفي قصة إبراهيم مع قومه موعظة لقريش في الرجوع إلى الحق، وترك ما عليه الآباء والأجداد من الضلال القديم، وقريش تعظم إبراهيم وتدّعي أنها على دينه، فها هو دينه يجلوه القرآن، وها هي خطته مع أبيه وقومه المشركين، فهل أنتم معتبرون يا من يدعى الانتساب إلى ملته؟ وهل أنتم متبعوه؟ ومن جملة ما وهب الله لإبراهيم وبنيه حسن الأخلاق، وحسن الخلق من أعظم ما يهب الله لمن يشاء من عباده، وورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أوحى لإبراهيم: يا إبراهيم إنك خليلي فحسّن خُلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت أن من حَسُنَ خلقه أظللته تحت ظل عرشي وأسكنته حظيرة قدسي وأسكنته بجواري» .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥١ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

يقفّي الله تبارك وتعالى ذكر قصة إبراهيم بذكر بعض أنبيائه بإيجاز، ومنهم موسى وقد بسط قصته وقومه في مواضع متعددة من القرآن مجموعها تكتمل قصته منذ ميلاده إلى نهاية أمره، فقد ذكر في سورة البقرة والمائدة والأعراف ويونس وهود والإسراء وطه والشعراء والنمل والقصص، وأوجز ذكر خبره في هذه السورة وفى سورة العنكبوت، ولكل مناسبته، وكلما ذكر هؤلاء الأنبياء فالمقصود من ذكرهم الاعتبار والتأسي، فهم بشر كسائر البشر ينالهم ما ينال غيرهم من التعب والحاجة والمرض والجوع والعطش والتعرض للأذى والقتل، غير أن الله أكرمهم بالنبوة وعصمهم من الكبائر، ففى إمكان البشر أن يقتدوا بهم في كل شيء إلا في النبوة فهي هبة من الله اختصهم بها دون سائر البشر، وهنا يأتي ذكر موسى بعد ذكر إبراهيم لا للترتيب الزمني بل لدرجة موسى عند الله فهو من أعظم أنبياء الله ورسله وهو من أولي العزم من الرسل وقد ذكر منهم في هذه السورة ثلاثة وموسى ثالثهم .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥١﴾

ذكرالله في كتابه موسى وأمر بذكره للاقتداء والاعتبار إنه كان مخلصا، وهذه خصلة لا يعلمها إلا الله عالم ما في الصدور، لأن الإخلاص صفة من صفات القلب الخفية، والإخلاص أن يعمل الإنسان العمل لا يعمله إلا لله تعالى، لا حظ لغير الله فيه، وهو سر النجاح والفوز عند الله، وبدونه لا يقبل عمل، فمن كان مخلصا فقد فاز ، لقد كان موسى مخلصا وكان مع إخلاصه رسولا نبيا اجتباه الله إليه واختصه برحمته، فقد أكرمه بالنبوة وزاده فوق النبوة الرسالة ﴿إنَّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون

رسولاً ـ المزمل ١٥﴾ فهو رسـول الله إلى أعتى أعدائه ثم رسـول إلى بني إسرائيل، ما فرغ من أمر فرعون حتى استقبل جهاده مع قومه بني إسرائيل .

﴿ وناديناه من جانب الطور الآيمن وقربناه نجيا ﴾

يخبرنـا ربنـا تبـارك وتعالى خبر مـوسى يـوم نبأه ونـاداه من جـانب الطـور الأيمن وفى آية آخـرى يقول ﴿ **نـودي من شاطـىء الـوادي الآيمن** ـ القصص ٣٠﴾ والجهـة اليمنى من الـوادي هي بـاعتبار المتجهـة للجهـة التي يجري إليهـا السيل، فنفهم أن جـانب الطور الأيمن الجانب الأيمن من الـوادي الذي عنـد الطور، وذكر الأيمن في كلتـا الحالتين مقصود مقدز من الله لأن اليمين هي علامة اليمن والسعادة والفوز فأصحاب اليمين هم أولياء الله الصالحون .

﴿ وقرّبناه نجيا ﴾

وقربنـاه قرب مكـانة لا قرب مكـان، تعالى الله عن وصف الأمكنـة، قرّب الله عبده موسى نجيا، والنجي الكليم المنـاجي، وهي الصفة التي امتاز بها موسى دون سائر أنبيـاء الله عليهم جميعا سـلام الله، فقد كلم الله مـوسى تكليما، ولا نبحث في كيفية هذا الكلام وكيفية سماع موسى له بل نؤمن بذلك ونكل علم تأويله إلى الله .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾

كان موسى سأل ربـه أن يؤيده بأخيه هارون يشركه في أمـره، ويشد به أزره فاستجـاب الله له ورحمه ووهب له من رحمتـه أخاه هارون نبيا، يـؤازره ويشد من عضده، وما أحوجه إلى المعونة وهـو ذاهب إلى فرعون الجبار العنيد وملإه العتاة، فنعم الوزيـر كان هـارون لأخيه مـوسى، ونعمت الهبة له مـن رحمة الله! وكذلك يبسط الله رحمته لعباده الصالحين المخلصين في عبادتهم ودعائهم لربهم .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

من جملة هـؤلاء الأنبياء الذين يذكـرهم الله في هذه السورة ويأمر بـذكرهم لتخليـدهم ولـلاقتـداء بهم، إسماعيل بـن إبـراهيم عليهما السـلام، يثني عليـه بصدق الـوعد ﴿ **إنـه كـان صادق الـوعـد**﴾ وصدق الـوعد من أنبـل صفات الرجل وأشرفهـا، وهو أعظم دليل على صـدق الإيمان، كما أن إخلاف الوعـد آية من آيـات النفاق، وقـد روى المفسرون في صدق وعـد إسماعيل أخبـارا غريبـة، بعضهم قال: إن إسماعيل انتظر في موضع الموعد يـوما وليلة لم يبرح مكانه، وهذا كثير، وبعض قال عـاما كاملا، ولا أدل على صدق وعـده من صبره على أن يذبح لأنه قال لأبيه حين أخبره بذلك وطلب منه رأيه قال له ﴿ **يـا أبت افعـل مـا تومر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ـ الصافات ١٠٢﴾ وعد أباه بالصبر فصـدق وعده، وصبر على بـلاء مبين لا يصبر الناس على مثلـه، بل إن كثيرا من الناس يخلفـون وعودهم لأتفه الأسبـاب ثم يختلقون المعاذيـر ولا عذر لهم، فإن إخـلاف الـوعد نفـاق والله لا يحب كل خـوان كفـور، ثم إن الله يصف إسماعيل بالـرسالـة والنبوة وهما أعلى رتبـة يصل إليها المصطفـون الأخيار من البشر، وأي شرف يداني شرف الرسالة والنبوة.

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

ضرب الله بعبده إسماعيل مثـلا للاقتداء به في القيام بـواجب الأمر والنهي في دائرة مسؤولية الرجل، ولو أن كل رجل قـام بواجب الأمر والنهي في أهله ومن له عليهم رعـاية لصلح أمر النـاس جميعا، وهذا طبعـا لايكون نافعـا إلا بعد أن يصلح نفسـه، وضرب الله مثلا بـالصلاة والزكـاة لأنهما قاعـدتا الإسـلام في كل شريعة، فما من شريعـة، مضت إلا ومن دعائمها الصلاة والـزكاة وإن اختلفت الكيفيات والمقـادير من شريعة لأخـرى، وإسماعيل باني الكعبة مع أبيـه إبراهيم وهـو جد قـريش وهي تفتخر بـالانتساب إلى أبـوته، فهـلا اقتدت بـه وتشبهت بخصاله وأفعاله؟ أم تكتفي بمجرد الانتساب وهو لا يكفى إذا خلا عن الاقتداء ﴿**وكان عنـد ربه مـرضياً** ﴾ كان إسماعيل مـرضيا عند ربه الـذي هداه ورباه

وفداه بـذبح عظيم، نال درجة الـرضا بـاستحقاق، فقد عمل بعمل أهل الـرضا وسعى سعيهم ودرجـة الـرضـا أعلى ما يطمح إليهـا أولـوا الألبـاب، فإنها أعلى الدرجات، إذ نيل الثواب فيه متعة الجسد، ونيـل الرضا فيه متعة الروح، والشعور بمنتهى الغبطة والسرور أن تعلم أن الله عنك راضٍ .

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

يذكـر الله عبده إدريس في هذه الآيـة ذكرا موجـزا ولم يرد له ذكـر في سائر القرآن إلا مـا ورد من ذكر اسمـه مقرونـا باسم إسماعيل وذي الكفل، ومـدحهم بالصبر في سورة الأنبيـاء، وهنا لم يرد من أخباره إلا أنه كان صـديقا نبيا، وإن الله رفعه مكـانا عليا، وهـذا يكفيه شرفا ورفعـة مقام، وإدريس هذا قـديم قبل نوح وهو قيل جده وهـو من ولد شيث بن آدم، وكان صدِّيقـا نبيا، كما أخبر الله عنه، وقد تقـدم معنى الصديقية في ذكـر إبراهيم وكذلك النبوة، أمـا رفعه مكانـا عليا فروي أنه رفعـه الله في السماء الرابعة، كما تدل عليـه قصة الإسراء والمعراج، وهل كـان رفعـه بجسـده أو بـروحـه كسـائر الأنبيـاء الـذين التقى بهم النبي ﷺ في السمـوات؟ الله أعلم بحقيقة ذلك، ويـذكر صـاحب العقيدة : وأربعـة منهم لم يموتـوا إلى الآن «عيسى وإدريس في السماء، والخضر وإليـاس في الأرض»، ذكر هذا صاحب العقيـدة وما كان ينبغي أن يذكر هذا في العقيـدة لأن هذا ليس فيه يقين لم ينقل نقـلا متواتـرًا يوجب العلم، والله أعلم بمـدى صحة الخبر وحقيقـة الرفع فلا سبيل لنا إلى الجزم بما ذكره صاحب العقيدة في حق هؤلاء الأربعة .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞

أولئك، الإشارة إلى من ذكـرهم الله تعالى في الآيات السابقـة من السورة أو أمر بذكرهم من النبيين من ذرية آدم، وهـم إدريس لأنه كان قبل نوح وهو جده،

وممن حملنا مع نوح وكل من في الأرض بعد الطوفان فهم ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب، وقد أخرج الله من صلبه أنبياء كثيرين، وكل هؤلاء ممن هداه الله واجتباه أي اصطفاه من بين سائر خلقه وهم الذين أنعم الله عليهم بنعمة الهداية للإسلام وبنعمة النبوة والوحي والاجتباء وليس وراءها نعمة، وكانوا أعرف الناس بربهم وأشدهم حبا لله وتواضعا له لم يزدهم تقريب الله لهم إلا خوفا منه وهيبة وتواضعا، كلما تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وخوفا وخروا لله ساجدين باكين، وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، تلك الصفات العلية التي ترفع مقام العبد عند ربه، معرفته بربه، وتواضعه، وسجوده له، وأولئك الذين امتن الله عليهم بهدايته إياهم واجتبائه لهم، وضربهم لنا مثلا عليا لنقتدي بهم، وإذا كان أمثال هؤلاء المجتبين المصطفين يبكون من خشية الله يرجون رحمته ويخافون عذابه، فلنحن أولى بالخوف والبكاء ونحن من دهماء الناس لا ندري ما يُفعل بنا، فما أحرانا بالبكاء والتضرع لعل الله يرحمنا، وإن لله عبادا فطناء فهموا عن الله هذه المعاني واقتدوا بأنبياء الله ورسله فيا طوباهم ويا طوبى من اقتدى بهم ولكن أكثر الناس لا يعقلون وهم عن آيات الله غافلون وعن التذكرة معرضون .

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩
إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ
عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا
سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن
كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾

الخلف في اللغة هم الأولاد لأنهم يخلفون من مضى من الآباء قبلهم، ويكون بفتح اللام وإسكانه، وغالباً ما يستعمل التسكين في خلف السوء والفتح في الخلف الصالح وعليه جرت الكلمة هنا على الغالب فسكنت، خلف من بعد

هؤلاء الصالحين الأخيار خلف رديء فاسد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهو تعبير جامع لمعاني التمرد والعصيان والانحراف، فإذا كانت الصلاة وهي عمود الدين أضاعوها فهم لما سواها أضيع، وكل عمل غيرها لا يقبل، والصلاة هي الصلة بين العبد وبين ربه، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فمن ضيعها وقع في الشهوات،فهما وصفان متلازمان، إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، فمن أضاع الصلاة غويت نفسه وانهزمت أمام شهواتها واستحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله، وذكر الله هو الحصن الحصين الذي يلوذ به الذاكرون، وينجون من همزات الشياطين، والشيطان يأتي النفس من قبل شهواتها فيهلكها، والشيطان للإنسان عدو مبين، قال الله تعالى في شأن هؤلاء المضيعين للصلاة المتبعين للشهوات .

﴿ فسوف يلقون غيا ﴾

تهدَّدَهم بأفظع أنواع العذاب وهو الغي، ذلك لأنهم اتبعوا سبيل الغي في الحياة الدنيا فعاقبهم الله بالغي في أسفل دركات جهنم وهو واد في جهنم شديد الحر شديد النتن،تستعيذ جهنم من حره ونتنه، إنه عذاب أليم أعده الله لمن أعرض عن ذكره فأضاع الصلاة واتبع الشهوات .

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ﴾

إلا من تاب من هؤلاء وأناب إلى الله وراجع إيمانه أو آمن من جديد مفارقا كفره، قال هذا لأن من ارتكب الكبائر فارق الإيمان فإن تاب وآمن عاوده إيمانه، ثم قال وعمل صالحا أي أتى بها أمر الله به وندب إليه من الأعمال الصالحة وتقرب إلى الله بأنواع القربات يكفر بها عما سلف من إعراضه وإساءته، وأتبع السيئات بالحسنات فأولئك يغفر الله لهم ذنوبهم ويكفر عن

سيئاتهم، ويـدخلهم الجنة مع الأبـرار، ولا يظلمون شيئا ،لا يـزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم مثقـال ذرة، هي ليست جنة واحـدة، بل هي جنات كثيرة، جنات عدن، إقامـة وخلود، جنات الفردوس يخلدون فيها لا يبغـون عنها حولا، جنات وعد الرحمن بها عباده، والإضافـة هنا إضافة تشريف وتقريب، وعدهم بها بالغيب، فـآمنوا ووثقوا بوعـد الله وعلموا أن وعده كان مأتيـا لا يتخلف، دخلوا جنة الرحمن برحمتـه ووجدوا ما وعدهم ربهم حقا وقالوا الحمـد الله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء .

﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾

اختار الله لجنته هنا هذا الوصف المريح الذي بدونه لا يحلو النعيم مهما كان عظيما، إنهم فيهـا منعمون مستريحون، راضـون مرضيـون، لا يسمعون لغـوا، أي كلامـا جارحـا يوجع قلـوبهم أو يكدر صفـوهم، واللغو هـو الباطل مـن الكلام الذي لا نفع فيـه، وكثيرا ما يسوء ويورث الأحقاد والضغـائن، ليس في الجنة شيء من اللغو، فهم لا يسمعـون إلا سلاما، أي كلامـا طيبا كله خير وسلام، يـزيدهم نعيما إلى نعيمهم، إنهم أعرضوا عن اللغـو في الدنيا وإذا خاطبهم الجاهلـون قالوا سلاما، فجنبهم الله اللغو في الآخرة وأسمعهم في الجنـة سلاما، جزاءً وفاقا، **﴿لهم دار السلام عنـد ربهم وهو وليهم بما كانـوا يعملون ـ** الأنعام ١٢٧**﴾** ، ففى الآية بيـــان لجزاء هؤلاء التائبين المنيبين إلى ربهم، وفيها إرشاد لما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في الدنيـا من الإعراض عن اللغو واجتناب قـول الزور والعمل به، ثم إن لهؤلاء السعداء بـالجنة رزقهم بكرة وعشيـا، وليس في الجنة تعـاقب البكرة والعشي بـالمعنى المعهـود في الـدنيـا ذات الليل والنهـار، إنما جـاء هـذا التعبير لبيـان دوام الأرزاق فيها ووفـرتها بدون عناء، فـالموائد مبسوطة، والأكـواب موضوعـة ،والمياه مسكـوبـة، والأرزاق موفورة والفواكه كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وهم على سرر مصفوفة، متكئين عليها متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هـم منها بمخرجين .

﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾

الإشارة للتعظيم والرفعة، تلك الجنة ذات المقام الرفيع والسعادة العظيمة، الجنة التي وعد الرحمن عبادَهُ بالغيب، الذين آمنوا بالغيب وأحسنوا الظن بوعد الرحمن، يقول الله عز وجل معظّما مصير الأتقياء عنده يوم القيامة ﴿ **تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ نكتب هذه الجنة ميراثا للأتقياء من عبادنا، والتعبير هنا بالميراث رائع لأن الشيء الذي ترثه تأخذه خالصا لا ينازعك فيه منازع، ولا منّة فيه لأحد عليك، وهو الشيء الذي يبقى عندك، وفي الميراث معنى البقاء، والجنة دار الخلود والبقاء، والإرث قد يكون كثيرا وكثيرا فهو ليس كالشراء يكون على قدر ما تبذله من الثمن، وقد يربي عليه قليلا، لكن الإرث ليس كذلك، وما أعمالنا وإن كثرت هي التي تدخلنا الجنة فهى لا تكون كفاء لشكر نعمة واحدة من نعم الله التي تمتعنا بها في الدنيا، إنما رحمة الله وفضله الواسع هو الذي يدخل أهل الجنة الجنة، ويخلدهم في نعيمها، ومن هنا أشبه الميراث، وإن كان جاء في التعبير القرآني ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ـ الزخرف ٧٢﴾ فهذا التعبير من الله لأوليائه جاء تكريما لهم وتشريفا لمقامهم وإشعاراً لهم برضا ربهم عن أعمالهم، وشكرها لهم، ولا يعلم إلا الله ما يشعرون به من الرضا والكرامة حين يسمعون هذا النداء من رب العالمين، جعل الله الجنة للأتقياء من عباده حتى نتشبث بهذا المعنى الذي هو جماع كل خير وبر، فالتقوى وحدها ترفعك أعلى الدرجات وينال أهلها الكرامات، لا الانتساب إلى الأنبياء والصالحين مع الابتعاد عن سننهم، فإن هؤلاء الخلف لهؤلاء الأنبياء الأخيار كان مصيره الغي لما أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وورث كل تقي جنة الله ولو كانت نسبته كنسبة إبراهيم إلى عدو من أعداء الله، والتقيّ هو الذي يراقب ربه في كل حركاته وسكناته، فيما يأتي وما يذر فهو يبرئ قلبه ونفسه من كل وصف قبيح لا يرضاه الله، ويجعل بينه وبين المعاصي وقاية باستقامته على أمر الله، فهو يتقي الحرام ويتقي الشبهات ويتقي

الكفر ويتقي البدع، وأخيرا يتقي الإصرار، وإذا أردنا معرفة خصال المتقين فإنا نجدها مبينة في القرآن الكريم ولنأخذ منه تفسيرين في موضعين منه :

الأول في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ـ البقرة ١٧٧﴾ هذا بيان لخصال المتقين في سورة البقرة .

والثاني في سورة الأعراف حيث يقول عز وجل ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويوتون الزكاة والذين هم بآياتنا يومنون، الذين يتبعون الرسول النبيئ الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ـ الأعراف ١٥٦ : ١٥٧﴾

هذان نموذجان للتقوى في كتاب ربنا تبارك وتعالى، وما فسر القرآن مثل القرآن، والله أعلم بما ينزل، فلنزن أنفسنا وتقواها بهذا الميزان الطريس القويم ولنتجنب الدعاوى الفارغة ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ـ النجم ٣٢﴾ فبشرى للأتقياء بشرى لهم من هذا المصير الذي ينتظرهم بجوار رب العالمين وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ

لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥

هاتان الآيتان من كلام رب العالمين، من قول جبريل وأمثاله من الملائكة عليهم السلام .

﴿ **ومانتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ وسبب نزول هذه الآية أن فترة وقعت في الوحي تأخر فيها نزول جبريل مدة أربعين يوما وقيل أقل من ذلك فاستوحش النبى ﷺ واشتد شوقه إلى الوحي وإلى جبريل عليه السلام، وذلك بعد أن سألته قريش بإيعاز من اليهود عن الأسئلة الثلاثة المتقدم ذكرها في تفسير سورة الكهف، فقال لهم سأجيبكم عنها غداً ونسي أن يقول «إن شاء الله»، فأدبه الله بتأخر نزول الوحي، فاشتد حزنه وقلقه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له: ياجبريل احتبست عني حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل: إني كنت أشوق إليك ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت وإذا لم أُبعث احتبست فنزلت بعد ذلك هذه الآية : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾ .

ما يكون لنا معشر الملائكة أن ننزل إلا بأمر ربنا وربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، ترى هل هذه (الماءات) المتكرره ظروف زمانية أو مكانية، للمفسرين فيها آراء، قال بعض ما مر من أعمارنا وما يستقبل منها، وما بين أيدينا الحاضر منها، وقال آخرون: ما بين أيدينا (الآخرة)، وما خلفنا (الدنيا) وما بين ذلك (البرزخ)، وقال آخرون المراد الأمكنة، والاختلاف هنا إنما هو اختلاف تنوع لا تضاد، إذا المراد كل ذلك يعم الأزمنة والأمكنة كلها، وكل من فيها ملك لله تبارك وتعالى خالق الأزمنة والأمكنة، ومن يضطرب في الأزمنة والأمكنة من الملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات، فرأيي في الآية أن تبقى على هذا المفهوم، ومن ذهب يحدد المراد من الأزمنة أو الأمكنة فهو في نظري ينقص من روعة المعنى .

﴿ وما كان ربك نسيا ﴾

هذا على غرار قوله تعالى ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ـ الضحى ٣﴾ أي لئن تأخر نزول الوحي فما ذاك عن نسيان ولا عن قلى، تعالى الله عن النسيان فهو صفة ضعف تكون للمخلوقين، ما كان ربك نسيا، نفي الكون أبلغ من نفي الفعل وهو تذييل مناسب للمقام .

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾

هذا قول الله، رب السماوات والأرض وما بينهما خالقهما وخالق ما فيهما وما بينهما ومربي مخلوقاته، قيوم عليها وعلى إصلاحها وتنميتها، المحيي والمميت، المبدىء والمعيد لا رب غيره، فاعبده وحده، والربط هنا بالفاء رائع يؤذن بالسببية، أي من أجل ذلك فاعبده ووحده بالعبادة، واصطبر لعبادته، أي اصبر وتكلف الصبر ولو كان شاقا، وهذا ما تفيده الزيادة على حروف الفعل الأصلية، وزيادة الحروف تؤذن بزيادة المعنى كما يقولون، والعبادة هي التلبس بحالة المحبة والخضوع والطاعة لله في جميع الأحوال في المساجد والأسواق والمحاكم ومناصب السلطة كلها، العبادة هي الاستقامة في طلب المعاش والمعاد، وسياسة العباد، فهي شاملة لشؤون الحياة، وهي عبء شاق يحتاج إلى صبر وعزيمة ولا يستحق العبادة إلا الربُّ الذي خلق وهدى، وأطعم وسقى، وأمات وأحيا .

﴿ هل تعلم له سميا ﴾

والسمي في اللغة من يشبهك في الاسم واللقب، ولله تبارك وتعالى تسعة وتسعون اسما، أعظمها اسم الجلالة « الله » ثم « الرحمن » وهذا لا يجوز لأحد أن يسمى بهما، أو يُسمّي بهما مخلوقا، ومن فعل ذلك صار كافرا مشركا حكمهُ القتل حدا عند العلماء، أما غيرها فيتسمى الناس بنسبة العبد إليها وإلى الله وإلى

الرحمن مثل عبد الله، عبد الرحمن، عبد الرحيم، عبد العزيز، عبد الجبار، وفى غير عبدالله وعبد الرحمن، قد يختصرها الناس فيقولون، عزيز ورحيم وحميد وحكيم، وذلك جائز إذ قد يوصف المخلوقون بذلك غير أن معناها في المخلوقين ليس كمعناها في الخالق، شتان ما بين معنى ومعنى، فالرحمة في المخلوق وصف ضعيف وناقص، والعزة وصف ضعيف وزائل، والملك والقهر والعلم وغيرها من الأوصاف فهي كلها أسماء لم تكن ثم كانت بتكوين من الله، ثم هي فانية زائلة، فليس لله سَمِيّ في أسمائه كلها على الحقيقة، فسبحان المتفرد بالعز والملك والقهر والجبروت والعلم والقدرة، سبحان المتفرد بالأسماء الحسنى لا تجد له فيها سميا، فاعبده وحده، واصطبر لعبادته ولن تجد من دونه ملتحدا، والتعبير بالاستفهام الذي أريد به النفي أبلغ من التعبير بالنفي كما هو معروف عند أهل العلم بالبلاغة، لأنه يترك الحكم الصحيح إلى عقل المخاطب وفهمه، فهو الذي يحكم بالنفى إذا كان عاقلا واعيا ولا سبيل له إلا ذلك، وتوحيد الله بالعبادة أن نطيعه فيما أمر ونهى، مخلصين له الدين لا نشرك به شيئا .

وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾

المناسبة متينة بين هذه الآيات وبين سوابقها، كان الكلام في الآيات السابقة على الوعد والوعيد، ثم جاء الكلام على مصير الأبرار ومصير الفجار

يوم القيامة يوم البعث والجزاء، فناسب هنا أن يتعرض للذين ينكرون البعث إذ لا يمكن أن ينتفع بالوعد والوعيد إلا الذين آمنوا بالبعث والجزاء وهناك شياطين يضللون الناس ويشككونهم في البعث بعد الموت وما أكثرهم، فتناولت الآية هذا الموضوع بصيغة المفرد المعرَّف بألـ ـ ولا تقصد شخصا معينا، تكلم بعض في الشخص الذي هو سبب نزول الآية ولا حاجة لنا هنا إلى التعرض إلى فلان ولا إلى فلان فإن الآية أهم من ذلك، فهناك في كل زمان ومكان آلاف وآلاف من الناس يزعمون هذا الزعم ويحاولون تشكيك الناس في اليوم الآخر، فالآية تقصدهم جميعا بصيغة العموم .

﴿ ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً ﴾

الإنسان المتكبر المتمرد على ربه الذي خلقه ونسي خلقه الأول يقول ساخرا متهكما إذا ما مت وبليت ورمَّت العظام لسوف أُبعث وأخرج من الأرض حيا، يقول هذا الكلام رافعا به عقيرته غير خاجل ولا واجل، يقول في صيغة الاستفهام التعجبي ويقصد بذلك النفي والتكذيب: **﴿ أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾** أبعد الموت بعث وحياة؟ ذلك رجع بعيد. فرد الله عليهم ردا محكما موجزا يدحض شبهتهم دحضا :

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾

أيعمى هذا الإنسان وينسى ولا يذكر أن الله الذي خلقه قادر على أن يعيده، خلقه من العدم بعد أن لم يكن شيئا فأيهما أعجب؟ الخلق من العدم أو الرد إلى الحياة بعد الموت، كل ذلك عند الله هين وسواء، وهو الخلاّق العليم، قال أهل التفسير: لو أجتمع أهل الأرض والخلائق كلهم وتعاونوا على أن يأتوا بحجة أبلغ وأخصر لما استطاعوا أن يأتوا بمثل هذه الآية فهي دامغة لباطلهم، كافية في الرد عليهم، ولها في كتاب الله نظائر، وكرر هنا كلمة الإنسان ولو رد الضمير لكفى في الفهم، ولكن الروعة في الذكر هنا لا في الإضمار لأن الإنسان

المتهكم المستهزئ بالبعث هو الإنسان المخلوق من العدم بعد أن لم يكن شيئا، أولا يذكر الخلق الأول، أولا يتفكر في نفسه، ما أبلده وما أجهله! حتى ولو آدعى العلم والذكاء، إن عددا كثيرا من البشر يجتمعون على مثل هذا الكفر ويصرحون بمثل هذه الكلمة، قالها الأميون الجاهلون، وقالها العباقرة المثقفون المتفلسفون، وكان يكفي لو تفكروا في مبدئهم أن يعلموا أن ما قالته الأنبياء والرسل في أمر البعث والجزاء حق، ولكنهم يفرون أمام هذه الحقيقة ولا يريدون أن يسلموا بها، بل يريدون أن ينطلقوا من كل قيد ليفجروا ويتبعوا أهواءهم ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ـ القيامة ٥﴾ جاء هذا الرد المختصر الكافي الذي يدحض كل شبهة لهم، ثم أردفه الله تعالى بِقَسَم قاطع على حقيقة الأمر وما أشد وقع القسم بعد هذه الآية التي قصمت ظهر الخَصم اللدود .

﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾

أقسم الله تبارك وتعالى باسمه مضافا إليه ضمير عبده محمد ﷺ تشريفا له وتطمينا لقلبه وتسكينا لنفسه إشعارًا له أن ربه الذي أرسله إلى هؤلاء العتاة لن يخذله ولن يسلمه وسينتقم له من أعدائه أعداء الله، فوربك يا محمد لنحشرنهم والشياطين، لنحشرنهم يوم القيامة هم وشياطينهم الذين أضلوهم ثم لنحضرنهم جاثين على ركبهم من شدة الهول والفزع، لنحضرنهم حول جهنم لا يغيبون عنها، يرونها ويسمعون زفيرها ويعلمون أنهم صالوها فيجثون على ركبهم من شدة الفزع .

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾

الشيعة هي الفرقة والطائفة، بعد القسم يؤكد الله هذه الأفعال المتتابعة بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة وعيدا من الله لهؤلاء العتاة، وبيانا منه تعالى أنه

لا يفلت منهم أحد، وتطمينا لقلب نبيه وأصحابه الذين يتلقون من أذاهم أنواعا فليصبروا فإن الله سيجازيهم على صبرهم أحسن الجزاء وسينتقم من عدوهم شر انتقام، يقول تبارك وتعالى: لننزعن من كل شيعة من الكفار أيهم أشد عتيا على الرحمن، هو يبعث إليهم الأنبياء والرسل رحمة منه بهم ويغدق عليهم النعم وهم يزدادون كفرًا وعنادًا ويصدون الناس عن رحمة الله، وهذا الصد عن الحق أنواع، منهم من يصد الناس بالقوة، كالفراعنة والعتاة من الملوك والرؤساء، ومنهم من يصدهم بأساليب من التضليل، وعلى أمثال هؤلاء يعتمد الملوك والرؤساء في إضلال رعاياهم، علماء السوء وأئمة الضلال الجالسون على شفير جهنم يدعون الناس إليها، يضلون الشباب بأساليب التعليم والتثقيف والدعاية والنشر، يهودونهم وينصرونهم ويمجسونهم، وينشرون فيهم التحلل والمجون والعُري وسائر الفواحش بمختلف الأساليب، ويحقّرون في أعينهم الدين وما يأمر به من الأخلاق والحياء والعفة والصلاح، هؤلاء أشد على الله عتيا من الذين يأخذونهم بالعنف والقسوة، لأن الإنسان يزداد تمسكا بعقيدته ودينه أمام القسوة والقهر، أما إذا أخذ بأساليب التضليل الأخرى من التعليم المنحرف والدعاية المسمومة فإنه يسقط في حمأة الكفر والضلال، فما أعتى هؤلاء المضللين بالتعليم والدعاية والنشر على ربهم.

وأذكر لهذه المناسبة شخصا كنا نعتبره من الدعاة إلى الحق ونقرأ له في مجلة «الرسالة» المصرية فصولاً طويلة، واليوم ينقلب على عقبيه ويسير في ركب الضلال يتملق رئيسه فيكتب مقالا في مجلة إسلامية «مجلة الأزهر» يظهر فيه مقارنة بين سياسة محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وبين سياسة عبد الناصر وسياسة صلاح الدين الأيوبى فيفضل سياسة رئيسه على سياسة رسول الله ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى .

يقول هذا الكاتب الضال المضلل/ أحمد حسن الزيات «الوحدة المحمدية مرتكزة على العقيدة والعقيدة مهما تمكنت فإنها تحول، والوحدة

الصلاحيـة مبنيه على السلطان، لكن الـوحدة الناصريـة مبنية على ثلاث قـواعد تضمن لها البقـاء والخلود وهـذه القواعد هـي: الاشتراكية في الـرزق، والحرية في الرأي، والديمقراطية في الحكم» .

ثم نازعه في هذا الهراء/ سعيد رمضان نـزاعا شديدا قال فيه « أيجرؤ إنسان على مقام النبوة حتى يضع محمدًا في الميزان ويقارن به غيره ثم يفضله عليه؟ .

وكذلك/ محجوب ميلاد قارن بين السياسـة المحمدية والسياسة البورقيبية وتفلسف حتى خرج بنتيجـة أن السياسة البـورقيبية أفضل وأحكم من السيـاسة المحمدية.

لقد هزلت حتى بدا من هزالهـا كلاَها، وحتى سامها كل مفلس

خسارة كبرى لشبـابنا أن يقرؤوا هذه الفلسفـة ذات البريق المغري فيضل، ويلكم أيها الضالون المضلون أيبلغ أحـد ممن ينتسب إلى الإسلام هذا المبلغ من الجرأة على الله ورسولـه، إن هذا لهو العتـوّ في الضلال، أين وحـدتكم من وحدة محمـد المبنيـة على العقيـدة؟ وهل هنـاك شيء في الدنيا يتم من غير عقيدة؟ وهل تظنون أن العقيدة هي هذه الشعارات التي يحملها الناس في اللافتات ويصرخون بها! أليست عقيدة محمـد ﷺ متغلغة في قلوب أصحابها وممتـزجة بكل شأن من شؤون حيـاتهم اليوميـة، ﴿**صبغـة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن لـه عابدون** ـ البقرة ١٣٨﴾، وهذه الوحدة الناصرية التي تتبجحون بها، كم من سنة مضت عليهـا حتى توهم النـــاس أنها ضمنت البقاء والخلـود! إنها لم توجـد ولم تخلق ولم تك شيئـا فضـلا عن أن يكـون لها بقـاء إن هذا لهو العتـو في الضـلال والتضليل، هؤلاء وأمثالهم المقصودون بهذه الآية والآية التي بعدها .

﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾

يقول الله تبارك وتعالى مؤكدا قـوله بلام القسم: نحن أعلم بالذين هم أولى الناس بـالنار صليا، فكما أن أهل الجنـة درجات، فإن أهل النـار دركات، وكما أن

من أهل الجنة سباقين إليها، فكذلك مـن أهل النار سباقون إليها هم أولى بها من غيرهم ﴿ **حتى إذا إدّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون** ـ الأعراف ٣٨﴾ كل يستحق المضاعفة من عذاب الله ولكن الذين يضلون الناس ويفتنونهم هم أشد على الرحمن عتيا وهم أولى بالاحتراق في أشد العذاب .

﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾

يقول بعض المفسرين إن هذه الآية خطاب لهؤلاء الكفار خاصة دون المؤمنين وهذا المعنى وإن كان يصح إلا أني أرجح كما يقول الجمهور أنها خطاب لجميع المكلفين أنسهم وجنهم كافرهم ومؤمنهم، والورود هنا ليس معناه الدخول، لكنى أقول معناه الوصول والمرور، والمعنى يصح وقد جاء بالقرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون** ـ القصص ٢٣﴾ وصل موسى عليه السلام ساحة الماء ولم ينغمس فى البئر التي يسقي منها الناس وكذلك ـ والله أعلم ـ يكون ورود الناس جميعا جهنم يوم القيامة يصلون ساحتها ويرونها كما قال تعالى: ﴿ **لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين** ـ التكاثر ٧﴾ والكلام يؤذن بالتعميم المطلق ثم تأكيده بإن ذلك قضاء قضاه الله وأوجبه على نفسه وجوبا حتميا لا مراجعة فيه وكذلك قضاء الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وذلك إنذار للكافرين وتخويف للمؤمنين ويوم يأتي تأويله ينادي الكفار بالويل والثبور ويزداد المؤمنون وثوقا وطمأنينة بصدق وعد الله ووعيده ويزداد نعيم النجاة من النار والفوز بالجنة عظما في أعين أولياء الله وقلوبهم، ولا تدرك حقيقة الشيء إلا بالمقارنة بضده ويومئذ يمر أولياء الله بالنار مروّرا لا تمسهم إلا تحلة القسم ولا يصلونها، إنهم عنها مبعدون، هم في جنات يتساءلون عن المجرمين يود أحدهم لو يطلع على

النار ليرى قرينا كان يجادله في الدنيا ويسخر من إيمانه ويضحك منه، يود أن يراه فيراه يقينا يتقلب في سواء الجحيم فيدرك عظم نعمة الله عليه، ويسخر من هذا القرين ويضحك منه ويقول له ﴿ **تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ـ الصافات ٥٦: ٥٧﴾ فليس إذن في ورود المؤمنين النار يوم القيامة احتراق إنما عند مرورهم بها سيكون مسها لهم بردا وسلاما كما كان على إبراهيم فى الدنيا، والله على كل شيء قدير، ولا يدركون حقيقة نعمة النجاة منها إلا برؤيتها والمرور عليها .

وقوله تعالى ﴿ **ثم ننجي الذين أتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾

ليس معنى هذه التنجية إخراجهم منها بعد الاحتراق والصلي، فما تلك تنجية، إنما هي إخراج أو إنقاذ، أما التنجية فهي أن لا يذوقوا حرها وحميمها وهوانها وخزيها وكذلك معناها في القرآن الكريم فقوله تعالى ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا هودا** ـ هود ٥٨﴾ ﴿ **نجينا صالحا** ـ هود ٦٦﴾ ﴿ **نجينا شعيبا** ـ هود ٩٤﴾ وغيرهم من أنبياء الله ورسله نجاهم من العذاب أبعدهم وخلصهم منه ولم يقعوا فيه وما فسر القرآن مثل القرآن.

ثم قال ﴿ **ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ أي ونذر الظالمين في جهنم جاثين على ركبهم تسحبهم زبانيتها على وجوههم، فالذين يذرهم الله في النار هم الظالمون، إما بالظلم العظيم الذي هو الشرك وإما بغيره من أنواع الظلم الكثيرة التي بينها الله تعالى في كتابه الكريم وأنذر أصحابها بالوعيد ولا ينجو منهم إلا من تاب من ظلمه واستغفر ربه قبل الممات ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ـ النساء ١١٠﴾ ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما** ـ النساء ٦٤﴾ هذا ما نقرره في معنى هذه الآية على ضوء القرآن الكريم والله أعلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

يكشف الله تعالى في هذه الآيات عن طباع أهل الكفر والضلال الذين تصدهم كبرياؤهم عن الإيمان بآيات الله البينات وقد ملأ حب الدنيا وزينتها نفوسهم فهي لا تفخر إلا بها ولا تبصر الحق، تلك طباع المتكبرين أعشى أبصارهم حب الدنيا وزينتها فلم تعد تبصر الحق أو تستجيب لداعي الهدى إنها أبصار حول وبصائر عُمْي وآذان صُم وقلوب غلف مفتونة .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾

إذا تتلى على هؤلاء المفتونين بالدنيا آيات الله البينات، تدعوهم إلى الحق بلهجة صادقة لا لبس فيها، وحجج بينة لا ريب فيها، إذا بهرهم نور القرآن المبين وعجزوا عن رده أو الاتيان بمثله، لجؤوا إلى أساليب من التضليل كاللغو والتهديد أو الافتراء في السب والشتم أو التَّعْيِير بأشياء لا قيمة لها في أعين العقلاء، وفعلهم هذا أكبر دليل على أن كلام الله حق لا ريب فيه، لأنهم لم يلجؤوا إلى هذه الأساليب من التضليل إلا لما أعوزتهم الحجة، فلما لم يجدوا عنها مصرفا ومنعهم كبرهم من الإيمان بها وغلبت عليهم جاهليتهم لجؤوا إلى التفاخر بكبريائهم وغناهم وكثرة عددهم، وقد علموا أن هذا لن يغني عنهم من الله شيئا، إنما يقولونه ليضللوا به السفهاء من الناس، يقول بعضهم لبعض أي الفريقين خير مقاما؟ فريقنا الذي فيه الرؤساء والسادة والأغنياء أم فريق محمد

الذي فيه الفقـراء والأحداث والعبيد؟ وكذلك أتباع الأنبيـاء والرسل في كل زمان ولذلك عيّر قـوم نوح نوحـاً عليه السلام بأتبـاعه قالـوا له ﴿**وما نـراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ـ هود ٢٧﴾ هذه هي نظـرتهم إلى الحق يقيسون دعاته بمقـامات السادات والكبراء والأنديـة والمجتمعات، والنَـدي هو مجتمع القوم ومكـان وجودهم، ومـا علموا أن ذلك لا يغني من الحق شيئـا وسـوف يتبرأ بعضهم من بعض يـوم القيامـة ويلعن بعضهم بعضا، يرد الله عليهم باللهجة التي يفهمونها وتردع أتباعهم من الناس.

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا** ﴾

وكم أهلكنا قبلهم من قرن، والقرن هي الجماعـة من الناس في زمن ما، قال الله: ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قـرنا آخـرين** ـ المؤمنـون ٣١﴾ ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين** ـ المؤمنون ٤٢﴾ ولذلك وُصِفَ القرن بالجمع المذكر السالم، أما تعبير الناس بالقرن عن المائة من الأعوام فهو اصطلاح خاص وجديد .

يقول الله: أفلا ينظـر هؤلاء المفتونون بالدنيـا وزينتها إلى القرون الكثيرة التي أهلكناها وقد علموا أخبارهـا، إنهم أغنى منهم وأعتى وأوفر عددا، فما كان غناهم ولا عتوهم ولا وفـرة أعدادهم بمغنيـة عنهم شيئا لما نـزل بهم بأس الله، لقد كـانوا أحسن منهم أثاثا ورءيـا، اختار التعبير بالأثاث والرءي الـذي هو المنظر الحسن، لأنها مظاهـر الغنى والترف، ولقد كـان الناس منـذ القدم إلى يـومنا هـذا يجعلون اقتناء الأثاث هو مقياس الغنى، فاليـوم نسمع الإحصائيات في البلاد الغنية تحصى أعداد السيـارات والتليفزيونـات ومكيفات التبريد والتسخين وغيرهـا من الأجهزة وتجعل النّسب بينهـا وبين أعداد السكـان هي مقياس الترف والغنى، وقـد يعبرون بـالقـدرة الشرائية، رد الله عليهـم فقال هم أحسـن أثاثـا ورءيـا، أي يملكـون من الفرش والأثاث ما لا يملك هؤلاء القـوم، ووجوههم أنضر من وجوههم، ولباسهم أنظف من لبـاسهم، فأين حضـارة هـؤلاء القـوم الـذين هم أقـرب إلى البداوة من

حضارة من سبقوهم من المترفين، وأهلكم الله، ففي هذا التعبير رد عليهم وتبكيت لهم، وفيه إنذار من الله لهم بالهلاك إذا لم يستجيبوا لداعي الله ولم يستمعوا لآياته البينات، فلا تغرنهم أموالهم ولا أنديتهم ولا إمداد الله لهم بمُتع الحياة الدنيا وزينتها فإن لله مكرا خفيا بأعدائه العتاة، وأنه يمهل ولا يهمل، ولكل أجل كتاب .

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

قل من كان في الضلالة فيلمدد له الرحمن مدا، لقن الله نبيه الجواب الصحيح الذي فيه الإنذار لأهل الضلال المتعصبين لأهوائهم، ووصفهم بأنهم في الضلال منغمسون فيه، وهذا أبلغ من الوصف بالضالين، وأمعن في الضلال من كان كذلك واستكبر فلم يستمع للناصحين بل عاداهم وسخر منهم، فإن الله يمده في غيه وضلاله بالأسباب التي ضل بها وعمي عن الحق، مكراً منه بهم والله خير الماكرين .

﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جندا﴾

إنهم يسيرون في طريق عاقبته وخيمة والأمور بعواقبها لا بمبادئها، إن الله لا يزال يملي لهم في غيهم ليزدادوا إثما حتى إذا رأوا ما يوعدون وهم الآن يكذبون به،فإذا رأوه عين اليقين إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة، إما قيام الساعة العام وإما قيام ساعتهم الخاصة، فسيعلمون حينئذ يوم لا ينفعهم العلم، سيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا، أفريقهم الساخر أم فريق محمد المسخور بهم؟، وهذا مقابلة لقولهم: **﴿أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾** إلا أن التعبير هذا بوصفهم بالشر والضعف لأنهم لا يرون الخير يومئذ ولا يطمعون فيه **﴿فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عدداً﴾** ـ الجن ٢٤ وما أروع هذه المقابلة وما أشد وقعها في القلوب الواعية .

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ٧٦﴾

والباقيات الصالحات ليس المراد بها فقط ذلك النوع من الذكر المسمى بالباقيات الصالحات «سبحان الله ،والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله وأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فهذا وإن سمي بالباقيات الصالحات ولكن ليس هو كل الباقيات الصالحات، بل جميع الأقوال والأعمال الصالحة ذوات النيات الحسنة ستبقى ويدوم ثوابها عند الله، وهذه مقابلة أخرى أُرِيدَ بها التذكير والاعتبار، إن هؤلاء القوم يزعمون أن الذي هم فيه من الغنى والعز والكثرة هو خير، فبين الله للمؤمنين أن الباقيات الصالحات من أفعالهم وأقوالهم هي خير وأبقى عند الله،فقوله تعالى ﴿**خير عند ربك ثوابا**﴾ مقابل لقوله ﴿**شر مكانا**﴾ الذي هو مقابل لقولهم ﴿**خير مقاما**﴾،وقوله تعالى ﴿**وخير مردا**﴾ مقابل لقوله ﴿**وأضعف جندا**﴾ الذي هو مقابل لقولهم ﴿**وأحسن نديا**﴾.فقارن أيها العاقل بعقلك بين المقامات والعواقب لتدرك أنت وحدك الفرق بين الفريقين فسيعلمون الفرق حين لا ينفعهم العلم. وقوله ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**﴾ مقابل لقوله ﴿**قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا**﴾ مقابلة رائعة حقا بين الحالتين، ونلاحظ أن الله تعالى نسب إليه زيادة الهدى لأنه هو الهادي إلى صراطه المستقيم، ولم ينسب إليه الإضلال هنا لأنهم هم الذين اختاروا طريق الضلال واجتنبوا طريق الهدى، ففي هذا التعبير بشارة للمؤمنين الذين سلكوا سبيل الهدى بأن الله يُيسر لهم عزائم الخير وأعمال البر وإن كانت في نفسها شاقة قد تحتاج إلى صبر، إن الله يعينهم عليها ويزيدهم هدى كما يمكر بأعدائهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، وفيه نكتة لطيفة وهي أن نعم الدنيا كالمال والصحة والعافية قد توهب من غير تسبب بعمل، وتوهب للبر والفاجر سواء، أما نعمة الهداية فإنها تمنح للمبتدئين بالاستجابة للهادي إلى صراط الله المستقيم، ثم يزيدهم الله هدى ويؤتيهم تقواهم، فيا طوبى لهم، أولئك هم

الفـائزون بأعلى الدرجـات، النـاجـون من المهلكات، الـذين يـردون إلى حسن الثواب والله عنده حسن الثواب .

وفي الآيـة نكتـة أخرى وهي أن المؤمـن لا يصرفه عن إيمانـه تعيير أعـدائه الكفار بالـذلة والقلة ورثاثـة الحال، بل يزيده ذلك تشبثا بإيمانـه الذي خالطت بشاشته قلبه، وتغلغل الإيمان في أعماقه، إنه يزداد هدى كلما سخـر به الساخرون ومكر به الماكرون لأنـه ينظر إلى حُسن العواقب، أما زينة الحياة الـدنيا فقد علم أنها لا بقـاء لها ولا وزن لها عنـد الله، بل هي فتنـة لأعـداء الله، وهـذا هـو العلم النافع، بينما علم الكفار يومئذ لا ينفعهم بل يزيدهم حسرات .

هذا ما توضحه الآيات في هـذا البيان الشافي، ثم يمضي الأسلوب القرآني الحكيم في حِجَاج أهل الكفر والضلال فيقول تبارك وتعالى :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يـروي أهل الحديث والتفسير أن سبب نـزول هذه الآيـة والمقصـود الأول بوعيدهـا هو (العاص بن وائل السهمي) أحد كبـار المستهزئين، وذلك لحديث جـرى بينه وبين أحـد ضعفـاء المؤمنين السـابقين إلى الإسلام وهـو خبـاب ابن الأرت رضي الله عنـه، وذلك أن خبابـا كان حـدادا يصنع السيوف والسكـاكين فصنع للعاص بن وائل سيفـا وماطله العاص في ثمنـه، وكان خباب يطالبـه فيه

ولما ألح عليه قال له، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقال له خباب والله لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث، فقال له العاص إن كنت سأبعث فسأكون غنيا ذا مال وولد وهناك أدفع لك أجرتك، فنزلت هذه الآيات المحكمات فيه وفي أمثاله في كل زمان حتى تقوم الساعة.

والآية مصدرة بكلمة تفيد التعجب ﴿أفرأيت﴾ هذه العبارة تستعمل للتنبيه إلى أمر هام لعظم المخبر به، أو إذا كان يدعو إلى العجب، أو إذا كان حقا لا معدل عنه، أو إذا كان باطلا ظاهر البطلان والفساد، تأتي الكلمة على هذه الصيغة لحمل المستمع على الانتباه إلى ما يلقى إليه فيحكم بنفسه على الخبر الحكم الذي يستحقه.

أفرأيت يا محمد إلى أي حد تصل الوقاحة ببعض العتاة؟ يكفرون بآياتنا ثم يتجرؤون علينا هذه الجرأة، ينكرون البعث والحساب ولا يؤمنون برسلنا ولا يعملون بكتبنا، ثم يزعمون أنهم إذا بعثوا فسيكونون ذوي عز وأموال وأولاد كحالتهم في الدنيا، ويستعلون بذلك على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويسخرون بهم ويظلمونهم، إن هذا منهم أمر عجيب، كلا! ليس الأمر كما يزعمون، فهل أطلعوا الغيب وعرفوا الحقيقة أم اتخذوا عند الرحمن عهدا؟ والعهد هو الإيمان الخالص والعمل الصالح، ذلك ما ينفع يوم القيامة، ويبقى عند الرحمن الذي رحمته قريب من المحسنين، فعلام يعتمد هؤلاء العتاة المتكبرون على آيات الله المستعلون على عباده؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون سنكتب ما يقولون ونجازيهم عليه .

﴿ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا، ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾

﴿كلا﴾ حرف ردع وزجر، دفع بها كلام العاتي على الله المستهزيء بعباده، الكافر بلقائه، سنكتب ما يقول، إن قوله محصي عليه مكتوب مسجل

وسيحاسب عليه ويجازى شر الجزاء، وسيندم عليه يوم لا ينفعه الندم، وسنمد له من العذاب مدا، نطيل أمده في العذاب يلبث فيه أحقابا، ويخلد فيه مهانا ونرثه ما يقول، إنه يفخر بالمال والولد ويزعم أنه سيكون له باقيا يوم القيامة، كلا بل سنرث كل الذي يقوله،ونرثه هو ويصير إلينا فردا، يترك ما خولناه وراء ظهره لا مال ولا ولد ولا عز ولا أنصار،إنه يأتينا ليلقى جزاءه، فردا وحيدا فقيرا ذليلا، وفي هذا تهديد للذي نزلت فيه الآية ولأمثاله المستهزئين المتكبرين، وفيه تسلية لعباد الله المؤمنين المستضعفين، فليصبروا على أذاهم وليعتصموا بمولاهم فإن العاقبة للمتقين .

﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾

واتخذ هؤلاء الكفرة بالله آلهة يحبونها كحب الله ويعبدونها من دون الله يبتغون عندها العز، كل طائفة منهم تعتز بمعبودها وتبتغي عنده قضاء الحاجات، وتزعم أنها ستكون لها عزا، قال الله تعالى: كلا ليس الأمر كما يزعمون بل سيكفرون بعبادتهم، والكفر هنا متبادل، سيكفر عابدوها بعبادتهم يوم القيامة يوم لا تنفعهم بل تكون عليهم ضدا، وستكفر الآلهة المعبودة بعابديها وتكون عليهم ضدا، أما الملائكة والصالحون من الإنس والجن الذين عُبدوا من دون الله، فسيلعنون عابديهم يوم القيامة، ويدعون عليهم بمضاعفة العذاب، وأما الذين نصبوا أنفسهم لذلك فسيكفرون أيضا بعبادتهم ويلعنون من عبدوهم ويكبكبون مع أتباعهم في جهنم، وكذلك الأصنام والحجارة والأضرحة والقباب والأوثان حين تكون حصب جهنم، تلقى فيها هي وعابدوها وتزيدهم عذابا، حينئذ تكون عليهم ضدا، تكون عكس ما كانوا يرجون منها **﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم**

من ناصرين ـ العنكبوت ٢٥﴾ تلك هي عاقبة الذين اتخذوا من دون الله آلهة يرجون عندها العز إنها لا تغني عنهم شيئا وستكون عليهم ضدا، وقد يعلمون ذلك ولكن شياطينهم زينت لهم عبادتها، وتقليدهم لآبائهم الأولين غلب عليهم، فهم في طريقهم مندفعون، وفي ضلالهم يعمهون ولشياطينهم متبعون، وهم عن الحق معرضون وله كارهون ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا، يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾

﴿ **ألم تر**﴾ : كلمة تدعو إلى الانتباه لشيء محقق، ذلك أن الله تبارك وتعالى أرسل الشياطين على الكافرين بالله وبأنبيائه ورسله وباليوم الآخر وعموا عن ذكر الله، فقيّض لهم قرناء من الشياطين تؤزهم أزا، تُثيرهم وتهزهم وتدفعهم دفعا إلى الفجور والفسوق، تزين لهم سوء أعمالهم فيرونها حسنة وتغريهم بالمعاصى إغراءً، والذين تعودوا الفسق بأنواعه، الخمر والزنا والميسر والسرقة تستفزهم شياطينهم إليها فلا يستطيعون أن يصبروا عنها وعندما تسكرهم الخمرة أو حب الدنيا وحب المال وحب الشهوات فإن الشياطين تلعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، يحسب أحدهم نفسه من علية الناس وكبرائهم ويعتز بجاهه وسلطانه ومكانته وهو لعبة بين أيدي الشياطين تؤزه أزا .

﴿ **فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا** ﴾

فلا تعجل بالدعاء عليهم إنما نؤخرهم لأجل معدود، نعدُّ لهم قبله أنفاسهم وكل معدود لا محالة ينفد، فاصبر إن وعد الله حق ولا تستعجل لهم، وفي هذا إنذار لهم ولأمثالهم، وفيه تذكير للمؤمنين وموعظة تذكرهم بقرب آجالهم حتى يبادروها بالأعمال الصالحة قبل نفادها .

روي عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه كلما قرأ هذه الآية بكى

وقال: آخر العدد خروج نَفَسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك كل نَفَس خطوةٌ إلى القبر، روى أن جعفر بن السماك دخل على المأمون فقرأ هذه الآية فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد، هذا في عد الأنفاس والآجال، وكذلك نفهم من الآية عدّ الأعمال والأقوال، فان الله يحصي عليهم أعمالهم وأقوالهم ليجازيهم عليها، إن عليهم رقباء لا تغادر من أعمالهم صغيرة ولا كبيرة والله من ورائهم محيط، قد أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا.

﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾

ذكّرهم بيوم الحساب والجزاء يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا، حشروا إلى ربهم الرحمن الذي غمرتهم رحمته وتغمدهم بها يوم لقائه، إنها كانت قريبة منهم لأنهم كانوا محسنين، حشروا إلى ربهم وفدا معززا مكرما، وكذلك وفود الملوك تعزز وتكرم وتستقبل أحسن استقبال إذا كان هذا لوفود البشر، فكيف بوفود أكرم الأكرمين من ملك الملوك أجمعين؟ كذلك يحشر المتقون الذين استجابوا لربهم واهتدوا بهداه واتخذوا بتقواهم واستقامتهم عند الله عهدا، إن الكرم يومئذ لأهل التقوى فهم وحدهم وفد الرحمن المكرم، أما المجرمون فيساقون إلى العذاب سوقا عنيفا، يساقون إلى جهنم عطاشا، جاءت العبارة بالسوق وفيها ما فيها من الهول فهم لولا الدفع العنيف ما تقدموا خطوة وقد عاينوا جهنم وسمعوا زفيرها، فمن ذا يمشي طائعا إلى أشد العذاب، إن الزبانية تسوقهم بأمر الله وتأخذهم مغلولين مقيدين في الأصفاد فتسحبهم على وجوههم ذوقوا مس سقر، هذا جزاءهم على إجرامهم فهم أذلاء داخرون لا يملكون الشفاعة، إنما الشفاعة للذين اتخذوا عند الرحمن عهدا بإيمانهم وعملهم الصالح، أوفوا بعهد الله في الدنيا فأوفى الله بعهدهم يوم القيامة وشَفَّعَ فيهم رُسله. العهد أن تنطق

بكلمة التوحيد مخلصا من قلبك ثم تفسرها بالاستقامة، أما من قالها وراح يعبد الشيطان والهوى وذهب يضيع الصلاة ويتبع الشهوات فهو خائن ليس له عند الله عهد فلنفهم كلام الله على ضوء كلام الله وما فسر القرآن مثل القرآن .

وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ يَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ
عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

في هذه الآيات البينات التي هي في الرد على مقالات الكفار وتشنيعها وإنذارهم بسوء المصير يذكر الله قول الذين نسبوا إلى الرحمن الولد ويرد عليهم بالرد المحكم القاطع، والقائلون لهذا القول الشنيع هم طوائف اليهود والنصارى والمشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا إدًّا، يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدًّا، أن دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا﴾

قال اليهود والنصارى والمشركون اتخذ الرحمن ولدا وعبدوا ما زعموه ولدا، ورمزوا له بأصنام وتقربوا إليها بأنواع القربات، يعكفون عليها ويطلبون عندها الحاجات، قال الله تعالى: لقد جئتم بزعمكم هذا شيئا شنيعا قبيحاً ثقيلا تكاد السموات والأرض تتفطر من شناعته وثقله، لو أذن الله لانفطرت وتشققت، والجبال الراسيات لا تقوى على سماع هذا الكلام الذي لا أثقل منه، تكاد تنهد وتخر لو أذن الله لها بذلك لفعلت، يكاد الكون ينهد من نسبة الولد إلى الخالق الرحمن، ولا ينكر أحد هذه الأمور من السمٰوات والأرض والجبال، فإن الله الذي خلق السموات والأرض والجبال هو وحده يعلم ما بداخلها من شعور وإيمان بخالقها، وقد

أثبت لها الخشية والتسبيح، ولا ينكر ذلك إلا أعمى البصيرة، مطموس القلب مكذب للرحمن، ولله في خلقه أسرار وشؤون، والله على كل شيء قدير .

﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا﴾

لا يليق بعظمته وليس من شأنه أن يتخذ ولـدا ولا يمكن هذا أبدا فشتان بين الخالق والمخلوق بينهما تباين لا يمكن حصره مطلقا، **﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾**، أثبت الله الحقيقة الكبرى الثابتة التي لا تزول ولا تحول والتي قامت بها السماوات والأرض ومن فيهن، فما من مخلوق في السماوات أو في الأرض إلا آتي الرحمن عبداً، إنهم يأتونه عبيداً يوم القيامة حين تتمحض عبوديتهم، وتذوب دعاوى القوة والسلطان، التي أدعاها العتاة الجبابرة في الدنيا، ينفى الله بهذه الآية ما زعموا من البنوة ويبين الفرق الكبير بين الولد والعبد فمن كان عبدا لا يكون ولدا ومن كان ولدا لا يكون عبدا لوالده، فالكل لله عبيد مخلوقون أذلاء خاضعون، فلا تنسبوا للرحمن ما لا ينبغي له ولا يليق بعظمته وكبريائه، إنما يحتاج إلى الأولاد الضعفاء الذين يفتقرون إلى الأولاد والذين يموتون ويرثهم الأولاد ويحيون ذكرهم، أما الرحمن القوي القادر الذي هو حي دائم لا يموت فلا يحتاج إلى شريك ولا ولي، ولا ينبغى له الولد، ثم إن نسبة الولد إلى الله يستلزم الصاحبة، ويستلزم الاتصال المعهود بين الصاحب والصاحبة، ولذلك كان الأمر شنيعا تتزلزل الأرض والسماوات والجبال منه وتتفطر لنسبة ذلك إلى الرحمن، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وما جاء هذا التعبير: تفطر السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال هذا إلا في نسبة الولد ودعواه إلى الله، لما فيه من شناعة الاتصال بالصاحبة، ما جاءت هذه العبارة قط في موضع آخر في نسبة الشريك إلى الله، وإن كان الشرك كله افتراء وإثما عظيماً، ولكن هذا النوع منه أشنع وأقبح أنواعه، فيا ويلهم، ماذا يصفون؟ ويا قبح ما يفترون ؟ إنه لأمر عظيم، تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولد .

﴿إن كل من في السمٰوات والارض إلاآتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيمة فرداً﴾

جميع من في السموات والأرض آتي الرحمن يوم القيامة عبيده لقد أحصاهم عدا، وكلهم آتيه فردا، لا يفلت منهم أحد، ولا يأتونه قبائل وعشائر يعتز بعضهم ببعض، بل تتقطع يومئذ بهم الأسباب، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، كل واحد منهم يحضر مفردا بين يدي الله صاغرا ذليلا ليس دونه حجاب ولا عنده ترجمان، هناك تتمحض العبودية لله وهنالك تجزى كل نفس بما كسبت، ما لها من دون الله من ولي ولا نصير حتى الذين زعمتموهم للرحمن أبناء يحضرون بين يديه عبيدا يسألهم الله أفرادا فيجيبون **﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ـ فاطر ١٤﴾**

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

يختم ربنا تبارك وتعالى هذه السورة المحكمة بهذه الآيات التي هي خلاصة لما مر علينا من المعاني التي تناولتها السورة من أولها، وفيها الموعظة البليغة لمن يتذكر ويتدبر، فيها التبشير للمؤمنين المتقين، وفيها الإنذار بالهلاك للمعاندين المتمردين على الله.

كانت بداية هذه السورة بقصص أولياء الله الصالحين، زكريا، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس من ذرية آدم، ونوح، ومن ذرية إبراهيم، وإسرائيل، وممن هدى الله واجتبى من عباد الله الصالحين، ثم بعد هؤلاء الصالحين خلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، توعدهم الله بالغي .

ثم تعرض الأسلوب القرآني الحكيم لشُبه المبطلين وترهاتهم فقرعها بالحجج البينات والحقائق الثابتات وأنذرهم بعذاب جهنم يوم يأتونه فرادى لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا، والعهد هو الإيمان بالله واليوم الآخر والاستقامة على ذلك بالقول والعمل، وفي إنذار الظالمين وتخويفهم تنفيس عن قلوب المؤمنين المستضعفين وإنعاش الأمل في قلوبهم بما يبشرهم بحسن العقبى إن صبروا على أذاهم .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا ﴾

يبشر الله عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن الله سيجعل لهم ودًّا بينهم وبينه، وبينهم وبين ملائكته، وبين بعضهم البعض، ودا يبقى ويدوم بينما تتقطع الأسباب بين أعدائهم الكافرين والمنافقين، ويلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض كل واحد منهم يأتي الرحمن فردا لا صلة بينه وبين أخلائه وأقربائه، والمؤمنون يجعل لهم الرحمن ودًّا عظيما، نكّر كلمة ودّ، وتنكيرها يدل على عظمة مدلولها، ومن أسماء الله الحسنى «الودود»، وقد جعل الله لأوليائه ودا في حياتهم الأولى عند ملائكته، فهم يستغفرون للذين آمنوا، ويصلون عليهم في الدنيا قبل الآخرة، وجعل لهم ودا في قلوب المؤمنين، وهي المنزلة التي سألها إبراهيم من ربه حين قال ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ـ الشعراء ٨٤﴾ الود والقبول للمؤمنين والمقت والبغضاء واللعنة لأعدائهم المجرمين،بينهم وبين الله، وبينهم وبين ملائكة الله، فهم يبغضونهم ويلعنونهم،وبينهم وبين بعضهم البعض، فهم يوم القيامة يتلاعنون وتنقلب خلتهم عداوة، وقد كانت مودتهم في الدنيا على المعصية، ولأجل أغراض دنيئة يختِل بعضهم بعضا، ويخدع بعضهم بعضا، أما مودة المؤمنين فكانت في ذات الله فهم يتناصحون ويتعاونون على البر والتقوى، ويتحابون على ذلك ويدعو بعضهم لبعض عن ظهر الغيب لمن عرفوه ولمن لم يعرفوه من إخوانهم المؤمنين، والحب في الله أوثق عرى الإسلام كما جاء في الحديث الشريف. وهم على ذلك حتى جاءهم وعد الله فازدادت مودتهم

يوم القيامة تمكنا ونـزع الله ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين وقد حمدوا مغبة أمرهم، وحمدوا الله على ما هداهم ﴿**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ـ فاطر ٣٤/٣٥﴾

قال بعض المفسرين ﴿ **سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ أي سيحقق لهم ما يودون من السعادة الدائمة في الآخرة من رحمته وفضله، وهذا المعنى وجيه ولا مانع أن يفهم من الآية، والمعاني لا تتزاحم، ومهما قلبت معنى الود في الآية وجدته بردا وسلاما على المؤمنين، وتطمينا لقلوبهم بعدما سمعوا الزواجر والقوارع التي ذكرت في الآيات السابقة للمكذبين بالبعث، المعاندين للنذر، المستهزئين بآيات الله ورسله، فما أبلغها من آية، وما ألذ وقعها في قلوب المؤمنين الذين حققوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، وفيها ما فيها من الموعظة البليغة التي تدعو الناس إلى ربهم الرحمن وتبين لهم أن لا ملجأ ولا منجى يومئذ من الله إلا إليه ولا مفر لهم إلا إلى رحمته .

ثم إن من تدبر الآية جيدا وجد فيها الإشارة إلى أن تشريعات الله لعباده المؤمنين من إقام الصلوات في المساجد، إلى قبلة واحدة، وإيتاء الزكوات، وصوم رمضان، والأعياد، والحج في أشهره ومواضعه، وغير ذلك من القربات، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والتناصح في أمور الدين والمعاش، والتخلُّق بأخلاق الإسلام ،وأداء حقوق الأزواج والوالدين والأرحام والجوار، وإفشاء السلام ،وحقوق الإسلام... كل ذلك يدعو إلى المودة والتحابب، ويغرس الحب في قلوب المؤمنين. أما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض التي هي من أسس الديانة، فتلك تثبت المودة في قلوب أصحابها حتى ولو لم يتعاصروا ولم يتعاشروا، وبين الإنس والجن والملائكة من كل زمان ومكان، وقد علَّمنا الله ورسوله ذلك في الصلاة، يقول المصلي عندما يقرأ التشهد «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ويقول المؤمنون اللاحقون في الأزمنة المتأخرة

﴿ربنا أغفر لنا ولإخوانا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ـ الحشر ١٠﴾ .

هذه أمة الإسلام تربط المودة بين أولها وآخرها وقاصيها ودانيها وبين جميع أجناس المسلمين، يقول رسول الله ﷺ « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ولا يتم إيمانهم إلا بذلك، ولا يدخلون الجنة حتى يتحابوا، فشرط محبة الله لهم أن يتحابوا في الله، فإن هم فعلوا ذلك وجبت لهم محبة الله ربهم، وشملتهم رحمته الدائمة، فكأنما شرائع الدين شجرة ثمرتها التواد بين المؤمنين في الدنيا،والود يوم القيامة،يجنونه في الجنة أبد الآبدين، ود الله لهم، وود ملائكته، وود في الجنة من الحور العين والولدان، وود بعضهم لبعض، يصفو يومئذ ويخلص من شوائب الغل التي كان يلقيها الشيطان في الصدور، فيومئذ لا غل ولا شيطان ولا دنيا ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا ـ الحجر ٤٧﴾ لا نظن أن عاقلا أو حكيما أو فيلسوفا يزعم أن هناك رابطة تربط بين مجموعة من البشر مثل رابطة المودة التي بين أهل الإيمان الذين حققوا معنى لا اله إلا الله بالسمع والطاعة لله ولرسوله والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، فكانوا بذلك خير أمة أُخرجت للناس .

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾

فإنما يسرناه الضمير للقرآن، بلسانك أي بلغتك العربية ليتيسر فهمه، والاعتبار بما فيه من قصص الماضين، ذلك لأن جميع أخبار الذين ذكروا من أول السورة من الأنبياء والرسل إنما كانت بلغات غير عربية، فجاءت هنا ميسرة باللسان العربي المبين ليسهل فهمها، ولذلك جاء الربط بالفاء متمكنا والتيسير من الله منة عظمية إذ لا يقدر على نقل جميع الأحاسيس والعواطف وما يجري في الضمائر إلا خالق الضمائر والقلوب العليم بذات الصدور، فالله وحده العليم

الخبير قادر على أن يترجم اللغـات الترجمه الحقيقية التي لا يضيع منهـا شيء من المعنى، والتي يسهل إدراكهـا والاستفـادة منهـا للـذين يتكلمـون العـربيـة أو يتعلمـونها، وينبغي على كل مسلم أن يتعلم العربيـة حتى يتيسر له فهم القـرآن لأنه ميسر بلسانها، فكـأن في هذه الآية إشارة إلى وجوب تعلـم لغـة القرآن حتى نحسن فهم مـا فيه من المعـاني، والخطـاب هنا إلى رسـول الله ﷺ ثم إلى كل من يقوم بأمـانة الـدعوة والتبليغ من بعده، وينبغي للـداعية أن يتقن لغـة المدعوين حتى يـدعوهم بلسـانهم، والغرض من التيسير التبشير والإنـذار قال الله تعـالى: ﴿**لتبشـر بـه المتقـين وتنـذر بـه قـوما لـدا** ﴾ لتبشر به ـ أي بـالقرآن ـ المتقين، تبشرهـم بحسن المصير وحسن العـاقبة عنـد ربهـم،فليثبتوا على تقـواهم وليصبروا على أذى أعـدائهم فـإن الله لا يضيع أجـر المحسنين، سيـوفيهـم أجـورهم غير منقوصة وسيدخلهم مـدخلا يرضونه، والبشارة هنا جاءت مطلقـة لم تقيد بذكر المبشر بـه، هـذا أروع وأبلغ في تعميم المعنى وتـوسيعـه وشمـولـه جميع مـراحل التبشير في الـدنيا وفي الآخـرة، فلنترك الفكـر يذهـب فيها مـذاهب ﴿**فـلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قـرة أعين جـزاء بما كانـوا يعملون** ـ السجدة ١٧﴾ تلك هي عـاقبة التقـوى وذلك هـو مصير المتقين، والتقوى معنى جـامع للخير كلـه وفيهـا معنى الوقـايـة والحذر، فهم يعملون أعمال البر يرجون بها رضوان الله ويخافون عـذابه ويجتهـدون في إخلاص العمل لوجه الله، ويخافون ألا يقبل منهم ﴿**والـذين يوتـون مـا آتوا وقلـوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعـون** ـ المؤمنون ٦٠﴾ هذا شأنهم في الطاعـة وهم عن المعصية ناكبون قـد عصمتهم تقواهـم من أرتكـابها، إذا مسهم طـائف من الشيطـان تـذكـروا فـإذا هم مبصرون، ليسـوا معصومين مـن الذنـوب ولكنهم سرعان مـا يتوبـون منها وسرعـان ما يتـذكرون أولئك لهم البشارات من الله، أمـا أهل الكفر والإصرار والعناد والجدال بـالباطل فقد قال الله في شأنهم :

﴿وتنذر به قوماً لدّا﴾

اللدد في الخصومة:هو العناد واللجاجة والتمسك بالباطل ولو ظهر الحق، وهو ينم عن طبع الكبر في النفوس الخبيثة **﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه، فأستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ـ غافر ٥٦ ﴾ وصف الله المجادلين في آيات الله بغير سلطان من علم بالكِبْر. وهو العليم بطبائع النفوس، ووصف الله قوما يعاندون رسوله بعدما شهدوا له بالصدق والأمانة، وبعدما شاهدوا براهين الرسالة ومعجزاتها، وصفهم بأنهم قوم لدّا، وما أحراهم بهذا الوصف وما ألزمه بهم، فأمر الله نبيه أن ينذرهم بالقرآن وكفى به نذيرا فان فيه من القوارع والوعيد ما أن لو أنزل على جبل لهدّه **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله** ـ الحشر ٢١﴾ **﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الآمر جميعا** ـ الرعد ٣١﴾ .

وأطلقت النذارة هنا ولم تقيد بمفعول به كما مر في البشارة، و إطلاقها أروع وأبلغ لتؤذن بالعموم أي أنذرهم بجميع أنواع الشرور والنكال والعذاب والحسرات في الحياة وفي الممات، فيا ويلهم مما ينتظرهم إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق قبل الفوات، لله ما أبلغ هذه الجملة الوجيزة من كلام الله ماذا تحمل من معان عظيمة لا يزال يتكرر تعبيرها في النفوس مدى الحياة، فلا يعرض عنها الا الصم البكم العمي الذين لا يعقلون ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ومن همزه ونفخه، ونعوذ بالله من الكبر، فإنه إذا تمكن في الصدور جعل قلوبها في أكنة وجعل في آذانها وقرا، وجعل بينها وبين كلام الله حجابا مستورا، فلا ينفع الإنذار وإنما تقوم به الحجة عليهم يوم يعترفون ويقولون ﴿ **بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما أنزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم**

فسحقا لأصحاب السعير ـ الملك ٩/١١ ﴾ تلك هي عاقبة القوم اللد، وهذا ما ينذرون به وذلك هو حظهم من الإنذار، الاعتراف يوم لا ينفعهم الاعتراف والندم يوم لا يجدي الندم ﴿**ولات حين مناص** ـ ص ٣﴾ ولو كانوا أهلا للاعتبار لاعتبروا بمن مضى من الأمم التي عاندت رسل الله فأهلكها الله وأبادها وجعلها أحاديث .

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾

يختم الله السورة بهذه الآية الرائعة الرهيبة التي توحي بجلال الله وعظمته وأنه الحي القيوم، الأول الآخر، الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ـ القصص ٨٨﴾ .

يقول تعالى:

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾

أي ما أكثر الأمم التي أهلكناها، والقرن هو الأمة التي جمعها عصر من العصور في ظل سلطان في قطر من الأقطار، كانت هذه الأمة متمكنة من أمرها تدبر شؤونها، لها حضارة وعمران ثم زالت وبادت فلم تبق إلا آثارها العمرانية خاوية، وأخبارها تتداولها ألسنة الناس بعدهم، وما أكثر القرون الماضية وما أكثر مواطن آثارها الشاهدة على عمارتها لهذه الأرض وتمكنها منها، فما على العاقل إلا أن يسير في الأرض فينظر إلى هذه الآثار ويعتبر، لا يخلو قطر من الأقطار من آثار مدن وقرى تشهد لأهلها بالقوة والسلطان والعلوم .

اقرأ كتب التاريخ وقف على الأطلال الضخمة المعالم واستمع إلى أخبارهم وتفكر، وانظر هل بقي شيء من سلطانهم وقوتهم، تفكر وتسمَّع وانظر وتحسس بين آثارهم ﴿**هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا** ﴾ هل

تحس من هؤلاء الهالكين من أحد؟! لا شيء مطلقا، تخيل ما كان هناك من جلبة وصخب في أسواقهم وميادينهم وشوارعهم وملاعبهم، هل تسمع لهم اليوم ركزا، أي صوتا خفيا؟! سكنت الأصوات وهدأ الضجيج، وخلت الميادين والأسواق والشوارع، وخربت الديار، فلا داعي ولا مجيب ولا حاكم ولا محكوم ولا بائع ولا مشتر، ديارهم كأن لم تغن بالأمس، فهي خاوية على عروشها، تفكر أيها العاقل واعتبر بآثارهم وأخبارهم، ولا تغتر بالحياة فإنها ذاهبة، ذاهب من فيها ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وفي هذا التفكر ما يقهر النفوس المتعالية ويرد إليها صوابها ويكشف عن حقيقة هذه الحياة الدنيا، فلا تغتر بها ولا تطغى، وفيه ما يلفت العقل إلى الاستعداد لدار البقاء والتزود لها بما يبقى إن كان فيه ذرة من إيمان وفيه تسلية من الله لرسوله والمؤمنين، فلا يتألموا من سخرية أعداء الله ولا يضيقوا بأذاهم، فسوف يهلكون كما هلك من كان قبلهم ممن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا، والذين عمروا الأرض أكثر مما عمروها .

وفي هذه الآية إنذار شديد لمن أعجب بقوته وسلطانه وماله وجاهه من هؤلاء الكفار، الساخرين من أنبياء الله ورسله، النابذين كتاب الله وراءهم ظهريا، فلينظروا إلى من كان قبلهم من القرون هل بقي منهم من أحد، والتعبير في الآية بهل الاستفهامية التي يراد بها النفي تعبير في غاية الروعة، فيه تحريك للعواطف والعقول وإثارة للنفوس حتى تنظر فتحكم بنفسها الحكم الصحيح الذي لا محيد عنه، فهو أبلغ من الإخبار .

وفي الآيات التى ختمت بها السورة خلاصة لما في السورة من أولها، فيها استخلاص الموعظة البليغة من أخبار الماضين، وبيان عاقبة أهل الإيمان والتقوى والصلاح، وعاقبة أهل الغي والجحود والعناد، وفيها الإنذار لمن يعرض عن الحق ويَلِجُّ في الجدال، وفيها التبشير للذين استجابوا لربهم واتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ومن أجل ذلك يسَّر مُنَزِّل القرآن القرآن بلسان عربي مبين،

وهو لسان محمد ﷺ وقومه،ولسان أهل الاستجابة لكتاب الله يتعلمونه ويعلمونه أبناءهم، ولا سبيل لهم إلى فهم دينهم إلا بإتقان لغة القرآن .

نسأل الله أن يفتح صدورنا لفهمه، وأن يجعلنا ممن ينتفعون بذكره، ويتعظون بزجره، ويقومون بحفظه وتلاوته والعمل بما فيه، آمين يارب العالمين.

انتهى تفسير هذه السورة بما تيسر من عون الله، والحمد لله رب العالمين .

○●○

تم تفسير سورة مريم

○●○

تفسير سورة طه

٢٠ سُورَةُ طه مَكِّيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى ۝٤
الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ
الْحُسْنَىٰ ۝٨

سورة كريمة من سور القرآن الكريم سميت باسم ﴿طـه﴾ لافتتاحها بهذين الحرفين الممدودين مد قصر، وقيل تسمى سورة (الكليم) لكثرة أخبار بني إسرائيل فيها. وفيها مائة وخمس وثلاثون آية منها نيف وتسعون آية في أخبار موسى عليه السلام، وورد عن النبي ﷺ آثار في فضل هذه السورة، من ذلك ما روي أن أهل الجنة لا يقرؤون من القرآن في الجنة إلا سورة طه وسورة يس .

وفي السورة حلاوة في المعنى وحلاوة في الإيقاع، فأغلب فواصل السورة لها جرس خاص وهو المد المقصور، ولذلك قصر مد الحرفين الذين افتتحت بهما وأصلهما المد ليناسبا فواصلها. وقال قوم ـ طه ـ اسم من أسماء النبي ﷺ ولذلك سمى بعض الناس أولادهم بهذا الاسم.

﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾

الذي نقول في الحرفين المقطعين أول السورة هو ما قلناه في حروف أول سورة مريم، والعلم الحقيقي عند الله، وفي هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن

المؤلف من حروف الهجـاء التي ينطق بها العرب، وأعجز العرب قـاطبة أن يأتوا بمثله، فما أحـراهم لو عقلـوا أن يؤمنوا بـه أنه من عنـد الله ويستجيبوا لـرسولهم الذي دعاهم بمعجـزة القرآن إلى القرآن، وهذه الإشـارة ظاهرة معقولـة، فالقرآن إنما نـزل بلسانهم وبـاللغـة التي يتخاطبـون بها فهـو ميسر واضح ولكنه معجـز **﴿فإنما يسرنـاه بلسـانك لتبشر به المتقين وتنـذر بـه قـوما لـدآ ـ مـريم ٩٧﴾** واختلف القراء كما اختلف المفسرون في معنـى الحرفين المقطعين، اختلف القراء في قـراءتهما وكيفيتهما، واختلف المفسرون أكثـر من اختـلافهم في غيرهـا من الحروف، قال قـوم﴿ طه﴾: معناهـا يا رجل، وقـالوا الطاء حـرف نداء في بعض لغات العـرب واستشهدوا ببعض أبيات شعريـة، واستدلوا على ذلك بـالخطاب الموجه بعـدهما للنبي ﷺ، وهذا عندي ليس بشيء لأن أغلب هـذه السور يجيء الخطـاب بعد حـروفهـا المقطعـة للنبى ﷺ، فلنفـوض الأمر في حقيقـة الحرفين وغيرهما من الحروف إلى منزلها العليم الحكيم .

والسورة مكيـة من أوائل ما نـزل من السور وكـان نزولها والنبي ﷺ كـاتم عبـادته مع صحـابته الأوائل في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكـان يحمل من الغم على قومـه ما يحمل من أجل أنهم لم يستجيبـوا لدعوتـه التي فيها نجـاتهم، وهذا من جملة ما يفسر به الشقاء الـذي تحمَّله النبي ﷺ كما جاء التصريح به في أوائل السـورة السابقـة (سورة الكهف) يقـول الله تعالى فيهـا **﴿فلعلك بـاخع نفسك على آثارهـم إن لم يومنوا بهذا الحديـث أسفا ـ الكهف ٦﴾** وتقدم تفسير هذا المعنى في موضعه . وفى هذه السورة :

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾

أي ما أنـزلنا عليك القرآن لتشقى على آثـار قومك فـلا تهلك نفسك أسفا على عدم إيمانهم، فما عليك إلاَّ البـلاغ، هذا هـو المتبادر من معنى الآيـة، وقال البعض في معناها: مـا أنزلنا عليك القرآن لتحمل على نفسـك من مشقة العبادة

مـا لا تطيق، وكان ﷺ يطيل القيـام في صلاة الليـل حتى تورمت قـدماه، وقـال آخـرون: ليس في القرآن مـا يشقي من العبـادات والشرائع، فالـدين يسرٌ ﴿**وما جعل عليكم في الـديـن من حــرج** ـ الحج ٧٨﴾ ولا تتنــافى هـذه المعــاني، فالإختلاف بين المفسرين إنما هـو أختلاف تنوع لا أختلاف تضـاد، وهناك وجه آخـر ذكره بعض المفسرين وهـو أنه ﷺ كـان يتعب في ترديـد ما يلقى إليـه من الـوحي خشية النسيـان ويشقى بـذلك فطمأنه الله عـز وجل ﴿**سنقـرئك فـلا تنسى إلا ما شاء الله** ـ الأعلى ٦/٧﴾ والمعنى الأول من هـذه المعاني هـو الأظهر والأقوى لمناسبة الآية بعده .

﴿إلا تذكرة لمن يخشى ﴾

أي فذكر إنما أنت مذكِّر لست عليهم بمسيطـر، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بسببه من أجـل كفر قومك وعنـادهم، ما أنـزلناه إلا تـذكرة لمن يخشى، ذلك لأن التذكرة إنما ينتفع بها من جعل الله في قلبه الخشيـة، وقد خوطب بالقرآن كافة النـاس، وإنما ينتفع به المدّكرون الذين يخشون ربهم بـالغيب، وجاءت هنا كلمـة التذكـرة كما تكـررت في غير موضع من القـرآن الكـريم، ذلك لأن معنى الفطرة مـركوز في القلوب، فطرة الله التـي فطر الناس عليها، فما مهمـة النذر إلا التـذكير بهذا المعنى لمن في قلبـه خشيـة الله. ﴿**لعلهم يتقـون أو يحدث لهم ذكراً**﴾، والذكرى تنفع المؤمنين .

﴿ تنزيلاً ممن خلق الارض والسماوات العلى ﴾

وصفٌ عظيم للمنزِّل والقصـد منه تعظيم المنزل والكتاب المنـزل، وبالطبع فإن عظمة الكتب والـرسائل تكون تبعا لعظمة المرسلين، وقـد جبل الناس على الاحتفــال برسائل الملوك والأمراء، فما ظنكم برب العالمين،فليتقبل هذا الكتاب من الله العلي العظيم ذي الجلال والإكـرام، فإن نـزولـه منـه رحمة بنـا، وأي رحمة،

ولذلك ناسب الوصف التالي .

﴿ الرحمن على العرش استوى﴾

يذهب كثير من المفسرين إلى اعتبار هذه الآية جملة واحدة، الرحمن مبتدأ وما بعده خبر له، وأنا أذهب إلى أن الرحمن وحده منفصل عما بعده، فهو خبر لمبتدإ محذوف ثم يكون ما بعده نعت له، وإن المتأمل في هذا يجده أروع، وفي النفس أوقع، من هو المنزل؟ وما قصده من تنزيل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً؟ إنه الرحمن الذي كتب على نفسه الرحمة وما تنزيله القرآن على عبده إلا رحمة للعالمين، اقتضت رحمته أن ينزل على عباده كتابا يتبعونه فيسعدون، هو الكتاب الحق الهادي إلى صراط مستقيم من عمل به نجا لأنه تنزيل من مالك الملك مدبر الأمر، عالم الغيب والشهادة .

﴿على العرش استوى﴾ بالقهر والغلبة والاستيلاء، فالملك بيده، والعبارة معروفة يستعملها العرب في كلامهم ويريدون بها القهر والاستيلاء والقرآن نزل بلغة العرب وهذا ما نفهمه من الاستواء والله أعلم .

﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾

العبارة السابقة تفيد الملك بمعنى القهر والسلطان، وهذه العبارة تفيد الملك أي أن هذه الأكوان وما فيها ملك لله فهو ملكها ومالكها أحاط ملكه وقهره وأحاطت قدرته بالسماوات وما فيها، وبالأرض وما فيها، مما ظهر لنا وما لم يظهر مما تحت الثرى، وفي هذه الكلمة الأخيرة إشارة لنا إلى أهمية ما تحت الثرى من الكنوز والبركات وهي مخلوقة لنا، فما علينا إلا أن نبحث في خبايا الأرض ونستخرج منها الأرزاق والبركات من النبات والمعادن والمياه والغازات .

﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾

تبين هـذه الآية إحـاطـة علم الله بكل شيء كما بينت الآيـات السابقـات إحاطة رحمتـه وسلطانه وملكه بكل مخلـوقاته، والكل خلقه لا يعـزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا تخفى عنه خـافية، يستوى في إحاطـة علمه الجلي والخفي. وجاءت العبارة مصوغة في هذا الأسلوب الخطابي الحي ، ﴿**وإن تجهر بـالقـول**﴾ أي وإن تسر بـه أو تضمر شيئـا في قلبك فإن الله يعلم السر وأخفى، أي يعلم الجهر والسر من الكـلام، ويعلم ما هـو أخفى وهو ما تضمـره القلوب وتسرّه النفوس، فالله هو المتفرد بالقهر والملك والعلم، ذلك هو منزل القرآن .

﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾

بعد تلـك الأوصاف العظيمة الـدالة على الـربوبيـة، يأتي اسم الله العظيم الذي هو المتفرد بالألـوهية والمتصف بالأسماء الحسنى، يأتي لفظ الجلالة، اللفظ الجامد الذي هو علـم للـذات العلية، الجملة تقرر التوحيد، توحيـد الألوهية فلا معبـود بحق إلا الله، له الأسماء الحسنـى، تنزه ربنـا وتبـارك وتعالى عن أوصـاف النقص، واتصف بأوصـاف الكمال، فهـو الحي القيـوم، العليم الخبير، السميع البصير، العزيز الجبار المتكبر، المهيمن، الواحـد الأحد في الذات والصفات، هذا هو منزل القرآن الذي نـزَّل عليك القرآن لا لتشقى، وفى هذا الكلام تسلية للنبي ﷺوتثبيت لقلبـه حتى لا يستوحش بقلتـه وذلته فإن الـذي معه رب السمـوات والأرض لا يقل ولا يـذل، وإن رأيت صـدودا وإعـراضـا من قـومك وتكـذيبـا فلست بـدعـاً من الـرسل ﴿**ولقـد كـذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبـوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقـد جاءك من نبإ المرسلين** ـ الأنعام ٣٤ ﴾ .

وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ

فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا
مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

هل بلغك خبر موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله أمكثوا .... الآية ، جاء الخبر هنا بصيغة الاستفهام وليس المراد منه طلب العلم إنما المقصود استرعاء أنتباه المخاطب لأهمية الخبر، وكثيرا ما نستعمل هذا الأسلوب بلهجتنا العامية، هل بلغك خبر كذا وكذا؟ أو هل سمعت بنبإ كذا وكذا؟ وقصدنا استرعاء أنتباه مخاطبنا. والقصة مفيدة ورائعة وذات عبر، وقد ذكر هنا جانب منها وبقية الجوانب مبسوطة في غير هذه السورة وأكثر ذلك في سورة القصص، ففيها الكلام الكثير عن أنباء موسى عليه السلام منذ ولادته، أما هنا فتتحدث القصة عن اتصال موسى بالنور الإلهي حيث أوحى الله إليه أول ما أوحى، وما كان يعرف الوحي ولا كان يرجوه، وكذلك سائر أنبياء الله ورسله، كما قال الله تعالى في حق نبينا محمد ﷺ مخاطبا إياه ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ـ القصص ٨٦﴾ ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ـ الشورى ٥٢﴾، كذلك تلطف الله لموسى وساقه قدره إلى هذا الموضع المقدس ليتلقى النور الإلهي، وذلك عند منقلبه من مدين بعدما قضى أوفى الأجلين، فرجع بأهله إلى وطنه الأول حيث أمه وذووه، كان في طريق الرجوع بعد عشر سنين أو ما شاء الله من فراره من فرعون وقومه خائفا، فها هو الآن يرجع متوكلا على الله إلى مراتع الصبا ومنازل الآباء والأجداد يحثه الشوق إلى أول منزل، وبينما هو في الطريق في سيناء وعلى الجانب الأيمن من الطور في ليلة مطيرة، وقيل ذات ثلج باردة ضل عن الطريق، وقد شاء الله أن يضل عن طريق الأرض ليهتدي إلى طريق السّماء، ضل الطريق واشتد البرد فحاول أن يوقد النار ليهتدي ويصطلي ولكن زناده لم يُور لحكمة

أرادها الله، فالتفت فأبصر ناراً .

﴿ فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً﴾

قـال لأهله وهم زوجتـه وابنـه، وقيل وقـد كانت زوجتـه ولـدت قبل تلك الليلـة وهي في أشد الحاجـة إلى الـدفء والاصطلاء، قـال لهم أمكثوا لا تبرحـوا مكانكـم إني آنست نارًا، سأذهب إليهـا لعلي أجد عنـد صاحبهـا هدى، ولعلي اقتبس منه جذوة نوقد بها على مـا نصطلي به، واختار التعبير القرآني«آنست » ولم يقل رأيـت، لأنها ليست مجرد رؤيـة بـل هي رؤيـة حصل بها أنـس في نفس تسـاورها الهواجس والمخـاوف والقلق من هـذه الظلمات التي أضلته الطـريق، وقيل كـان سلك طـريقا بكـرا غير التي يسلكهـا الناس لخوفـه من عيـون ملك الشام، لذلك ضل الطـريق، وما يدري أن عناية الله تحفّه، ومن كـان كذلك فلا يضل ولا يخزى.

اقترب مـوسى من النـار فـوجـدها نـارا تتـوهج من شجـرة خضراء، نـارًا شديـدة الإضاءة حتى وضع يديـه على عينيه، نارًا تضيء ولا تحرق، فهي شـديدة التوهج، والشجرة شديدة الخضرة، الشيء الـذي أدهش موسى وملأه تعجبا من هذه النار، ولولا أن الله ثبته لصرع من الدهشة .

﴿فلما جاءها نودي يا موسى﴾

جاءه نداء بـاسمه لإيناسه وإزالة وحشته، غير أن النـداء من مصدر مجهول، وقيل كـان يسمعه بجميع جـوارحه، ومن جميع الجهـات، وروي في الأثر أنـه قال: لبيك إني أسمعك ولا أراك فأين أنت؟ فأجيب إني معك وفـوقك وخلفك وأمامك ومحيط بك وأقرب إليك منك يا موسى أننى أنا الله لا اله إلا أنا .

﴿ إني أنا ربك﴾

مـا أعظمهـا كلمـة ومـا أعظم وقعهـا في روع مـوسى، اقشعـر لها جلـده، وارتعدت فرائصـه من رهبة المقام لأنه مقام عظيم، وليس له بـه عهد، فهذا أول

عهـده بهذا السر الهائل، ولنـذكر مـا وقع للنبي محمـد ﷺ في الليلـة الأولى التي جاءه فيها جبريل عليه السلام .

﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾

عرفه الله بنفسه وأنـه ربه الذي خلقه والذي ناصيتـه بيده يملك أمره كله، ربه الذي اجتباه ليسمع كلامه ووحيه فما أشبه هذه الكلمة بالكلمة التي تلقاها نبينا محمد ﷺمن جبريل أول مـا ألقي اليه الوحى ﴿ اقرأ بأسم ربك ـ العلق ١ ﴾ ثم أمره بخلع نعليه لعظم المقام وقداسته، كيف لا يعظم ولا يتقدس وقد اختاره الله ليكلم فيـه عبدًا اجتبـاه؟ وقـد يكـون مقدسـا من قبل بأشيـاء من أسرار الله وملكـوتـه، مقـام مقـدس تخلع فيـه النعـال لقـداستـه، ولا عبرة بما قـال بعض المفسرين أن خلع النعل إنما كان لأنـه من جلد حمار ميت، كـلا بل ألف الناس أن يخلعـوا نعـالهم عنـد الملوك والأمـراء، فكيف لا يخلع مـوسى نعليـه وهـو في الحضرة القدسيـة بين يدى رب العالمين؟! أمتثل موسى الأمـر وأسرع في الإمتثال فخلع نعليـه ورمـاهما وراء عدوة الـوادي وفيـه مـا فيه من الإينـاس والتقـريـب والتشريف، وناهيك بما يتلو هذا الأمر من كلام .

﴿ وأنا أخترتك فاستمع لما يوحى ﴾

كلمة فيها إينـاس وبشارة لموسى وأي بشارة، الله ربـه ورب العالمين يختاره من بين سائر خلقه ليلقي إليـه بوحيه في هذا الوادي المقدس طـوى، فاستمع يا موسى لما يوحى، لاشك أن موسى ألقى سمعه وفتح قلبه لهذا الوحي الذي يأتيه من ربه، واستعد لقبول ما يلقي إليه ربه بـالسمع والطاعة والامتثال، وكذلك أنبياء الله ورسله شأنهم حسن الأدب مع ربهم والاهتمام بما يلقى إليهم من الوحى .

﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾

ناداه أولا بـاسم الربـوبية، ثم نـاداه باسـم الألوهية مـؤكدا النـداءين بإنَّ

لأهميـة الخبر، وليعلم موسى أن ربـه الله وحده لا شريك لـه في ملكه، ولا معبـود سواه ،ثم أمـره أمراً صريحا بعبادتـه، ومن أحق بالعبـادة من الله رب موسى ورب الناس أجمعين. وربط الأمـر بالفـاء مشعر بسر العبـادة والتوحيـد، للرب الخالق المالك. والعبادة هي الخضوع والمحبـة والطاعة والامتثـال، وكان ذلك يتضمن الشكـر للمنعم على جميـع النعم والاعتراف لـه بـالثنـاء الجميل على الفضـائل والفواضل، تبارك الله رب العـالمين، وفي مقدمة العبادة إقامـة الصلاة وهي عمود الدين في كل شريعـة، أمر الله موسى أن يأتي بالصـلاة على كمال هيئتها المشروعة ليذكر فيهـا ربه، وأن الصلاة إنما شرعت لذكـر الله، وإنها إن خلت من ذكره فلا تقبل ولا وزن لها عند الله، شرعت الصـلاة وصرَّح بها في هذا المقـام المقدس دون سـائر الفرائض لمقـامها عنـد الله، وكذلك شرعت لنبينـا محمد ﷺ ليلـة الإسراء والمعراج فوق سبع سماوات، وما ذلك إلا لعلو مقامها عند الله، وأن الدين لا يتم إلا بها ولا يقوم بنـاؤه إلا عليها، فالويل للـذين يدَّعون الإسلام ولا يصلـون، إنه لا حظ في الإسلام لمن تـرك الصلاة، وليس بين العبـد والكفر إلا تركـه الصلاة، فمن ترك الصلاة فقـد كفر، والصلاة هي الصلة بين العبد المؤمن وربـه، يذكر العبـد فيها ربـه بـالثناء والإخـلاص والخشـوع، فيذكـره ربـه بـالعون والتـوفيق والقبول، ولذكر الله أكبر .

﴿ إن السـاعـة آتيـة أكـاد أخفيهـا لتجـزى كل نفس بما تسعـى فـلا يصدنك عنها من لا يومن بها واتبع هواه فتردى ﴾

في هذا الحوار الإلهي المؤثـر، وفي هذا الخطـاب الرباني الحكيـم، يأتي إخبار مـوسى بقيام السـاعـة، وأنها تأتي بغتة، وأن السـاعـة هي الموعد الحق الـذي لن يتخلف ولن يتأخر عن مـوعده المعلـوم عند الله، ولا يعلمه إلا الله ولابـد من يوم يجازي فيه الناس على أعمالهم، فتنظر كل نفـس ما قدمت وتجزى به، والإيمان بها هو القـاعدة الثـالثة الكبرى من قـواعد الإيمان التي أوحى الله بها لموسـى أول ما

أوحى، الإيمان بالله الواحد القهار، ثم الإتيان بالقاعدة الثانية وهي إقامة الصلاة لله الذي هـو واجب ذكره وعبـادته والخضوع لـه، ثم الإيمان بالبعث ومـا فيه من الجزاء لكل نفس بما كسبت، إمـا بجنة يـدوم نعيمها، وإمـا بنار يـدوم جحيمها، هـذه القواعـد الثلاث الكبرى التي أقتضت حكمـة ربنا تعـالى أن يلقيها لعبـده مـوسى في هذا المقـام المقدس، وفي بـداية تكليمـه له، ومن هنـا نعلم أهمية هـذه القـواعد الثـلاث، وأنه لا صـلاح للنفس البشرية إلا بـالإيمان بها، فكيف يستقيم من لا يـؤمن بـالله ولا بـاليوم الآخـر؟ وكيف يصلح من لا يـذكـر الله ولا يقيم لـه الصلوات المفروضة؟ هنا في هذا الحوار تأتي ثـالثة القواعد المكملة لإيمان الإنسان الحق، أن يـؤمن بأن السـاعـة آتيـة لا ريب فيهـا وأن الله يبعث من في القبـور، فما استقام من استقـام إلا بتأثير الإيمان بالبعث والحسـاب والجزاء، وهي النقطة التي ركـز عليها القـرآن في غير مـوضع وجعلها علـة العلل ﴿ **فـذكّـر بـالقـرآن من يخاف وعيـدي** ـ ق ٤٥﴾ ﴿**إن في ذلك لآيـة لمن خـاف عـذاب الآخـرة، ذلك يوم مجمـوع له النـاس وذلك يوم مشهـود، وما نـوَخـره إلا لأجـل معدود** ـ هود ١٠٣/١٠٤﴾ ﴿ **وأنذرهم يـوم الآزفة إذ القلـوب لدى الحنـاجر** ـ غافر ١٨﴾ ﴿**فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا** ـ المزمل ١٧﴾ .

الإيمان بـاليوم الآخـر هو السر في صـلاح النفوس واستقامتها على الطريق الأقوم، واليـوم الآخر هو الموعد الـذي يظهر فيه عـدل الله المطلق فينال المحسن جزاء إحسـانه والمسيء وبال إساءتـه، وما جعل الله للإنسـان الخلافة في الأرض ليترك سدى وليكون مآله مآل البهائم التي لا عقل لها، إن لهذا الإنسان المـُمَلَّك في الأرض لشأنا عند الله ﴿ **أيحسب الانسان أن يترك سدى** ـ القيامة ٣٦﴾.

إن المؤمن ليرتـاح قلبه وتطمئن نفسـه لعدالـة الله المنتظرة يـوم الجزاء، وإن الملحد الكافر ليعكـر عليه صفوه ذكر قيام الساعـة وما فيها من جزاء كل نفس بما تسعى، فهـو لا يحب ذكر السـاعة ولا ذكـر الإيمان بها وما فيهـا من الجزاء بل

يريد إنكارها وتجاهلها حتى يتأتى لـه أتباع الهوى وما يأمر به الهوى من الفسوق والفجـور، فهو يفسق ويطغى ويأتي الفـواحش ويلتذ بـالمعاصي، ويـزعم أن لا حساب ولا عقـاب، وإذا وعظ بالموت كفر بالموت ومـا بعد الموت ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين** ـ الجاثية ٣٢﴾ إنه يكابـر الحق ويخادع الله ويغالط نفسـه، وفيها قـد يظهر بصيص الحق أحيـانـا ولكن سرعان مـا ينطمس بركـام الشهـوات وطغيـــان الهوى ﴿ **أولئك الـــذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ـ محمد ٢٣﴾ ﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكـر الله أولئك حزب الشيطـان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ـ المجادلة ١٩﴾ هذه طبيعة المنكريـن للساعة لم ينكروها لفقـدان الدليل وعدم البرهان بـل هناك أدلة وبراهين لـو سمعوا وعقلـوا، ولكن أنكروهـا لغلبة الهوى على نفوسهـم، وخالق النفـوس يعلم طبـائع النفوس، ولـذلك جـاء ذكـر اتباع الهوى مقترنـا بإنكـار الساعة وصد الناس عنها، فهو اقتران العلة بالمعلول والسبب بالمسبب .

﴿ **فلا يصدنك عنها من لا يومن بها واتبع هواه فتردى** ﴾

إنهم ينكرون الساعـة ويحاولون صد الناس عنهـا وتشكيكهم في قيامها أو على الأقل إنساءهم إيـاها وإغفـالهم عنها حتى يصفو لهم الجو لاتبـاع الأهواء وركوب الشهوات فلا ناهي ولا نكير، حذّر الله عبده موسى من شر هؤلاء الذين يحاولون تضليل النـاس بنهي مؤكد بالنـون الثقيلة لأهمية الأمر وخطـر العاقبة، إن العـاقبة وخيمـة، إنها الـردى المحقق وليس ردى سـاعة أو نهار، بل هـو ردى الأبد في العـذاب الأليم، وهؤلاء المشككون في الساعـة المهونون لأمرهـا لا يخلو منهم زمـان ولا مكان، وإنهم في زمـانـنـا أكثر، وأمـرهم أخطـر لقد شـاع الإلحاد والكفـر وانتشرت فلفســات الـلادينيين في الأوسـاط، لم تسلـم منهـا الصحف والإذاعات ومـدارس التعليم والجامعات، فقـد فاضت بها الـدنيا وارتكبت كل

المآثم باسم الحرية والثقافة، وأنعكست قيم الأخلاق، وارتكست الضمائر وسميت المحرمات بغير أسمائها، فلا عاصم اليوم من فتنتهم إلا من رحم الله.

ولنرجع إلى قوله تعالى في أمر الساعة ﴿ **أكاد أخفيها** ﴾ ارتبك في معناها المفسرون فقال بعضهم أكاد أخفيها أي أكاد أظهرها، وبعض قال أخفيها بفتح همزة أخفى أي أظهر، وقال الآخرون وهو الحق فيما يبدو لي ﴿ **أكاد أخفيها**﴾ أي أخفيها فلا أذكرها وما فيها من الأهوال وما قبلها من الأشراط غير أني ذكرتها لكم وما فيها وما قبلها لتستعدوا لها، واستأثرت بعلم وقتها الذي تقوم فيه، فهذا لا يعلمه لا نبى مرسل ولا ملك مقرب فهى خفية بهذا المعنى وغير خفية بالمعنى الأول، فهذا ما يفيده لفظ «أكاد» قرب الوقوع، وعلى الجملة: فإن العبارة تفيد معناها الكامل الذي قصد به التخويف والإنذار وخفاء الوعد و إحاطة السر المطلق بوقوعه ﴿ **يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ـ الأعراف١٨٧﴾ ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام** ـ لقمان ٣٤﴾ الغموض المطلق لوقت الساعة والجهل المطلق بوقت وقوعها وكيفية ذلك بالتفصيل، والساعة ساعتان: الساعة العامة لفناء هذا العالم والساعة الخاصة التي هي نهاية حياة كل منا فلا أحد منا يعلم متى يموت، ولا بماذا ولا أين ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ـ لقمان٣٤﴾ فليستعد كل منا لهاتين الساعتين ولا يصده الصادون الذين لا يؤمنون بالساعة فأولئك أمرهم إلى بوار، وسيطلبون الرجعة ولا يجابون إليها ولات حين مناص.

كانت هذه الكلمات الأولى التي خاطب الله بها عبده موسى وهي أسس الإيمان والحكمة، ثم تأتي بعدها الكلمات التالية التي فيها دلائل النبوءة ومعجزاتها، وفيها التصريح بإرساله رسولا إلى فرعون لينذره وقومه إنهم كانوا

قوماً فاسقين.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

تلقى موسى عليه السلام نفحات ربه وتلقى الأوامر والنواهي من ربه واستمع لما يوحى إليه من كلام الله وهو خاضع واقف وقفة إجلال وخشوع ولا يزال الله تعالى يخاطبه، عرفه أولاً بربوبيته وألوهيته ثم أمره بعبادته والصلاة له وذكره، ثم أنذره بالساعة التي هي موعد جزاء كل نفس بما كسبت، وحذره من الذين يصدون عنها فإنهم هالكون، ومن استمع إليهم هلك وشقي معهم، كل هذا وموسى واقف يستمع الأوامر والنواهي وهو في غاية الهيبة والخضوع ثم إن الله تبارك وتعالى أراد أن يسكن من روعه، ويشعره بالأنس والقرب، فناداه باسمه، وفي هذا ما فيه من الأنس والقرب والارتياح . وكلنا يجد ذلك إذا كان النداء ممن نعظمه ونحترمه إذا نادانا بأسمائنا فإننا نشعر بالأنس، ويدل هذا على عطف المنادي ورضاه على الذي يناديه، لأنه في حالة الغضب لا يناديه باسمه بل لا يذكر اسمه أو يدعوه بأسماء كريهة مخزية، هذا معروف، كذلك نادى الله عبده موسى ودعاه باسمه وألقى إليه سؤالاً عن عصاه :

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾

كان موسى يمسك عصاه بيمناه لأنها اليد القـوية وهي سلاحه، فسأله ربه وهو عالم به وبعصاه ولكن المقصود من السؤال ما بعده وهو إظهار المعجزة التي هي كـامنة في هـذه العصـا، ولم يكن بيمينه غيرهـا فأجـاب موسى عن السـؤال جوابا مبسوطا مسهبا لشعوره بلذة مناجاة ربه فأراد أن يطيلها، أجاب :

﴿ قـــال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها عـلى غنمي ولـي فيها مآرب أخرى ﴾

قال هي عصـاي وذكر لـه من منافعهـا مـا خطر ببـاله حينئـذ وأول ذلك الإتكاء وذلك أن البدوي إذا وقف يحدث الآخر وطال الوقوف يتوكأ على عصاه، وإذا صعد مصعداً يتـوكأ على عصاه وإذا نزل فكذلك، والمنفعة الثـانية أنه يهش بها على غنمــه أي يضرب بها أغصــان الأشجــار ويخبطهـا فيسقط من ثمارهـــا وأوراقها ما تـرعاها غنمه، وكـانت عصاه معكوفة في طـرفها يجتذب بها الغصن المرتفع ليجتنى مـا فيه من الثمار أو يهزه فتسقط، ثم قـال ولي فيها مـآرب أخرى أي منـافع أخــرى مثل الـدفـاع والحمـل بها وعليهـا وربما يلقي عليهـا ثــوبـا للاستظلال، وقـد تنفع العصا لحاجات كثيرة ويختار البـدوى عصاه من أصلب الأغصان وأجـودها لأنها عونـه على قضاء مآربـه، وسلاحـه في دفع الصائل من الأناسي والسباع والهوام

﴿ قال ألقها يموسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾

قال له ربه ألقهـا فألقاها، سارع موسى إلى الامتثال فألقـى عصاه وما كان يخطر ببالـه أنها تنقلب حية بل كان يظن أنه يلقيهـا كما ألقى نَعْليه، وأن من تمام الأدب مع ربه وهو يحاوره أن يلقي عصــاه، فألقاها فإذا هي حية تسعى فخاف منها وولى مـدبرا ولم يعقب، فناداه ربه يـاموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، لا تخف إنه لا يخاف لديَّ المرسلون .

﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾

نداءات مـن الله جاءت بصيغ متنـوعة كلهـا تدل على لطف الله وحفـاوته بعبـده مـوسى، بعضهـا في هـذه السورة وبعضهـا في سـور أخـرى من القـرآن، نداءات تحمل البشرى لموسى إنه من الآمنين، وأي بشرى أعظم من هذه؛ إنه من الآمنين، ومن أمَّنَـه الله لا يخاف في الدنيـا ولا في الآخـرة، وبشرى أخرى أنـه من المرسلين وهـذه يفهمها ضمنيـا، إنه لا يخاف لـدّي المرسلون، فمـوسى إذن من المرسلين الـذين أمنهم الله وهو أول خبر مـن الله برسـالتـه، وهي بشارة عظيمـة لموسى وبشرى من الله أن هذه الحية لن تضره لأنها ستعود عصا بمجرد ما يمسها موسى، وإنما أراه الله منهـا هذه المعجزة العجيبة لمواقف ستستقبلـه، وسيريه الله منها ما يحب، والله على كل شيء قـدير، رجع موسى مقبلا على عصـاه بعد إدباره وهروبه منها، ومد يده إليها بعـد أن سمع نداء ربه وقلبه مطمئن فوقعت يده بين فكَيّ الحية، فما إن مستهـا يده حتى استحالت كما كـانت عصا هامـدة لا خطر فيها، عادت بإذن الله سيرتها الأولى فـازداد موسى يقينا بمعجزة ربـه، ثم خاطبه ربه بأمر آخر فيه المعجزة الثانية .

﴿ وأضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آيتنا الكبرى ﴾

بعد أن شاهد مـوسى معجزة العصا أمره الله أمراً ثانياً، وعـرفه في هذا الأمر بتأويله ليطمئن قلبه ولا يـرتاع، قال له وأضمم يـدك إلى جناحك أي أدخلها في جيبك واضممهـا إلى جناحك الأيسر تخرج بيضـاء بياض نـور لا بياض سـوء، والناس منـذ القدم يكـرهون بيـاض البرص، لذلك طمـأنه ربـه ببيان نـوع هذا البياض فامتثل مـوسى الأمر، وأدخل يده في جيبه وضمهـا إلى جناحه الأيسر ثم أخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ نورا، وهذا مـا يبغيه موسى ومن أجله جاء يطلب نورا يهديه في هذا الظلام الذي غشيه في البادية، شاهد موسى المعجزة الثانية من

يده اليمنى، واطمأن قلبه بها وازداد يقينا وقال له ربه :

﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾

أخبره ربه أن ما رأى ما هو إلا قطرة من بحر آيات ربه الكبرى، وكم لله من آيات غيرها، ولا يعلم إلا الله ما كان يغشى قلب موسى من تعظيم ربه وتوحيده والتسبيح والتقديس له حين شاهد هذه الآيات العجيبة، وما كان يغشاه من الأنس بربه، ومن السكينة لما انفتحت له هذه النافذة من أسرار الملكوت، ثم بعد الآيتين يأتي الأمر من الله لموسى بالذهاب إلى فرعون لتذكيره وقومه بربهم ودعوتهم إلى توحيده وعبادته، وفي هذا التصريح بأن الله اختار موسى ليكون رسولا من جملة المرسلين، واجتباه لتحمل هذه الأمانة العظمى .

﴿ اَذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾

كانت هذه الكلمة من الله فاتحة الرسالة لموسى عليه السلام بعد أن أراه الآيات الكبرى، النور من الشجرة، وانقلاب العصا حية، وبياض يده اليمنى، وأسمعه كلامه؛ كلفه بالذهاب إلى فرعون الذي طغى عن الحق وبغى على قومه واستعبد بني إسرائيل يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ونصب نفسه إلها من دون الله ، قال الله لموسى اذهب إلى فرعون إنه طغى، لقد فهم موسى المقصود من هذا الذهاب وهو دعوته إلى التوحيد والاستقامة على دين الله، وتصور ما سيعترضه في هذه الدعوة من المشاق فانتهز هذه الفرصة فدعا ربه، ولا شك أن الله هو الذي ألهمه إياه، دعا ربه الذي رأى منه الكرامات والألطاف، سأله أن يزوده بما يقوى به على هذه المهمة العظمى، وقد ألف من قبل أن يدعو ربه لكل جليل وحقير من أموره، فقد سأله النجاة من القوم الظالمين عند خروجه من مصر، وسأله أن يهديه سواء السبيل، وسأله الطعام حين ألم به الجوع، فاستجاب الله لكل دعواته فلم لا يسأله وهو مقبل على

مهمته العظمى أن ييسر له أمره، ويعينه عليه، وهو الذي أرسله وكلفه بالمهمة.

﴿ قـال رب اشرح لي صـدري ويسر لي أمـري واحلل عقـدة من لسـاني يفقهـوا قـولي واجعل لي وزيـرا من أهلي هـارون أخـي اشـدد بـه أزري وأشركـه في أمـري كي نسبحك كثيرا ونـذكـرك كثيرا إنك كنـت بنـا بصيرا ﴾

بدأ في دعائه بشرح الصدر وهو الأصل لجميع حـركاته في هذه المهمة فإن الله إذا شرح صدره، ووطأ قلبه لتكاليف الـرسالة فهو لا شك سيتغلب على كل عقبـاتها، وسيقبل عليهـا هادىء النفس، مطمئن الضمير، وقـد علم مـوسى أن صدره وقلبه بيـد الله فهو وحده القادر على أن يشرح صدره لهذا الأمـر الذي هو في غاية الدقة والمشقة والصعوبة، ولذلك زاد فقال :

﴿ ويسر لي أمري ﴾

سأل ربـه أن يجعل أمـره يسيرا وهـو وحـده يعلم كيف ييسره ويقـدر على ذلك، وقد فعل فيسر لـه كل أموره، وجعل له معجـزته في عصاه، ورد عنـه كيد عدوه فـرعون وطغيـانه فلم يضره، إلا أذى ينـال عليه الأجر الجزيـل عند الله ثم قال في دعائه :

﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾

سأل الله أن يحل عقـدة من لسانـه حتى يقوى على حسن التعبير فيفهمـوا قـوله ويفقهـوه، ذلك أن لسـان موسى كـانت بـه حُبْسة، قـال بعض المفسرين كانت لثغـة طبيعية كما يحدث لكثير من الناس لا ينطقـون ببعض الحروف نطقا سليما، وقال آخـرون وهـم الجمهور إن عقدة لسانـه كان لها سبب، وذلك لحادث وقع لـه في صباه، إذ من المعلـوم أن موسى تـربى في حجر فـرعون، أرضعتـه أمه صغيرا و بعد فطامه ردتـه إلى فرعون فكان يربيه ويلاطفـه ولم يكن له ولد فاتخذه

ولدا، وفي يوم من الأيام كان موسى يلعب في حجر فرعون وكان في يده عود فمد يده إلى لحيتـه فاجتذبها وضربه بـذلك العود على رأسه، فغضب فرعـون وتشاءم من ضربته وأول هـذه الضربة بزوال ملكه على يـديه فأمر السيـاف بقتله، ولكن آسية عليهـا السلام إمـرأة فرعون تلطفت لفـرعون، ورغبت إليـه أن يستبقيه ولا يقتله واعتذرت لـه أنه ولد صغير، لا يعرف النفع من الضر، وقـالت له لتختبره بما يظهر صحـة ما أقـول، فأمر فرعـون أن يوضع جمر في طست وجـواهر في طست آخر ويوضع بين يديه لينظر أيهما يأخـذ، ففعلوا ووضع الطستان بين يدي موسى فمـد يده إلى الجواهـر، ولكن ملكاً سـدد يده بأمـر من الله إلى الجمر فأخـذ جمرة فألقاها في فمه فاحترق بعض لسانه فـأحدث الحرق فيه لثغة فتعقد نطقه ولذلك قال فرعون بعد ذلك وهو يهون أمر موسى بعد الرسالة :

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾

إشارة إلى هذا الاحتباس الذي كان في لسانـه قبل أن يزول، أما بعد الرسالة وبعد أن استجـاب الله لموسى فقد حلت العقدة، سأل موسى ربـه أن يحل عقدة من لسانـه ليفصح كلامه فيفهمـوه ويفقهوا قوله لأن الكـلام الفصيح أقرب إلى الفهم والفقه والقبول، ثم زاد موسى في دعائه فقال:

﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشـدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا ﴾

طلب مـوسى وزيرا مقـويـا له ومعينـا لـه في أمره هـذا الخطير، وطلب أن يكون أخاه هارون وسأل الله أن يشركه في أمـره حتى يتعاونا معا على تحمل أعباء الرسالـة، ويقبلا على العبادة على تسبيحه وذكره كثيرا، وقـد علم موسى بما علمه الله أن تسبيح الله وذكره من أعظـم أفعال العبادة وأحظـاها عنـد الله تعالى، وأنهما خير معين لهما على الأمر الـذي يقبلان عليـه من دعوة النـاس إلى الله، فبالتسبيح والذكر يظفران بعـون الله وتسديده وحفظه ﴿ **فأذكروني أذكـركم وأشكروا لي**

ولا تكفرون ـ البقرة ١٥٢﴾تلك هي عدة وهى أقوى من كـل عدة ومن كان مع الله وكان الله معـه لا يخيب ولـذلك قال حين كـاد أن يدركـه العدو: ﴿ **كلا إن معي ربي سيهدين** ـ الشعراء ٦٢ ﴾ .

﴿إنك كنت بنا بصيرا ﴾

ختم موسـى دعاءه بالثنـاء على ربه وهـذا من أدب الدعـاء وأثنى عليه بما هو أهلـه، وبما يناسب المقـام قال يـارب إنك كنت ولا تزال بصيرا بنـا وبأعمالنا وبنـواياانـا وبصيرا بأعدائنـا ومكـرهم لا تخفى عنك خافيـة، وعلى البصير الحي القيوم الواحد الأحد المقتدر يتوكل المتوكلون.

﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾

إستجـاب الله لموسى دعـاءه وآتـاه جميع سـؤله وصرح لـه بـذلك تطمينـا لخاطره، وناداه بـاسمه ايناسا له وإشعارا بقـربه من ربه وحظوته عنـده، فلله ما أحلى هذه الكلمـة، وكم تحتوي عليـه من الألطاف، ولقد كـان موسى مـوفقا في انتهاز هـذه الفرصة للـدعاء في هذا المقام المبـارك مقام المناجـاة ولحظة التجلي، سأل موسى ثمانية أشياء فأسعفه ربه بها كلها، سأل ربه أولا شرح صدره :

﴿ قال رب آشرح لي صدري ﴾

والشرح في اللغة هو التـوسيع وإذا ذكر في القرآن فهو نور يقـذفه الله تعالى في قلب من يريد هدايته ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ـ الانعام ١٢٥ ﴾ ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ـ سورة الزمر ٢٢﴾ وضد الشرح الضيق وقساوة القلب وإظلامـه وشتان ما بين الضدين، فالـذي شرح الله صدره يعبد الله على الـرضا واليقين ويتلقى أوامر الله وأحكـامه ولا يجد في نفسـه حرجـا منهـا ويسلّم تسليما ويـرضى بقضاء الله ويصبر لبـلائه ويشكـر لنعمائه ويحمـد الله على كل حـال، وهـو الفـرق بين المؤمن والمنـافق

ومريض القلب، فمن وجد صدره منشرحـا للإسلام فليحمد الله على ذلك، ومن وجد صـدره ضيقا حرجا فليطلب العـلاج، ولا ييأس من نفسه إذ ربما يقف على سبب ذلك فيتقيه، ويطلب الـدواء فيشفيه الله فيصلح حالـه، وشرح الصدر من أعظم نعم الله على عبـاده الذين اصطفى، ولقـد امتن الله تبـارك وتعالى على نبيـه الكريم فيما أنزل عليه .

﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ـ الإنشراح: ١ ﴾

وامتن على عباده المؤمنين بمضمون الشرح فقال ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلـوبكم وكره إليكم الكفـر والفسوق والعصيـان أولئك هم الـراشـدون** ـ الحجـرات ٧ ﴾ وهـذا معنى آخر واضـح من معاني شرح الصـدور للإسـلام وقد سئل رسـول الله ﷺ عن معنى الشرح، قالـوا يارسـول الله ما شرح الصدر؟ فقـال نور يقـذف في القلب، ثم سألوه عـن أمارة ذلك فقـال:« التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

ولا نجد تفسيرا لكـلام الله أحسن من تفسير رسول الله ﷺ أمـارات ثلاث بيَّنهـا النبي ﷺ وجعلها عـلامة على شرح الصـدر، ولها في واقع النـاس مظاهـر وآثار، منهـا قوله تعالى في الإنفـاق في وجوه البر ﴿**ومن الاعراب من يتخـذ ما ينفق مغـرما ويتربص بكم الـدوائر عليهم دائرة السـوء والله سميع عليم** ـ التوبة ٩٩ ﴾ ﴿ **ومن الاعراب من يومن بالله واليوم الآخر ويتخـذ ما ينفق قـربـات عنـد الله وصلوات الرسـول ألا إنها قـربـة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم** ـ التوبة ١٠٠ ﴾ بين الله تعالى في هذه الآيات حقيقة الفريقين، الفريق الـذي شرح الله صدره للإسلام فهو ينفق راضيا راغبـا بإنفاقه القربة عنـد الله، والفريق الذي لم يشرح الله صدره فهو ينفق عن كـره ويتخذ ما ينفق مغـرما، والمغـرم ما يأخـذه جبابـرة الملوك على الـرعايـا ظلما، فهم ينفقونـه مكرهين ويتربصون دوائر السـوء للانتقاض ،ولذلك مـا إن مات رسول الله ﷺ

حتى منعوا الـزكاة وحاربوا جيـوش المسلمين الذين دعوهم إلى حقيقـة الإسلام فلم يستجيبوا، تلك هي الصدور الضيقة الحرجة التـي لم يشرحها الله للإسلام، وهـذا أمر الله ، ونحن ليست لنـا قوة على صنـع قلوبنـا كما نريـد، فنسأل الله أن يشرح صدورنـا للإسلام ويغلبنـا على النفوس والأهـواء وندعوه كما دعـاه عبده موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

ثم إن مـوسى عليـه السـلام سأل المطلب الثـاني وهـو تيسير الأمـر فقـال ﴿ويسر لي أمري﴾ لقد كلف مـوسى أمرا شاقـا وطويلا لا يقـوى على تحمله والقيام بـه إلا من أعانه الله، ولـذلك طلب من الله التيسير، طلب من الله أن يهون عليه الصعب ويـذلله لـه، وهو وحـده القادر على ذلك فـلا يسير إلا ما يسر الله تعالى، قـال صاحب شرح العقيـدة « فجاءت نملة فـاحتزمت وقـالت باسم الله فحملت العـرش بإذن الله » وكثيرا ما نغفل في أمـورنـا عن ذكر الله ونعتمـد على قواتنا ومعرفتنا وأدواتنا وننسى ذكـر الله ولا نطلب منه التيسير، وما كان ينبغي لنا أن نغفل عن ذكر ربنـا فهذا الـدعاء من موسى عليـه السلام وإيـراده في القرآن تنبيه وارشـاد أن نتوكل على الله في جميع أمـورنا بعد أن نأخـذ بالأسبـاب، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، ثم نطلـب منه التيسير، وكثيرا ما يرزقنا الله بغير سبب والله يـرزق من يشاء بغير حسـاب، سأل موسى من ربـه التيسير كي يتمكن من القيام به على أحسن وجه ثم سأله السؤال الثالث والرابع.

﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾

سأل مـوسى ربـه أن يحل عقـدة من لسـانـه وقد تقـدم ذكـر سبب هـذه العقدة، وقـد أدرك موسى أن الكلام الفصيح له تأثيره في السـامعين لذلك طلب حل عقدة لسـانه حتى يفقهـوا قولـه، وَفقْه النـاس قولـه هو نفسـه مطلب آخر يتوجه بـه موسى إلى ربه بذكره هنا لأن القلـوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولأنـه قد يكـون الكلام فصيحـا مفهـوما لا لبس فيـه، ولكنه لا يقبل ولا يفقـه،

والفَقْـه، شيء أعمق من الفَهْم والفاقِـه أبلغ في الأمـر من الفاهـم، ثم إن مـوسى طلب المطلب الخامس والسادس والسابع والثامن فقال.

﴿ وأجعل لي وزيـرا من أهلي هـارون أخـي اشـدد بـه أزري وأشركـه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا ﴾

سأل مـوسى ربه أن يجعل لـه وزيرا يعينـه في أموره إذا أحسن وينهنهـه إذا أستشـاط به الغضـب، لأن موسى كـان سريع الغضب عصبي المزاج، وهـارون كان أسنّ من أخيه مـوسى وكان ذا رزانة وحلـم، ولابد لمثل هـذا الأمر من غضبة مـوسى وحلم هـارون، والملوك إنما تصلح بصـلاح وزرائهـا وبطـاناتها، فتجـد الوزيـر الصالح لا يجاري الملك في هواه إذا هـوى، ولا في غضبه إذا غضب، إنما يـذكـره ويبصره بعواقـب الأمور، ويكفكف من غـربـه إذا غضب، ويعينـه على الإحسان إذا أحسن، فتستقيم أموره وتصلح رعيته، كـذلك طلب موسى من ربه وزيرا يكون من أهله لأنه يكون أخلص في المودة والنصح، وطلب أن يكون هذا الوزيـر أخاه الشقيق هـارون لما علـم فيه من الإيمان والإستقـامة والـرزانة والحلـم وفصاحـة اللسان، طلب من الله أن يشـد به أزره، ويشركه في أمـره أي يحمله الله من هذا الأمر مثـل ما حمله، وتلك هي الشركة فحينئذ يشـد أزره وشد الأزر هو تقوية الظهر، والمقصود شد قوتـه على تحمل الأمر، فهو يعينه ويشير عليه ويقوي جانبه ويهدىء أعصـابه إذا غضب، ويتحمل معه أذى فرعون وقـومه ويخلفه في قومه إذا غاب .

﴿ كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا ﴾

يقول مـوسى لربـه بعد أن سألـه هذه الأمور كـي نسبحك كثيرا .. الآية، لأن موسى قد علم بما علّمه الله أن ذكر الله والتسبيح بحمـده هو غاية الغايات، وما المقصـود من اختياره وبعثه إلى فرعـون وقومه وبني إسرائيل إلا دعـوة الناس

إلى توحيد ربهم بالعبادة، وذكـره وتسبيحه، وخير الأعمال أن لا يزال لسانك رطبا بـذكر الله، وذكـر الله يكـون بـالقلب، وما اللسـان إلا آلـة للتعبير عما في القلب وبكليهما ينال الذاكر الأجر عند ربه والله يحب الذاكرين ويجزي الشاكرين .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

استجاب الله لموسى كـل دعواته وبشره في الحين قبل أن ينطلـق إلى وجهته تطمينا لخاطره وأكرامـا له، ثم خاطبه بخطاب آخر يلفتـه فيه إلى ما منَّ عليه من قبل، منذ ولادته وصباه حتى يزداد اطمئنانـا إلى حفاوة ربه به وإكرامه إياه وذلك لعنايته به واجتبائه لتلقي وحيه وتبليغ رسالته.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ
وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

امتدت منـاجاة الله لعبده مـوسى بهذه العبارات التي حملت أنبـاء موسى منذ ولادتـه والتي ظهرت فيهـا كرامات من الله لموسى وامتحـان له وبـلاء، وكان ذلك كله إعـداداً لموسى لتحمل الرسالـة العظيمة، وتربية لبـدنه ثم تربيـة لقلبه ونفسه وتهيئة لها لتكون على مستوى المسؤولية المعدة لها، قال الله لموسى:

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾

ولقد أنعمنـا عليك مرة أخـرى أي مننا عليك بنعم لم تسألها أنت وكـانت قبل أن تعـرف السـؤال وذلك قبل ولادتك وأنت جنين في بطن أمك، إذ أوحينـا إلى أمك ما يوحى أوحى الله تبارك وتعـالى إلى أم موسى، هو وحي ولم تكن نبوءة،

وليس في النسـاء نبيـات، إنما هـو إلهام وإعـلام من الله والله أعلم بكيفيـة هـذا الوحي، والـذي نعلمه أنـه وحي تلقته أم مـوسى وفهمته واطمأنت إلى صـدقه، وأنه من الله ثم قامت بتنفيذه، وقوله تعالى .

﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾

جاء إبهام المُوحي للوحي من قبل البيان، وفي التعبير ما فيه من الروعة وفيه إشعار للسـامع بأن مضمون هذا الـوحى أمر عجيب ومعجز وحكيم وفي غـاية الأهمية، ونظيره قـد تقدم عند قولـه تعالى ﴿ **فاستمع لما يـوحى** ﴾ فلله ما أبلغ وأحكم كلام الله ، وقد تكون أم موسى قصت على مـوسى تاريخ ولادته وتربيته، ولكن سماعـه من ربـه الذي أوحـى إلى أمه، أعلى وأعظم وأشـد تأثيرا في نفسـه، وحلاوة المناجـاة تضفي على موسى أنساً وانشراحـاً في صدره وسرا يجده في قلبه، فما هو تفصيل هذا الوحي الإلهي؟

﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ﴾

كـانت هـذه الكلمات التي أوحى الله بها إلى أم مـوسى ووعتهـا ﴿**أن اقـذفيه في التابوت فـاقذفيـه في اليم** ﴾ أمرهـا الله أن تقذف ابنها في التـابوت وتقذفه في اليم، واليم هو معظم ماء البحـر وهو بحر النيل، وفي التعبير بالقذف إيحاء بديع لمعنى عجيب، أمرهـا أن تقذف الولد لا أن تضعـه بلطف إشعارا منه أنـه في عنايـة الله ولطفه وحفظـه، فهو بمجـرد ما يفـارق يديها يقع في يـد الله فما عليها إلا أن تقذف الوليد فإذا هو بيد الله تتلقفـه وتتولى أمره كله، وقد كان في يد الله قبل أن تقذفه في التابوت، فهمت أم موسـى أمر الله وقامت تعدّ التابوت قبل ولادتها فـذهبت إلى (حزقيل النجـار) الذي علـم الله أنه سيكـون الرجل الـذي يـؤمن بموسى ويكتم إيمانـه فصنع لها تـابوتـا محكما لا يتسرب اليـه ماء البحـر،

وأعدته له وفرشته ومهدت للولد تمهيدا واحتاطت لأمرها ، وكانت الأيام عصيبة حالكـة، كانت القـوابل وحراس فـرعون الطاغيـة يطوفـون على الحوامل اللاتي اقترب وضعهن، وكانوا يـذبحون الوليد الذكر ويستبقون الانثى للخدمة، وهذا بـلاء من الله عظيم لبنى إسرائيل، وفي ظل عنـايـة الله وحفظه ولـدت أم مـوسى ابنهـا، ولم يشعـر بها أحـد من عيـون فرعـون فأرضعتـه ووضعتـه في التـابـوت، ووضعت التـابوت في بحـر النيل، وقيل كانت ربطت التـابوت بخيط إلى بيتهـا فلما أراد الله تنفيذ أمـره تقطع الخيط فذهبت أم موسى إلى رضيعهـا كعادتها فلم تجد التابوت، فقد ساقه اليم بأمر الله إلى حيث يريد الله .

﴿فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ﴾

ساقه مـوج البحر وتياره المندفع إلى الساحل إلى حيث فـرعون جالس على ساحل فرآه فأمر الخدم أن يـرفعوه إليه ففتحه فوجد فيـه غلاما بهي الطلعة جميل الوجه، وأراد الله أن يأخذه فرعون عـدو لله وعدو للوليد، فهو عدو لله لأنه مشرك نصَّب نفسه إلها يعبد من دون الله، وله آلهة يعبـدها من دون الله، وهو أيضا عدو للوليد لأنه هـو الذي يكون خراب ملكه على يديـه، وهو الذي يقتل المواليد من أجله، ولو علم أنه هو هذا لقتلـه، ولكن مكر الله شديد، فقد شاء الله أن يحتضن هذا الوليد الذي هو عدو له، وألقى الله محبته في قلبه ولم يشعر أنه هو سبب موته وزوال ملكه، وكان يمكن أن يكون سبب سعادته لو كان يسمع أو يعقل.

﴿وألقيت عليك محبة مني ﴾

ألقى الله على مـوسى محبـة منـه على كل من رآه يحبـه فقـد أحبـه فـرعـون الطاغية الـذي يقتل مواليد بني إسرائيل من أجله، ولكن المحبـة التي ألقاها الله في قلبـه فلَّت كل سلاح، وأغنت عن كل دفـاع، فهي جند من جنـود الله **﴿وما يعلم جنـود ربك إلا هـو** ـ المدثر ٣١﴾ وكـذلك أحبته أمـرأة فـرعون فقـالـت لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخـذه ولدا، وأحبه كل من رآه، فالتمسـوا له المراضع

فتبارت النســاء في إرضاعه ولكنــه لا يقبل منهن ثديا لأن الله حــرم عليه المراضع إلا ثدي أمه ليرجع إليها كما وعدها الله، ولابد أن يتحقق وعد الله .

﴿ ولتصنع على عيني ﴾

ولتصنع على حفظي وعنـايتي، أراد الله أن يتربي مــوسى وينشأ النشأة التي يحبهـا الله لمثلــه حتى يشب على الهيئــة التي يستطيع بها أن يتلقى رســالــة الله، ويبلغها أحسن تبليغ، كل ذلك والله يمتـن على عبده موسى بما يمتن ليـزداد حبا لربه وثقـة به وما أوجزهـا وأبلغها عبارة **﴿ولتصنع على عيني ﴾** عبارة تفيض بالعنايـة والحفظ والتكريم في كل حركـة يتحركها هذا المولود الكـريم على ربه، فليقع بعد ذلك في يد عدو أوصديق أو قريـب أو بعيد.

﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾

ذلك أنه لما ذهب التابوت في البحر أصبح فـؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بوعد الله، وقد وعدها أنه سيرجع إليها، فأرسلت أختــه تقص أثره وتتحسس خبره، فـذهبت أخت موسى تتحسس في لطف ولا تشعـر أحـدا بما في نفسهـا وهـو مـا تـدل عليـه الكلمـة **﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون** ـ القصص ١١ ﴾ لقد كـانت أخت مـوسى شاهـدة حيث امتنع الصبي عن امتصـاص أي ثدي من مئـات المراضع اللاتي أقبلن عليـه بشغف، وقد ألقى الله عليـه محبة منه في قلـوبهن، وكل واحدة حريصـة أن يقبل منها لتفـوز بحباء الملك وهـداياه، امتنع الصبـي لأن الله حرم عليه المراضع، والتحريم هنا قدري لا شرعي، فلما أعيـاهم أمره وخافوا عليه من الهلاك عـرضت عليهم أختـه الأمـر وهو أن امـرأة في بيتهـا لها لبن في ثـديها فإن شئتم رفعت إليها الصبي لعلـه يقبل منها فتكفله لكم وهي ناصحـة في إرضاعه وحضانتـه لا تألو في ذلك جهدا، فـوافقوا على ذلك فذهبت بـه، فما أن عرضت

عليه ثديها حتى التقمه وامتص لبنه فتحقق وعـد الله وقرت عين أمه برجوع ابنها إليها وازدادت إيمانا بوعد الله .

﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾

ولبثت عامين كاملين ترضع ابنها وتأخـذ على إرضاعه وحضانته أجرا، فلما استـوفى رضـاعه، ردتـه إلى بيت فـرعـون، حيث استقبلت بالهدايـا والصـلات الوافرة، وتربى موسى وترعـرع في قصر فرعون معززاً مكرما، والقدر يضحك على فرعون الذي ظل يربي عدوه في حجره وينفق عليه، هذا الذي قتلت الآلاف من أجله، تربيه في بيتك، ويتقلب في حجرك وحجر امرأتك مطمئنا مدللاً فسبحان من إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، ثم قال تعالى:

﴿وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ﴾

ذلك أن رجلين اقتتلا، أحـدهما قبطي والآخر من بنى إسرائيل فـاستغاث الأخير بموسى على عـدوه فوكزه مـوسى فقضى عليه وما كـان يريد قتلـه فاغتم موسى غما شـديداً لما يلحقه من الإثم بقتل النفس ولما سيلحقه من العقـوبة من فـرعون فنجـاه الله من الغم الأول بأن غفر لـه ذنبـه ومن الغم الثاني بأن يسر لـه سبيل الهجرة والفرار قبل أن يلقى عليه القبض فنجا من القوم الظالمين .

﴿وفتنّـاك فتونـا ﴾

قال الله تعـالى لموسى وفتناك وابتليناك وامتحنـاك امتحانا، وأي فتنـة هذه؟ ذلك أنه خرج من وطنـه فريدا طريداً فـاراً بنفسه تاركا أبويه وذويـه لا يدرى ما يستقبلـه من محن وأتعاب، وهـذا الخروج تحول كبير في حياة هـذا الشاب الـذي تـربى في النعيم في قصر ملك، ثم انتقل من القصر إلى الباديـة ثم إلى رعي الغنم سنوات وسنوات طويلة، وشتان ما بين الحيـاتين، إنه هو الفتون حقا وأراد الله به ذلك ليتكـون نفسيا وبـدنيـا وخلقيـا فلابـد لـه من رعي الغنم قبل رعي البشر

ليتعلم من رعي البهم كيف يـرعى ويسـوس الناس من قـومـه، ويظل حريصـا عليهم رؤوفـا بهم يرعى ضعفـاءهم ويلاطف أقـوياءهم ويـربيهم ويصبر على اذاهم ويعُرض عن سفهائهم، وما من نبي يبعثـه الله إلا ويكون قبل بعثته راعيا، كذلك كـان نبينا محمد ﷺ يـرعى غنما بمكة على قـراريط يقتات بها، ويعين بها كافلـه أبا طالب عمه وكـان كثير العيال، كذلك تعرض مـوسى لفتون الله وأراد الله به ذلك لتكمل صنـاعته على عين الله حتى ينشأ نشأة قويـة تؤهله لمسـؤوليته الضخمة.

﴿ فلبثت سنين في أهـل مـدين ثم جئت على قـدرٍ يـا مـوسى واصطنعتك لنفسي ﴾

فلبثت سنين في أهل مـدين، قيل إن مـوسـى فـر من مصر وهـو ابن اثنتي عشرة سنة ولبث في مـدين ثمان وعشرين سنة ثم عـاد إلى وطنه على رأس أربعين سنـة ليتلقى رسالـة الله وهو السن الـذي ينبأ فيه الأنبيـاء، وكل هذا ومـوسى لا يدرى ما يراد به ولا ما يراد لـه، ثم بعد هذه المدة جاء إلى جانب الطور على قدر من الله قدر زمانـه ومكانه، وما كان مجيئـه إلا تيسيرا من الله ليبلغ مكان الموعد في الوقت المحدد.

﴿ ثم جئت على قدرٍ يا موسى واصطنعتك لنفسي ﴾

وهنـا خاطبـه الله بـذكر اسمـه للمـرة الخامسـة في هذا الموقف في الـوادي المقـدس، كل ذلك ايناسا لموسى ولا يعلم إلا الله مـا يـداخل قلب مـوسى من الأنس بـربه حين يسمع النـداء بـاسمـه، وهنا يبلغ الأنس والشرف ذروتـه حين يسمع كلام الحق جل جلاله.

﴿واصطنعتك لنفسي ﴾

أي تخصيص وأي إكرام وأي تقريب تحمله هـذه العبارة؟ وأي موقع يكون

لها في قلب هذا العبد الـذي يناجيه مولاه ويبوح له أنـه اصطنعه لنفسه؟، كلمة تحمل التقريب والتخصيص والاصطفـائية، إنه مقام كـريم ومنزلة مباركـة ينزلها مـوسى من ربـه وهـو خير المنزلين. يقـول لـه ربـه: ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ لنفسي خـاصة لا لنفسك ولا لأهلك ولا لأحـد آخـر لا حظ لغيرى فيك فلتكن في خــدمتي وطـاعتي وتبليـغ رسـالتي وأنــا أعصمك من النــاس وأجعل لك ولأخيك سلطانا فلا يصل إليك أعدائي بسوء .

﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾

ومن كـان صنيعة الله فـلا يخيب ولا يخزى ولا يقهر ولا يغلب، فما عليـه إلا أن يتلقى أمر الله ويسعى في تبليغه والله معه وناصره.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾
قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا
بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

بعـد أن طمأن الله عبـده مـوسى بتعـداد نعمه عليـه، وتـذكيره بها وآنسـه

باصطناعه لنفسه، أمره أن يذهب إلى فرعون بصحبة أخيه.

﴿ **اذهب أنت وأخـوك بـآياتي** ﴾ اذهب أنت وأخـوك هارون مـزودين بـآيـاتي، الآيـات التي أراه الله إيـاهـا والتى سيريهما هـو وأخـاه وبني إسرائيل وفرعون وقومه، وفي قوله تعالى ﴿ **اذهب أنت وأخوك** ﴾إيذان من الله تعالى أن الله قد استجـاب له وأعطاه سُؤْلـه، وقد أوحى لأخيه هارون وأشركـه في أمره والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن قال تعالى ﴿ **ولا تنيا في ذكري** ﴾ أي ولا تفترا عن ذكري، لأن ذكـر الله هو النور وهـو العون لهما على جميع أمورهما، وهـو سلاحهما ودرعهما الـذي يقيهما كيـد إبليس ومـن دون إبليس من شيـاطين الجن والإنس، وهذا إرشاد من الله لنا أن نستعين في أمورنا كلهـا بذكر الله تبارك وتعالى، وكذلك جاء في القـرآن الكريم ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا إذا لقيتم فئة فـاثبتوا واذكـروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ـ الأنفال ٤٥ ﴾ .

﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾

وجه الله الأمر إليهما بالذهاب بصيغـة التثنية لان المأمورين موسى وهارون، وقد يكون الله أمر هـارون كما أمر موسى، وقد يكون الأمر فى منـاسبة أخرى بعد هذا الموقف، وجاء التصريح هنـا بفرعون ووصف بالطغيـان لأنه المقصود الأول بالـذهاب فهـو رئيس القوم المعبـود المتبع الذي طغى واستعبـد الناس وجعلهم شيعا، يستضعف طائفة منهم يذبح أبنـاءهم ويستحيي نساءهم، وهو الطغيان البيّن فأراد الله أن يقيم عليـه الحجة قبل أن ينتقم منـه، وقد علم الله أنـه لا تنفعه الذكرى وأمر عبده موسى وأخاه هارون أن يقولا له قولا لينا فقال:

﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾

ومن رحمة الله تعالى أن يختـار رسله ويجعلهم على أخلاق حسنـة ثم يأمرهـم بإلانـة القول للـذين يـدعونهم وكـذلك أمر عبـده ونبيـه موسى أن يلين القـول

لفرعـون الطاغيـة، وفي الأمر إشارة إلى حق فـرعون على مـوسى لأنه الـذي رباه وأحسن إليه زمنا طويلا، وفي قوله تعالى :

﴿لعله يتذكر أو يخشى ﴾

حثٌّ لموسى أن يجتهد في تبليغ الـدعوة بأسلوب حكيم فيـه رفق ولين رغبةً في إيمان فرعـون لعله يـرجع إلى الفطرة ويتذكـر الحق ويخشى عذاب الله وعـاقبة الكفر والطغيان .

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾

جاء القول هنا بالتثنية ولم يكن هـارون مع موسى، فقد يكون هذا القول في مناسبـة أخرى وهما مجتمعـان وقد يكون قـول هارون مـوافقا لقـول موسى حين أوحى الله إليه هو الآخـر، فنسب القول إليهما جميعا، قال موسى وهـارون: يا ربنا **﴿إننا نخاف أن يفرط علينا﴾**، أي يعجل علينـا في العقوبة ويطغـى علينا طغيانا يقطع علينا طريق الدعوة .

﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾

قال الله لهما لا تخافـا وتوكلا علي واعتصما بي إنني معكما، ستجـداني عندكما ومعكما أسمع وأرى، ونـاصيـة الأمـور كلهـا بيـدى، ثم لا يقع في ملكي إلا مـا أريد، ومن كان الله معه فهو الغالب المنتصر، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

﴿ فاتياه فقـولا إنا رسولا ربك فأرسل معنـا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾

بعـد أن طمأن الله مـوسى وهـارون بمعيته وسمعـه وبصره لقن لهما القـول الذي يقولانه لفرعون والمطالب التي يقـدمانها له، أمرهما أن يأتياه ويقولا له: إنا رسولا ربك الذي هو الله لا إله إلا هو أرسلَنا بالحق وأيَّدنا بالآيات البينات.

﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾

أطلِق سراح بنى اسرائيل وأرسلهم معنـا ولا تعـذبهم بـاستخـدامهم وقتل أبنائهم.

﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾

قد جئنـاك بالحق مـؤيَّدين بـآية من ربك رب السمـوات والأرض، والآية هي العصا واليد .

﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾

والسـلام وهو الأمن والعـافية وحسن العـاقبـة وحفظ الله وعنايتـه على من اتبع هداه وآمن برسله وصدق بكلماته.

﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

إن الله قد أوحى إلينا فيما أوحى أن عـذابه يحق على من كذب بآيـاته وتولى ولم يؤمن وأعرض عن ذكـره واتخذ آيات الله هزؤا . هذا مـا كان من أمر الله لموسى وهارون، فـاستمَعَا لأمـر الله وذهَبَا إلى فرعـون وبلَّغا له مـا أُمِرا بـه من القول في حكمة ومـوعظة حسنـة وقول لين، فماذا كان جـواب فرعـون لهما بعد هـذا؟ لقد أنكـر أن يكــون الله ربـه، واستنكف واستكبر فـرد عليهما السـؤال في كبريـاء وجحود.

﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾

قال: فمـن ربكما يا موسى؟ فكـأن الله رب موسى وهارون وحـدهما،وليس ربًّا لفـرعون وقـومه ورب العالمين ،تجاهل فـرعون أمـر ربه وسأل مـوسى سؤال تعنت وعناد، ونادى موسى باسمه كالمحتقـر الذي لا يعترف بنبوءته ولا برسالته هو وأخيـه هارون، وأفرد مـوسى بالتصريح بـاسمه لأنه يعلم أنـه هو الأصل في

القضية وهو القائم بأمر الدعوة والتبليغ والمحاور لفرعون .

﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾

ألهم الله موسى فأجاب فرعون بجواب سديد مقنع، فعرّف ربه تعريفا بينا بوصفين يعجز عنهما فرعون وغير فرعون، عرّف ربه بالخلق والهداية وهما وصفان خاصان بالله تبارك وتعالى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ربنا الذي خلق كل شيء على هيئة خاصة سواها تسوية، ثم هدى كل مخلوق إلى القيام بمهمته التي خلقه الله من أجلها أحسن قيام، وفي هذا باب واسع من العلم لمن أراد أن يطلع على حكمة الله ورحمته بمخلوقاته، ما من شيء خلقه الله إلا ومكنه بما مكنه به من الإلهام الذي يؤدي به وظيفته التي خلق من أجلها، وألهم الحيوانات أن تبني بيوتها وأوكارها وأعشاشها، وأن تربي صغارها وأن تجمع أقواتها، وسلحها بالأسلحة التي تدافع بها عن نفسها، والآية أعم من الحيوانات دقيقها وجليلها بل تعم كل ذرة وكل مخلوق في الأكوان علويها وسفليها مما نبصر وما لانبصر وتنطبق أيضا على جوارحنا وأعصابنا وعروقنا، كل مخلوق على الهيئة التي تصلح به، وألهمه أن يؤدي وظيفته أداء دائبا مستمرا إلى أجله المضروب، وجاءت «ثم» هنا لا للمهلة فليس ثمة مهلة بين خلق الأشياء وهدايتها وإنما هي لإلفاتنا إلى حكمة الهداية، بعد الخلق ورحمة الله بخلقه واتقانه لصنعه، فكم يمكننا أن نحصي مخلوقات الله في هذا الكون الواسع؟ ومن ذا الذي يحصي وظائف المخلوقات كلها **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ـ الإسراء ٨٥ **﴾** وفي غير موضع من القرآن الكريم نجد الخلق مقرونا بالهداية، هنا في محاورة موسى لفرعون، وفي محاورة إبراهيم عليه السلام لقومه **﴿الذى خلقني فهو يهدين** ـ الشعراء ٧٨ **﴾** وفي سورة **﴿سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذى قدّر فهدى** ـ سورة الاعلى ٣ **﴾**، وهذا النمط من الهداية نجده في سورة النحل **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال**

بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا ـ سورة النحل ٦٨ / ٦٩ ﴾ وكذلك ألهم الله النمل والجراد والطيور والحيتان والدواب وكل شيء خلقه الله ﴿**وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ـ الأنعام ٣٨﴾ وتتسع هذه الهداية لجميع المخلوقات حتى الذرات من الجماد والسحب والأمطار والنبات، كل يسير في خطة معينة مرسومة، والنجوم والكواكب تسبح في أفلاكها في نظام دقيق، وكان فرعون يستمع لموسى وهو يحاوره ولم يرد عليه لأنه يعلم في قرارة نفسه أن هذا الكلام حق وإنما ذهب في مرائه مذهبا آخر، فسأل عن القرون الماضية: أعلى هُدىً هي أم في ضلال؟

﴿ قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾

قال فرعون لموسى فما بال القرون الأولى، أي الأجيال الماضية، سأل هذا السؤال وكأنه تأثر بكلام موسى، وأحس في نفسه بنوع من التذكر، ومهما بلغ أحد من الطغيان فإنه لابد تمر به لحظات يتجلى نور الحق في ضميره، وتقوم به عليه الحجة، ولكن سرعان ما تطغى الشهوات والأهواء فينكص على رأسه ونعوذ بالله من غلبة الأهواء وطغيان الشهوات. ويقول بعض المفسرين إن فرعون سأل عن القرون الأولى مداورة منه ومناورة لينقل الحوار إلى موضوع آخر حتى لا يظهر عجزه لأن الحجة لزمته، وخشي أن يطلع الناس على عجزه، وقد كان ينبغي له الإنصاف والتسليم بالحق لولا الكبر، فانتقل إلى السؤال عن القرون الأولى، وما له والقرون الأولى وما هو عنها بمسؤول، فوفق الله موسى إلى الجواب السديد .

﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾

ألهم الله عبده موسى عليه السلام هذا الجواب الحكيم القاطع، وهذا من الله تعليم لنا وتلقين لنتعلم كيف نجيب أمثال فرعون المتنطعين الذين إذا دعوتهم إلى الحق بالبرهان والحجة يقولون؛ وما بال آبائنا وأجدادنا؟ لقد كانوا إذن على ضلال، وهذا هروب من الإنصاف عن الحق ومالنا ولآبائنا الأولين، إنهم إن كانوا مهتدين وحِدْنا عن هداهم فلن ينفعنا هداهم شيئا إن نحن تنكبنا طريقهم واتبعنا سبل الضلال، وإن كانوا ضالين فاهتدينا فلن يضرنا ضلالهم شيئا، إنما أمرهم وأمرنا كما قال الله ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ـ البقرة ١٤١ ﴾ .

﴿ **قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ قال علم تلك القرون عند ربي أي لا عندك ولا عند أربابك الذين تعبدهم من دون الله، علم تلك القرون والطرق التي سلكها من أطاع منهم ومن عصى وجزاء الفريقين عند ربي في كتاب مدون مضبوط، لا يضل ربي ولا ينسى.

وقد فكرت كثيراً في معنى هذا الضلال المنفي هنا في حق الله تعالى حتى أهتديت إلى المقصود منه بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وما فسر القرآن مثل القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ـ البقرة ٢٨٢ ﴾ والضلال هنا ليس هو اتباع طريق الغواية وطاعة الهوى إنما هو الخطأ والتضييع عن غير قصد، والنسيان قريب من هذا المعنى، ولذلك قُرِنا هنا معا فى نسق كما قُرِنا أيضا في قوله تعالى ﴿**ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ـ البقرة ٢٨٦ ﴾ قرن الخطأ مع النسيان وهو الضلال عن غير قصد في قول أو عمل، فالضلال هنا هو الجور عن الصواب، قال موسى هذا الكلام لفرعون صرفا له عن فضوله وتدخله فيما لا يعنيه، وهي حجة ملزمة وجواب قاطع له ولغيره من كل مجادل متنطع لا يقبل الحق ولا يريده ثم ذكَّره بربه الذي أسبغ عليه وعلى قومه نعما كثيرة لا تعد ولا تحصى وهي

دلائل على وجوده وقدرته وسعة علمه ورحمته بخلقه .

﴿ الـذي جعل لكم الارض مهـاداً وسلك لكم فيهـا سبـلا وأنـزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾

لازالت محاورة موسى عليه السلام لفرعـون مستمرة، والكلام كلام موسى وفي أثنائه يـأتى قولـه تعالى **﴿فأخـرجنـا به أزواجـا من نبـات شتى .. الخ﴾** وهذا مـن كلام الله تعـالى، وقد يكـون كلام موسـى ويكون الله صـاغه صيـاغة أخرى تصلح لكل قوم ولكل زمان، والكل من عنـد الله، وإذا كان هذا من كلام موسى فهـو تذكير لفرعون بنعمـة الله في تمهيد أرض مصر التي هي من أخصب وأطيب بلاد الله، وإن كان هذا من كلام الله تعالى ـ والالتفات من فنون البلاغة ـ فالله تعـالى يذكـرنا بنعمـه في تمهيد الأرض للـزرع والبناء والضرب فيهـا ،وأن الله سلك لنا فيها سبـلا متتابعة من قرية إلى أخرى وأنـزل الله من السماء ماء فأخرج به أصنـافا وأنواعـا من نبات مختلف الأشكال والألـوان والطعوم، من كل صنف زوجان .

﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن ذلك لآيات لأولي النهى ﴾

إن في ذلك التمهيـد لـلأرض وجعل السبـل فيهـا وانـزال الماء من السماء وإخراج أزواج النبات من الأرض من متاع الناس والأنعام لآيات لأولي العقول والألبـاب الـذين يتفكـرون في نعم الخالق الـرازق فيـزدادون له حبـا وبـه إيمانـا وتعلقا، أباح الله خيرات الأرض والطيبات من الرزق .

﴿كلـوا وارعـوا أنعامكـم ﴾

كلوا مـن ثمارها وخضـارها وبقولها وحبـوبها وارعوا أنعـامكم في نجـودها ووهـادها وجبـالها وأوديتها، واسقـوهـا من مياههـا ، واشكروا ا لله إن كنتم إيـاه تعبـدون وتفكـروا في الخلق تفكيرا يهديكم إلى الخالق، ومـا هـدى الإنسـان مثل

التفكـر، فهو الـذي يجعل الكافـر مؤمنـا والمتحير مـوقنا، ويـزيد المؤمن إيمانـا، ولـذلك حث الله على تـدبر آيـاتـه البينات في مخلـوقـاتـه ومدح المتفكـرين وذم الغافلين المعرضين .

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾

يقـول الله تعـالى: من الأرض خلقنـاكم الخلق الأول، وفيهـا نعيـدكم يـوم دفنكم ومنها نخـرجكم يوم بعثكم تارة أخـرى، يذكرنـا ربنا تعالى بعهـدنا الأول ومقـرنـا الأخير، وأصل تكـويننـا المادي الـذي منـه تكـويننـا الأول ومعيشتنـا، فأجسادنا هـذه من ذرات الأرض تتغذى من نباتها وفيها تثـوى وتنحل، ثم منها تبعث يوم ينفخ في الصور، وبهذا المعنى يذكر موسى فرعون حتى لا يطغى، ولقد كان طغيـانه بأرض مصر ونيلها ومـزارعها فقـال له موسى إن هـذه الأرض منها خلقت وفيها تعود ومنهـا تخرج تارة أخرى للبعث والحساب وإنها لتـذكرة بليغه لو كان يعي ويعقل، ولكنه الكبر والعناد والتمـرد والإباء، ومن كان طبعه كذلك لا يؤمن ولو جاءته كل آية حتى يرى العذاب الأليم.

وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

هكـذا يطوي الله الكـلام هنا في الآيـات التي أراها لفـرعون من العصـا والثعبان واليـد وغيرها من الآيات التي ذكره بها مـوسى، والتى لو تدبـرها لآمن بخالقها وخالقه، يقول تعالى :

﴿ولقد أرينـاه آياتنـا كلها فكذب وأبى﴾

الآيـات التي علم الله أنها تكفي لإيمان أمثـالهـ ـ وليست كل آيـات الله ـ

لقد رأى فرعون بما اراه الله آيات الله كلها والمعجزات التي جاءته على يد نبي الله موسى فكذب وأبى أن يستجيب للحق الذي ظهر ولجأ إلى اللدد والخصومة وكذلك شأن المستكبرين .

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله ﴾

لجأ عدو الله إلى الجدال وازداد بالحق ضلالا، ونظر إلى آيات الله البينات فقال إنها سحر، وكذلك من طمس الله بصيرته بحب الدنيا والتشبث بالعلو فيها، قال لموسى : أجئتنا بهذا الإمر لتخرجنا من أرضنا بسحرك وهذا إغراء منه لقومه على الدفاع عن أرضهم وإنما كفرُهم بآيات الله وعنادهم لرسل الله هو الذي أخرجهم من أرضهم، ولقد كان بإمكانهم ــ لو عقلوا ـ أن يميزوا بين معجزات الله وبين السحر، قال في لهجة المعاند المجادل.

﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾

أدرك عدو الله أن الذي جاء به موسى عظيم فلن يستطيع أن يأتي بأعظم منه، ولذلك قال ﴿ **بسحر مثله** ﴾وهذا تلبيس منه على الناس وإيهام لهم أنه يقوى على معارضته وقد كانت بلاد مصر يومئذ تعج بالسحرة، وأكثر بنى إسرائيل ممن ورث السحر عمن ورثه من أجدادهم عن شياطين سليمان، قال فرعون لموسى :

﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾

طلب من موسى أن يعَيِّن له يوما ومكانا يجتمعون فيه للمباراة، وهذا منه إدلاءٌ بقوته وسيأتي مثل هذا المعنى في مخاطبته لموسى في إلقاء ما عنده، وإنما يدلي بهذا التخيير من كان معتزا بقوته غير عابىء بخصمه، وقد اعتد بالسحرة من قومه فهو يطلب مهلة لجمعهم وإحضار مهرتهم للمباراة وقد يكون منه هذا

الطلب ربحا للوقت، ولولا معية الله لموسى وأخيه هارون وحفظه لهما لكان فرعون طغى عليهما وأمر بقتلهما ولكن عصمة الله حالت دون ذلك ولا يكون إلا ما أراد الله، قال :

﴿ فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾

موعد زماني يتأكد الحضور عنده ولا يتخلف عنه أحد، وموعد مكاني في موضع مستو واسع ليس فيه بناء ولا شجر حتى يشهد الناس كلهم نتيجة المباراة لا يحجبهم عنها حاجب، ويظهر فرعون هنا مظهر الحريص على ظهور الحق ليوهم قومه أنه مصلح كبير وأنه يخاف على قومه تبديل دينهم وظهور الفساد في الأرض، وهو نفس الأسلوب الذي يستعمله طغاة الملوك والرؤساء مع بسطاء رعاياهم وهم دهماء الناس وعامتهم أما مع الخاصة فلهم أساليب أخرى يلجؤون إليها .

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾

قال موسى لفرعون حين طلب منه موعدا للإتيان بما عنده من السحر قال موعدكم يوم الزينة وهو يوم عيد من أعيادهم يتزينون فيه ويخرجون جميعا رجالهم ونساؤهم فضرب لهم موسى هذا اليوم موعدا ليحضر الجميع ويشهدون الحق وتقوم عليهم الحجة، واختار موسى من أوقات اليوم ضحاه وهوأجلى للناظرين وألطف أوقات اليوم جوا، والظهيرة وقت تلفح الشمس فيه الناس، ومصر بلد حار فاختار لهم هذا الوقت ليخرج كل الناس وليشهدوا في وضوح كل ما يجرى واليوم يوم عيد، لا ينشغل الناس بأعمالهم فيحشرون كلهم حشراً لمشاهدة المباراة ولمن تكون الغلبة وعلى من تدور الدائرة .

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾

كلمات موجزة طوى فيها ما بسط في آيـات أخرى من القرآن من استعداد فرعون لذلك اليـوم واعداده له العدة، وحشر جموع السحـرة المهرة ﴿**فتولى فـرعون**﴾ فيه مـا فيه من التعبير عـن الإعراض عن الحق واللجوء إلى البـاطل ليدحـض به الحق واتخاذه لآيات الله هـزؤا، وقولـه ﴿**فجمع كيـده**﴾: فيه التعبير البليغ عن جمع فـرعون لقـواه وحيلـه لمحاربـة الله ورسلـه وإنه لم يـأل في ذلك جهدا، لقـد كانت هنالك مـؤتمرات تعقد للمشاورة لإعداد العدة الكاملـة، عبر عنها القرآن مرة بـإيراد ما أمـر به فـرعون من حشر السحـرة الماهرين، ومـرة بطلب الملإ من فرعـون أن يبعث في المدائن حاشرين ليأتـوا بكل سحار عليم، لقـد جمع الجبار كيده ثم أتى معتدا بما عنده من القوى، مقدمـا على محاربة الله ورسوله طامعا أن يكسب النصر في هـذه المعـركـة، لكن مـوسى حذره وقـومـه من مغبـة أمـرهـم، وخوَّفهم من سوء العواقب وأعلمهم أن مآلهم الهزيمة والخيبة لا محالة .

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ
خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا إِنَّ
هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ
ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قـال مـوسى للسحـرة ومن معهم ﴿**ويلكم لا تفتروا على الله كـذبـا فيسحتكم بعذاب وقـد خـاب من افترى**﴾ قـالها كلمة صريحة مـدويـة في وجوه الآلاف المؤلفـة من السحرة وسـائر أتباع فرعـون، كلمة عليهـا نور الحق وقوته، وخاطبهم بالويل، والويل هـو العذاب الشديد الذي لا يطاق وهو جزاء من جـاءتـه آيـات ربه فكـذب بها وتـولى وأعـرض واستكبر، أولئك لهم الـويل وحذرهـم أن يفتروا على الله الكذب، وصنيعهـم هذا افتراء على الله، لأنهم يحاولون به إطفاء نور الله وغرضهـم أن يظهروا للنـاس أن ما جاءوا به هو الحق وأن ما جاء

به موسى هو الباطل، وهذا من أعظم الافتراء على الله ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام** ـ الصف ٧ ﴾.قال لهم موسى :

﴿وقد خاب من افترى ﴾

خاب وخسر من افترى، وكذلك عاقبة المفترين الكذابين الخيبة والخسران، لقد حذرهم موسى عواقب الإفتراء ومنها أن يسحتهم الله بعذاب أي يستأصل شأفتهم بعذاب من عنده، ولقد كان لهذا التحذير أثر في نفوس السحرة.

﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾

تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا نجواهم، تنازعوا الحديث سرا وقد أثرت فيهم كلمة موسى وخافوا سوء العاقبة فمال بعضهم إلى الاعتراف بنبوءة موسى وقد رأوا من خلال كلامه جلال الحق وسلطانه وعرفوا أنَّ هذا الكلام ليس من كلام السحرة فلانت نفوسهم للإيمان، ولكن البعض الآخر لاذ بالباطل، وأعتز بفرعون وأعماهم الطمع في مكافأته، وسرعان ما طغى الهوى فنكسوا على رؤوسهم، ويقال أنهم أسروا في هذه النجوى الإيمان بموسى إن ظهرت معجزته على سحرهم.

﴿ قالوا إن هذان لسحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾

قرروا أخيرا قرارهم تحت تأثير الأهواء وقالوا إن هذين الرجلين لساحران وما قصدهم من عملهم هذا إلا طلب السيادة والمجد في أرضكم فهما يريدان أن يخرجاكم من أرضكم، وفى نسبة الأرض إلى المخاطبين إغراء لهم على الدفاع عن أرضهم، ثم قال لهم :

﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾

إيهاما للناس أن طريقهم هي المثلى وهى الحسنى وأن هذين الرجلين

يريدان أن يذهبا بها، وهذا فيـه ما فيه من تحريش الناس ضدهما وإيقاد حماسهم لحماية عقيدتهم وطريقتهم، والدفاع عنها ضد مـن يريد تغييرها وتبديلها بطريقة أخرى، وهذا من كيد الكافـرين ومكرهم السيء حين يريدون التشبت بباطلهم الذي هـو امتداد لعـزهم وكبريائهم، يصـورون لأتباعهم أنه مجدهـم ورشادهم وصلاحهم وأن كل من يحاول تغييره إنما يـريد أن يخرجهم من أرضهم، ويسلبهم عزهم فهو إذن خطر عليهم .

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ايتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾

هكذا أمر بعضهم بعضـا أن يجمعوا كيدهم، وأجمع بهذه الصيغة الـرباعية هو جمع الهمـة والعزم والمضي في الأمر بإصرار، أمـا جمع الثلاثي فهـو ضم أشياء متشتتـة بعضها إلى بعض، لقـد حرض بعض القـوم بعضهم أن يجمعوا كيـدهم ويتحـدوا صفا واحـدا ضد مـوسى، وعلموا أن اليـوم يوم الفصل فقـد أفلح من ظهر فيه واستعلى، وأقسمـوا بعزة فرعون انهم هم الغالبـون، وما علم القوم أنهم إنما يحاربون الله ورسوله، وأن الله كتب ليغلبن هو ورسلـه كل من حاربه، وأنه لا يقوم لسلطـان الله سلطان ولا يقوى على حربـه جند مهما كان عتيدا، فللـه العزة ولرسولـه وللمؤمنين، لقد اغتروا بجمعهم الحاشد وخاطبوا مـوسى مخاطبة المعتد بقوته.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾

قالوا لموسى واثقين بما عندهم من قوة السحر يـاموسى إما أن تبدأ بإلقاء ما عندك وإما أن نلقي ما عندنـا،ولا يخير الخصم خصمه في البراز إلا إذا كان معتدا بما عنده واثقا بالغلبة، فقال موسى مجيبا لهم وهو واثق بربه متوكل عليه :

قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾

قال موسى واثقا بربه في رزانة وحكمة : (بل القوا) القوا أنتم أولا وهو يعلم أن الله معه ومن كان الله معه، فهو الغالب ولا يصدر في أمره إلا بإذن من الله، فليلقوا هم ما عندهم أولا ثم يلقي عصاه، بعد أن يأمره الله بإلقائها ليكون لها الحكم الأخير، وليحكم الله بينه وبين قومه وهو خير الحاكمين، وما أن قال لهم هذه الكلمة حتى سارعوا مسارعة المدلي بقوته .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾

(فإذا) مفاجأة غريبة يدل عليها التعبير القرآني البليغ، فقد طوى ذكرَ إلقائهم، تكاد عصيهم وحبالهم تسعى قبل الإلقاء فما إن ألقوها في خفة وبراعة حتى ملأت الساحة العريضة بالحركة، لقد سحروا أعين الناس فظهرت للناظرين أنها حيات وثعابين تتلوى وتسعى ويركب بعضها بعضا حتى خيل لموسى نفسه ما خيل للناس، ولا يغير السحرة من حقائق الأشياء شيئا ولكنهم يسحرون أعين الناظرين .

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ
سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

كانت الساحة عريضة قيل ميلا في ميل فملأوها حيات وثعابين تتقلب حتى شعر موسى بنوع من الخوف يساور نفسه، ولولا أن الله أخبرنا بهذا الخوف لاستبعدنا أن يخاف من أخبره الله أنه في معيته ولكنه ضعف فطري يصيب قلوب بنى آدم مهما كان إيمانهم قويا ونظيره في القرءان في قوله تعالى : **﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ـ** البقرة ٢١٤﴾ وذلك في حق النبى ﷺ والمؤمنين معه وتنوعت أقوال المفسرين في الشيء يخافه موسى: قال بعضهم: خاف على نفسه من تلك الحيات والثعابين

التي تسعى وقـال آخرون: خـاف أن يـؤثر هـذا المنظـر الهائل في عقول النـاس فيعتقدون الحق مع السحـرة، وقال آخرون: خاف أن ينصرف النـاس بعد أن بهر عقولهم هذا السحر العظيم فلا ينتظـروا ليشهدوا ما يقع بعد، وهو من جملتهم لا يعلم مـاذا سيحدث، وهـذه المعانـى لا تتزاحـم بل يمكن أن تمر هـذه الهواجس كلها في خاطـر موسى وهو يشاهد المنظر وينتظـر أمر الله ووحيه، ولم يكن ليلقي عصاه قبل أمر من الله فطمأنه الله :

﴿ قلنـا لا تخف إنك أنت الاعلى وألق مـا في يمينك تلقف مـا صنعـوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾

بشره الله بالعلو على خصمه والغلبة عليهم فلم التخوف إذن؟ وأوحى اليه:

﴿ وألق ما في يمينـك ﴾

أمره الله بالإلقـاء وعدل عن التصريح بالعصـا إلى الإبهام لأن العصا لم تعد حينئذ مجرد عصا، إنما هي معجزة كبرى ستكون بعد إلقـائها ذات منظر رهيب وخبر عجيب ينجلي عن إرادة الله القاهرة وحكمته الباهرة .

﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ﴾

ستَلقف هذه المعجزة الكبرى مـا صنعوا تلقفا سريعا وقـويا ولقد انقلبت ثعبانا عظيما، روي أن مـا بين فكيه ثمانين ذراعا فكه في الأرض وفكـه الآخر فوق قبة فرعون المرتفعة في السماء وكانوا نصبـوها على عرش مرتفع ليشهد كل ما يقع وليكـون بمنجاة من كل مـا يجرى، ولكن قـدرة الله فـوق صنيعهم، فزلـزل قلب فرعـون ومن معه يـومئذ، وقيل إنـه أحدث على نفسـه من الفزع وسـال بطنه من الهلع أما مـا وقع في الناس فـلا تَسَل، فقد حـاصوا حيصة حمر الـوحش وركب بعضهم بعضا مـن شدة الزحـام حتى قيل إنه مـات منهم يومئـذ خمسة وعشرون ألفا مـن شدة الزحـام والفرار من الخطـر الهائل، لقد التهم الثعبـان العظيم كل

شيء في لحظة قصيرة ومد موسى اليه يده فإذا هو عصا في يده فأين ذهبت الحبال والعصي وأين ذهب السحر العظيم؟، ظهرت معجزة الله الكبرى وبطل سحر السحرة وخاب كيد فرعون .

﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾

حكم الله وحكمه الحق إن الساحر لا يفلح حيث أتى، فمآل السحرة الخيبة والفشل في كل زمان ومكان ،وكذلك تكون نتيجة الصراع بين الحق والباطل وشتان بين من ينفذ أمر الله ويجاهد لتكون كلمة الله هي العليا وبين من يصنع السحر ويتبع الشيطان ويعبد الطاغوت .

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ
آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ
مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾
إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ
مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا
تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ
﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ
جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾

كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

كان نزول سورة طه في مكة قبل الهجرة، ولذلك يطوى فيها الكلام عن بنى اسرائيل وأحوالهم في اختصار والمقصود بها الإدكار والإعتبار وليس في مكة بنو إسرائيل وسيبسط عنهم الكلام في القرآن المدني، وهنا بعد الكلام عن إيمان السحرة والموعظة البليغة التي تلي حكايتهم يأتي الكلام عن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر لينجوا من عذاب فرعون وليهلك فرعون غرقا هو وقومه وراءهم، ويمتن الله على بنى اسرائيل بنجاتهم من عدوهم وبميعاد موسى نبيئهم جانب الطور الأيمن، وإنزاله عليهم المن والسلوى وهو طعام مغذ ولذيذ، ويخاطبهم بإباحة الطيبات ويحذرهم من الطغيان حتى لا يحل عليهم غضب الله ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن الله لغافر بعد ذلك ذنوب التائبين المؤمنين المهتدين الذين يعملون الصالحات، كل هذه الأطوار التي تعاقبت في تاريخ طويل تطوى في كلمات بليغة فيها العبرة الكافية والموعظة البليغة والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن عاقبة بنى اسرائيل وكيف نجاهم بعد إيمانهم بربهم وأنبيائه وبعد صبرهم الطويل على أذى فرعون وقومه، لقد كانت عاقبتهم حسنة وعاقبة عدوهم الدمار والبوار **﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وجاوزنا ببني إسرائيل البحر** ـ الأعراف ١٣٧ / ١٣٨ ﴾ لقد مرت سنوات وسنوات بعد إيمان السحرة وقتلهم طغى فيها فرعون طغيانا كبيرا وظلم بنى إسرائيل ظلما كبيرا وكان الأشقياء من بطانته يغرونه بذلك ويستمع إليهم

ويأمر بالقتل والتنكيل وأصناف الأذى.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون﴾

وكان موسى يأمر قومه بالصبر على طغيان فرعون والبلاء العظيم، ويعدهم أن عاقبة الصبر للمتقين حسنة وكانوا يشتكون إليه من طول أمد هذا البلاء، وتأخر الفرج فيطمئنهم بتحقق وعد الله إن الله سيهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض بعده فينظر كيف يعملون وكان الله في هذا الأمد الطويل يأخذ فرعون وقومه بأنواع العقوبات لعله يرتدع فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا وكانوا يطيرون بموسى ومن معه من المؤمنين، أخذهم الله بالسنين المتتابعات من الجدب ثم فرج عنهم بدعوة من موسى طمعا في إيمانهم وقد وعدوه بذلك حين مسهم العذاب ثم نكثوا ثم أخذهم الله بالطوفان ثم بالجراد ثم بالقمّل ثم بالضفادع ثم بالدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين، وكان الله تعالى يأخذهم بهذه الآيات عقوبة لهم على طغيانهم، وإقامة للحجة عليهم لعلهم يذكرون قال تعالى:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ـ الأعراف ١٣٠**﴾**

وأخيرا لما جاء الأجل المحدود لإهلاكهم ولم يعد ينفع إمهالهم ولا يرجى إيمانهم، أمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلا إلى جهة سيناء لأمر أراده الله وكان أمر الله قدرا مقدورا .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾

أوحى الله تبارك وتعالى لعبده موسى ﴿ **أن اسر بعبادي** ﴾ والنسبة هنا نسبة تقريب وتشريف لأنهم عباده الذين آمنوا بـه وصبروا على الأذى الذي لحق بهم من جراء إيمانهم برسالة موسى، فلما أراد الله تنجيتهم من البلاء العظيم ـ ولكل أجل كتاب ـ أمر عبده موسى أن يسري بهم ليلا بعدما أخبرهم ليستعدوا للخروج وليجمعوا على ذلك أشتاتهم، وأظهروا أنهم يستعدون للخروج إلى عيد من أعيادهم واستعارت نساؤهم حلىّ نساء الأقباط فاجتمعوا وعددهم لا يقل عن ستمائة ألف كما نقلت الرواية وهم اثنتا عشرة أسباطا أمما، فاجتمعوا ليلا فخرج بهم نبيهم موسى إلى جهة البحر ومعهم تابوت يوسف، وقد أوصى عليه السلام أن يحمل إلى الأرض المقدسة ويدفن مع آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب، هذا ما كان من أمر بنى اسرائيل.

أما ما كان من أمر فرعون وقومه فانهم لما سمعوا بخروج بنى إسرائيل اغتاظوا لذلك وتخوفوا من عاقبة هذا الخروج ﴿**فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حذرون** ـ الشعراء ٥٣/٥٦﴾ تخوف الأقباط من خروج بنى إسرائيل وذهابهم إلى أرض كنعان وهى وطنهم الأصلى فخافوا أن يستنجدوا بأهل كنعان ويرجعوا إليهم غازين وهذا ليس ببعيد وأغتاظوا لخروجهم عاصين، فهم يعتبرونهم عبيدا لهم وزادهم غيظا أن نساءهم أخذت حلىّ نسائهم ورجالهم أخذوا داوبهم وركبوها وحملوا عليها أمتعتهم، فهم لا محالة يخرجون كلهم متحمسين لينتقموا من معبّديهم، وليسترجعوا أموالهم التي أخذوها منهم، وروي أيضا أن الملائكة دخلت تلك الليلة دور الأقباط وقتلوا أولادهم حتى لا يشغلوهم عن طلب بنى اسرائيل وحتى يخفوا في الخروج إلى حيث يلقون جزاءهم، وحتى يقطع دابر

الأقبـاط فلا يبقى لهم خلف، وتلك عـاقبة الظـالمين، ولا تستبعد هـذه الروايـة، أليس الـذين كـانـوا يقتلـون أولاد بنى اسرائيل يستحقـون أن يقتل الله أولادهم انتقـامـا منهم للمستضعفين المظلـومين ﴿**عسى ربكم أن يهلك عـدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون** ـ الأعراف ١٢٩ ﴾ طالما كان نبى الله يصبرهم ويردد لهم أمثال هـذه الكلمات التي تربط على قلوبهم وتبعث فيهم روح الأمل في فـرج الله، فها قـد جاء الفرج لقـد أرسل الجبـار فرعـون في مدائن مصر جنودا يحشرون الأقباط للخروج مع ملكهم فرعون، فلا يتخلف منهم أحد ولهذه الأسباب التي ذكـرنا لبوا نـداءه وخرجـوا متحمسين لم يتخلف منهم أحد يستطيع المشى أو الـركوب ،فخـرجوا في جموع هـائلة تكـون جموع بنى اسرائيل بالنسبة إليهم شرذمة قليلين، لحقوا بهم مسرعين حتى تراءى الجمعان .

﴿ **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب مـوسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهـدين** ـ الشعـراء ٦١/٦٢ ﴾ لما تـراءى الجمعـان لحق بنى اسرائيل الفزع من أعـدائهم الكثيرين الحردين عليهم، وقـد عارضهم البحـر من الأمام، فإلى أين المفر؟ المفـر إلى الله، كذلك قـال موسى ولم يكن يعلم بعـد كيف يكون المخـرج ولكنه أحسن الظـن بربـه، وهـذا موقف مـن الإيمان لا يقوى عليـه إلا الصديقون .

﴿**قـال كـلا إن معي ربي سيهـدين فأوحينـا إليـه أن اضرب بعصـاك البحـر فانفلق فكان كل فـرق كالطـود العظيم** ـ الشعراء ٦٣ ﴾

أحسن موسى ظنـه بربه فكـان الله عند ظنه فأوحى إليـه أن يضرب بعصاه البحر، فما هـو إلا أن ضربه فانفلق الماء عن طـريق في قاع البحر يبسـا ليس فيه وحل ولا مزالق، وانحازت جبال من الماء يمينا وشمالا .

﴿**فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى** ﴾

أمره الله تبـارك في لحظة الخطر وبعـدما صـدق في الامتحان أن يضرب لهم بقدرة الله طـريقا في البحر يابسـا لا يخاف بعده إدراك العدو ولا يخشى غـرقا ولا عدوا آخر يعارضـه في مروره ،بل لقد كانت ملائكة الله تـواكبه وفي نفس الوقت كانت تـدفع جند فـرعون من ورائه ليسلك الطـريق الذي فيـه هلاكـه وهلاك قومه، قال تعالى .

﴿ **وأزلفنا ثم الآخـرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغـرقنا الآخرين** ـ الشعراء ٦٤/٦٦﴾ كذلك كانت نهاية القـوم الظالمين لقد أضل فرعون قومه وما هدى، لقد أخرجهم من مساكنهم إلى غير رجعة .

﴿ **فأتبعهم فــرعــون بجنـوده فغشيهـم من اليم مـا غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾

لقد كـان يظن فرعون أنـه يتبع موسى بجنـوده لينتصر عليهم ويردهم إلى مصر صـاغـرين ومـا كان يظن أنـه يسعى إلى عـذاب الله حتى إذا أزلفـه الله في البحـر هـو وقومـه أجمعين غشيهم من اليم مـا غشيهم، فلما أيقن بـالهلاك نطق بكلمة الإيمان، ولم يك ينفعه إيمانه لما رأى العذاب بل أيقن حينئذ أنه هالك وأنه أضل قـومه ومـا هداهم، ولا يعلـم إلاالله ما غشيتهم من الحسرات سـاعتئذومـا تستقبلهم من الحسرات والويـلات يوم القيـامة ﴿ **يقـدم قـومه يـوم القيـامة فأوردهم النـار وبيس الـورد المورود** ـ هـود ٩٨ ﴾ انتهت قصـة فـرعون وقـومـه بـالغرق وطـويت ربوبيتـه المزعومـة بين أمواج البحـر ورمى البحر جثتـه بإذن الله لتكون للناس بعده آية حتى يوقنوا بهلاكه وتتلاشى مزاعم الألوهية المدعاة لأنه لو لم تظهـر جثته لزعم النـاس أنه غاب وسيرجع يـوما ما، وفي هـلاكه عبرة وأي عبرة وآيـة تدل على وحـدانيـة الله وقدرتـه الجبـارة ونصره لأوليـائه وانتقامـه من أعـدائه ثم إن الله تعـالى أورث تلك الجنـات التي كـانـوا فيهـا مترفين فـاكهين أورثها القوم المستضعفين قـال تعالى: ﴿**كم تـركوا من جنـات وعيون وزروع**

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين ـ الدخان ٢٥ / ٢٩﴾ .

روي أنه إذا مات المؤمن يبكي عليه موضع سجوده من الأرض وموضع صعود عمله من السماء، وهنا في الآية إشارة لطيفة إلى ذلك، وأن هؤلاء المجرمين ما بكت عليهم السموات والأرض وما كانوا منظرين لما حان موعد هلاكهم بل ذهبوا إلى سخط الله غير مأ سوف عليهم وتركوا الشيء الكثير من الجنات والعيون في مقام كريم أقامهم الله فيه وما شكروا أنعمه بل كفروها فأخرجوا منها وأورثها الله قوما آخرين ليسوا بأولادهم ولا أحفادهم ولا ذويهم بل أورثها قوما آخرين وهم الذين كانوا يستضعفونهم ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وهذه منة الله على بنى إ سرائيل بما صبروا، أنزلهم منازلهم وأورثهم كنوزهم ونجاهم من عدوهم، ولقد امتن الله عليهم بهذه الأنعم وبغيرها من النعم التي أنعم الله بها عليهم من نعم الدنيا والدين، قال تعالى مخاطبا إيا هم بعد هلاك عدوهم :

﴿ يا بني إسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزّلنا عليكم المن والسلوى ﴾

نداء من الله تعالى لبنى إسرائيل يمتن عليهم بثلاث نعم عظمى ليشكروا أنعم الله عليهم ولا يكفروها وليطيعوه ولا يعصوه، نجاهم من عدوهم بعد أن ذاقوا منه البلاء العظيم، وهداهم بإنزال التوراة عليهم إلى صراط مستقيم، وأطعمهم بنوعين هما من أطيب أنواع الطعام وهما المن والسلوى، والمن يشبه العسل يجدونه على أوراق الأشجار ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يجمع الواحد منهم ما يكفيه له ولعياله كل يوم إلا يوم السبت فإنهم يجمعون نصيبه في يوم الجمعة، والسلوى نوع من الطير وهى طيور السُّماني تتعرض لهم فيمسكون منها ما يشاؤون، وهذا بعد خروجهم من البحر، وقبل رجوعهم إلى منازلهم،

والمنازل التي ورثوهـا من آل فرعون ثلاث نِعَم من كبريـات النعم: النجاةُ البلاء، والهدي، والإطعام من الجوع، كل ذلك ليتفرغـوا لعبادة ربهم وطاعة نبيهم، وأنعم الله عليهم بالماء العـذب الزلال أينما حلوا وارتحلـوا أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجـر فانفجـرت منه اثنتا عشرة عينـا على عدد قبائلهـم قد علمت كل قبيلـة مشربها فهم لا يتنـازعـون على الماء ﴿**قـد علم كل أُنـاس مشربهم كلـوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين** ـ البقرة٦٠﴾ في هذه الرحلة إلى سينـاء واعد الله مـوسى وسبعين رجلا يختـارهم من قـومه لميقـات ربه، وكـان الميقات جـانب الطور الأيمن حيث كلمه الله وجرى بينهما من الحديث مـا جرى وأنزل الله عليه ألواح التـوراة فيها هدى ونور ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح و في نسختها هدى ورحمة للذين هم لـربهم يرهبون** ـ الأعراف ١٥٤ ﴾ لقـد كانت عنـايـة الله ببنى إسرائيل عظيمة وذلك جـزاء لهم على صبرهم وإيمانهم في أيام المحنة الطويلة، أكرم مثـواهـم وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ثم أباح لهم الطيبات من الرزق وحذرهم من الطغيان وعاقبة الطغيان .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقنـاكم ولا تطغوا فيـه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليـه غضبي فقـد هوى وإني لغفـار لمن تـاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾

يقـول الله تعالى لبنى إسرائيل وفى هـذا القـول ذكرى وعبرة لجميع النـاس، يقول لهم:

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾

أي من الرزق الطيب الـذي أنزلنا لكم من السماء والذي سقنـاه لكم موفرا والـذى أنبتنا لكـم من الأرض الطيبة المبـاركـة التي أورثنـاها لكـم بعد هـلاك عدوكم .

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾

أي لا تطغوا بسبب تلك الأرزاق كما طغى من كان معكم ورأيتم كيف نزل به غضب الله ومقته وكيف هلك بسبب طغيانه، لا تطغوا كما طغوا والطغيان هو العلو في الأرض، والفساد فيها هو الخروج عن طاعة الله وهو يشمل جميع أنواع الكبائر والموبقات سواء منها التي بين الإنسان وبين ربه والتي بينه وبين غيره من بني جنسه من أنواع الظلم، والإنسان من طبعه إذا أقبلت عليه الدنيا واستغنى يطغى ويكفر المنعم ويتجبر، وبعدما يطغى ويكفر ويفسق قد يمهله الله زمنا طويلا ويغره ذلك الإمهال فيزداد طغيانا حتى إذا حان موعد هلاكه وحل عليه غضب الله لا ينفعه إيمانه، وذلك ما وقع لفرعون وقومه فحذر الله بني إسرائيل من عاقبة الطغيان التي شاهدوها بأعينهم ورأوا كيف حل غضب الله على أعداء الله الذين عتوا على الله وكفروا بأنعم الله،فما أحراهم أن يعتبروا بهم ويتعظوا بكلام الله وهو يحذرهم .

﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ يقول الله تعالى ومن ينزل عليه غضبي فقد هوى أي هلك هلاكا لانجاة بعده وقد رأى بنو إسرائيل كيف هوى فرعون من عرشه وعزه وسلطانه وكيف هوى في قعر البحر حيث لقى غمرات الموت ثم هوى في نار جهنم **﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً** ـ نوح ٢٥﴾ نزلت هذه الآية في قوم نوح الطغاة وكذلك صنع الله بفرعون وقومه **﴿إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد** ـ البروج ١٢ /١٦﴾ وما من آية في القرآن فيها التحذير من الوعيد إلا وغالبا ما تجد إلى جنبها آية تفتح باب التوبة والرجاء إما تسبقها أو تليها، وهذا من رحمة الله بعبيده الضعفاء وهو يعلم ضعفهم وطغيان الهوى عليهم، وكيد الشيطان بهم، فتح لهم أبواب التوبة الواسعة فكذلك في

هذا السياق يقول الله عز وجل :

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾

باب المغفرة والتوبة مفتوح للتائبين المنيبين الذين راجعوا الهدى بعد الضلال، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، لقد أثنى الله على نفسه بما هو أهله، وصف نفسه بصفة المغفرة بصيغة المبالغة لكثرة مغفرته وشمولها لجميع الذنوب كبيرها وصغيرها شرط أن يتوب مرتكب الذنب توبة نصوحا ويجدد إيمانه، لأنه كما ورد في الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فلابد عند التوبة من تجديد الإيمان الذي كان تقلص عند ارتكاب الذنب الكبير ولابد من مراجعة الهدى، وليكفر التائب من ذنبه بعمل صالح يعمله تكفيرا لذنبه لقول النبي ﷺ « وأتبع السيئة الحسنة تمحها »ولقول الله تبارك وتعالى **﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات** ـ هود ١١٤﴾ تلك هي أركان التوبة بعد الندم على ارتكاب المعصية والإقلاع عنها والعزم على عدم معاودتها أبدا، وذلك هو معنى التوبة فإن دام على ذلك فحسن وان عاد فليعاود التوبة وليجدد العزم وليكفر مرة أخرى بعمل صالح ،فإن الله لا يمل حتى تملوا، وليحذر العبد التمادي والإصرار فإنه لا مغفرة لِمُصِرّ، وجاء التعبير هنا بالاهتداء اشارة إلى أن مرتكب الذنب كان متجها اتجاها خطأ وضل الطريق، وبعد توبته وإقلاعه عن الذنب يتجه الاتجاه الصحيح ويسلك الصراط المستقيم، فلنحفظ هذه الكلمات الأربع ولنعمل بها لنفوز بمغفرة الله .

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم أهتدى ﴾

ثم بعد هذا الثناء الذي فيه تعليم وإرشاد وتبشير لنا معشر المؤمنين يتوجه الخطاب إلى نبي الله موسى عليه السلام وتتجه القصة اتجاها معينا، فيه

إخبار عن حالة بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى إلى الطور متعجلا طالبا لرضا ربه تاركا قومه وراءه، فحدث فيهم ما حدث مما أخبر الله به، قال تعالى:

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

لقد كـان تاريخ موسى مع بنـي إسرائيل طويلا حـافلا بالأحـداث، ومنها هذه الحادثـة وهى حادثـة ارتداد أكثرهم واتخاذهم العجل يعبـدونه بعـد غياب نبيهم موسى عنهم وذهابه إلى الطـور وعصيانهم خليفته عليهم أخاه هارون، فما إن نجـاهم الله من البحر حتى طلبـوا من نبيهم أن يجعل لهم إلها يعكفون عليـه، وما إن غـاب عنهم نبيهم حتى ارتدوا عن دينهم وعبـدوا العجل إلا قليلامنهم، روي أن الذين ثبتـوا على دينهم وأطاعوا هـارون النبي الخليفة هم اثنـا عشر ألفا من جملة ستمائة وسبعين ألفـا وهو عـدد قليل من كثير، وروى أن يهوديا من يهود المدينة أو خيبر قال للإمام على بن أبي طالب : «ما إن مات نبيكم حتى اختلفتم بعده » فأجابـه الإمام على كرم الله وجهه «أختلفنا بعـده ولم نختلف فيه، أما أنتم فما إن جفت أقـدامكم من البحـر حتى قلتم لنبيكم ﴿ **اجعل لنـا إلهاً كما لهم آلهـة** ﴾ فبهت اليهـودى، وهم كـذلك مـا إن غـاب عنهم نبيهم حتى عصـوا خليفتـه عليهم وهـو نبى فعبدوا العجل واتخذوه إلها مـن دون الله أما المسلمـون فاختلفوا بعد نبيهم أي فيمن يخلفه في الإمامة ثم اتفقوا بعد الاختلاف.

قال الله تعـالى مخاطبا مـوسى حين جاءه لموعده الـذي ضربه لـه في جانب الطور الأيمن .

﴿ وما أعجلك عـن قومك يا مـوسى قال هم أولاء على أثـري وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾

واعد الله موسـى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر قيل شهـر ذى القعدة وعشرة أيام من ذي الحجـة فتعجل موسى الـذهاب إلى جبل الطـور وترك خلفـه قومـه بنى اسرائيل واستخلف عليهم أخـاه هارون واختـار منهم سبعين رجلا لميقـات ربه فتقدمهم وهم على أثره فسأله ربه وهو أعلم به وبهم ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا مـوسـى**﴾ فأجـاب ربه يـار ب ﴿ **هم أولاء على أثـرى وعجلت إليك رب لترضى**﴾ هم على أثـري ومـا أنا ببعيـد عنهم وهم لا حقـون بي وعجلت إليك

يارب طلبا لرضاك وقربك، وإنما تعجل موسى إلى الميقات وتقدم قومه تسرعا إلى امتثال أمر ربه وشوقا إلى لقائه ومناجاته، وحق له أن يشتاق إلى مناجاة ربه بعد أن ذاق حلاوتها، وما فارق قومه حتى استخلف فيهم أخاه وأوصاه بالإصلاح وأن لا يتبع سبيل المفسدين، ولكنهم استضعفوه وأضلهم السامرى فاتبعوه إلا قليلا منهم . قال الله لموسى :

﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾

لله ما أحلى بلاغة القرآن وما أعْلى قداسته وأدبه، لقد نسب الفتنة إلى الله وهي الامتحان والابتلاء ونسب الإضلال إلى السامري وهو الذي أضلهم وصنع لهم العجل، ودعاهم إلى عبادته وصدهم عن الله. والسامري هذا رجل من بنى إسرائيل ومنهم من يقول ليس منهم، ولا عبرة بقوله لان الذين عبروا البحر مع موسى هم بنوإسرائيل، واسمه موسى وكان رباه جبريل عليه السلام لأنه ولد في العام الذى يقتل أبناء بنى إسرائيل وكان فرعون يأمر بقتلهم عاما وباستحيائهم عاما حتى لا ينقطع نسلهم لأنهم خدم للاقباط، فولد السامري في العام المشؤوم على مواليدهم الذكور فخافت أمه عليه القتل فالقته في مغارة وتركته فأرسل الله اليه جبريل يتعهده بالتغذية وقيل جعل الله له في أحد أصبعيه لبنا وفى الآخر عسلا فتارة يمتص هذا وتارة يمتص الآخر، وكان جبريل عليه السلام يتعهده فى الحين بعد الحين، وذلك بإذن الله لأمر يريده الله وهو فتنة بني اسرائيل به ويروى فى الموضوع بيتان وهما:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت
عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر
وموسى الذى رباه فرعون مرسل

﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشـاء وهـو أعلم بـالمهتـدين** ـ القصص ٥٦ ﴾ وهـذا لا يمنعنا من التربيـة والتهذيب والتعليم لأنـا أمرنا بذلك، والأمر لله من قبل ومن بعد ولا دخل لنا في سر من أسرار الله تعالى.

وروي أن السامـرى هذا لبث في المغارة ولم يخرج منها ولم تـره العيون حتى شب وترعـرع، هذا مـا كان من أمر السـامري الرجـل الذى أضل بنى إسرائيل، وبنـو إسرائيل يومئـذ مستعدون للضـلال لأنهم كـانوا قـد طلبوا من مـوسى أن يجعل لهم إلها يعكفون عليه كما للقوم أصنام يعكفون عليها، وذلك لأنهم تعودوا ذلك منذ كانوا في مصر مع الأقباط يعبـدون آلهة فرعون وقال الله تبارك وتعالى في شأنهم ﴿**وأشربـوا في قلـوبهم العجل بكفـرهم** ـ البقـرة ٩٣ ﴾ وبعد تكليـم الله لموسى و إنزاله الألواح عليه أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده وأضلهم السامرى.

﴿**فرجـع مـوسى إلى قومـه غضبان أسفاً قـال يا قـوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسنـا أفطال عليكم العهـد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى**﴾

رجع موسى من جبل الطـور إلى قومه غضبان حـزينا على ما أحدثـوا بعده فألقى الألـواح وأخـذ برأس أخيـه يجره إليـه يعاتبـه ويـؤنب قـومه ويـوبخهم ويناديهم ﴿ **ياقـوم ألم يعـدكم ربكم وعـدا حسنـا** ﴾ أنسيتم وعـد الله أيـاكم الحسنى أم طـال عليكم الأمـد فأعـرضتـم، أمـا أردتم بشرككم وعصيـانكم أن تتعرضـوا لغضب الله ونقمته وعذابـه فأخلفتم موعـدى بترككم السير على أثري والحفاظ على عهدي.

﴿**قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنـا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله مـوسى فنسي أفلا يـرون ألا يـرجع إليهم قـولاً ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولقـد قال لهم هـارون من قبل يـاقـوم إنما فتنتم بـه وإن ربكم الرحمن فـاتبعوني**

وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾

فتن الله قوم موسى بالأوزار التي حملوها معهم من حلي نساءَ الأقباط التي استعارتها منهم نساء بنى اسرائيل ليلة خروجهم من مصر فبقيت عندهم غنائم ولكن الغنائم لا تحل لبنى اسرائيل وكانوا يجمعونها في موضع فتنزل نار من السماء تأكلها فأضلهم السامرى فجمعها منهم وصنع منها ثورا جسدا له خوار، قيل إنه جعل له ثقوبا تدخل منها الريح وتخرج من منخره وفمه فيسمع لها خوار كخوار الثور، وقيل أنه حدث فيه الخوار بعد أن ألقى عليه قبضة قبضها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام فحدث فيه الخوار كما قال ﴿**فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها**﴾ وقد يكون قوله هذا صحيحا ليفتن الله به بنى إسرائيل فافتتنوا فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، قالوا هذا إلهنا وإله موسى الذى ذهب يطلبه ونسيه عندنا، وكذلك زعموا وأضلهم السامري، وما تطبعت به نفوسهم من عبادة الآلهة التي في مصر، وما كانوا لو عقلوا يفتنون بعد أن رأوا من ربهم ورب موسى معجزة فلق البحر ونجاتهم وأغراق فرعون وقومه لقد كانت آية عظيمة ولكنهم قوم يجهلون .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾

ما قصر هارون فى وعظهم وتحذيرهم من الكفر ودعوتهم إلى التوحيد ولكنهم استضعفوه واختلفوا عليه وكادوا يقتلونه، دعاهم إلى عبادة الرحمن فهو وحده ربهم الذى نجاهم من عدوهم وواعدهم جانب الطور الأيمن، وهو إله موسى الذى ذهب لمناجاته وحذرهم من الإفتتان بالسامرى ومن عبادة العجل ولكن القوم افتتنوا.

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾

قالوا لهرون تمردا وعصيانا: لا نـزال عاكفين على العجل حتى يرجع إلينا موسى، وزعموا أنـه هو إلـه موسى جهـلا منهم وكفرا وأن مـوسى نسيه عنـدهم وذهب يطلبـه تعالى الله عن قـولهم هـذا علوا كبيرا، والحق مـا قـاله لهم هـارون ولكنهم أعرضوا عنه وعصوه ولم يتبعوا أمره إلا قليل منهم، واستمروا على ذلك حتى رجع إليهم موسى غضبـان أسفا بعد أن أخبره الله تعالى بحـالهم بعده، فلما رجع إليهم ووجدهم على هذه الحالة المنكرة أشتد غضبه وأسفه عليهم واعتذروا له وقالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا غلبنـا على أمرنا ولم نطق حمل أنفسنا على الصواب، وحملنا أوزارا من زينـة القوم فقذفنا بها، وتـوجه إلى أخيه وخليفتـه عليهم مغضبا يكلمه ويجره بشعر رأسه ولحيته إليه .

﴿ قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري﴾

عـاتب أخاه عتـابا شـديـدا واجتذب شعـره بشدة فـاعتـذر له أخـوه وخاطبـه مستعطفا إيـاه بأمه التي ولدتهما جميعا وارضعتهما من لبنهـا وهما أخوان لأب وأم، ولكن خاطبه بأبن الأم لأن العاطفة بالأمـومة، الصق والرحمة بها ألزم، قال موسى لأخيه هـارون وناداه باسمـه لأنه كان في حـالة غضب وأسف قال لـه ما منعك حين ضل القـــوم ألاَّ تتبعني وتصلح فيهم وتــرشـدهـم وتنهـاهم كما أمــرتك ووصيتك أم عصيت أمـرى ؟ فقال هـارون يـا ابن أُمّ ليـذكره بعـاطفـة الأمومـة ورحمتها لعله يسكن من حدته .

﴿قـال يـا ابن أم لا تأخـذ بلحيتي ولا بـرأسي إني خشيت أن تقـول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾

قـال يا أخي وابن أمي أرسل شعـر لحيتى ورأسى وهـدئ غضبك وسكّن حـدتك فإني مـا عصيت أمرك ولا نسيـت وصيتك ولكن حدث عليّ أمـر فـوق طاقتى واستضعفني قومـي إلا قليلا منهم فلو أني قاتلت المرتدين بـالذين معى من المؤمنين لقلت فرقت بين بنى إسرائيل ولم تـرقب قولي فتركتهم، لا رضى مني

بفعلهم ولكن خشية الفتنة وانتظاراً لقدومك لعل الله يصلح شأنهم بقدومك دون أن تراق الدماء، عندها سكنت حدة غضب موسى فأرسل أخاه ودعا لنفسه ولأخيه .

﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ـ الاعراف ١٥١ ﴾

ثم وجه سؤاله الحاد إلى السامرى الذى أضل القوم .

﴿ قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسى قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليّم نسفاً إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾

قال ما خطبك يا سامري أي ما شأنك وما خبرك؟ وكيف صنعت من اتخاذ العجل وإضلال الناس؟ قال بصرت بما لم يبصر به القوم أى بصر بجبريل راكبا على فرس وبصر بمواقع حوافر الفرس تخضر بالنبات فعرف أن الحياة حيث يخطو جبريل عليه السلام فقبض قبضة من أثره واحتفظ بها وحين صنع العجل نبذها عليه فدبت فيه الحياة بأذن الله فصار له خوار، وما ذلك إلا فتنة من الله لبنى إسرائيل ليظهر منهم من يثبت على دينه ومن يرتد على عقبه، بعد أن رأى المعجزات والآيات البينات قال السامري : **﴿وكذلك سوّلت لى نفسي ﴾** أي وسوسته نفسه وزينت له هذا العمل الخبيث، وكذلك اعترف بحقيقة عمله لا اعتراف التوبة والإنابة بل اعتراف الإصرار والتمادي على شركه ولذلك استحق عقوبة الدنيا والآخرة .

﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً

لن تخلفه ﴾

قال موسى عليه السلام للسامري اذهب طـريدا ملعونا في الدّنيا والآخرة، إن عقـوبتك طـول الحياة أن تقـول لكل من تـراه من النـاس ﴿**لا مسـاس**﴾ لا تقـربني ولا تمسني وقـد جعل الله فيـه تيارا كهـربـائيـا عجيبا فكلما مسـه أحـد اشتعلت نار الحمى في الماس والممسوس وهـذه عقوبة من الله له فى الحيـاة الدنيا تلازمه إلى الممات ثم إن الله أعدّ له عقابا بعد الممات لن يفلت منه .

﴿ **وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾

وهـذا جـزاء على إشراكـه بربـه وإضـلالـه النـاس وإصراره على ذلك إلى الممات وليكون عبرة للمعتبرين من النـاس فلا يفتتنوا به، ونعوذ بـالله من سوابق الشقاء فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، أمـا ما كان من أمر هذا العجل فالتحريق والنسف في اليم .

﴿**وانظـر إلى إلهك الذي ظلـت عليه عـاكفـا لنحرقنـه ثم لننسفنـه فى اليم نسفاً إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علما** ﴾

يقول موسى عليه السلام للســامري وانظر إلى إلهك الذى افتتنت به وفتنت به القـوم، العجل الذي ظلت أى ظللت عليه عاكفـا، والعرب تطلب التخفيف فى النطق فعنـدمـا تجتمع لامـان إحـداهما متحـركـة والأخـرى سـاكنـة تحذف إحداهما، والقرآن نزل بلسان عربى مبين، والعكوف طول الإقامة فى خضوع وفي إخبات، قال موسى عليه السلام: لنحرقنه حتى يصير رمادًا وهذه معجزة من الله يشاهدهـا القوم ليعتبروا أو ليرجعوا عن غيهم، يحرق معبودهم وهـم ينظرون فلا يـدفع عن نفسه ولـو كان إلها حقـا لـدفع عن نفسه الضر، فكيف يـرجى من لا يملك لنفســه ضرا ولا نفعـا، وبعد أن يصير رمـادا ثم ينسف فى اليم نسفـا وهم ينظرون، ينقطع رجاؤهم منه ويعلمـون أن الههم الحق هو الله كما قال لهم هارون

من قبل وكما يقرره موسى ويكرره .

﴿إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾

إن إلهكم الحق هـو الله ربكم لا إله إلا هـو لا معبود بحق سـواه وسع كل شيءعلما أحاط علمـه بكل شيء وأحاطت قـدرته بكل شيء هـو أهل للحمد والثناء وهو أهل لأن يوحد بالعبادة ولا يشرك به شيء والكافرون هم الظالمون.

إلى هنا ينتهى الكلام في هذه السورة الغـراء عن موسى وقومه بنى إسرائيل ثم يتوجه خطاب الله الجليل تعالى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ قال الله تعالى:

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ
أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه محمـداً ﷺ والخطاب له ولأمته من بعده: كذلك نقص عليك القصص الحق مـن أنباء ما قـد سبق، قصص اعتبار لتعتبر أنت وقـومك بعاقبة المتقين وبمصير الظـالمين، وذلك هوأحسن القصـص فخذ العبرة منها وسنة الله فيمن سبق هي سنته فى الآخرين، يبتلي الله البعض بالبعض ثـم يكون الفوز والنصر للصابرين ويكون البوار والخسار للظالمين والمتكبرين

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ـ سورة يوسف ١١١﴾

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾

كذلك نثبت فـؤادك ونشد أزرك بما نقصه عليك من أنباء مـا قد سبق وقد آتينـاك من لدنـا ذكراً، كتـابا فيـه ذكر الأنبيـاء والرسل من قبلك، وكيف كـان

مصيرهم مع مـن آمن بهم من أممهم واتبعهم، ومن كـذب بهم وأعـرض عنهم وتولى، وفيه ذكـر لك وذكر لقومك وذكرلمن يأتى بعدك حتى تقوم السـاعة، وفيه تذكير لأولى الألباب بيوم الحساب وتذكير لهم بما عليهم من حقوق الله عليهم.

﴿ وأنـزلنا إليك الذكـر لتبين للنـاس ما نـزل إليهم ولعلهم يتفكـرون ـ النحل ٤٤ **﴾**

ثم بين الله تعـالى مـا أعـده للمقبلين على الـذكـر المنتفعين بـه ومـا أعـده للمعرضين عن ذكـره من العذاب المقيم فبـدأ بهذا الصنف من الناس لينـذرهم ويخوفهم فقال:

﴿ من أعرض عنـه فإنه يحمل يـوم القيمة وزرًا خـالدين فيـه وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾

من أعرض عن ذكـر الله الذى أنزلـه الله على نبيه ولم يرفع بـه رأسا ولم ينتفع به فإنه يحمل يوم القيامـة وزراً ينقض ظهره ويخلده فى عذاب الله المقيم وساء لهم ذلك يـوم القيامـة حملا، ما أقبحـه من مصير يحملون فيـه أوزارهم حيثُ **﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ـ فاطر ١٨ **﴾** .

﴿ يـوم ينفخ فى الصـور ونحشر المجـرمين يـومئذ زرقـا يتخـافتـون بينهم إن لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقـولون إذ يقـول أمثلهم طريقـة إن لبثتم إلا يوماً ﴾

إن الله ينذر المعـرضين عن كتاب الله بـأوزار تنوء بهم، يأتـون يوم القيـامة يحملونها يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثالثة وهي نفخة البعث .

﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ـ الزمر ٦٨ **﴾** .

يقول الله تعالى: **﴿ يُنفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾**

أسند الفتح للمجهول للعلم بالنافخ ولان الغرض يتعلق بالنفخ لا بالنافخ فليكن إسرافيل أو غيره، يوم ينفخ في الصور فيقوم الناس من قبورهم ويحشرون إلى ربهم، يومئذ يحشر الله المجرمين الذين ارتكبوا الإجرام وأعرضوا عن الذكر زرقا، زرق الألوان قد تغيرت ألوانهم، وامتقعت واستحالت من بياض ونضارة كانت فى الدنيا إلى زرقة وسواد لما يفجؤون به من الأهوال وينتظرونه من النكال والعذاب ،وهو واقع بهم فتعلوهم يومئذ غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفره الفجرة، وقال بعض المفسرين: زرق العيون أي عميا قد استحال سواد عيونهم إلى زرقة وعمىً، لأنهم كانوا في الدنيا عميا عن الذكر إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا عليها صما وعميانا، فأعمى الله أبصارهم يوم البعث جزاء وفاقا .

﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ـ الإسراء ٧٢ ﴾

ولا يبعد هذا المعنى الثاني، وما فسر القرآن مثل القرآن وقد يراد المعنيان .

ثم قال :

﴿يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾

يتخاطبون فيما بينهم بصوت خافت فيه الذل واليأس والندم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرا. قيل عشرة أيام وقيل عشر ساعات، أي ما لبثتم في الدنيا إلا قليلا وقد تضاءل نعيمها في أهوال يوم القيامة وبعد مدة البرزخ الطويلة فلم يعد إلا خيالا يتراءى ضئيلا وقصيرا موغلا في الفناء ذاهبا إلى غير رجعة .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾

بعد هذا التخافت والتردد في مدة اللبث في الدنيا يقول أعقلهم إن لبثتم إلا يوماً، أي ما نسبة مكوثكم في نعيم الدنيا إلى ما أنتم مقدمون عليه من

عذاب الأبد إلاّ يـوم أو بعض يوم، وكم تكون نسبـة المحدود إلى الممدود ﴿ **قال إن لبثتم إلا قليـلا لو أنكم كنتم تعلمـون** ـ المؤمنون ١١٤﴾ هذا قـول الله لهم بعد اختلافهم في مدة اللبث واتفاقهم على تقليلهـا وتحقيرها في جانب الآخرة بعد أن اطلعوا على حقيقة ما كانوا يتمارون فيه، يعرض الله علينا هذا المشهد من مشاهد الكفـار يوم الحشر لنعتبر بـه ونستجلي من الـدنيا مـا خفي على المغترين بها من غرورها وحقارتها وقلـة مدتها إلى دوام نعيم أو عذاب يوم القيامـة وسرعة فنائها، فهي بعـد فنـائهـا كأن لم تكن شيئـا، هكـذا يعترف الـذين كـانـوا مغترين بها مطمئنين إلى نعيمها يقول أحـدهم في صلف وكبرياء ﴿**ما أظن أن تبيد هـذه أبـداً وما أظن السـاعـة قـائمـة** ـ الكهف ٣٥/٣٦﴾ وفي هـذا الاعتراف موعظـة وتذكير لنـا وتنبيه لنا حتى لا نقع في مثل مـا وقع فيه الغافلـون من الخطأ والخطر العظيم، ثم يلفتنـا القرآن إلى سرعـة وقـوع الساعـة وقرب يـوم القيـامة وأهـوالها ويعـرضها في مشهـد نسف الجبـال وهو من أروع وأقـرب مشاهـدهـا، وهو مـا يستبعده الكفـار والمنافقون ويتساءلـون فيما بينهم ويسألون الرسـول ﷺ سؤال تعنت واستهزاء وارتياب في أمر الساعة .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ
ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ
لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾
وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

يسأل الكفار سؤال تعنت واستهـزاء بقيام الساعة راستبعاد لوقـوعها يقولون إذا كان فناء الأرض حقا فكيف يكون فناء هذه الجبال الشاهقات الراسيات المتينة

التكوين الصلبة الصخور؟ فجاء الجواب من الله تعالى مـربوطا بالفاء لإمكان ذلك وسرعة وقوعه إذا حان موعده ﴿**وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ـ القمر ٣٠﴾.

﴿فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾

قل لهم يا محمد إن ربي الذي خلق الجبال ينسفها، أي يجعلها ذرات غير متماسكة ثم يسيرها كما يسير السحاب، وقد تنوع التعبير القرآني في وصف الجبال يوم تقوم الساعة وكل عبارة تدل على فنائها وتطايرها في الفضاء ذرات وسيرها سير السحاب وبقاء الأرض بعدها مستوية لا أعوجاج فيها، جاء التعبير هنا بالنسف وهو النفخ على الغبار المتطائر وجاء في سورة التكوير بالتسيير ﴿ **وإذ الجبال سيرت** ـ التكوير: ٣﴾ وجاء في سورة القارعة بتشبيهها بالعهن المنفوش ﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ـ القارعة: ٤﴾ وجاء في سورة النمل بتشبيهها بالسحاب المار فى الفضاء ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء** ـ النمل :٩٠﴾ وجاء في سورة المزمل بتشبيهها بالرمال المهيلة ﴿ **يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلاً** ـ المزمل: ١٤﴾ فسبحان الذى أحاطت قدرته بكل شيء وأتقن صنعه كل شيء ولا يؤوده شيء، ينسف الجبال الراسيات نسفا ويسيرها في الفضاء كما يسير السحاب، ويذر الأرض قاعا صفصفا، صلبا أملس لا ترى فيها عوجا ولا أودية ولا آباراً ولا سراديب ولا أمتا ولا نتوءا بارزا بل، تمد الأرض مدا كأديم عكاظ ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ـ إبراهيم ٤٨﴾ هذا وأحوال القيامة متعاقبة ويذكرها الله تعالى تباعا وقد تكون بينها مهلة وهنا يذكر فناء الجبال واستواء الأرض ويذكر خروج الناس من قبورهم متبعين الداعي وبين نفخة الصعق ونفخة البعث أربعون، قيل أربعون عاما .

﴿ يـومئذ يتبعـون الـداعي لا عـوج له وخشعـت الاصوات للـرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾

يـومئذ يخرجـون من قبـورهم ويسيرون كأنهم جـراد منتشر سراعا يتبعـون الداعى الـذى يدعوهم إلى أرض المحشر حيث يـرون أعمالهم، روي أن الداعى يقول: أيتها اللحوم الممزقة! أيتهـا العظام النخرة ارجعي إلى ربك فيسيرون قدما سراعا كأنهم منجـذبون إلى صـوته، لا ينحرفـون يمينا ولا شمالا، ولا يتـوانون ولا يتوقفـون كأن سائقا يسوقهم من الخلـف وقائدا يقودهم من أمام فهم ينسـابون من كل جهة خشعـا أصواتهم للرحمن فلا تسمع إلا همسا والهمـس هو الصوت الخفي، قيل هـو صوت الأقـدام الحافية الماشيـة في أرض المحشر المستويـة، أما الكلام فـلا كلام في هـذه الحالة وهم مقبلـون إلى خطر عظيم، وقـد علموا أنهم قـادمـون على أعمالهم ليروهـا فإمـا إلى جنـة يـدوم نعيمهـا و إمـا إلى نـار يـدوم جحيمها، وبين يديهم الوقوف بين يـدى الله والسؤال والوزن والحساب والصراط ثم الجزاء المنتظـر، فهم سـاكتـون لـروعة الهول لا ينطقـون، وقـد يكـون الهمس أصوات الملائكـة المكلفين بما كلفوا بـه، فهم يتخافتـون بينهم فى تبليغ مـا أمروا بتبليغـه بعضهم لبعض أمـا الإنس والجن فهم في هذه الحالـة لا يتكلمـون فهم أذلاء خـائفـون، خـاشعة أبصـارهم وفي هـذا المشهـد معتبر وأي معتبر لـذوى الألبـاب الـذي يتلقـون كلام الله بقلـوب شـاهـدة، ثم يستمـر وصف المشهـد الرهيب فيتكلم عن الشفاعة وما أدراك ما الشفاعة فيقول:

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾

يقـول الله تبارك وتعـالى : يومئـذ أى يوم تجتمع الخلائق للحسـاب لا تنفع الشفاعـة إلا لمن أذن له الـرحمن ورضي له قـولا، فالشفـاعة واقعـة حقا ولكن لها شرطـان لازمان : الإذن والـرضى، شرط للشافع أن يكـون ممن أذن له الـرحمن في الشفاعـة ورضى قوله من عبـاده المقربين، الرسل والأنبيـاء ومن أراد من أوليائه

المخلصين، وشرط في المشفوع لـه أن يكون ممن ارتضـاه الله لا ممن سخط عليـه ومـات وهو مصر على الكبـائر، فالشفـاعة لا تكـون لهؤلاء ﴿**ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ـ غافر ١٨﴾ والقصد فيما يفهم من هـذه الآية أن يقطع الله أطماع أهل الأماني الفارغـة الذين يرتكبون كبـائر الأثم والفواحش ويصرون عليها إلى المهات وهم يطمعـون فى الشفاعات فكأن الله تعالى يقـول : اعملوا ولا تغتروا ولا تتكلوا على الشفعاء فإنه لا ينفع يـومئذ والد ولا ولد ولا قريب ولا ولي ولا حميم، إنما الشفاعـة تكون لمن ارتضـاه الله من عباده رفعـا لدرجـاتهم وتخفيفا لأهوال يـوم القيامة عنهم، وإزلافا لهم إلى محمـود الجزاء، وحسن المصير، وتكون أيضا تشريفا للشافعين رفعا لمقامـاتهم عند ربهم، وعند أوليائه المرتضين، هذا ما نعتقده في الشفـاعة معشر الإباضيـة وهذا الذي تـؤيده الآيات القـرآنية الكثيرة التي تـدعـو إلى العمل الصـالح والتـوبـة النصـوح واجتنـاب كبـائر الإثم والفواحش، وكل ما يؤدي إلى الكفر من تـرك الفرائض وانتهاك الحدود، وهذا ما يـدل عليه قـوله تعـالى ﴿ **ليس بأمـانيكم ولا أمـاني أهل الكتاب من يعمل سـوءًا يجز بـه ولا يجد لـه من دون الله وليـا ولا نصيرا، ومن يعمل من الصلحـات من ذكـر أو أنثى وهـو مـومن فأولئك يـدخلـون الجنـة ولا يظلمون نقيراً** ـ النساء ١٢٣ / ١٢٤ ﴾ ثم قال تعالى :

﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾

هـؤلاء المجموعـون كلهم أولهم وآخـرهم وأنسهم وجنهم المجموعـون إلى ميقـات يـوم معلـوم لا تخفى منهم على الله خـافية يعلم الله مـا بين أيـديهم ومـا خلفهم، يعلم ما قدمـوا وآثارهـم، يعلم ما صنعوه فى الدنيا ، ومـا خلفوه فيها من أمورها، ويعلم ما بين أيديهم من أمور الحساب والجزاء، يعلم الغيب والشهادة، يعلم أقوالهم وأفعـالهم ونياتهم ولا يحيطون علما بذاتـه ولا بشيء من علمه إلا بما شـاء، وما علم علمائهم في علمـه إلا كقطـرة في بحر محيط أو أصغـر من ذلك،

فسبحان من أحاط علمه بكل شيء وسبحان من يرتد الطرف دون علمه خاسئا وهو حسير، ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ـ البقرة ٣٢ ﴾

﴿ وعنت الـوجـوه للحي القيـوم وقـد خـاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مومن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾

عنت وجـوه المخلوقـات لـربها وإلهها الحي القيـوم، أي ذلت وخضعت، وذل الوجوه عبـارة عن ذل القلوب البادى على الـوجوه، والوجوه مـرايا القلوب، وجاء وصف ربنـا فى هذه الآية بـالحي القيوم وهو الـدائم القائم وما سـواه فانٍ ضعيف، لان المقـام ينطق بـذلك وكل مـا فيـه يـوحي بقهر الله لخلقـه وقيـومتـه وضعفهم وذلهم ووقوفهم بين يـديه خاضعين لا يملكـون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وفي هذا العـرض لهذا المشهد الـرهيب موعظـة بليغة لنـا وذكرى لنتـزود لذلك اليوم الرهيب بالعمل الصالح ونتخفف من المظالم.

﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾

أي خاب وخسر من حمل فى ذلـك اليوم ظلما، أي شركا فما دونـه من المآثم والمظـالم، والله تبارك وتعـالى حرم الظلم على نفســه وجعله بيننـا محرما ونهانـا عن الظلم ونهانا عن الـركون إلى الـذين ظلموا، وأنذرنـا لمن فعل ذلك بالنـار فقال ﴿**ولا تـركنـوا إلى الـذين ظلمـوا فتمسكم النـار وما لكـم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** ـ هود ١١٣ ﴾ فما أخيب الظالمين وما أخسرهـم يومئذ فهم مبلسون ملعونون من رحمة الله .

﴿ ومن يعمـل من الصــالحات وهــو مـومن فــلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾

يريـد الله تبارك وتعالى أن يضع الموازين القسط في القرآن الكـريم للمؤمن

الصادق الموفي بعهـد الله الذي يستحق الشفـاعة يوم القيـامة وهـو الذى يعمل الصالحات ويجتنب الموبقات وهو مؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا يحجزه عن الشر ويطبعه على البر، فـذلك الذي يحشر يوم القيامـة آمنا لا يخاف ظلما ولا هضما، لا يظلم بزيادة سيئة لم يعملها بل يتوب الله على التائبين ويكفر عنهم سيئاتهم، ولا يهضم بنقص حسنة قد عملها بل يضاعف الله للمحسنين المخلصين ويزيدهم من فضله إنه كان غفورا شكورا، تلك هى موازين القرآن الحكيم، لا خوف على المحسنين المؤمنين ولا أمـان للمفرطين فى جنب الله، يـرتكبون الـذنوب الكبـار ويصرُّون عليها ويتمنون على الله الاماني ويقولون نحن نحسن الظن بالله، كذبوا لو أحسنـوا الظن لأحسنوا العمل، فلنفهـم عن الله الحق ولنزن أنفسنا بمـوازين القرآن القسط ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الـدين وإنما يتذكر بالقرآن من يخاف وعيد منزل القرآن .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

بعد ذكـر الآيات التي تنخلـع لها القلوب لما تحمل من وعيـد يوم القيـامة وتلين لها لما تحمل من معـانى الموعظـة البليغـة، والقلب يتأثـر غـالبا بـالـوعيـد ويتذكر، وتحمله الـذكرى على التقوى. بعد هذا العرض الـرهيب لبعض مشاهد يوم القيامة يقول الله تعالى :

﴿ كذلك أنزلنـاه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الـوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾

كذلك أنـزلناه عليك وعلى قـومك ومن يأتى بعدهم قـرآنا عربيـا، بلسان عربي مبين، بلسـان قومك لعلهم يتـذكرون، ووصفه هنـا بالعـربى إشارة إلى أن

اللغة العـربية التـي اختارهـا الله تعالى لتكـون لغة القـرآن، وشرفها لتكـون وعاء معانيه.

في هذا إشـارة إلى أنها أفضل اللغات للتعبير عن الله في بلاغة وبيـان، ولو علم الله أن لغـة تقوم بـأحسن وأبلغ منها لاختـارهـا ويخلق الله مـا يشاء ويختـار، فاللغة العـربية التى هي أداه للتعبير بمعانى القرآن الكـريم هى أشرف اللغات، يجب الاعتنـاء بها وتعلمها وتعليمهـا لامتداد هـذا النور وبقـائه فينا ولننتفع بـه ونتذكر، أنزله الله قرآنا عـربيا وصرف فيه من الوعيد، والتصريف هو وضع الشيء الواحـد في أشكال مختلفـة وتوجيهه إلى جهـات متعددة، ومنـه تصريف المياه فى السـواقي والأحواض، ومنـه تصريف الريـاح، ومنـه تصريف السحاب، كـذلك صرف الله معانى القرآن في أساليب متنوعة لها تأثيرها البليغ فى النفوس فمن وعد إلى وعيد إلى قصة، إلى ضرب مثل، إلى عرض لمشاهد يوم القيامة، إلى أمر إلى نهى إلى خبر إلى استخبـار، إلى غير ذلك من صيغ التعبير التى تهز القلوب هـزا وتملأ في النفوس روعة ومهـابة، فكلام الله الجليل له سلطـان على النفوس ليس كمثله كلام، وقد اعترف بهذا صناديد قريش وبلغاؤهم الذين يدركون الفرق بين كلام وكلام، ولقد علمـوا أن القرآن فيه حلاوة وعليـه طلاوة، وأنه يعلو ولا يعـلا، وأنه ليس بشعـر ولا كهانـة وأنه كـلام الخالق ومـا هو بكـلام مخلوق ومـا منعهـم من الإيمان به إلا الكبريـاء والظلم وحب العلوّ ونعوذ بـالله من سوابق الشقـاء، هذا وآمن بـه كثير منهـم وأسلمـوا وهم الـذيـن أراد الله بهم الخير، وأن ينتفعـوا بهذا الغيث الروحاني الذي نزل من السماء إلى الأرض لتحيـا به النفوس الطيبة وتسعد به الفطـر السليمة، ولقـد صرف الله فيه من الوعيـد لأن الله يعلم أن الوعيـد أشد تأثيرا على النفـوس، وسلطـانه أضبط لها، وقـد علم الله أن هـذه النفس الأمـارة بـالسوء، الكسـولة عن الخير المطبـوعة على الشح والهلع قـد تسمح في كثير من الدرجات والعـواقب الحسنة رغبة في الشهوات، وميـلا مع الهوى، ولكنها ترهب من العقـوبة إذا ذكـر لها أصناف العـذاب التي أعـدت لأهل العصيان والتمـرد

والإصرار فتلوذ بالتقـوى وترجع إلى الله وتتوب إليه متـابا وربما تتلى على أحد من أهل الغفلة والإعراض آية أو آيات مـن كتاب الله فتحدث له ذكرا وفي تصريف الله لكـلامه وتنـويعـه حكمة عظيمـة وبـالغة، ذلـك لأن طبائع النـاس تختلف ونفوسهم متفاوته، وسعيهم شتى فالذي تعظه الآية الفلانية من كتاب الله قد لا يتأثـر بالآيـات الأخـرى وقد ينتفع الـواحـد منها بما لا يـرفع الآخــر به رأسـا ، وكذلك أمرهم في الأدوية والأغذية ، فما يميـل إليه طبع بعض الناس قد ينفر منه طبع الآخـرين، والقــرآن وإن كـان قـدح عسل، ولكن تنحــرف أذواق النـاس بأمـراض النفوس المتبعـات لأهـوائهـا فلا ينفع فيهـا حينئـذ إلا مـا كان قـوي التركيب، يحمل أقراصا شديدة التأثير فى إصحاء المغمى، وإيقاظ النائم، وتنبيه الغافل، تلك هي حكمـة تصريف الوعيـد وتصريف الأمثال. ﴿ **ولقد صرفنا للنـاس فى هـذا القـرآن من كل مثل وكـان الإنسـان أكثر شىء جـدلا** ـ الكهف٥٤ ﴾ هـذا ويمتنع أهل الشقـاء من الايمان والإتعـاظ والتذكـر بكـلام الله حتى تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهـم العذاب قبلاً فحينئـذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبـت في إيمانها خيرا وقـد يمضي أحـدهم فى الفجـور ويمعن فى الضلال زمانا ثم يريد الله به خيرا فيستمع إلى آية من القرآن تتلا عليه فتحدث له ذكرا فيرجع ويتوب ويقلع عن غيه ولكل أجل كتاب .

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ

جـاء ربط هذه الكلمـة بالفـاء لارتبـاط معناهـا بما قبلها ارتبـاط السبب بالمسبب فتعـالى الله منزل القرآن ومصرف الـوعيد، فيه رحمة بعبـادة لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا، تعالى ربنا تبـارك وتعاظم الملك الحق هو الملك الحق الثابت الـدائم وكل ملك سـواه مجاز فـان زائل لا بقـاء لـه، والحق هـو الشيء الثـابت المستقر، وحصر الحق فى جنـب الله يدل عليه التعـريف بـ (ألـ) فالله هـو الملك الحق ومـا سواه بـاطل زائل وخيـال، فهو وحـده الـرب الملك المعبود بحق إلـه

الخلق منـزل القرآن بـالحق، فتح بصائر أوليـائه فعرفـوه وعلموا أنـه الملك الحق فعبدوه ووحدوه بالعبادة وسجدوا له خـاشعين، وركعوا له خاضعين، وقاموا بين يديـه له قـانتين، تعالى الله الملك، يهدي لنـوره من يشاء ويجتبـى إليه من يـريد، تعالى الله الملك الحق يتصرف فى ملكه كما يريـد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قد يقول قائل : ما مناسبة هـذه الآية لما قبلها، إن مناسبتها لما قبلها عظيمة وصلتها بسـوابقها من الآيات وثيقة ومـوضعها بعدهـا متمكن مناسب ذلك أن النبى ﷺ لشدة إيمانـه بعظمة القـرآن وحكمة تصريف آيـاته المنزلـة من الملك الحق كان يعجل بترداد كلماته قبل أن يقضى إليـه وحيه، كان يفعل ذلك خشية النسيان أو التبـديل والتغيير فى كلماته وحروفـه، وهو يعلم أنـه كلام الملك الحق قد احكمت آياته وفصلت من لدن حكيم خبير، فهو يعجل بالنطق بها قبل تمام نزولها ليبلغها للناس كما أنزلت فبشره الله وطمـأنه بتثبيتها في فؤاده وتيسيرها على لسانـه ﴿**سنقـرئك فـلا تنسى إلا ما شـاء الله** ـ الأعلى ٥ ﴾ ، ونهيه عن التعجل بتردادها إنما هـو نهي تطمين وتبشير وتخفيـف، فهو يقول له لا لـزوم لك بالتعجل ولا حـرج عليك في تحملها فإن الـذى أنـزلها عليك وكلفك بتبليغها سيثبتهـا فى قلبك فلا تنساها فلا تعجل بها من قبل أن يقضى إليك وحي الله بها.

﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾

أمره بهذا الدعاء الجميل وعلمه إيـاه إشعارا له أنه مهما بلغ من العلم فهو محتاج إلى الزيادة منه وما علمه من علم الله إلا قليل، قال له وقل رب، واختار له هذا الاسم الحسن في الدعـاء إشعارا له أن ربه الـذي آواه يتيما وأغناه من العيْلة، وهـداه من الضلالـة، وعلمه مـا لم يكن يعلم، هـو حري أن يـزيده علما ينفعـه،

فكـان النبي ﷺ يقـول « يـارب أنفعني بما علمتني ويـارب علمني مـا ينفعني، ويارب زدني علما والحمـد لله على كل حال » . وهـذا تعليم من الله لنبيه ولنـا من بعده لنقتـدى به وندعـو ربنا بها دعاه به نبينـا ورسولنا محمـد ﷺ والله المرجو أن يجيب دعاء علمنا إيـاه، وما أحوجنا إليه وما أحسن الدعـاء بالكلمات التى جاء بها أو أمر بها كتاب ربنا تبارك وتعالى، ولم يأمر الله نبيه أن يقول رب زدني سلطانا ولا مالا ولا ولدا بل قـال له: وقل رب زدنى علما لأن العلم هو الذي يـرفع مقامه ويقربـه من الله ويفتح له أبـواب رحمته ويرفع درجـاته في الجنـة، ذلك هو العلم النافع الذي بـه يعبد الله وينال رضاه، وبـه يخشاه من يخشاه . ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء** ـ فاطر ٢٨﴾ ثم يذكـر الله تعالى بقصة ابينا آدم وأمـر الملائكة بـالسجود وعصيـان إبليس و إبائه وتحذيـر آدم من مكر هـذا العدو لـه ولزوجـه وذريتهما، وفى هذا وعظ وتحذير من عدونا فيقول عز وجل :

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا
فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

بعـد ذكر قصـة مـوسى وفرعـون وبني إسرائيل وإيـرادهـا مورد الإعتبـار والاتعاظ وهي مـن أنباء ما قـد سبق يورد الله تبـارك وتعالى قصـة أبينا الأول آدم قصة خلقه وإسجـاد الملائكة له وإباء إبليس من السجـود وما ترتب على ذلك، والمقصود من كل ذلك التذكير والإنذار والوعظ يقول الله تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾

العهد هـو الوصية، ولقـد عهدنا أي وصينـا آدم أباكم الأول من قبل، أي من قبل موسى وهارون ومن قبلهما من الأنبياء والرسل عهـدنا إليه بما عهدنا من الوحى الـذي فيه إرشـاده وهدايتـه وتحذيره من عـدوه حتى لا يفتنه ولا يغـويه، ولكن آدم نسي كل ذلك فى لحظة من اللحظـات، فافتتن بوسـواس عدوه إبليس وضعف عزمه، قال تعالى :

﴿ ولـم نجـد له عزمـا ﴾

أي لم نجـد لآدم ولا لـزوجه عـزمـا أي قـوة صبر فى الصمود أمـام العـدو الأكبر إبليس اللعين، وهـذا الضعف مركب فيـه وفي بنيه فما أشبـه ذريته بـه في ضعف العـزيمة وقلـة الصبر، ولكن آدم سرعـان ما تـذكـر وتاب ورجع إلى ربـه وأناب، فتقبلـه الله وتاب عليه وكـذلك الذين اصطفى الله من ذريتـه يفتنون كما فتن أبواهم ثـم يتوبون كما تـابا فمنهم ظـالم لنفسه ومنهم مقتصـد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، أما الذين يصرون على خطاياهم والذين يكفرون ويحادون الله ورسوله فأولئك لم يتشبهوا بأبيهم آدم وأمهم حواء، ولم يـرثوا عنهما التوبة والإنابة إنما هـؤلاء أشباه إبليـس وجنوده الـذين ورثـوا عنه الإصرار والتمـرد فهم جنـد إبليس وحزبـه، لقد انفصلوا من فصيلـة البشر وانخرطوا في فصيلـة الشياطين، يقص الله تعالى علينا قصة آدم لنتعظ بها فيقول :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجـدوا لآدم فـسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يآدم

إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾

يـذكرنـا ربنـا تبارك وتعـالى بقصة خلق آدم وإسجـاد الملائكـة له سجـود تعظيم وتشريف لا سجود عبـادة له إنما هو عبـادة لربهم الـذى جعل خلقه من تراب، ونفخ فيه من روحه، آية عظيمة تـدل على علمه وحكمته فى خلقه وقدرته على كل شيء فهم إذ يسجدون له تشريفا وتكريما إنما يسجـدون لربهم طاعة له وتعظيما وخضـوعا لسلطـانه وخشـوعا، يقـول تعـالى : اذكر يـا محمد حين قلنـا للملائكة ومعهم إبليس :

﴿ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾

لقـد فهم الملائكة وفهم إبليس معهم أن أمـر الله بالسجـود موجـه إليهم جميعا فلا يجوز أن يشـذ منهم أحد فيمتنع عن السجود، فامتثلـوا كلهم فسجدوا إلا إبليس الذي كان من الجن فامتنع وأبى ظلما وعلوا، ذلك أن إبليس خلق من نـار وركب فى طبعه مـا لم يركب فى طبع الملائكـة، فالملائكـة خلقوا من نـور ولم يـركب في طبعهم الشهـوات، فهم عبـاد مكـرمـون لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلون ما يـؤمرون، أما إبليس الذي هو ابو الجن فقـد ركب فى طبعه ما ركب فى طبـاع الجن والإنس من الشهـوات وجعلت لهم إلى جانـب الشهوات عقـول يتلقـون بها أوامـر الله ونـواهيـه ويتحملـون بها أمـانـة التكليف ويترتب عليهـا الثـواب لمن أطـاع والعقـاب لمن عصى، لقـد سبق فى علم الله أن إبليس تتغلب عليه طبيعته الجنية لذلك قال فى آية أخرى :

﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

ولا معنى هنـا لـلاشتغـال باختـلاف بعض المفسرين وارتبـاكهم فى أمـر إبليس، هل يـدخل فى الخطـاب وهـو ليس من الملائكـة، والخطاب مـوجـه إلى الملائكة، أو هو من الملائكة؟ ويأتون بالتأويل البعيد حتى يجعلوه من الملائكة،

كيف يكـون من الملائكـة والله تعـالى يقـول ﴿ **كـان من الجن** ﴾ والجن غير الملائكة؟ وكيف لا يتنـاوله الخطاب وقد جـاء بواو الجماعة ﴿ **اسجدوا لآدم** ﴾ وهو معهم وقد فهم ذلك قطعا؟ ولذلك انقطع عذره حتى عاتبه الله ﴿**ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك** ﴾، فالعبارة صريحة فى أنه داخل معهم في الأمر ولا إشكال في الأمر ولا عـذر له من هـذا الجانب إنما الـذي منعه من السجـود كِبْرُهُ وحسدُه لآدم وخذلان الله لـه، ونعوذ بالله من الخذلان ونعـوذ بالله من سوابق الشقـاء، لقد أبى السجود تمردا وكفـرا وعنادا ولم تنفعه عبادتـه الطويلة مع الملائكـة، وكذلك الكفـر يحبط العمل كما يحبطه الله بـالإصرار والتمـرد فلنحذر الإصرار، ولنحـذر محادة الله ورسله بالتمـرد على الأوامر وارتكاب النواهـي، ولنحذر الكبر والحسد فإنهما أول ما عُصي الله بـه في هذه الأرض، وهما عـدو الإيمان، إذا تمكنا فى القلب خـرج منه الإيمان، حينئـذ أسفـر إبليس عن طبعـه الخبيث وأعلنها عـداوة لآدم وبنيه وأعلنها حربا على الله فحذر الله أبانـا آدم من شر عداوته وما ينجر عنه من المكر والكيد والإغواء.

﴿ فقلنا يا آدم إن هـذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنـة فتشقى ﴾

قال الله لآدم إن هذا الـذى امتنع عن السجود لك عصيانـا وتمرداً هو عدو لك ولزوجك ولبنيكما، سوف لا يألو جهدا في إضلالكم وإغوائكم ليلحقكم به فى الشقـاء، فإياكم فـاحذروا مـن مكره وكيـده ولا تطيعوا لـه أمرا، وإيـاكما أن يخرجاكما بمكره وكيده من الجنة فتشقى.

﴿ إن لك أن لا تجوع فيهـا ولا تعـرى وإنك لا تظمـأ فيهـا ولا تضحى﴾

أسكن الله أبـانا آدم الجنـة وامتن عليـه بما فيها مـن النعيم وضمن له فيهـا أربعـة أشيـاء هي كبرى النعم التي يسعى النـاس ويشقون في الحصـول عليهـا

وهي كبرى مطالب الإنسان في هذه الحياة الطعام والشراب واللباس والمسكن الذي يكنه ويقيه حر الشمس وقر الزمهرير وبرد الأمطار والبرَد والثلوج هذا ما يطلبه الإنسان ويشقى الرجال في التحصيل عليه، ولذلك قال ربنا مخاطبا آدم ﴿فتشقى﴾ ولم يقل فتشقيا وفى هذا إشارة واضحة من الله أن الرجل هو الذى يسعى على العيال، وعلى كاهله مؤونتهم، أما المرأة فمقرها البيت الذى يعده لها زوجها هنالك تثوى وتلد أولادها وتربيهم وتقوم بشؤون البيت، إن لك يآدم أن تطعم فلا تجوع، وتشرب من أنهار الجنة العذبة فلا تظمأ وإن عليك من كسوة الجنة ما يسترك ويجملك ولا يبلى، فأنت فيها لا تخاف العري، ولا تتعب فى نسج اللباس ولا خياطته، وإنك فى ظل ممدود يقيك حر الشمس فلا تضحى، ولا تتعرض في الجنة لشمس ولا لزمهرير، فتمتع بنعيم الجنة ولا تستمع لوسواس عدوك إبليس، فتتعرض لعقاب الله، وأول ذلك الطرد من الجنة وإذا كانت طاعة الشيطان تعرض أبا البشر الخروج من الجنة فكيف يطمع من هو خارج الجنة في دخولها وهو يطيع الشيطان ويعصى الرحمن، أليس فى ذلك موعظة وذكر للمؤمنين!

﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما** ﴾

فوسوس عدو الله وعدو آدم إبليسُ، وسوس لآدم وزوجه حواء ولازال بهما يمعن فى الوسوسة ولا يمل، ويظهر لهما بمظهر الناصح الذي يريد لهما الخير، ويقسم لهما على ذلك،وذلك بعد أن يشكا فى نصحه ويراجعاه القول ولذلك جاءت العبارة بالمقاسمة :

﴿**وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين** ﴾

يقسم ويحلف بالله على الكذب وهو الشيطان لا يتورع عن ذلك، وآدم

وحواء مطبوعان على الإيمان والصدق لا يظنان أن أحدا يتجرأ على الله فيحلف باسمه الغالي العزيز على الكذب فيصدقان إبليس في قسمه ويغتران بوسوسته بعد الإرتياب وبعد طول المحاولة والتكرار ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ والتدلية هي الإغراء بالخداع شيئا فشيئا وإدلاء المخدوع وإلقاؤه في المهواة بطريقة تدريجية، مازال بهما يزخرف لهما القول ويؤكده بالحلف الكاذب حتى وقعا فى المحذور ونسيا تحذير الله أياهما من كيده وخداعه، ويروى أن إبليس خدع حواء أولا، ثم استظهر بها على آدم فغلب المسكين حين بقي وحده يغالب وسواس الشيطان والمرأة، ويا لضعف الرجال أمام هذين العاملين إلا من عصم الله، مال آدم وحواء إلى الشجرة الوحيدة التى نهيا عنها من بين أشجار الجنة الكثيرة والكثيرة التى أبيحت لهما، ذلك أن إبليس زعم لهما أنها هي وحدها شجرة الخلد وملك لا يبلى، قال لهما :

﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾

أقسم إبليس لآدم وزوجه أن هذه الشجرة التى نهيا عنها هى شجرة الخلد من أكل منها كان من الخالدين في الجنة، وأن الله نهاهما عنها ليهبطهما إلى الأرض، وما علم المسكينان أن أكلهما من الشجرة هو سبب هبوطهما إلى الأرض وحرمانهما من البقاء فى الجنة، لأن الجنة هي دار الكرامة ولا يجاور الله فى دار كرامته من عصاه، فاغترا بوسواس عدوهما وظناه ناصحا أمينا.

﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾

نسي آدم وحواء العهد فأكلا من الشجرة المحرمة عليهما حقيقة فما إن أكلا منها حتى طار عنهما الحلى والحلل وبدت لهما سوءاتهما أى عوراتهما، طار اللباس

لأنه لباس الكرامة من الله ولا تبقى الكـرامة لمن عصى الله تعالى وأطاع الشيطان، اختار الله من كلماته هذه الكلمة الشنيعة ﴿ **بدت لهما سوءاتهما** ﴾ لتدل على شناعـة المعصية وخزي العصـاة وهوانهم على الله وهي كلمـة تؤدي معناهـا حقا ومـا كان ليـدل على معنـاهـا غيرها فى هـذا الموقف، فلـو قـال مثلا (نـزع عنهما لباسهما) أو (طـارت عنهما الحلل) لما دلت حقيقة الـدلالة على فضـاعة الموقف، وكم مرة قـرأت هذه الآية وقـرأت تفاسيرها ولكني مـا شعرت بحلاوة بـلاغتها ودلالتها على المقصود إلا فى هـذه اللحظة ولنفحات الله أوقات يدخـرها لأوقاتها فسبحـان الله، ولا قـوة إلا بـالله وكم لله على عبـاده من منن وفتـوحـات، وكم لأسلـوب القـرءان من دلالات واضحـات وآيات بينـات لا يظفـر بكشفهـا إلا المتدبرون، وفى هذا التعبير عبر ومواعظ، منهـا أن المعصية أى معصية الخالق أمر عظيم وكبير، سريعـة العقوبـة فما إن أكلا من الشجـرة حتى نزع عنهما لبـاسهما كلـه ولم يبق لهما مـا يستر عـورتيهما ونـاداهما ربهما بـالامـر بـالهبـوط إلى الأرض والخروج من الجنة وقـرنهما في هذا المصير بعدوهما وعدو الله الشيطـان الرجيم، فما أشأم المعصيـة وما أسرع عقوبتهـا لولا أن الله يمهـل العصاة لعلهم يتـوبون أو يذكـرون، وليس عليه أن يمهلهم إنما ذلـك تفضل منه ولطف بعبـاده الضعفاء، ولو شاء مـا فعل وقد حذرهم شؤمهـا وأنذرهم عقوبتها وأحيـانا يعجلها عليهم إذا اقتضت حكمتـه وعدلـه ذلك فليحـذر العصـاة من عقوبـة الله ﴿ **ولا يأمن مكر الله إلا القـوم الخاسـرون** ـ الاعراف ٩٩﴾ أفأ من الذين يـرتكبون الفواحش والموبقات ويبغـون على الناس أن يأخـذهم أخـذ عزيز مقتـدر، ولا يمهلهم ولا يفلتهم فيذهبون إلى سخط الله وعقابه وعذابه المقيم ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنـه لغفـور رحيم** ـ الانعـام ١٦٥﴾ وفى الآية لطف الله بعبـادة المؤمنين حتى فى حالة العقوبة إذا علم الله أنهم أوليـاؤه وأنهم سيتوبون إلى ربهم وينيبون، فإن الله لما حرم على آدم وحـواء لباس الجنة حين عصيـاه لم يحرم عليهما الورق وهـو أيضا من ورق الجنة بل تركهما ينـزعانه ويخصفانه أي يضمان بعضـه إلى بعض بالشوك

أو بالسعف أو نحوه ليجعلا منه ستارا لسوآتهما الباديات وهذا من الله لطف بهما وقد علم أنهما لم يعصياه كفرا وتمردا كما عصى إبليس بل فتنا ونسيا عهدهما نسيانا وغفلة، وفي الآية دلالة على كرم طبع آدم وحواء فهما وإن كان زوجين لا يحرم عليهما النظر إلى سوآتهما ولكنهما خجلا واستحيا بعضهم من بعض وهذا يدل على ما طبعا عليه من الحياء والكرم وصدق الله العظيم القائل ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ـ التين ٤ ﴾ وفي الآية كشف لطبيعة الإنسان الذي هو شغوف بما منع ونهي عنه وفي الحديث « لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه »، لقد كان في الجنة آلاف الأشجار ذوات الثمار المختلفة ولم يحرم الله عليهما إلا شجرة واحدة كان يمكن جدا لآدم وحواء أن يستغنيا عنها لولا ميل الإنسان إلى ما نهي عنه، ولا ننسى وسواس الشيطان، وقد يعجب أحدنا ويعتب على أبويه آدم وحواء فيقول ياسبحان الله! كيف يتركان كل أشجار الجنة ويتعلقان بالشجرة الواحدة التي نهيا عنها ويأكلان منها ويكون أكلهما سببا لشقائهما وشقاء ذريتهما من بعدهما وليس أمرهما بأعجب من أمرنا ولا حالهما بأغرب من أحوالنا، فإننا جميعا نقع دائما في مثل ما وقعا فيه وما تلك الشجرة المحرمة عليهما إلا مثال للمحرمات القليلة التي نهينا عنها فما أقلها في جانب الطيبات الكثيرة والكثيرة التي أباحها الله لنا في هذه الأرض، إن الأشياء القليلة التي نهينا عنها وحرمت علينا ما هي في قلتها بالنسبة للطيبات من الرزق التي خلقت لنا إلا كنسبة الشجرة التي نهي عنها آدم إلى شجر الجنة، أباح الله لنا الطيبات من الرزق وحرم علينا شجرة الخبائث ولو عقلنا ما تعرضنا لها، ولكن الجبلة التي جبل عليها أبونا الأول وأمنا هي واحدة لا تختلف، والشيطان هو الشيطان فلا عتب على أبوينا، والرواية متكررة دائما وأشبهنا بأبويه الخطاؤون التوابون والله هو الغفور الرحيم. وفي الآية إشكال عند المفسرين وهو يتعلق بوسوسة إبليس لأبوينا وهما في الجنة وهو مطرود منها بعد إبائه للسجود لآدم، كيف يتأتى له أن يوسوس لمن في الجنة بعد أن أخرج منها ولهم في هذا تأويلات، ولعل أقربها إلى

الصواب هـو أن الطرد مـؤجل إلى حين، وذلك أن الله خاطبهم جميعـا آدم وحواء والشيطان بخطاب واحد .

﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾

أبقاه الله في الجنـة أو أذن له في الـرجوع إليهـا ولو لفترات ليتحقـق أمر الله وقضـاؤه المحتـوم لأن الله لما أمهـل إبليس إلى قيـام السـاعـة خـاطبـه بقـولـه. **﴿واستفـزز من استطعـت منهم بصـوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشـاركهم فى الامـوال والاولاد وعـدهم وما يعـدهـم الشيطـان إلا غـروراً ـ** الإسراء ٦٤﴾ فلابـد لامر الله أن يقع ولا يهمنا إشكال المفسرين في القضيـة ما دام أمر الله واقعا وقضـاء الله مقدورا، ولنتجاوز هذا الإشكـال إلى ما يعنينا من معنى الآيات ويكسبنا موعظة وذكرى، قال تعالى :

﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾

وصف الله عبـده آدم بالمعصية هكـذا بهذا اللفظ الغليظ لأنها مخالفـة نهيه وهي وإن عدهـا العلماء في الصغائر لأن الأنبياء معصـومون من الكبـائر ولكنها بالنسبة لمقامـة تعد معصيه وهو الذي خلقه الله بيده، وأسجد لـه ملائكته وعلمه الأسماء كلها فما كـان ينبغـي أن يرتكب إتيـان المحظـور، وليس فيما يعصـى الله بـه صغير، وفي هـذا الـوصف من الله لما فعـل آدم بالمعصيـة زجـر لنـا عن ارتكـاب المعاصى وأن ذلك ضـلال وغواية يوجب العقـوبة، ثم إن الله تبـارك وتعـالى اجتبى عبـده آدم، أي وفقـه للتـوبـة النصـوح فأنـاب إلى الله وبكى من خطيئته زمانا وكذلك بكت أمنا حواء وقالا: ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنـا وتـرحمنـا لنكـونـن من الخاسرين ـ** الأعـراف ٢٣﴾ هـذا إلى تسبيحـات وتضرعات وذكـر فى كلمات تلقياها من ربهما ،فتـاب عليهما، وهداهما إلى حظيرة الاستقامـة، وهداهما لاكتسـاب معاشهما، وصنع كسـوتهما، فى هذه الأرض التى

أُهبطا إليهـا وجعلت مهادا لهما ولأولادهما وما كـان ربهما الذي خلقهما ليضيعهما وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هـدى. وفى هذا ما فيه من لطف الله بعباده المؤمنين وقبوله لتـوبة التوابين ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون** ـ الشورى ٢٥ ﴾ وفى الآية إن مـرتكب الخطيئة غــاو، وأنه بعد توبته مهتد يهديه ربه إلى صراط مستقيم. وفى هذه الآيات ذكر آدم، وتدخل معـه زوجه بالتبع، وقـد جاء التصريح بها وبتوبتها في سـورة البقرة حيث جاء ضمير المثنى هنالك، وبعـد ذكر التوبة والهداية ذكـر الله قصة اهباط آدم إلى الأرض وإن كانت تـوبة الله عليـه وقعت بعد هبـوطه إلى الأرض، ولكن قدمهـا الله في الذكر لينبهنا على حفـاوته وعنايته بأوليـائه فلا يذكر لنـا إخراجهما من الجنة إلا بعـد أن ذكر لنا تـوبته عليهما واجتباه لآدم ،وفي ذلك إشـارة إلى أنه وإن شقى بمعصيته في الـدنيا بهبـوطه إلى الارض ومجاورتـه فيها عدوه، فـإنه لن يشقى يـوم القيـامة وسيعـود إلى الجنـة وينعم فيهـا بالخلـود، ورضـوان الله أكبر، وكذلك التائبون من أبنائه.

﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ﴾

الخطـاب من الله تعـالى لآدم وإبليس لأنــه قـال: بعضكم لبعض عـدو، وهذه العداوة بين إبليس وآدم وذريته لا بين آدم وزوجـه، صدر الأمر الصارم من الله العلي الأعلى بـالهبوط إلى الأرض لآدم وزوجـه وإبليس جميعا، وصـدر الحكم النـافذ أن عـداوة إبليس لآدم وذريتـه متمكنـة مستمرة لا مطمع في زوالها، هـذا ليحذر آدم وبنوه من شر هذه العداوة، ولا يحسنـوا الظن بإبليس أبدا ولو تظاهر لهم بالنصح وأقسم لهم على ذلك أيمانـا مغلظة، وقد رأينا ما جـرَّ حسنُ الظن به من بلاء وشقـاء لأبوينا الأولين فأعلـن الله لنا بهذه العداوة صراحـة حتى نتقيها ولا نغتر بقسم إبليس وتظاهره بمظهر الناصح، فلا عذر بعد الإنذار المصرح به من قبل الله، فيجب أن نقـابل عداوة إبليس بعـداوتنا، وعـداوتنا هي مخالفتنـا له

وسوء ظننا به وبذريته وجنوده. قال تعالى :

﴿ فإمـا ياتينكم منـي هـدى فمـن اتبع هـداى فـلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشـة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى قـال رب لم حشرتني أعمى وقـد كنـت بصيراً قـال كـذلك أتتك آيـاتنـا فنسيتها وكـذلك اليوم تنسـى وكذلك نجزى من أسرف ولم يومن بـآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾

خطاب من الله تبـارك وتعالى لآدم وذريته بل هو لـلإنس والجن حتى تقوم السـاعة، وفيـه من العلم أن الله تبـارك وتعـالى سيتعهد الإنـس والجن بالإنبيـاء والرسل يهدونهم ويـدلونهم على صراط الله المستقيم الذي يهدي النـاس إلى الجنة ويجنبهم النار وأن لا يتركهم هملاً بل يهديهم وينـزل عليهم كتبا قيمة فيهـا النور المبين ﴿ **إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والاولى** ـ الليل ١٢ / ١٣ ﴾ .

﴿ فإما ياتينكم مني هدى ﴾

إتيان الهدى من الله مـؤكد بالنون الثقيلـة فالأمر محقق لا مريـة فيه والهدى من الله لا من غيره فـلا تهتـدى عقـول البشر وحدهـا لخط طـريق الهدايـة لأنها تختلف وتطغى عليها الأهواء والشهوات ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ـ آل عمران ٧٢﴾ حكم الله وحكمه الحق أن من اتبع هـدى الله وآمن برسلـه واتبعهم فإنه لا يضل في الـدنيـا ولا يشقى في الآخـرة، والأولى أن من أعـرض عن ذكـره وكفـر برسله ولم يتبع هـداه فإن له معيشة ضنكا فى هذه الحياة، ويحشره الله يـوم القيامة أعمى، فالشقـاء والمعيشة الضنك أى المضيقة المنغصة الشقيـة لأهل الضلال، المعـرضين عن ذكر الله ، والـراحة والهدايـة والمعيشة الطيبـة وطمأنينة القلـوب للمتبعين هـدى الله المؤمنين بأنبيائه ورسلـه، هـذا وقد يستشكل بعض النـاس امـر الواقع وهم يـرون الكفار والمنـافقين منعمين مترفين، بينما كثير من المؤمنين

الصالحـين في بـؤس وفقـر ومرض وبـلاء فكيف يسـتقيم المعنى والحالـة هـذه! إن الله تبارك وتعالى صادق في قوله وهو الذى يقـول : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو اثنى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانـوا يعملون** ـ النحل ٩٧﴾ والحيـاة الطيبة في الحقيقـة ليست بوفرة متاع الحياة وكثرة الغنى والظفر بالقهر والسلطان وغيرهـا من زينة الحياة الدنيا، بل قد تكون هـذه الأعراض من أسبـاب الشقاء والنكـد إذا خلت من الروح، وتجردت من قيم الإيمان والأخلاق الإسـلامية ،ولذلك نرى كثـرة الإنتحارات والإغتيالات والمآسى عند هؤلاء المترفين من الكفار والمنافقين، وما ذلك إلا عنوان على ما هم فيـه من فـراغ روحي يسـبب لهم الشـقاء والحـيرة والاضطـراب، والدنيـا كماء البحـر من ازداد شربة ازداد عطشـة، وأهلها يتنـاحـرون على أعراضهـا الدنيـة، ويتقاتلون على حب العلو والمال، ويتحاسـدون على مراتبها، ويتنافسون عليها، بينما ترى أبنـاء الآخرة مرتـاحي القلوب ،راضين بما قسم الله لهم، راجين من الله مالا يرجـوه أهل الدنيا، فهم في حياة طيبـة قلوبهم مطمئنة بذكـر الله الذى آمنوا به، وتـوكلوا عليه وفـوضوا أمورهم كلهـا إليه، فهم في راحـة وهم على هدى من ربهم، فشتـان بين الفريقين، وجـاء في الحديث الشريف «عجب الله لأمر عبـده المؤمن أمـره كلـه إلى خير وليس ذلك لأحـد إلا للمؤمن، أنعم الله عليـه فشكـر فأجـر، فكان ذلك خيرا لـه، وابتلاه فصبر فأجـر، فكان ذلك خيرا لـه» وكيف لا يكـون البـلاء نعمة للمـؤمنين وبشرى لهم إذا علمـوا أنهم يـؤجرون عليـه مـالا يؤجـرون على العاقبه فـدرجاتهم ترتفع به عنـد الله وسيآتهم تكفر بـه وحسناتهم تزكو به ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ـ الزمر ١٥﴾ إنهم سيقال لهم يوم القيامة وهم على أبواب الجنة ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ـ الـزمر ٧٣﴾ ويقال لهم وهم فى ريـاض الجنة ينعمون مخلدين فيهـا أبدا ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الـدار** ـ الـرعد ٢٤﴾ فلا إشكـال إذن فى الآية إذا

علمنا حقيقة الفرق فى الحالات النفسية بين أهل الهدى وأهل الضلال .

وقيل عن بعض المفسرين :

﴿معيشة ضنكا﴾ :

أى في البرزخ هي عذاب القبر، والمعاني لا تتزاحم فهم فى الدنيا كما ذكرنا في شقائهم وحيرتهم وضلالهم يعمهون وهم فى قبورهم يتعذبون بما قدمت أيديهم يوم يكون قبر المؤمن روضة من رياض الجنة وتكون نسمته طائر يعلق في شجر الجنة كما جاء فى الحديث الصحيح، ثم إنهم يوم القيامة يتباينون، فأهل الإيمان المتبعون هدى الله، يحشرون آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بينما أهل الضلال يحشرون عميا وبكما وصما ،وعند حشرهم على هذه الحالة يجرى بينهم وبين ربهم هذا الحوار المزعج :

﴿ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾

إن الله يجزي عباده الجزاء الوفاق، فمن كان في هذه الدار أعمى البصيرة معرضا عن ذكر الله، فهو في تلك الدار أعمى البصر، وذلك زيادة له في العقوبة لأن الذى يتلقى أنواع العذاب والنكال وهو أعمى أشد إحساسا بالويل والألم والإهانة من الذى يعذب وهو يرى، فأعداء الله يوم القيامة عمي وبكم وصم لأنهم كانوا في الدنيا عمياً عن نور الله لا يبصرونه، وبكما عن النطق بالحق يجحدونه، وصما عن الذكر لا يسمعونه، كانوا إذا ذكرّوا بآيات ربهم يخرون عليها صما وعميانا فإذا حشر أحدهم على هذه الحالة اندهش وانزعج منها .

﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾

يقول يارب لم حشرتني أعمى، فقيد البصر، وقد كنت فى الدنيا بصيرا فيجيبه ربه:

﴿ كذلك أتتك آياتنـا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾

وليس النسيان هنـا بمعناه الحقيقى لأن الله تبـارك وتعالى لا يضل ولا ينسى وإنما يفسر النسيـان بحرمـان عدو الله من رحمة الله فإن الله حين يقسم رحمتـه بين أوليائه يحرمهم كالمنسيين، ولا يجعل لهم فيها حظا ذلك هو النسيان.

﴿وكذلك اليوم تنسى ﴾

جـزاء وفاقـا، كـذلك يخاطبهم الله حتى ييأسـوا من رحمة الله لأنهم أتتهم آيات ربهم بينات فأعرضوا عنها ونسوها ولم يتدبروها، آتاهم الله الآيات البينات فى الأكوان فلم ينظروا ماذا في السمـوات وماذا فى الأرض وماذا بينهما وماذا تحت الثرى من الآيات العظيمـة التي تدل على عظمة الخالق وعلمه وقـدرته وحكمته فى خلقه، ولم ينتفعـوا بها، وآتاهم الله الآيـات البينات فى كتبـه المنزلـة على رسله المبلغين عن الله فلم يرفعـوا بها رأسا، وتولوا وهـم معرضون، وقد يـدخل في هذا الوعيد من آتاه الله القرآن فنسيـه ونسي دراسته والعمل بما فيه فهو والجاهل سواء فلنحذر هذا النوع من النسيان فقد ورد فيه الـوعيد، ونعوذ بالله من نسيان كتاب الله، وفى الحديث الشريف « مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعَقلة إن عـاهـد عليهـا أمسكهـا وإن أطلقهـا ذهبت» وفي الحديث الشريف « من تعلم القرآن ثم نسيه حشر يـوم القيامة أجذم » والأجذم المقطوع اليـد والمقطوع الحجة عند الله يوم القيامة كما رأينا في هذه الآية.

﴿ وكذلـك نجزي من أسرف ولم يـومن بآيات ربه ولعـذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾

كذلك يكون جزاء الله للمسرفين الذين أسرفـوا في تقدير أنفسهم فرفعوها فوق الحق، وتكبروا على دعاة الله واعـرضوا عنهم استكبارا وطغيانـا فما الدين وما القرآن ومـا الآخرة فى نظـرهم إلاّ تخيـلات الرجعيين المتخلفين ﴿ **فلما جاءتهم**

رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم. غافر٨٣﴾ فهم مسرفون بهذا الاعتبار، ومسرفون أيضا بارتكاب المعاصي والفواحش والمظالم لأن حب الدنيا قد استحوذ عليهم فأنساهم الآخرة، وشهواتهم طغت عليهم فلا قيد لها من إيمان أو خشية، فأي شيء يكفهم عن العصيان وهم معرضون عن ذكر الله؟ ولذلك قرن الله إسرافهم بعدم الإيمان لأن عدم إيمانهم هو السبب فى إسرافهم ولأنهم حين يسرفون فى الإثم والعدوان يذهب الإيمان ولا يبقى، ففى الحديث الصحيح « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» الحديث فكما أنه اقترن العمل الصالح بالإيمان فكذلك اقترن الإسراف بعدم الإيمان اقتران اللازم بالملزوم، ثم قال تعالى: ﴿**ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**﴾ .

بعد هذا التخويف من سوء عواقب المسرفين زاد فأنذرهم بعذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى، وأكد الله الخبر باللام لتحقق وقوعه فلا ريب في ذلك، فإذا صاروا إليه تصاغر فى جنبه كل نعيم نالوه في الدنيا، وتقاصرت أيام الدنيا حتى حسبوها يوما أو بعض يوم وتصاغر كل ما ينالهم من المعيشة الضنك وعذاب القبر وإن طال، وموقفهم موقف الخزى والفضيحة يوم القيامة، كل ذلك يتضاءل في جنب عذاب الآخرة المقيم الدائم فهو أشد وأبقى فما أسوأ مصير المسرفين المكذبين.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ

بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

بعد الكلام على أخبـار موسى عليه السلام وقومـه ثم الكلام على قصة آدم أبي البشر وأمهم حواء وكيف انتقلا من الجنة التي أسكنـا فيها أولا فأهبطا منها بسبب نسيانهما عهد ربهما فأسكنا في هذه الأرض وتعرضـا لمشقتها وحرها وقرها، وها نحن اليـوم ندب فيها، منهـا خلقنا وفيها نعـود ومنها نبعث، بعد ذكـر هذه الأخبـار ألفتنا الله تبـارك وتعالى إلى آثـار الأمم قبلنا فى هـذه الأرض لنعتبر بمن مضى، وتعجب ربنا تبارك وتعـالى من الذين يغفلون ويعرضـون عن هذه الآثار التي تنتشر فى مشـارق الأرض ومغـاربها، ويتمادون فى الظلم والعصيـان وهم يسكنـون في مسـاكن الظـالمين، وضرب الله لهم الأمثـال بهم وهـم عن الأمثـال عمون :

﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ﴾

أعَمِيَ هؤلاء الكفـار المعاندون والمكذبـون عن أطلال من قبلهم فلم يهد لهم أن يعتبروا بها ويخافـوا مثل مصيرهم **﴿أفلم يسيروا فى الارض فينظـروا كيف كان عاقبـة الذين من قبلهم** ـ غافر ٨٢ ﴾ الخطاب لكفار قريش وغيرهم ممن كان في زمـان نزول القرآن ولجميع أصنـاف المكذبين حتى تقوم السـاعـة وها هم يستمعـون آيات الله تتلى عليهـم من جميع إذاعات العـالم حتى من إذاعـات الشيوعيين المشركين وهـذا تحقيق لما ضمن الله لهذا القرآن من حفظ فهـا هو يتلى كما أنزل من إذاعـات الذين يكفرون به فمـن فى الدنيا لا يسمع هذا القـرآن وقد طبع ووزع فى بلاد الـدنيا ونقل إلى لغات أجنبيـة كثيرة، ونشر فى مشارق الأرض ومغاربها وصدق الله العظيم ﴿ **إن علينـا جمعه وقـرءانه،فإذا قـرأناه فـاتبع قـرءانـه، ثم إن علينـا بيانـه** ـ القيـامة ١٧/١٨/١٩﴾ أيتحير هؤلاء المستمعـون للقرآن المكـذبون بـه فلا يهتـدون إلى أنه حق ومـا يدعـو إليه حق، ودعـوته من

جنس دعـوات الرسل الـذين سبقوه الـذين كـذبتهم أممهم فأهلكهم الله وجعل من مهلكهم عبرة للمتأخـرين الذين يأتون مـن بعدهم ﴿ **إن فى ذلك لـذكـرى لأولى الالباب** ـ الزمر ٢١﴾ أفلا يتدبرون فى هذه الآثـار العمرانية الضخمة المتينة التي تدل دلالة واضحة على عظم مـا كان عليه أصحابها من التمكن في الأرض وتسخير الناس في البنـاء والصناعة والحفر ومـا كانوا عليه من السلطـان والقهر كيف خـربت بـلادهم، وخلت ديارهم، وبقيت آثـارهم تـدل عليهم ﴿ **فكأين من قـرية أهلكناها وهى ظالمة فهي خاويـة على عروشها وبير معطلة وقصر مشيـد** ـ الحج ٤٥ ﴾ إن هـذه الآثار تنطق أن أهلهـا كانـوا ظالمين ولـولا ذلك لما دمـر الله عليهم وخرب ديـارهم وأخلى قصـورهم وعطل آبارهم وتـركهم عبرة للمعتبرين ولم تغن عنهم كثرتهم ولا قوتهم شيئا .

﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾

إن في ذلك الإهلاك والتدمير لمساكن الظالمين لآيات لأولي العقول المفكرة ، والقلوب المستبصرة، المعتبرة . كان الأحـرى بهؤلاء المكذبين أن يعتبروا بعواقب الظالمين المكذبين، وهم يمشون في مساكنهم، يمرون على وادي القرى ديار ثمود وعلى سدوم ديـار قوم لوط، وعلى مـدين قوم شعيب وعلى الأحقاف مسـاكن عاد قـوم هود وفى أهـرام مصر وفي قصـور الحيرة وقصور اليمن في ديـار سبأ وغيرهم وغيرهم عبرة للمعتبرين، والـدنيا ملأى بهذه الآثـار والأطلال التي تنطـق بالعبر وتبوح بالخبر فما على العاقل إلا أن يسير فى الأرض فينظر ويعتبر.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾

لقد رأينـا فيما تقدم من قصة آدم وحواء شـؤم المعصية وعقوبـة الذنب فما إن وقع الـذنب حتى حلت العقـوبة وطـار الحلي والحلل وانكشفت السـوءات، وهنا يقرر الله تبارك وتعالى نفس المعنى ويقول: لقـد كان عقاب الكفر والذنوب لازمـا لها لولا حلم الله وإمهـاله لهؤلاء الكفـرة لعلهم يرجعـون أو لعل الله يخرج

من أصـلابهم من يعبـد الله، تلك هـي الكلمـة التى سبقت من الله إن الله يمهل الكفرة والفجـار وإن الله لا يستأصل هـذه الأمة بعذاب يسحتهـم رحمة منه بهم ولأنهم آخـر الأمم، فما أخر عنهم الهلاك إلا كلمـة الله وأجل مسمى مضروب لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقـدمون فقوله تعالى : ﴿**وأجل مسمى**﴾ معطوف على قـولـه : كلمـة سبقت من ربـك فقـدم جـواب لـولا وأقحم بين المعطـوف والمعطوف عليه ليكون وقعه أمكن فى النفـوس وأشد، ولتكون دلالته أقوى لأنها المقصـودة بالـذات، يقـرر الله ويحكم أن لكل ذنب عقـوبة لازمـة لـه إن لم تكن عـاجلة فلهـا أجل محدود لا تتعداه ولا يـرفعها إلا التـوبة النصـوح، وقد تكـون العقوبة مخففـة بعد التوبة كفارة للـذنب وتطهيرا للنفس والقلب من أثره، وكان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم أغسـلني من خطايـاي بالمـاء والثلـج والبـرد» ومن حديثه ﷺ «والصـدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النـار» وفى هذا إشارة إلى شـؤم المعاصي وأنها كـالنـار المشتعلة المهـددة بـالخطر، وأن ممـا يطفئهـا التوبـة والتضرع إلى الله وإسباغ الوضـوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المسـاجد وانتظار الصلاة بعـد الصلاة والإكثار من الصـدقات والمبـادرة بالباقيـات الصالحات، تلك هى المكفرات المطهرات .

﴿فـاصبر على مـا يقـولـون وسبح بحمـد ربك قبـل طلـوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾

فاصبر على ما يقول هؤلاء الكفرة ولا تضق بهم ذرعا فإن لهم أجلا مسمى لا يعدونه، إنهم يسخـرون ويستهزئون ويسبون رسول الله ودينـه ويستبطئون العذاب ويكـذبون بـوقوعـه ويقولـون ﴿ **متى هـذا الـوعـد إن كنتم صـادقين** ـ يس٤٨ ﴾ ﴿**ويقولـون في أنفسهم لـولا يعذبنـا الله بما نقول** ـ المجادلة ٨﴾ أصبر على أذاهم واتـركهم وتـوكل على الله وكفـى بـالله وكيـلا، واستعن في صبرك وفى جميع أمـورك بـالصلاة تقيمهـا لله تعالى قبل طلـوع الشمس وقبل غروبها ومن آنـاء الليل أي فى

سـائر أوقـات الليل وعنـد أطـراف النهـار لعلك تـرضى مـا اختـاره الله لك ولأصحابك من الإبتلاء والامتحان، وترضى عاقبة صبرك يوم تلاقي ربك .

أمر الله نبيئـه بالصبر على مـا يقول الكفار من قـومه وأمـره أن يسبح بحمد ربه فى أوقـات عينها له وتلك هـي الصلوات الخمس يقيمها ويصليهـا لله تبارك وتعـالى ﴿**قبل طلـوع الشمس وقبل غـروبها**﴾ أى صـلاة الصبح وصـلاة الظهر والعصر ﴿**ومن آناء الليل**﴾ أي صلاة المغـرب والعشاء ﴿**فسبح**﴾ أي فَصَلِّ ﴿**وأطراف النهار**﴾ أي صلاة العصر وصلاة الصبح، كرر هذين الوقتين لصعوبـة الصلاة فيهما وثقلهما على المنـافقين فهم ينامـون عن صلاة الصبح ولا يشهـدونها، ولا يحافظـون على الصـلاة الـوسطى لأنهم تلهيهم عنهـا الأسـواق والتجارة والبيـع فكرر الله هذين الـوقتين وحض عليهما ووعد عليهما الـرضى، لما ينـاله المحـافظ عليهما من الثواب الجزيل يـوم يلقى ربه يـوم الجزاء، و«لعل» إذا جاءت فى كلام الحق جل جلاله فإنها للتحقيق لمن فعل المأمور مخلصا لربه الدين.

فلنحافظ على الصلـوات الخمس فى أوقاتها ولنـرب عليها أولادنا وأهـالينا ولا نتركهم للنوم فإن كثيراً من الشبـاب يتباطؤون ويتثاقلـون عن صلاة الصبح خاصـة وهى الصـلاة التى يشهدهـا ملائكة الليـل وملائكـة النهار ﴿**وقرءان الفجـر إن قـرآن الفجـر كـان مشهـود** ـ الإسراء ٧٨﴾ . هكذا يسلي الله نبيئـه ويأمره بـالصبر على ما يقوله المكـذبون والمستهزئون ويـرشده أن يستعين عليهم بالصبر والصـلاة فهما خير وسيلة يتقـرب بها إلى الله وينال بها رضـاه، ويتقى بها سخطه، ويعتصم بها ليدفع الله بهما عنه كيد الكائدين وظلم المكذبين، ثم إن الله تعالى يصرف وجه نبيئه وحبيبه عن النَظـر بعين الإعتبار والإكبار إلى ما متع الله به أعداءه من نعيم الـدنيا الفانيـة فليس ذلك أبدا عـلامة على تكريمـه ومحبته لمن مكنهم من ذلك بل هـو لمجـرد الإبتلاء والإمتحـان وقد يكـون لـلإملاء والكيـد لأعدائه ليزدادوا إثمـا، قال تعالى:

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا بـه أزواجا منهـم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾

أي لا تنظـر يا محمـد أنت ومن معك من المؤمنين نظـر المعجب الـراغب المتمني لما متعنا بـه بعضا من هؤلاء الكفـار الجاحدين لرسـالتك، أصبر على ما يقولـون وسبح بحمد ربك وأتل مـا أوحي إليك من كتاب ربك واصرف بصرك عما أوتي هـؤلاء من زينة الحيـاة الـدنيا فإنما متعنـاهـم بها لنفتنهم بها فليست لهم خيراً بل هى شر لهم وفتنة، ليس النهي هنـا عن مجرد النظر العابر لما أُوتيـه هؤلاء الكفار المترفون، إنما نهى عن النظر الطامح الـذى تمازجه الرغبة الملحة، والتمني كتمنى الذين يـريدون الحياة الـدنيا لمثل مـاأوتى قارون حين خرج على قـومه فى زينتـه قـالـوا **﴿ يـا ليت لنـا مثل ما أوتى قـارون أنـه لـذو حظ عظيم ـ** القصص٧٩**﴾** فقد استعظمـوا حظه، ومـا أحقره، ونسـوا نعمة الإيمان وثـواب الله الذي هـو خير وأبقى، وذلك هو الحظ العظيم، وهذا النظر الطـامح المنهي عنه تفيده صيغة النهي الواردة فى القرآن الكريـم:

﴿ ولا تمـدن عينيـك﴾

جاء التعبير بمـد النظر المسنـد إلى العينين معا لان الناظـر إلى الدنيـا نظر رغبة فيها يمـد عينيه معا ويفتحها كأنـه يريد أن يلتهمها بعينيـه لشدة رغبته في زينتهـا وتلهفه على مـا فـاته منهـا، ومـا متاع الحيـواة الـدنيا فى الآخـرة إلا قليل **﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطـرهم إلى عـذاب النـار وبيس المصير** ـ البقـرة ١٢٦ **﴾** وليس هذا المتـاع الا كزهرة تتفتح زاهية ثـم سرعان ما تذبل وتتصـوح، وما أحلى التعبير بالزهرة، وإضـافته إلى الحياة الدنيا مؤذن بسرعة ذهـابها وفنائها فلا ينبغى أن يفتتن بها العقـلاء ولا أن يتمنـاهـا الـذين آتـاهـم الله نعمـة الايمان والعمل الصـالح، ثم إن هذه الـزهـرة ليست لكل كافـر وجـاحد بل هى مقصـورة على بعض منهم دون بعض ولذلك قال تعالى :

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾

أى أصنافا منهم بأصناف من زهـرات الحياة الدنيا لفتنتهم، فبعض منهم فتنوا بـالمال، وبعضهم فتنوا بالملـك والسلطان، وآخرون يفتنـون بالبنين، ومنهم من يفتن بصحة البدن واستوائه وجمال الصورة فيبغون بهذه الأشياء ويبطرون ولا يشكـرون الله، بل يمعنون بها فى الفجـور والعصيان والإثم وأنـواع الظلم، وتلك هي الفتنة ويـاليتهم لم يمتعوا بها فهي لهم عذاب فى الـدنيا، وحسرات فى جهنم، حيث يلقون جـزاءهم وتكون لهم عذابـا فوق العذاب، كما قـال الله فى أشكالهم من المنافقين: **﴿فـلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يـريد الله ليعـذبهم بما فى الحيوة الـدنيا وتزهق أنفسهم وهم كـافرون** ـ التوبة ٥٥﴾ فهي لهم عذاب فى الحيـوة الدنيـا وعذاب فى الآخـرة، نعم سيعذبـون بها فى الآخرة لأنهم كفـارلم يؤدوا حق شكرها بل طغـوا بها وظلموا وفتنوا بها واستظهروا بها على معصية ربهم الذي رزقهم إياهـا وهم أيضا يعذبون بها فى هذه الحياة الدنيـا لخلو قلوبهم من الإيمان واستحواذ الشيطان وحب الدنيا عليهـا فهم على استمرار فى تعب شديد ولهث متواصل وحيرة وخوف عليها أن تصيبها الجوائح والخسائر والنقص، وأنى لأحد أن يسلم من المصـائب لاسيما الذين يكسبـونها من الربا ولا يـؤدون زكاتها وهم أيضـا فى عـذاب من أولادهم الـذين طمسـوا فيهم فطرة الإسـلام فنشـؤوا كفاراً متمـردين عاقين لهم مشاقين غير بـارين ولا محسنين، فأنى لمثل هؤلاء أن يصدر منهم خير، فـآباؤهم وأمهـاتهم منهم فى عذاب، وكـذلك شأنهم من جميع متع الـدنيا، فعـاقبتهم النحس والنكد والـدمار والعيـاذ بالله، وفى قلـوبهم ما لا يعلمـه إلا الله من الغم والمخـاوف والـوسـاوس، وإن رآهـم الجاهل فى نعيم وحسبهم بـه سعداء وهم عن السعـادة بعداء، إنما السعادة وطمأنينـة النفس فى الإيمان بالله والاعتصام به وبكتابه.

﴿ورزق ربـك خـير وأبقـى﴾

ورزق ربك من الكتـاب والحكمـة والإيمان والعمـل الصـالح خير لك ولمن آمن معك وبعدك وعمـل صالحا. ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ـ الكهف ٩٦ ﴾ ذلك رزق الله النافع لعبده المؤمن هـو خير له في دنياه وقد مـلأ الله نفسه رضا وطمأنينـة وقناعـة وأصلح الله أهله وذريته فهم أبـرار قد اتبعـوا آبـاءهم بإيمان، وأطـاعوا الله فيهم فهـم لهم قرة أعين في الـدنيـا وهم لهم امتداد أجر بعد مماتهم، يدعون لهم ويتصدقون ذلك خير وأبقى، جمع الحسنيين: الخيرية والبقاء وهو ثواب الله للمؤمنين وعند الله ثواب الدنيا والآخرة .

﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾

يرشـد الله نبيه وكل مؤمن إلى بناء صرح سعـادته الأبدية لـه ولأهله وذلك بتنشئتهم على التقـوى، وعماد التقـوى والإيمان هي الصـلاة والمحـافظـة عليهـا والمداومة على إقامتها في أوقاتها وبطهارتها وركوعهـا وسجودها وخشوعها، يأمر الله نبيه وكـل مؤمن أن يأمـر أهله بالصـلاة وذلك منذ صغـرهم حتى يتعـودوها وينشـؤوا على محبتهـا والأنس بها ،وتكـون قـرة عين لهم ينـاجـون فيهـا ربهم، ويستعينـون بها على أمـورهم كلهـا، ولا خير فى أهل لايصلـون وأى خير فى مسـاكنة مـن هو شر من الكـلاب والخنـازيـر وأضل سبيلا، والمقـابـر خير من البيوت التى لا تقام فيهـا الصلوات ولا يقرأ فيها القـرآن، تلك بيوت لاخير فيها ولا بركة ولا يرجى منهـا سكينة ولا هناء، وكما أمرنا الله تبارك وتعـالى بأمر أهالينا بالصلاة أمرنا أن نصطبر عليها وعلى مشقة المحافظة على شروطها ومراقبة أوقاتها والمداومة عليهـا ولايكون أمرنـا لأهلنا مقبولا ونـافعا إلا إذا كنا نمتثل مـا نقول ونفعل ما نأمر بـه فإذا كنا كذلك كان حـريا بأهالينا وأولادنـا الصغار أن يقتدوا بنا ويتبعونا فى الإيمان والعمل الصالح.

ولما كـانت الصلـوات قـد تعرض لنـا فى أوقـات التجـارة والبيع وأنـواع

الحرف فى طلب الرزق فتكون عرضة للضيـاع أخبرنا الله تعالى أن الرزق مضمون وقد تكفل الله عز وجل به فقال:

﴿لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾

يقول : لا نسألك أن تنفعنا برزق فـالله تعالى غنى عن عباده وهو يطعم ولا يطعم، ولا نسألك أن تـرزق نفسك ولا أولادك فنحن نرزقك و إياهـم فلا يمنعنك طلب الرزق عن أقامة الصلوات فى أوقاتها الموقـوتة، وفيه إشارة إلى أن الرزق يبارك لمن حافظ على الصلوات، والعاقبة الحسنـة لأهل التقوى الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه، ويحفظون حدوده، فهم الذين يرضون سعيهم عند خروجهم من هذه الـدنيا، وقـد جاءتهم البشرى من ربهم وهـم الذين يحبـون لقاء الله ويحب الله لقـاءهم ويُلَقّيهم الله نضرة وسرورا وذلـك هـو الفـوز العظيم، و إذا كانت الأمور بخواتيمهـا فإن العاقبة الحسنـة تكون في آخر أيـام الدنيا يـوم لا تنفع أصحاب الأمـوال أموالهم، ولا يغنى عن أصحـاب السلطـان سلطانهم، ولا يـدفع الأولاد ولا الأحباب عنك مـا حل بك من قدر الله شيئـا ولا ينفعك يومئذ إلا مـا قدمت من عمل صـــالح، فبشرى يـومئـذ لأهـل التقـوى بشرى **﴿ ألا إن أوليـاء الله لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون الـذين آمنـوا وكـانـوا يتقـون لهم البشرى فى الحياة الدنيا و فى الآخـرة ـيـونس٦٢﴾**، وأولياء الله المتقين هم الـذين يقيمون الصلاة ويأمرون أهاليهم بأقامتها ويـربون على ذلك أولادهم، تلك بيوت عامرة عمروها بـالصلاة وقراءة القرآن وسـائر أنواع القربات من البـاقيات الصالحات أولئك هم المؤمنون المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى .

وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

قال الكفار من قريش لولا يأتينا هذا الرجل الذى يزعم أنه رسول من الله الينا، لولا يأتينا بآية أي بمعجزة من ربه تشهد له على صدقه فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله:

﴿ **أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى** ﴾

أو لم يكفهم أن الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى وغيرهما قد بشرت بمبعث نبي صفته كذا وكذا، وموطنه كذا ،فلم يبق لديهم شك فى أن هذا هو نبى آخر الزمان الذى بشرت به الرسل وبينت أوصافه، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وتلك هي بينة ما فى الصحف الأولى، ومعجزته القرآن، يتلى عليهم لا يشكون أنه ليس من كلام البشر لأنهم أدرى الناس ببلاغة القول، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات أو حتى بسورة واحدة، فعجزوا كلهم وفي هذا ما يكفى في بيان أن هذا الكلام كلام الله وليس هو كلام محمد ولا غيره من البشر، فهم إنما يجحدون رسالته كفرا وعنادا وكبرا ﴿**وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون** ـ العنكبوت ٤٧﴾ ويكفى بينة أن أميا ما عرف القراءة ولا الكتابة يأتيهم بهذا الكتاب الحكيم الذي فيه البينات والعلوم والأحكام والحكم ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** ـ العنكبوت ٤٨ ﴾ فمن يرد الله هدايته يهده بهذا الكتاب ومن يرد أن يضله لا يؤمن ولو جاءته كل آية، فهم يقترحون الآيات ويطلبونها كبرا ولجاجا وقد علم الله منهم ذلك ولا يوافقهم إلى مطالبهم هذه رحمة بهم وإمهالا لهم لعلهم يرجعون ويذكرون، لأنهم لو أجيبوا إلى ما اقترحوه من بعض الآيات فلم يؤمنوا بعدها لأهلكهم الله وتلك سنة الله فى الذين خلوا من قبل قال الله ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ـ الإسراء ٥٩﴾ فما عليك يا محمد الا البلاغ وسيهتدى بك من أراد الله هدايته ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل به من يشاء ويهدى إليه من أناب** ـ الرعد ٢٧﴾ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد فما عليك إلا الإنذار والتبليغ وبعد هذا فإن أمر الهداية والضلالة إلى مشيئة الله وقد

قامت عليهم حجة الله وجاءتهم البينات الكافيات .

﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحب الصراط السوى ومن أهتدى﴾

لا أحد أحب إليه العذر من الله ففي هذه الآيات إشارة إلى حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب وأن الله تعالى يريد بذلك أن يقيم الحجة على عباده بإرسال محمد ﷺ خاتم الرسل، وأرسله للناس كافة وضمن بقاء رسالته وحفظ كتابه حتى تقوم الساعة، فهو نذير آخر الزمان وإن من أمة إلا خلا فيها نذير، ولو شاء الله لأهلك قريشا على عصيانهم قبل إرساله لأنهم قد خلت النذر من قبله، ولكن رحمة بهم أرسل اليهم رسولا من أنفسهم يخاطبهم بلسانهم ويقرأ عليهم كتابا بلغتهم، وهم يعرفون أمانته وصدقه ولو أن الله أهلكهم قبل مجيئه لاحتجوا على ربهم وقالوا يا ربنا هلا أرسلت الينا رسولا يدعونا إلى سبيلك ويبين لنا ما نفعل ونذر من الأعمال حتى نتجنب سخطك وعقوبتك، فكيف تهلكنا يا ربنا ونحن غافلون؟ يقول الله تعالى : قد أرسلنا اليكم رسولا وأنزلنا معه كتابا يخرجكم من الذل إلى العز ويجنبكم خزى الدنيا والآخرة ويخرجكم من الظلمات إلى النور ولكنكم كذبتم به وأعرضتم وقلتم ساحر ومجنون، وقلتم شاعر نتربص به ريب المنون .

﴿ قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن أهتدى ﴾

قل لهم يا محمد كل منا ومنكم متربص بالآخر: أنتم تتربصون بنا الموت أو الهزيمة ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** - التوبة٥٢﴾ أنتم تتربصون بنا في الحقيقة إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده جزاء لكم على كفركم

وجحودكم أو بأيدينـا في غزوة ينصرنا الله فيها، ويظهـرنا عليكم ونتربص ظهور هذا الدين ﴿**فتربصوا إنا معكم متربصون** ـ التوبة٥٢﴾ .

﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن أهتـدى﴾

السين للتنفيس وجـاءت هنا مقترنة بـالفعل اشـارة إلى قرب تحقق الـوعيد أى فستعلمون قريبا علم اليقين من هم أصحاب الصراط السوى، نحن أو أنتم وفى هذا تسليـة للنبى ﷺ ولقومـه الذين يـؤذيهم الكفار بـالسخريـة والاستهزاء وأنواع الأذى وهذا نظير مـا جاء فى سورة المطففين ﴿ **إن الذين أجـرموا كـانوا من الـذين آمنـوا يضحكـون وإذا مـروا بهم يتغـامـزون .. الخ السـورة** ـ المطففين ٢٩ / ٣٠﴾ فالآيات تسلية وتطمين للمؤمنين على أنهم على هدى من ربهم وأن العـاقبـة الحسنى لهم لا لأعـدائهم ﴿**وسيعلم الـذين ظلمـوا أى منقلب ينقلبون** ـ الشعراء ٢٢٧﴾ ويومئـذ يعترفون ويـؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم وذلك حين يأتيهم الأجل المحتوم وحين يبعثـون يوم القيـامة، وفي الآية ذكـر أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى وليس فيهـا ذكر الطرف الآخر لحقارتـه وهوانه ولأنه يعـرف بطريق المفهـوم وفي السـورة عود على بـدء وهـذا من بـلاغة القـرآن تختم السورة بمثل مـا بدئت بـه، ففي بدايتهـا تسلية لقلب النبى ﷺ وتطمين لـه أنه على الحق فلا يهلك نفسه عليهم حسرات، إن عليه إلا البلاغ :

﴿ طه ما أنزلنـا عليك القـرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشـى﴾

﴿قل كـل متربص فتربصـوا فستعلمـون من أصحـاب الصراط السـوي ومن أهتـدى ﴾

وفي نهايـة السـورة مثل الـذي في بـدايتهـا من التسليـة والتثبيت والتطمين فتربصـوا بهم فليتربصـوا فسيعلمون قـريبـا من هم أهل الهدى ومن تكـون لهم العاقبة ولله الأمر من قبل ومن بعد والحمد لله رب العالمين .

○●○

تم تفسـير سـورة طــه

تفسير سورة الأنبياء

٢١ سُورَةُ الأَنبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم
مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً
قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قُل رَّبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ
أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

السورة مكية تعتني بتقوية العقيدة كأخواتها من السور المكيات، تقيم الدلائل على الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وأهواله وتنذر الناس عذاب الله يوم القيامة وعذابه في الدنيا، وسميت « الأنبياء» لأنها تذكر خبر طائفة من أنبياء الله، بالإطالة بعض الشيء في خبر إبراهيم، وبالإيجاز في ذكر الأنبياء الآخرين، والسورة شديدة الإتصال بما قبلها من السور ففي سورة (طه) يقول تعالى في ختامها: ﴿**قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن أهتدى** ـ طه ١٣٥﴾ وفى بداية هذه السورة يقول تعالى ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ إن هذا الأمر الذى نتربصه لقريب محقق الوقوع، فلا تستعجلوه ولا ترتابوا في وقوعه، إقترب للناس اليوم الذى يبعثون فيه ويحاسبون وهم في غفلة عنه ساهون، معرضون عن ذكره وعن الإستعداد له، معرضون عن النذر.

﴿**ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾

ما يأتيهم من ربهم من ذكر وهو القرآن يتجدد نزوله عليهم، ما ينزل عليهم من قرآن الا استمعوه سماع الاستهزاء والسخرية واللعب، فهم لا يستمعون سماع الفهم والتدبر والقبول، بل يسمعون للسخرية والتكذيب، وقلوبهم لاهية معرضة عنه، ومتى يجدي استماع الأذن إذا كان القلب لاهيا، كذلك حال هؤلاء المكذبين، كلما نزل شيء من القرآن وحيرتهم بلاغته وإعجازه تناجوا فيما بينهم وأسروا نجواهم.

﴿ **الذين ظلموا** ﴾

وهو بدل من الواو قبله: ظلموا أنفسهم بالتكذيب والكفر وظلموا قومهم

ونساءهم وأولادهم وأقوامهم بالصد عن سبيل الله، وإلقاء ركام الشبه على كلام الله الذي أدركوا عظمتـه وصدقه وحلاوته ولكن كبريـاءهم وإنكارهم أن يكون البشر رسولا منعهم من الاعتراف بصـدقه والإيمان به فيتناجى مـلأهم سرا ماذا يقولون لأقوامهـم حتى لا يؤثر فيهم فيؤمنوا وأخيرا يقررون أنـه سحر وأنه كلام بشر فيقولون لهم.

﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾

هكـذا يصوغـون الكـلام على صيغة الإستفهـام الـذي يراد بـه النفي أولا والإنكار ثانيا حتى يكون أشد تأثيرا على النفوس. يقولون مخاطبين أهاليهم: هل هذا الشخص إلا بشر مثلكم، فكيـف يدعي أنه رسـول من عند الله؟ ولـو شاء الله لأنزل ملائكة، ومـا هذا الكلام الذى يأتيكم به إلا اختلاق مـن عنده يؤيده بـالسحر ليسحـركم به فـلا تنخدعـوا له ولا تـؤمنوا بـه، أفتأتون السحـر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ يقولون لهم هذا لأنهم يعلمـون أنهم يحسون حلاوته وبلاغته وسلطانه على نفوسهم فيضربون لهم المثل بالسحر لأن السحر يؤثر على النفوس وهـو باطل لا حقيقـة له، وهم يـدركون الفـرق الفارق والبعـد البعيد بينـه وبين السحر، إذ السحر تمتمات وأسجاع وترهات وأباطيل، وكلام رب العالمين صدق وحكمة وعلم وقول فصل وبيان معجز، ولكن الأهواء أعمت أبصارهم وجعلت قلـوبهم في أكنة وفي آذانهم وقـرا، فتولـوا عنه معـرضين، وقد ضربت كبريـاؤهم بينهم وبينـه حجابـا، فهم لا يـؤمنون ولا يـدعـون أقوامهم يفكـرون في الإيمان، وكـذلك الطغيان في كل زمـان ومكـان وتلك طبيعة الاستبـداد في سادة النـاس وكبرائهم إلا قليلا ممن عصم الله .

﴿قل ربي يعلم السر في السماء والارض وهو السميع العليم ﴾

أمـــر الله تعـالى نبيـــه أن يقـول لهم ربي وربكم يعلم السر كلــه في السماء

والأرض وهـو السميع لأقوالهم التي يتنـاجـون بها، العليم بنوايـا قلوبهم، فهـو السميع الذي لا تخفى عنـه الأصوات، العليم الـذي لا يعزب عن علمـه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وجاء هـذا القول بعد إسرارهم النجـوى مناسبا قوي التأثير عليهـم، لأن الله العليم بهم فضحهم وفضح أقوالهم التى تنـاجوا بها فلم تعد خافية على الناس .

﴿بل قـالوا أضغـاث أحـلام بل افتراه بل هـو شاعـر فليأتنـا بآيـة كما أرسل الاولون، ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يومنون﴾

فضح الله تآمرهـم في هاتين الآيتين ورد عليهم بالرد القامـع لهم، بل قالوا أضغـاث أحلام، إنهم كـذبوا بهذا القـول ورموه بأنـواع من الترهات والأبـاطيل ليموهوا بها على أقوامهم حتى لا يؤمنوا، فمنهم من قـال هو اخلاط الرؤى يراها في المنـام فيقصها على النـاس وكأن قائلا يـرد على هذا القـول لأنهم أدركوا أنـه كلام حكيم معجـز يعلو ولا يعلى فقال آخرون بل افتراه، أي ليس الأمـر كذلك بل اخترعه محمد وصاغه في كلام بليغ ككثير من البلغاء من قبله، وكأنهم شعروا أن هـذا الكلام لا يـروج على أقوامهم لأنهم يـدركون أنـه أعلى رتبة في الحكمـة والبلاغـة والإعجاز من كلام النـاس حتى أنهم عجزوا أن يأتوا بمثلـه بل بسورة من مثله فقال بعض منهم بل هو شاعـر صاغه كما يصوغ الشعراء كلامهم، إنما هو بـدع من الشعر لم يتقيد بأوزانهم، وكـأن بعضا منهم لم يرضى هـذا القول ولم يقتنع بـه للفرق الكبير بينـه وبين الشعر وخيـالاتـه ومبالغـاته وأنـواع أغراضـه الـدنيئة وأوزانـه وقـوافيه، فقـالـوا فليأتنا بـآيـة كما أرسل الأولون، سكتـوا عن معارضته بما سبق فاقترحوا الآيات تحديا لـرسول الله لا طلبا للحقيقة، قالوا لولا يأتينا هذا الذي يزعم أنه نبى بمعجزة خـارقة كما جاء الرسل الأولون وقد علموا أخبار من سبق من الرسل وأممهم المجاوريـن مثل هود وصالح وشعيب وموسى ولـوط، فهم يتحاكـون أنباءهـم، ويمرون على منـازلهم، ويعلمون معجـزاتهم،

وسبب هلاكهم، فاقترحوا الآيات ونسوا أن معجزة القرآن يأتي به الأمي هي المعجزة الكافية لمن يطلب الحق، وهي المعجزة الباقية الخالدة يدركها أهل زمان البعثة ومن بعدهم من الناس حتى يرفع، ولكنهم قوم خصمون، فرد الله عليهم بما يدحض شبهتهم فقال :

﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يومنون﴾

لقد كانت أمم قبلهم طلبت من أنبيائها آيات لا ليستبينوا بها الحق ولكن ليعاجزوهم، وكان من سنة الله فيهم أنهم إذا طلبوا آية فجاءتهم فلم يؤمنوا أن الله يسحتهم بعذاب فيبيدهم، وعلم الله أنهم حين يصلون إلى هذا الحد من المحادة والإصرار لا ينفعهم إتيان الآيات فرد الله على قريش بما رد به عليهم لأنه تعالى لا يريد إهلاك هذه الأمة واستئصالها وهى آخر الأمم، وقضى الله أنها ستبقى إلى قيام الساعة فلم يسعفهم إلى إتيان الآيات المقترحة، وفي كتاب الله المنزل عليهم على رجل يعرفونه بالصدق والأمانة لآية بينة لمن يبتغى الرشد، ويطلب الحق، ولكن طبيعة الكبر في نفوسهم وحب الشهوات ترين على قلوبهم كما رانت على من كان قبلهم، وقد علم الله منهم ذلك فرد الله عليهم. **﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يومنون** ـ يونس ١٠١**﴾** ثم قال تعالى:

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلنٰهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾

هذه الآيات الثلاث رد على هؤلاء الكفار الذين ينكرون أن يكون الرسول بشرا فردّ الله تعالى عليهم هذه القولة كما ردها عليهم في مواضع أخرى من كتابه الكريم، قال تعالى: **﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم** ـ يوسف ١٠٩**﴾** فالإرسال من قبل الله تبارك وتعالى والرجال يتلقون الوحي من الملائكة الكرام،

ومنهم من كلَّم الله، ثم يبلغون الناس ما أنزل إليهم، وفي الآية إشارة إلى أن الرسالة لا تكون إلا في الرجال، قال تعالى :فأسالوا أهل الذكر الذين عندهم علم بالرسل والوحى، الذين يقرؤون التوراة والإنجيل، ويعرفون صفات الرسل وعلامات النبوة، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون بحقائق النبوءة والوحى وسمات الأنبياء والرسل يخبروكم بأوصافهم فليس صاحبكم هذا بدعا من الرسل، ولا ينكر العرب أمر الرسالات وهم يتقاصون أخبارهم، وفي قولهم السابق: ﴿**فليأتنا بآية كما أرسل الاولون**﴾ فقد ألزمهم الحجة بما يعترفون به فما كان هذا الرسول الذي أرسل إليهم إلا واحدا من تلك الرسل الذين يوحى إليهم، وليسوا إلا بشرا مثلهم. قال الله تعالى في وصفهم:

﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين** ﴾

وليحقق الله بشريتهم نفى عنهم صفات الملائكة ونفى عنهم الخلود فقال وما جعلناهم أجسادا لا تأكل الطعام ولا تخرج فضلاته بل هم بشر كسائر البشر يجوعون فيأكلون، ويعطشون فيشربون، ويبولون ويتغوطون، ويمسهم التعب والإعياء، ويمرضون ويموتون، وهذه الأوصاف أليق بمن يبعث رسولا ليكون قدوة للناس لأنهم لو لم يكونوا كذلك لقال الناس كيف نقتدي بمن لا يمسه ما يمسنا من الحاجة إلى الطعام والشراب والدواء؟ فهؤلاء ولو تبتلوا للعبادة قد تخلصوا من الطبيعة البشرية فكيف نكلف نحن أن نأتسي بهم وليسوا مثلنا في الضعف والحاجة ومس المرض والموت؟ هلا كانوا مثلنا يشعرون بما نشعر به من الحاجة إلى الطعام والشراب والنساء؟ ويشعرون بالحر والقر فتكون لنا بهم في تحمل اعباء التكاليف والعبادات من صلاة وصوم وطهارات وصبر عما تدعو إليه النفس من الشهوات؟ واضطرار في بعض الاحوال إلى تخفيف الاحكام عند المشقات؟ وأيضا لو كان هؤلاء الرسل ملائكة لاقتضت حكمة

المرسل أن يجعلهم بشرا ليكون في إمكان البشر أن يتصلوا بهم ويسمعوا منهم لأنه ليس في استعدادهم الاتصال بالملائكة، وحينئذ لو كان الرسل من جنس الملائكة وجعلوا بشرا في مظاهرهم لالتبس الأمر على الناس فيكذبونهم في أمر الرسالة وفي أدعائهم أنهم ملائكة، فكان من لطف الله بنا أن أرسل إلينا رسلا من أنفسنا يبعثهم في الذؤابة من أقوامهم يعرفونهم ويعاشرونهم عمرا طويلا قبل مبعثهم، ويؤيدهم الله بالمعجزات والكرامات ما يدل على صدقهم وصدق الكلام الذى يأتون به ويقولون هو من عند الله، فما يكذبهم حينئذ إلاَّ شقي أثيم خصيم مبين، ثم قال تعالى:

﴿ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾

يقول الله ثم صدقناهم وعدنا إياهم بالنصر في الدنيا والتمكين في الأرض والفوز في الآخرة بحسن المصير في النعيم المقيم، وما من نبي ولا رسول إلاوقد وعده الله بوعود ثم يحققها في الدنيا والآخرة ويوم يأتي الهلاك العام ينجيهم ومن يشاء من الذين آمنوا بهم واتبعوهم، ثم يهلك الله المسرفين بالشرك والمعاصي، وتأتي هذه الأفعال موصولة بنون العظمة لتدل على عظيم سلطان الله وهوانِ هؤلاء الكفار على الله فهم لا يستحقون الرحمة يوم يأتى أمر الله بما عصوا وكانوا من المفسدين، وفى هذا تسلية لقلب النبى ﷺ ومن معه وإنذار للكفار في كل زمان من سوء العواقب التي يتعرضون لها بسبب كفرهم وتكذيبهم.

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾

يقول الله تعالى مخاطبا هؤلاء القوم الضالين الذين يطلبون الآيات يتحدّون بها رسولهم: لقد أنزلنا إليكم كتابا هو المعجزة الكبرى الخالدة التي يدركها الأولون والآخرون ، وفى إمكان كل جيل أن يدركها ولا يزال الزمان يظهر إعجازها في البلاغة والأحكام وتحقق الأشياء التى أخبر القرآن بها، ومنها

حفظ هـذا الكتاب من التبـديل والتحـريف، فقد ضمن الله حفظـه يـوم نزولـه وهاهو اليـوم تمضى عليه أربعة عشر قرنـا ولا يزال غضا طريا مشرقـا ساطعا كما أنزل لم يغير منـه حرف واحـد، ولااستطاعـت هذه العلـوم البشرية المتقـدمة أن تنقض قاعـدة واحدة من احكامه أو حقيقـة من حقائقه بل لاتزداد إلا نصـاعة وظهورا كما قـال منزلـه ﴿ **سنـريهم آياتنـا في الآفـاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنـه الحق** ـ فصلت ٥٣﴾ ذلك لانـه كلام رب العـالمين عالم الغيب والشهـادة الحكيم الخبير فأين المعجـزات الماديـة من معجزة القـرآن الخالـدة؟ أين عصى مـوسى والآيات التى جـاءت معه؟ أين معجـزات عيسى وداود وسليمان؟ تلك كانت لزمـان مضى ولقوم معينين ونحن نؤمن بها ولا ننكـرها لأن القرآن أخبر بها ولكنها اليوم لا تقيم للناس برهانا لأنهم لايشهدونها، أما معجزة القرآن فلا تزال باقية ساطعة البرهان ويمتن الله بهذا الكتاب على العرب خاصة.

﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾

أيها القوم الضالون ما لكم عن القـرآن معرضين أليس فيه ذكركم ومجدكم وشرفكم الخالد؟ ما لكم لا تعقلون ؟ وهل كنتم شيئـا مذكوراً قبل نزول القرآن؟ كانت للأمم من غيركم حضارات وإمبراطوريات وجنود وقوة وعتاد، فماذا كنتم بينهم؟ أليس هذا الكتـاب فيه ذكركم وفخركم وخلودكـم إذا آمنتم به وحملتموه إلى الناس تفتحـون به العالم، وتقهـرون به الـدول ذوات العدد والعتاد إنـه كتاب فيه عـزكم وسيادتكم، فما لكم لا تـؤمنون به وفيـه سعادتكم في الآخـرة وذكركم بين الأمم وعبر التاريخ! أفلا تعقلون؟

واليوم وقـد أصابت العرب جـاهلية عميـاء فهم ينبذون الفخر بـالإسلام وبالقـرآن وينبذون العمل به والحكم بما فيـه وينادون بـالقومية العـربية والبعث العربي وما قيمـة هذه الشعارات إذا جردت عن الدين وابتعـدت عن القرآن وما جـدواهـا ومـا قيمتهـا في النـاس، إنـه لا فضـل لعـربي على أعجمى ولا فضل

لأعجمى على عربى إلا بالتقوى، وإنه لا سيادة للعرب إلا إذا رجعوا إلى دينهم، وتمسكوا بكتاب ربهم وأقاموه بينهم، فليتفطن الحمقى وليتنبه الغافلون وليستبصر الضالون، ولترفع شعارات الإسلام والقرآن بدل شعارات القوميات الضيقة والدعاوى الجاهلية، وليحل الهدى محل الضلال والرشاد محل الغي ولترجع العقول إلى صوابها .

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون قالوا يٰويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين ﴾

قال تعالى: وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة. القصم هو كسر الجسد الصلب كسرا شديدا كذلك يقصم الله الظالمين، يهلكهم في طغيانهم وهم في إقبال من الدنيا فيأخذهم أخذا وبيلا، وقد أمهلهم قبل ذلك وما زادهم الإمهال إلا إمعانا في المكر والظلم، ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، وظلم غيرهم بالإفساد في الأرض وطلب العلو والغلبة، وجاء التعبير بكمْ التى تدل على التكثير، ذلك لكثرة القرى التى كفر أهلها فأهلكهم الله ولا يزال يهلك الظالمين بأنواع من الخسف والزلازل والحروب والدمار، ولله جنود السموات والأرض، ثم قال تعالى:

﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾

أي وأوجدنا بعد الهالكين أقواما آخرين لننظر ماذا يعملون، حتى إذا بغوا وأفسدوا في الأرض صنعنا بهم ما صنعنا بأسلافهم كما قال تعالى ﴿ **ألم نهلك الاولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين** ـ المرسلات ١٨﴾ ولا يزال الله للظالمين بالمرصاد قال تعالى :

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾

فلما جاء العذاب وأحس هؤلاء الظالمون بوقعه إذا هم من قراهم يركضون شرقا وغربا هنا وهناك تائهين ذاهلين، والركض ضرب الأرجل بالأرض، وفى التعبير بالركض روعة في تصويرهم وهم يجرون إلى غير هدى ظانين أن جريهم ينجيهم من عذاب الله وقد أحاط بهم ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم، وفي التعبير بإذا الفجائية بيان مفاجأتهم بالعذاب من غير توقع ولا إنذار، وفي الآية تصوير بديع لحالهم وهم يتلقون العذاب المفاجىء الذي لا قبل لهم به ولا يطيقون دفعه فهم يركضون طلبا للنجاة ولات حين مناص، قال تعالى:

﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾

لا تركضوا اليوم فإن الركض لا ينفعكم ولا ينجيكم من عذاب الله وارجعوا إلى ما اترفتم فيه لتذوقوا الهلاك في تلك المساكن التي كنتم منعمين فيها بأنواع النعم وكنتم لا تشكرونها، ارجعوا لعلكم تسألون عن النعيم الذى كنتم تتقلبون فيه ولا تشكرون الرب المنعم ولا تؤدون له حق العبادة بل كنتم تكفرون برسله وتحادون ربكم بأنواع المعاصى أو لعل الناس يسألونكم عن سبب هلاككم فإن لم تجيبوا حوارا أجبتم اعتباراً،فاليوم فذوقوا جزاءكم في مصارعكم ثم بعدها تسألون، أي ليس الأمر ينتهى بحلول بأس الدنيا بل بعده سيحاسبون ويسألون وينالهم جزاؤهم في الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

ولا يزال المشهد يعج بالأصوات والحركات **﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين ﴾** إنهم في تراكضهم ينادون بالويل والثبور شأن الأشقياء حين يأتيهم العذاب ولا يعود لهم رجاء في النجاة يعترفون أنهم كانوا ظالمين وليس اعترافهم بمغنيهم شيئا

قـال تعـالى:

﴿فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدًا خامدين﴾

أى لا يـزالـون يتضـاغون بـالصراخ حتى أحـالهم عـذاب الله النـازل إلى حصيـد وانتهى حـالهم إلى خمود كما تخمـد النار بعـد اشتعـالها وتحول إلى رمـاد، والحصيـد هو الـزرع المحصود، شبـه الله حالهم بعـد الإزدهار والإقبـال بالـزرع المتهشم المحصود وما أدل هذه العبـارة على حالهم وقد هلكوا وحل بهم بأس الله وانتهى كل شيء، ونعـوذ بـالله من حلـول بأس الله ونستجير به من شر عـذابـه ونقمه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي هذه الآيـات إنذار وتخويف للكفار من قـوم النبي أن يصيبهم مثل ما أصاب هـؤلاء الأقـوام من الهلاك إذا هم لجّـوا في طغيـانهم ولم ينتهوا من تمردهم وظلمهم ومن أراد الله بـه خيراً فإنـه يعتبر ويـرجع إلى الصـواب وبـاب التـوبـة مفتوح والإسلام جب لما قبله .

ثم بعد هذا يتحول الكلام إلى بيان حكمة الله من خلق السموات والأرض وبيان وحدانية الله وعظيم سلطانه

(١)
وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١) ملحوظة : من قـوله تعالى ﴿وما خلقنـا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ إلى قوله : ﴿ولقـد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ أي من الآية ١٦ حتى الآية ٥٠، انقطع التسجيل، فاجتهدت في تفسيرها بما منَّ الله عليَّ، ملاحظا في ذلك وجهة نظر أستاذنا في التفسير، والله على ما أقول وكيل.. (ناصر المرموري) .

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ
مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ
مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآيات حقيقة ربوبيته ووحدانيته وأنه المعبود وحده بحق، وأن أفعاله تجل عن اللهو واللعب، ينفي ربنا تعالى أن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ويأتى هذا النفى في مواضع كثيرة من القرآن، وتأتي الأفعال موصولة بـ (نا) التى هي للعظمة لأن المقام مقام التنزيه والتعظيم والإجلال، يقول تبارك وتعالى:

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لغرض اللهو واللعب وما أغنانا عن ذلك وما أبعد أفعال الله عن اللهو واللعب بل كل أفعاله تجرى بمقتضى الحكمة، وقد عرف ذلك المؤمنون وشهد به أولوا العلم الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض فيقولون ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ـ آل عمران١٩١﴾ عرف أولوا الألباب أن سنة الله في خلقه أن تجري وفق تعبير حكيم ونظام دقيق وأن ترتبط الأسباب بمسبباتها وأن من الحكمة أن يكون يوم يجزى فيه العاملون بها يستحقونه من الجزاء، فآمنوا بيوم الجزاء وتضرعوا إلى الله بالدعاء أن يقيهم عذاب النار وأن يكفر عنهم سيآتهم ويتوفاهم مع عباده الأبرار. ثم يقول الله تعالى:

﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾

أى لو أردنا أن نتخذ شيئا مما يتلهى به الناس لاتخذناه من لدنا في ملكوتنا الأعلى، واللدنية تشعر بالخصوصية والقرب، واللهو الولد والصاحبة، وفي هذا رد على الذين يزعمون أن المسيح ابن الله والذين يقولون عزير ابن الله، والذين يقولون الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وقوله إن كنا فاعلين إما أن تكون شرطية أي لو كنا فاعلين، وإما نافيه أي ما كنا فاعلين، وعلى كلا المعنيين ففيه النفي القاطع، لأن (لو) تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط، فالله تبارك وتعالى ينفي ذلك عن نفسه فهو أمر لا يريده وليس من شأنه، فهو تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وتنزه ربنا وتقدس أن توصف أفعاله باللهو واللعب بل أفعاله كلها تجري على مقتضى الحكمة كما قال:

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾

بل حرف إضراب أي ليس كما يزعم المبطلون بل يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق أى زائل عن موضعه ذاهب متلاش، والدمغ هو الكسر الشديد للشيء الصلب الأجوف، فقد يتظاهر الباطل بالصلابة والقوة والانتفاخ ولكن سرعان ما يتهشم ويتلاشى إذا قذفه الحق، وهو ما تدل عليه العبارة ﴿**فإذا هو زاهق**﴾ لأن إذا هذه للفجاءة، فلا ثبات للباطل عند ظهور الحق مطلقا بل سرعان ما يزول، والتعبير بالقذف بالحق من روائع البيان فهو تصوير للمعنوى في قالب المحسوس، ولا يكون القذف إلا بالشيء الصلب المتين، ناهيك إذا كان القاذف هو الله، وهذا هو المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب ثم قال تعالى :

﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾

والويل دعاء بسوء وهو هنا من الله إيجاب للسوء لهؤلاء الكفار الذين يصفون ربهم بما لاينبغى له، ويصفون أنبياءه وملائكته بما لاينبغى لهم، فتهددهم الله بالويل وهو العذاب الشديد الذي لا يطاق ولا مناص منه ولا خروج .

﴿وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾

أى تنزه عن وصفكم وتقدس من له من في السموات والأرض، كل له عبيد ومخلوقون، وجاء الضمير للعاقل لان العبرة بهم أكثر كما جاء بالعندية تشريفا لهؤلاء الملائكة ورفعا لمقامهم، فهم عباد مكرمون لربهم عابدون لا يستكبرون عن عبادته، ولذلك استحقوا القرب والعندية ولا يستحسرون وهو مَسّ الإعياء الشديد بعد معاناة الأمر الشاق، وفي هذا إشارة إلى أن مداومتهم على عبادة ربهم وتسبيحه أمر من شأنه أن يتعب القائمون به، لكن ملائكة الله

لا يستحسرون ولا يسأمـون بل يسبحـــون الليل والنهـار أي دوامـا لا يفترون في عبـادتهم، أي لا يمسهم سأم و لا ملل ولا انقطـــاع، فإذا كـان هـؤلاء عبـاد الله المكرمون يعمرون السموات بعبـادتهم فما الداعى لاتخاذ اللهو؟ فما أبعد ملكوت الله عن ذلك وسبحان الله رب العرش عما يصفون .

﴿ أم اتخذوا آلهـة من الارض هم ينشرون لـو كان فيهما آلهـة إلا الله لفسـدتـا فسبحـان الله رب العـرش عما يصفـون لا يســأل عما يفعل وهم يسـألون ﴾

أم هذه لـلإضراب الإستفهامي، والاستفهام للإنكـار، أي هل اتخذ هؤلاء الكفار آلهة ينحتونها من الحجارة أو يصنعونها من معادن الأرض وهذا تهكم بهم إذ الملائكـة الذين هم عباد مكرمـون يسبحون الله لا يفترون فـلا ينبغى لهم أن يكـونـوا آلهة، فهل هـؤلاء القـوم لما عـدمـوا الآلهة من أهل السماء اتخذوا آلهة من الأرض؟ ينحتونها يعبـدونها، وليس أدل على سخافـة عقولهم من عبـادة آلهة من الأرض . أم يـزعمون أنها تقـدر على ما أنكـروه على الله خالقهم فهى تقـدر على بعث الأموات وهم ينكرون البعث؟ وهذا أسلـوب في غاية الإلزام لأنه يخاطبهم بالحق الذي لا ريب فيه، وإن أنكروه، ففى الخطاب تجاهل إنكارهم، لأنه إنكار للواقع، فلا قيمة له، ولهذا الأسلوب وقعـه البليغ في نفوس هؤلاء المكذبين الذين لهم الويل مما يصفون، وهم مرجع هذه الضمائر .

﴿ لـو كـان فيهما آلهة إلا الله لفســدتـا فسبحـان الله رب العـرش عما يصفون ﴾

يقول الله تبـارك وتعالى : لو كان في السمـوات والأرض آلهة أخرى غير الله لفسـد نظـام السمـوات والأرض ومن فيهما، وهـذا بـرهـان قـاطع يحاج الله بـه المشركين ويقطع بـه جهيزتهم فيلزمهـم به الحجـة، إذ لو تعددت الآلهة فـإما أن

تتوافق إرادتهم في كل شيء فلا معنى حينئذ للتعدد ولا يمكن هذا، وإما أن تختلف وحينئذ فإما أن تتفاوت قدراتهم وإما أن تتساوى، فإن تفاوتت فالأقوى هو الإله ولا تصلح الألوهية لمن دونه ولا شركة له، وإن تساوت فالحرب بينهما لا محالة واقعة فيفسد كل منهما مملكة الآخر، وهو فساد السموات والأرض فلما رأينا قيام السموات والأرض على سنن معلومة ونظام دقيق ونواميس كونية تجرى على صراط مستقيم ملايين السنين علمنا أن المدبر الحكيم واحد، وهو الخالق المالك المقتدر الفعال لما يريد.

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾

فتنزيها لله الواحد القهار رب العرش العظيم عما يصفه به هؤلاء الكفار، وجيء بذكر العرش وأضيف إليه اسم الرب لأن العرش أعظم من السموات والأرض وهو مقر السلطة ومصدر الأوامر التكوينية فربوبيته لما هو دون العرش من باب أولى وأحرى فسبحان الله ربنا ورب العرش عما ينعته الجاهلون .

﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾

لا يسأل سؤال اعتراض عما يفعل، على أن أفعاله تجرى بمقتضى الحكمة، وهم يسألون ذلك لأنه وحده الرب الإله، وهم عبيده المسؤولون المحاسبون، وتأتي هذه الجملة بعد ذكر ملائكة الله المقربين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فهم على رفعة مقامهم لا يتجرؤون وأن يسألوا ربهم سؤال اعتراض إلا سؤال استزادة العلم كقولهم ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ـ البقرة ٣٠ ﴾ وهم يسألون ويحاسبون لو قصروا في العبادة وتنفيذ الأوامر كما يسأل غيرهم من الإنس والجن ومن شاء الله، والكل خلقه وعبيده وإماؤه، ماض فيهم حكمه عدل فيهم قضاؤه.

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي

وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾

فبعد أن أقام الله تعالى الدليل على وحدانيته بالحجج العقلية أردف بإبطال مزاعم المشركين بالأدلة النقلية فقال ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي** ﴾ وتأتي (أم) التي هي للإضراب الاستفهامي الإنكاري، يستنكر الله أن يتخذ عباده من دونه آلهة يعبدونها، يقول لرسوله قل لهؤلاء هاتوا برهانكم على صحة ما تزعمون من الكتب النازلة من السماء، وتأتي الإشارة بهذا إلى الكتاب المنزل على محمد ﷺ ذكرا له ولمن معه وهو أيضا ذكر لمن قبله من الأنبياء والرسل، لأن فيه أبناءهم، وهم كلهم يدعون أقوامهم لعبادة الله وحده، والكفر بالطواغيت دونه، فليس في كتب الله كلها شاهد على ما يزعمونه من اتخاذ الشفعاء والأنداد، بل فيها النهي والإنكار الشديد على ذلك والانذار بالوعيد على من يتخذ من دون الله آلهة.

﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾

في هذه الآية الإلتفات والإضراب عن الإستدلال لأنه لم يعد ينفع مع هؤلاء المنكرين الجاحدين، يقول تعالى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فقد حجبتهم أهواؤهم عن إدراك الحق، فقلوبهم في عمى عنه، فهم معرضون لا مثولية عندهم وليسوا كلهم بل أكثرهم، لأن الله يعلم أن منهم من ينفعه الإنذار فيفتح الله بصيرتهم فيؤمنون لاستعداد نفوسهم لذلك، وللحق ومضات و إشراق في القلوب وتجليات في بعض الأحوال، وقليل من هؤلاء من يبصر وينبذ ركام الجاهلية ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء** ـ الأنعام ١٢٥﴾ فهم عن الحق معرضون.

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾

بعد أن رد الله على المشركين مقالاتهم في الشرك ومزاعمهم بالمعقول والمنقول، وبيّن إعراض أكثرهم عن الحق وتوليهم عنه، أقبل على نبيه يثبت قلبه بالحق الذي أوحى به إليه كما أوحى إلى النبيين من قبله، بعبارة تؤذن بالعموم الإستغراقي أنه ما من رسول أرسله الله إلا يُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ولا تشركوا بى شيئا، والعبادة هى المحبة والهيبة والخضوع الكامل، وتتحقق بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والاستسلام لأمر الله، تلك هى دعوة جميع رسل الله فليست دعوة محمد ﷺ إلا امتداداً لتلك الدعوات ﴿ **إن الدين عند الله الاسلام** ـ آل عمران ١٩ ﴾ وهو دين محمد والنبيين من قبله ودين أمته حتى تقوم الساعة وجاء في الحديث الصحيح : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله » .

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إلَه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾

نسبت طوائف من الكفار الولد لله وجعلت خزاعة الملائكة بنات الله يقولون اتخذها من سروات الجن، وتبعهم في هذا الاعتقاد ناس من قريش وغيرهم، فرد الله عليهم هذا الزعم الباطل وأثبت ما هو الحق، قال: وقالوا أى الكفار اتخذ الرحمن ولدا، ويرمزون بذلك إلى الملائكة يقولون هم بنات الله فرد الله عليهم بالإضراب عن قولهم الباطل :

﴿بل عباد مكرمون ﴾

جاء بالخبر ولم يأت بالمبتدإ لمعرفتهم به أي بل الذين تزعمونهم بنات لله وهم الملائكة عباد لله مكرمون أكرمهم الله ورضي عنهم، ورفع مكانتهم عنده،

وجعلهم على جانب عظيم من الأدب، فهم لا يقدمون بين يدي الله ولا يسبقونه بالقول تعظيما له وتوقيرا وهم بأمره يعملون أي لا بأمر غيره، وهذا ما يفيده تقديم المعمول على عامله .

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾

أي يعلم ما حضر عندهم من علم الشهادة ويعلم ما غاب عنهم من علم الغيب، فهم كغيرهم من مخلوقات الله لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله **﴿ولا يحيطون به علما ـ** طه ١٠٧**﴾** .

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾

أثبت الله لهم الشفاعة إكراما لهم واستجابة لاستغفارهم للمؤمنين، غير أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله من أهل التوبة والاستقامة في الدين، فليست شفاعتهم لأهل الكبائر والظلم **﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ـ** غافر ١٨**﴾** وهذا يقطع مطامع الذين يرجون الشفاعة للمصرين على كبائر الذنوب ثم قال تعالى: **﴿وهم من خشيته مشفقون﴾** الإشفاق هو الخوف الشديد والحذر من أمر متوقع، إن هؤلاء الملائكة المكرمين مشفقون من خشية ربهم فكيف يرضون أن يعبدوا من دونه أو معه وهم لا يشفعون إلا بإذنه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ثم قال تعالى :

﴿ ومن يقل منهم إني إلـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾

ومن يقل من هؤلاء الملائكة للناس اعبدوني واتخذوني إلها من دون الله فذلك نجزيه جهنم وبئس المصير، والله يعلم أنهم لن يقولوا هذه المقالة ولا يرضونها ولكن المقصود بها هؤلاء الكفار الذين يعبدون الملائكة فكيف يرجونهم وهم أنفسهم عباد لله يجرى عليهم قضاء الله ولا يمتنعون **﴿ضعف**

الطالب والمطلوب ـ الحج ٧٣ ﴾ .

﴿كذلك نجزى الظالمين﴾

يقول الله تعالى : كذلك نجزى الظالمين وهم المشركون والشرك ظلم عظيم، فكل من دعا الناس إلى عبادته أو اتخذ لله ندا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، واختير لفظ جهنم وهى الدار الجامعة لأنواع العذاب والشقاء، وأهلها في سخط الله مبلسون، اختير هذا اللفظ ليكون أبلغ في الردع عن الشرك وأنواعه والدعوة إليها والصد عن سبيل الله .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا
مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ
أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ
﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾
بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾

أو لم ير الذين كفـروا أن السموات والأرض كانتا رتقـا ففتقناهما؟ استفهام تقرير أريـد به توبيخ هؤلاء الكفـار الذين يعرضون عن آيـات الله ولا يتدبرونها فيـدركون بها عظمـة الخالق ووحدانيتـه ،ووصف الله تعالى السمـوات والأرض بالرتق أي مرتوقتين لا فتق فيها ففتقهما الله، قال بعض: فتق السماء بالمطر النازل وفتق الأرض بانشقـاقها بالنبـات، وقيل إنهما كانتـا ممتزجتين ففتقهما بفصل كل واحـدة عن الأخرى وان كـان هذا شيء لم يـره النـاس ولكن يكفي للإعتبـار أن يذكره القرآن ثم يتوصل إليه العلماء بـالبحث في أصل الخليقة فيدركونه وهو من آيات الله الكبرى الدالـة على قدرة الخالق وسعة علمه و إحـاطته بكل شيء وأنه واحد لا شريك له.

﴿وجعلنا من الماء كل شـيء حي﴾

يقـول الله تبـارك وتعـالى وجعلنـا كل شـيء حي أصلـه من الماء وقيـامـه واستمـرار وجـوده بـالماء فـلا يستغنى عـن الماء حيّ من مخلـوقـات الله في هـذه الأرض. **﴿أفـلا يـومنـون﴾** أي أفـلا ينظرون نظـر استبصـار فيـؤمنون بـالله، ويؤمنـون بالبعث بعد الموت وأن الله قـادر على أن يحيى الموتى كما أوجدهم أول مرة ثم قال تعالى .

﴿وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾

أي أولا يرون أنا جعلنا في الأرض التي يعيشون فيهـا جبالا رواسى أرساها الله وأرسى بها الأرض حتى تستقر فلا تميد بهم ولا تضطـرب، ولو كانت ميادة لما صلح عليهـا بنيان ولا عمـران، وتبتـدىء هذه الآيـات بـالجعل الموصول بنـون العظمة إلفـاتا للعقـول إلى آيات الله الدالـة على عظمته، قـال تعالى **﴿وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾** أي جعلنا في سـلاسل الجبـال فجوات

عريضـة فيها سبلا لعلهم يسلكـونها ويهتدون بها في اسفارهم من قطـر إلى قطر ومن أقليم إلى أقليم وهذا من قـدرة الله ولطفه بخلقه، ﴿**أفلا يـومنون**﴾ بربهم أفلا يشكـرون للمنعم فمالهم يغفلـون عن آيات الله، ومـالهم يتخذون لـه أنداداً أنى يؤفكون .

﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾

بعد أن ألفت الله تعـالى عباده إلى كبرى آيـاته في الأرض يلفتهم إلى بعض آيـاته الكبرى في السماء وهى آيـات بينـة لكل من يـرى ويعقل، يقول الله تعـالى ﴿**وجعلنـا السماء سقفا محفـوظا**﴾ أى بنينـا هذا السقف العظيم فـوقكم بغير عمد تـرونها وحفظناه من السقوط والتصدع كما جعلنـا عليه حرسا شـديداً يحفظونـه من الشياطين فمالهم عن التفكـر في السماء معرضين، أفـلا يتفكرون في السماء وبنيانها وفى أفلاكها وبروجها ومجاريها ؟.

﴿ وهــو الـذى خلق الليل والنهـار والشمس والقمـر كـل في فلك يسبحـون﴾

الله هو الـذي خلق الليل والنهار يتعـاقبان تعاقبـا حثيثا، وجعل الظلمات والنـور وخلق الشمس والقمر هـذين الكوكبين، جعل الشمس سراجـا وهاجـا وجعل القمــر نـوراً وقـدره منــازل، وجعل سيرهما بنظـام محكـم دقيق كل من الشمس والقمر والنجـوم والكواكـب يسبحون في فضاء الله الواسـع بنظام مقدر معلوم، وجعل حياة ما في الأرض من حيـوان ونبات وغير ذلك متوقفة على أشعة الشمس، ولا تستغنى عن منـافع الشمس فسبحـان من خلق كل هـذه الأشيـاء وحـده، وقدرهـا ووضع لها ميزانـا لسيرهـا وجاذبيتهـا وقدر مشـارقها ومغـاربها تقديرا، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ربكم وإليه ترجعون.

﴿ومـا جعلنـا لبشر من قبلك الخلـد أفإيـن مت فهم الخالـدون كل

نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾

يقرر الله جل جلاله في هـذه الآيات أن الموت مكتوب على كل نفس، وأن الحياة الـدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن الـرجوع إلى الله بعد الموت، وقد كـان كفار قريش قـوم النبى ﷺ يقولـون هو شاعـر نتربص به ريب المنـون، فهم ينتظرون موته لينتهي أمـره، فرد الله مقالتهم هذه مخاطبـا نبيه معرضا بهم قـال: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلـد في هذه الـدنيا فكيف يطمعـون أن يشمتوا بمـوتك، وتهنأ لهم الحياة بعدك فهل ضمنوا لأنفسهم الحيـاةحتى يشهدوا موتك؟ وهل إن مت يخلدون بعـدك؟ وهذا الاستفهام الإنكـاري فيه الإشـارة إلى أنهم لا يسعفون إلى هذا المطمع فهم يهلكون قبلك، إلا من هـدى الله للإسلام، وأن الله كتب الموت على كل حي.

﴿كل نفس ذائقة الموت ﴾

كل نفس لابد ستذوق الموت وإن طال بقـاؤها فسبحان الحي الدائم الذي لا يموت يفنـي الخلائق ولا يموت، وإنما جعل الله هـذه الحياة الـدنيا لـلإبتلاء والإختبـار ﴿**ونبلـوكم بـالشر والخير فتنـة**﴾ أي نختبركم بـالبأسـاء والنعماء والصحـة والمرض والفقر والغنى امتحـانا منـا لننظـر من يكفر ومن يشكـر ومن يعصي ومن يطيع ومن يصبر منكم فيوفى أجره ومن يجزع ويكفر فيلاقي وزره.

﴿ وإلينا ترجعون ﴾

وإلى الله المصير والمرجع ليجـازي كـلا بما يستحق، فـالعـاقل من عمل لما بعد الموت وتزود من هذه الدار الفانية لتلك الدار الباقية، والأحمق من اغتر بهذه الحياة ونسي ما قدمت يداه حتى جاءه الموت على غير استعداد وفي هذه الآيات موعظة وذكرى لأولي الألباب.

﴿وإذا رءاك الـذين كفـروا إن يتخـذونك إلا هـزؤاً أهذا الـذي يـذكـر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾

هـذا نـوع آخر من الأذى الـذى يـؤذي بـه الكافـرون رسـول الله ﷺ فهم يـؤذونه في الغيب بـالتنـاجي في السر بالإثم والعـدوان والتكـذيب، ويؤذونـه في الجهر إذا رأوه يتخـذونه هـزؤا، وجاء الوصف بـالمصدر لإغـراقهم في الإستهزاء فهم لا يتخذونه إلا هزؤا ﴿**أهذا الذي يذكر آلهتكم**﴾ هذه الجملة مفسرة لمعنى الاستهزاء فهي في معنى مقول القول أي يقولون : أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء، واسم الإشـارة للتحقير، والذكـر يكون بـالخير ويكون بـالشر وهو المقصـود هنا للقرينـة الدالة عليه على أن النبي ﷺ لم يـذكرها إلا بـالحقيقـة التي يجب أن تقال فيها، وهم لا يرضون ذلك ويعتبرونه سباً لها وتنقيصاً من شأنها.

﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾

وذكر الـرحمن هنا هو القـرآن المنزل من عند الـرحمن فهم يكفرون بالـذكر، ويكفـرون بالـرحمن ويتجـاهلـون هذا الإسم وهـو من أخص الأسماء بـالله جل جلاله، ولا يجوز أن يتسمى به مخلوق إلا مضافـا إليه هكذا « عبد الرحمن » وجاء ضمير الفصل في وصفهم بالكفر للدلالة على قوة كفرهم وإصرارهم فكأنهم هم الكافـرون لا غيرهم، لأنهم أعرضـوا عن الحجج الـواضحة، والأدلة البينـة التى تدل على صـدق الرسول فيما يـدعوهم إليه، فكفروا بـالرسل وبالآيـات البينات فهم الكافـرون الحقيقيون الـذين بلغوا الدركـة السفلى من الكفر والعنـاد، وهنا يتعجب عباد الله المؤمنـون من إمهال الله إياهم وقد بلغـوا هذا المبلغ الفظيع من الكفر والأذى لرسول الله والمؤمنين فيأتي قوله تبارك وتعالى:

﴿**خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فـلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾

يخبر الله تعالى عن طبيعـة الإنسان وهو أعلم به فيقـول إنه خلق من عجل أي طبيعته استعجـال الأمور واستبطـاؤها فـالمؤمنون يستبطئـون نزول العـذاب

بهؤلاء الكفار المستهزئين بالله وآياته ورسوله ويتعجبون من تأخره ويقولون متى ينتقم الله من أعدائه وأعداء رسوله؟ فيقول الله لهم: سأريكم آياتى في نصر ديني والمؤمنين وإهلاك أئمة الكفر قريبا، وقد وقع ذلك يوم بدر فلا تستعجلون، وثقوا بوعدي ولعل القلق والاستعجال يفضي ببعضكم إلى الشك في صدق وعد الله، وهذا لاينبغى لمن آمن بالله، فنهاهم الله تعالى عن الاستعجال رفقا بهم وتطمينا لقلوبهم وتثبيتا لها بصدق وعد الله ومن أصدق من الله قيلا، ثم ذكر الله تعالى حال الكافرين المكذبين بوعد الله فقال:

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾

يتعرض الله تبارك وتعالى في هذه الآية لمقالة المشركين المكذبين لينزل عليهم سياط القمع فيها بعديقول أعداء الله الذين كذبوا رسول الله وكفروا بكتابه يقولون متى هذا الوعد الذى تخوفوننا بوقوعه من إهلاكنا ونصركم علينا وقيام الساعة وحلول العذاب، ويقولونه استهزاء وتكذيبا وتشكيكا للناس في صدق رسول الله والمؤمنين بدليل قولهم : **﴿إن كنتم صادقين﴾** والمقصود به التكذيب وقد حقق الله وعده يوم بدر حين أنزل خمسة آلاف من الملائكة مسومين وأنزل نصره على رسوله وعلى المؤمنين، وحين وقف رسول الله ﷺ على جيف أئمة الكفر وهى مرمية في القليب، يقول بعد أن نادى كبراءهم بأسمائهم: إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا والاستفهام هنا للتبكيت وهو يعلم أنهم واجدون وعد الله حقا فهم يسمعون ولكنهم لا يجيبون لانشغالهم بالعذاب الذى هم فيه ونعوذ بالله من مصير الظالمين .

﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾

الآيتان تصوران مشهدا فظيعا من مشاهد أهل الشقاء يوم القيامة حين

تحق عليهم كلمة العـذاب ولا يجدون منه مخلصا، لو يعلم الـذين كفروا حين لا يكفون أي لا يـدفعون عن وجوههم النار ولا عن ظهـورهم فهم أعجز عن ذلك وهم في السلاسل والاغـلال والنار تلتهمهم من جميع جهـاتهم ولا أحد ينصرهـم يومئذ من أمـر الله، وما للظالمين من أنصار، وقد جيء بـ (لـــو) الشرطية ولم يؤت بجـوابها، وإبهامـه أوقع في النفـوس وأعظم تهويـلا، وقـدره بعض أهل التفسير أنهم لو يعلمـون حين يلاقون العـذاب ولا يستطيعون له دفعـا لأقلعوا الآن عن كفرهم واستهـزائهم، ولكن غرهـم إمهـال الله إياهم وأتوا مـن قبل جهلهم، ولو علموا لكان لهم شأن آخر مع الله.

﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾

بل تأتيهم النـــار بغتـة أي فجأة فتبهتهـم أي فتغلبهم لقـوتها وعـــرامتهـا ومفـاجأتها فـلا يستطيعون ردهـا، ولا هم يمهلـون ولا ينفس عليهم ويبـدو أن لتلك النار هجمات وانفجارات عليهم وفى قـوله تعالى: **﴿فتبهتهم﴾** إشارة إلى مـا كانـوا يبهتون بـه أنبيـاء الله والمؤمنين بألسنة حـداد يطعنون بها أوليـاء الله في وجوههم وظهـورهـم فجازاهم الله على ذلك جـزاء وفاقـا، وفي الآيتين إنذار من الله وتخويف لهؤلاء الظالمين، وتسلية لنبيـه والمؤمنين وتثبيت لقلوبهم ليصبروا على أذاهم ويفوضـوا أمرهم إلى الله، وقال كثير من المفسرين إن الضمير إلى السـاعة أي أن هذه الساعة تأتيهم بغتة بلا إنذار فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون.

﴿ولقـد استهـزئ برسـل من قبلك فحـاق بالـذين سخـروا منهم مـا كانوا به يستهزؤون﴾

لا يزال الله يثبت قلب رسوله والمؤمنين بما ينزل عليه من الآيات التي يبين له فيهـا مصائر الأمم التى كذبت بـرسل الله وكتبه وكانوا يسخـرون بهم فكانت عـاقبة أمـرهم خسرا ،يقـول الله تبارك وتعـالى ولقـد استهزىء بـرسل من قبلك

كثيرين مثلما استهزىء بك وكذبوا كما كذبت، فحاق بهم أي فرجع عليهم استهزاؤهم بالوبال والحسرات فتأس بالرسل من قبلك واصبر كما صبر أولوا العزم منهم، وثق بوعد الله فإن الله ناصرك عليهم ومهلكهم وإن لهم موعدا لن يخلفوه، وفي هذا الكلام تعريض بكفار قريش أنه سيصيبهم مثل ما أصاب المكذبين من قبلهم، فلا يغتروا بتمتيع الله إياهم بطول أمد العافية فلكل أجل كتاب.

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ
رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَا
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

انتقل الكلام إلى خطاب هؤلاء المكذبين فقال الله تعالى لنبيه قل لهؤلاء الكفار المستهزئين المكذبين بوعد الله المستعجلين للساعة استبعادا لقيامها، قل لهم: من الذي يحفظكم من الله إن أراد بكم سوءا في ساعة من ليل أو نهار، وقد يكون المعنى من ذا الذي يكلؤكم أي يحفظكم من قبل الرحمن بالليل والنهار أليس الله هو الذي يكلؤكم دواما؟ لولا حفظه ورعايته لأهلكتكم عاديات الليل والنهار، ألا تشكرون للرحمن نعمة الكلاءة والرعاية ؟ فما لكم تكفرون نعمة المنعم الذي غمركم برحماته في هذه الدنيا المليئة بالآفات؟

بل هم عن ذكر ربهم وذكر نعمه معرضون فهم عن المنعم غافلون قد أبطرتهم النعم وغرتهم الحياة الدنيا فهم عن الآخرة هم غافلون .

﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾

الآية تقريع لهؤلاء المشركين وتحقير لآلهتهم التى يعبدونها من دون الله وهي لا تغني عنهم من الله شيئا وقد بدئت بحرف «أمْ» التي هي للإضراب الإستفهامي أى بل لا ينفع هؤلاء المعرضين الذكر إذا أعرضوا عنه فعلام هم مقبلون ؟أعلى مالا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر؟ هل لهؤلاء آلهة يتعلقون بها فهي تمنعهم من دوننا إن أردناهم بسوء؟. كلا بل هم لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون، فهم أعجز من ذلك فلا أنصار لهم ترد عنهم بأسنا، وتنصرهم عند محاربتنا لهم ولا أعمال لهم صالحة توجب لهم صحبتنا واستجابتنا لدعائهم حين يصيبهم البلاء النازل.

﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾

إذا كان هؤلاء الكفار بهذه المنزلة من الإعراض عن الذكر الذي جاءهم من ربهم وهم بهذا القدر من الضعف والسخافة فكيف متعهم الله بهذه النعم، وهم لا يزالون يرفلون فيها؟ هذا ما يتساءل به المؤمنون، فجاء جواب هذا التساؤل في هذه الآية **﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾**.

اقتضت حكمة الله ومشيئته العيا أن يمتعهم كما متع آباءهم من قبل بأنواع النعم، أجلها الإطعام من جوع والأمن من خوف، حتى طال عليهم العمر في المتاع فقست قلوبهم، ونسوا حق المنعم، ولم يرهبوا لربهم إنذاره وعذابه يقول الله تعالى: أفلا يرون رؤية اعتبار أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها بأنواع من الزلازل والحروب والجدب وسائر أنواع الآفات؟ أفلا يخشون ربهم أن يصيبهم بما أصاب به القرى من البأس، أفهم الغالبون على أمرهم المعتصمون

بقوتهم وعددهم ؟فما نسبة قوتهم وغلبتهم على ما حولهم من القرى والذين من قبلهم ممن حل بهم بأس الله فلم يستطيعوا له دفعا ولن يجدوا لهم من دون الله أنصارا؟

﴿قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾

قل يا محمد لهؤلاء المكذبين إنما أنذركم بالوحي من عند الله وإن كنتم لا تعترفون به وتتعامون عنه وتتصاممون مستكبرين، ولكنه الوحى من عند الله رب العالمين ولابد لهذا الإنذار من أثر في قلوبهم، لأنهم يشعرون ويحسون في قرارات نفوسهم أن محمدا صادق فويل لهم من هذا الإنذار الذي يقرعهم من قبل الله **﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾** يقول الله تعالى : إن هؤلاء في آذانهم وقر فكيف يسمع الصم الدعاء إذا جاءهم النذر، وفي موضع آخر من القرآن يقول الله في حقهم **﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ـ الانفال : ٢٣﴾ .

إنما الذين ينتفعون بالوحي ويستمعون النذير هم المؤمنون الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وقد يأتي وقت يزول فيه الصمم عن هؤلاء الكفار المعرضين ولكن لا ينفعهم يومئذ إيمانهم واعترافهم **﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن إنا كنا ظالمين ﴾** يقول الله تبارك وتعالى ولئن مس هؤلاء المستهزئين شيء قليل خفيف من عذاب الله لكان لهم شأن آخر مع الله ولاعترفوا بما جحدوا به اليوم ولقالوا يا ويلنا قد كنا ظالمين بما كنا به مشركين، وهذا النداء منهم ندم واعتراف بخطئهم وخطاياهم، ولن ينفع يومئذ نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وإنما هي منهم حسرات لا تنقطع.

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾.

يحدد الله بهذه الآية ميزان العدل يوم الفصل بين الخلائق ليطمئن أولياءه ويخيف أعداءه، فأحرى بالعاقل أن يخاف من وسع علمه بأفعال العباد فلا يعزب عنه مثقال حبة من خردل، ووسعت قدرته الاتيان بها من خير أو شر، فلا يفلت منها شيء ولو كان غاية في الدقة، يقول تبارك وتعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، والموازين القسط هي الغاية في الضبط والعدل فلا تظلم نفس شيئا يزاد في سيئاتها أو ينقص من حسناتها، وقد حرم الله الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده .

﴿ **وكفى بنا حاسبين** ﴾

أي وكفى بالله حاسبا فهو وحده العليم الخبير بأفعال العباد الحاسب للنقير والقطمير منها، لا يحتاج إلى أعوان أو مصححين وكثيرا ما يخطىء الناس في الحساب فيحتاجون إلى أعوان يراجعون حساباتهم، وقد يخطىء هؤلاء أيضا لكن الله العليم الخبير بالأفعال والنوايا لايخطىء في الحساب، ويحاسب الناس على كثرتهم، كما يرزقهم على كثرتهم لا يشغله شأن عن شأن، ولا يظلم الناس شيئا يقول جل من قائل: ﴿ **ما يبدل القول لدي وما أنا بظلاّم للعبيد** ـ ق ٢٩ ﴾ إن يوم القيامة يوم عظيم ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا** ـ آل عمران : ٣٠﴾ ذلك اليوم الحق توضع فيه الموازين القسط .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

بعد تأييد هذه الدعوة التامة بالأدلة النقلية والعقلية المقنعة ثم بعد التخويف والإنذار بالأخبار الزاجرة ينتقل الكلام إلى سرد أخبار طائفة من

أنبياء الله للإعتبار وما هذه الدعوة إلا امتداد لتلك الرسالات السالفة: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين**﴾ يؤكد الله الخبر بمؤكدين لأن الكفار منهم جاهل مكذب، ومنهم غافل متناس لأخبار الأولين على أن أمة موسى أقرب الأمم وأمسها رحما بقريش، وشريعتها أشبه الشرائع بشريعتنا فناسب أن يبدأ الكلام بها، يقسم الله تعالى أنه آتى موسى وأخاه هارون الفرقان وهو الكتاب الفارق بين الحق والباطل، ووصف الكتاب بالضياء لأنه نور يهدى القلوب ويخرج العقول من الظلمات كما يهدي الضياء الأبصار فإنه النور الذى يهدي من اتبعه إلى صراط مستقيم، وهو ذكر للمتقين لأن فيه الذكر والموعظة للمؤمنين المتقين لربهم الذين يخشون ربهم بالغيب أى يخافونه ويوقرونه ولم يروه، وإنما رأوا آياته التي دلتهم يقينا على وجوده ووحدانيته ودلتهم على سعة رحمته وعلمه وإحاطة قدرته بجميع مخلوقاته، فأحبوه وعبدوه في سرهم وعلانيتهم وهم من الساعة مشفقون، والإشفاق توقع شيء بخوف واقع لا محالة، وإشفاقهم من الساعة خوفهم من أهوالها التي تحين عند قيامها، فهم يستعدون لها بما يستطيعونه من الإتيان بالمأمورات واجتناب المنهيات والمسارعة بالقربات، وكذلك كان الصالحون من بنى إسرائيل فجعلهم الله أئمة في الخير يقتدى بهم.

﴿**وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون**﴾

الإشارة إلى القرآن الذى نزل على محمد ﷺ لأن الكلام في حقه مستمر، ووصف بأنه ذكر لأن الله أنزله هدى وذكرى للمؤمنين والتعبير بالإنزال فيه إشعار بعلو مقامه وأنه كلام رب العالمين أنزله كما أنزل التوراة والإنجيل وسائر الكتب والصحف المنزلة من عند الله أفأنتم يا معشر قريش لهذا الكتاب منكرون؟ الاستفهام للتوبيخ والتعجيب، أأنتم الذين أنزل بلغتكم على رجل منكم تعرفون صدقه وأمانته وتعرفون بلاغة القرآن وحلاوته وإعجازه، أفأنتم

تنكرونه ؟ لـو كان غيركم أنكره لكنتم أحرى أن تحاربوه وهو الكتـاب الذى فيه عـزكم وذكركم والـذي جـاء لاخراجكم مـن الظلمات إلى النور، و إنقـاذكم من الهلاك؟ أفأنتم لهذا الكلام منكـرون، وهو يأمركم بمعالي الأخـلاق وينهاكم عن سفاسفها وسيئهـا؟ فماذا تنكرون من هذا الكلام الذى أعجـزكم أن تأتوا بسورة من مثله؟ إنّ أمركم حقا لعجيب وإن موقفكم منه لمريب:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم
مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟
فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ
كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ
وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

بعد اللمحة السريعة التي تعرض فيها لكتاب موسى وهارون وشريعتهما، وأن ذلك هو الفرقان ،والضياء لبنى إسرائيل يردف بعدها بخبر سيد الحنفاء مطولا، يعرض فيه قصته مع أبيه وقومه في بلده الأول قبل هجرته وفيها عبرة وتسلية لخاتم المرسلين وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾ يأتي الإضمار في الآية بنون العظمة وضمير الجمع الذي يراد به التعظيم ويؤكد بلام القسم و(قدْ)، ولقد علمت قريش خبر أبيهم إبراهيم ورسالته، ولكنهم ينكرون نبوءة محمد ورسالته ويسخرون منه ظلما وتطاولا عليه، فضرب الله في صدورهم بهذه الحقيقة التي لا يستطيعون ردها، ودعوة إبراهيم، إنما كانت مثل دعوة محمد وسائر الرسل إلى توحيد الله وإنكار الطواغيت، وهذا هو الرشد الذي أتاه الله عبده إبراهيم'هداه الله بعد الضلال والتحير منذ نشأته الأولى، وهذا ما يدل عليه قوله « من قبل » وكان به عليما أي علم من صفات إبراهيم ما يجعله أهلا للرسالة والرشد، والله أعلم حيث يجعل رسالاته واختصاصه بهذا العلم إشعار أنه اختصه الله بالهداية والعناية دون غيره ليؤهله للدعوة إلى الله، والله يختص برحمته من يشاء، وهذا الأسلوب مألوف يجرى به التعبير عند العقلاء عندما يريد الأمير أن يستعمل رجلا لمهمة خطيرة يكون جوابه حين يسأل عن سبب اختياره « أنا أعلم به » وقد يخطىء علم البشر في بعضهم، ولكن علم الله محيط بكل شىء ما خفي من مخلوقاته وما ظهر فلا يخطىء أبدا، والتعبير بنون العظمة مشعر بعظمة الخصال التى علمها الله في عبده إبراهيم، وهو الذى اختصه بها وقال فيه ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ـ الصافات ٨٤﴾ كما قال فيه: ﴿ **إن إبراهيم كان أمة** ـ النحل ١٢٠ ﴾وقال فيه ﴿**إني جاعلك للناس إماما** ـ البقرة ١٢٤ ﴾.

﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا

أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾.

اذكر إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه منكرا عليهم عبادة الأصنام : ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون**﴾ ألقى عليهم استفهام تعجب واستنكار لحالهم فيه تجاهل لهذه الأصنام التي سماها تماثيل لأنهم نحتوها على مثال بنى آدم وحيوانات وأشياء رمزوا بها لنجوم، إنكارا منه عليهم العكوف عندها، والعكوف هو طول الإقامة إلى عندها، وقلوبهم عاكفة عندها حتى عند فراقهم لها فهي مليئة بحبها وتعظيمها وعبادتها، يرجون نفعها ويخافون ضرها، سألهم ما قيمتها وما نفعها وما خطرها وهو يعلم أنها لا تغني شيئا فأجابوه .

﴿ وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾

أي نعبدها لأنا وجدنا آباءنا الأولين يعبدونها، فنحن على آثارهم نصنع كما صنعوا، وهذا جواب يدل على عجزهم وإفلاسهم من الجواب الصحيح لأنهم يعلمون أنها لا تملك نفعا ولا ضرا فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تنزل المطر ولا تخرج النبات ولا تغني شيئا، ولذلك التجؤوا إلى حجة المفلس الضعيف، وهل يغنيهم أن آباءهم عبدوها وهي أضعف من أن تجلب أو تدفع شيئا، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام أجابهم بجواب فيه تسفيه لعقولهم وعقول آبائهم الأولين.

﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾

نسبهم إلى الضلال المبين أى الظاهر الصريح الذى لا لبس فيه، ووصفهم بالجملة الإسمية لتمكنهم منه، وقال أنتم وآباؤكم وما يغنيكم إذا ضل آباؤكم أن تتبعوهم في ضلالهم، فكلكم هلكى بما تعبدون.

﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾

قالـوا لإبراهيم حين جـابهم بالحقيقـة وما كـانوا يظنـون أنه يجرؤ على ذلك ويصرح بـه ويسفه أحـلامهم وأحـلام آبـائهم قـالوا أجئتنـا بـالحق أم أنت من الـلاعبين أي المازحين، لأن اللعب يكون بـاللســان أيضـا، وهذا السـؤال منهم للتعجب الشديـد من موقفه منهم، ولـذا كان جوابه لهم بـالإضراب وبيان الحق مدعما بالبرهان مشفوعا بالشهادة .

﴿قال بل ربكم رب السمـوات والارض الذي فطـرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾.

قـال بل ربكـم الحق المعبـود بحق هـو رب السماوات والأرض، مـا لكهن وخالقهن ومن فيهن وأنا على ما أقول من الحق شـاهد، والشاهد هو الذي ينطق بعلم وحجة، وأنبياء الله هم الشاهدون على أممهم يوم القيامة وهم الشاهدون أن لا اله إلا الله وأن الدين عند الله الاسلام.

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾

انتقال من خليل الرحمن من إنكـار الباطل باللسان إلى إنكـاره باليد، لكن بعد أن يـولوا مدبرين لأنـه حينئذ يتمكن مما يريـد من الكيد لتلك التماثيل التي جعلوها أصنـاما وعكفوا عليها يعبـدونها من دون الله. أقسم بالله وأعلن لهم عن عزمـه غير خائف ولا مبال من انتقامهم، وهـذا غاية الجهاد، أقسم (بـالتاء) ولا تكون إلا عنـد التعجب ومقرونة بـاسم الله، وأكد قسمـه بنون التوكيـد، في لهجة صارمة أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، فبر خليل الله بقسمه.

﴿فجعلهم جذاذاً إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾

فلما تولوا مدبرين إلى عيدهـم ولم يبـق منهم أحد عمد إبراهيم عليه السلام إلى تلك الأصنـام الكثيرة وقيل إنها كانت سبعين صنما فكسرهـا تكسيرا وجعلها قطعـا إلا كبيرا لهم لعلهـم إليه يـرجعـون، تكلم المفسرون في مرجع ضمير إليـه،

فقال بعضهم: هو الصنم الكبير أي لعلهم يرجعون إلى كبير الأصنام ينسبون إليه هذا العمل، وهذا المعنى ضعيف، لأنهم يعلمون أنها لا تتحرك ولا تنفع ولا تضر، والذي أراه ويراه المحققون من أهل التفسير أن مرجع الضمير هو إبراهيم عليه السلام أي لعلهم يرجعون إلى رأي إبراهيم وعقيدته السليمة فيدركون أنها لا تستطيع الدفع عن نفسها فكيف تدفع عن غيرها؟ أما تركه الكبير فليكون موضع التبكيت والسخرية بعقولهم، ولعلهم بعد الحوار يفهمون الحق ويرجعون إليه وهو الرجوع الذي يأمله إبراهيم منهم بعد هذا الحادث وقد وقع، لكن في لحظة خاطفة أبصروا فيها الحق ثم طغت عليهم أهواؤهم فنكسوا على رؤوسهم كما سيأتي الكلام.

﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالواءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾

رجعوا من عيدهم فوجدوا أصنامهم جذاذا فغضبوا لهم وما كانوا يظنون أن أحدا يتجرأ عليها فتساءلوا متعجبين قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟ قالوا مستفهمين من هذا الذى تجرأ على آلهتنا ففعل بها هذه الافاعيل، إنه حقا لمن الظالمين، حكموا عليه بالظلم وأكدوا حكمهم في غضب وانفعال، عندها قال الذين حضروا محاورة إبراهيم: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، وصفوه أنه فتى لصغر سنه، قيل فعل هذا قبل النبوءة وهو شاب، وقيل بعد أن أصبح نبيا وهو في سن الأربعين وهو فتى بالنسبة لكبار القوم أصحاب الستين

والسبعين والثمانين، والراجح أنه فعله بعد أن نبأه الله تعالى ،أما قولهم ﴿يذكرهم﴾ أي يذكر آلهتهم بسوء وقد يكون سمعه أحدهم يتهددها بالكيد، ولما صرح القائل باسم هذا الفتى إنه يقال له ابراهيم أى يسمى بهذا الإسم، أمروا بإحضاره.

﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾

قال كبراء القوم وسادتهم المتحكمون فأتوا به على مرأى من الناس ومشهد، وقولهم على أعين الناس أي في مكان يتمكن الناس من رؤيته حتى لكأنه على أعينهم لعلهم يشهدون ما يقال له، وما يقول، ويشهدون الحكم بما يستحقه في نظرهم من العقوبة فيكون ذلك عبرة للمعتبرين، وزجرا للناس حتى لا تحدثهم أنفسهم بالقيام بمثل عمله .

﴿قالواءأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون﴾

قال القوم لإبراهيم في حرد وغيظ أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم؟ أجاب إبراهيم عليه السلام في رباطة جأش: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ذلك لأنه علق الفأس على عاتق الصنم الكبير فقال لهم هذا الكلام الذى فيه تبكيت لهم وسخرية بهم، وهو يعلم أنهم لا يصدقون كلامه، وفي جواب إبراهيم إياهم بهذا الكلام إحراج لهم واستدراج لهم للرجوع إلى الصواب، وما كان يقصد إلى الكذب بل هو يعلم أنهم يدركون بهذا الجواب أنه الفاعل، ولو قصد إلى الكذب لقال ما فعلت، بل عمد إلى أسلوب حكيم فيه تأثير عجيب في نفوس القوم، فأسألوا هذه التماثيل إن كان في إمكانها أن تنطق فتجيب على الأقل، فتخبر بالذي حطمها وهي عاجزه عن الدفاع عن نفسها، وما لهذا الكبير لم يدافع عنها؟ أم غضب عليها فانتقم منها.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾

ومضت ومضة الحق مشرقة في نفوس القوم فأدركوا على ضوئها الحقيقة وليتها دامت طويلا لكنها سرعان ما انطفت تحت ركام الأهواء وتقليد الآباء، عندما رجع القوم إلى الفطرة التي ركزها الله في قرارات نفوسهم فأدركوا الحق وعرفوه وصرحوا به فقال بعضهم: إنكم أنتم الظالمون في عبادتكم من لا تملك نفعا ولا تستطيع دفعا ولا تطيق نطقا، وما ظلم هذا الفتى، فماذا ترجون عند من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئا؟ ثم هو لا يخبر باسم الشخص الذي تجرأ عليها فجعلها جذاذا.

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾

انتكست عقولهم تحت تأثير التقليد الأعمى، وجاء التعبير بانتكاس الرؤوس فكأن أجسامهم انتكست فصار الرأس أسفل، والرجلان أعلى، وهذا تصوير للمعنوي في صورة المحسوس أسلوب من أساليب البديع يدرك حلاوته أهل البيان وله تأثيره البليغ في نفوس السامعين وقال القوم لإبراهيم: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، أنت تعلم أن آلهتنا لا تنطق فكيف تسخر بنا وتأمرنا بسؤالها وهل يجيب الجماد؟

﴿قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾

قال سيدنا إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه في لهجة المستعلي الجاد المعتد بجوابه لأنه الحق: أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم؟ كيف تعبدون من دون الله ربكم وخالقكم تماثيل جامدة لا تنفعكم شيئا ولا تضركم وهي لا تدفع الضر عن نفسها، كما رأيتم ولا تنفعكم أي نفع ولو قليل.

﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾

أفٍ: كلمة يقولها المتكلم إذا كان في منتهى الضجر والسأم والسخط على المخاطب بها، تأفّف إبراهيم عليه السلام من سخافة عقول قومه ومن تلك المعبودات التى لا تغني شيئا.

﴿أفلا تعقلون﴾

أين عقولكم؟ مالكم لا تبصرون بها الحق، أعلنها كلمة صريحة حاجهم بها، وجاء بها النمرود وجنوده وكذلك يكون موقف الرجل المؤمن بربه المتوكل عليه، المعرض عن كل ما سواه، وليكن ما يكون من سخط قومه وانتقامهم فقد فوض أمره إلى الله رب العالمين، ولم يشك إبراهيم أن ربه سينصره عليهم ويتولاه بعنايته ومعيته، وقد ظن به الخير فكان عند ظنه . إيمان راسخ في قلب كبير وعقل مستنير ونفس مطمئنة راضية بقضاء ربها متوكلة عليه واثقة بنصره، ذلك هو إبراهيم الذى قال ربه فيه: ﴿إن إبراهيم كان أمّةقانتا لله حنيفاً ـ النحل ١٢٠﴾ وقال فيه: ﴿سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين ـ الصافات ١٠٩/ ١١٠﴾

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾

عجزوا عن مقاومة إبراهيم في محاورته ولزمتهم الحجة، فالتجؤوا إلى استعمال القوة معه وكذلك يصنع المفلسون من الحجج، يعمدون إلى المكر اعتمادا على قوتهم، وما علموا أن بأس الله أشد وأنكى، قالوا حرقوه، والتحريق أشد من الحرق على أن الحرق بالنار أشد أنواع العقوبات . أمر نمرود ومن معه بتحريقه بالنار ليكون نكاية فيه وزجراً لغيره، فجعلوا لذلك شهرا كاملا لجمع أنواع الحطب التي تكون وقودا للسعير الملتهب وخصصوا لذلك مكانا في حفرة من الأرض أوقدوا فيها لهبا عظيما تكاد الطير تحترق إذا مرت فوقه، وحملهم على

ذلك الإنتقام لآلهتهم التي يقدسونها قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين أي إن كنتم ناصريها حقا، قال الله تبارك وتعالى:

﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾

يجيء القول من عند الله مقرونا بنون العظمة لأن المقام عظيم يظهر فيه نصر الله لعبده إبراهيم، وقد أمر الله النار أمراً قدرياً أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم، قال ابن عباس: لو قال برداً لآذته ببردها لكنه قرن البرد بالسلام، كانت له كالبستان في الربيع ولم تصب منه إلا وثاقه، وروي أن الله امتحنه، فأرسل إليه عبده جبريل في طريقه بين المنجنيق والنار، فقال له: ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا، وأما إلى الله فعلمه بحالي يكفي عن سؤالي، وقيل لما رموه إلى النار قال حسبي الله ونعم الوكيل فأمر الله النار أن تكون عليه بردا وسلاما، وما كان للنار أن تحرق إلا بإذن ربها وكذلك ينصر الله رسله والمؤمنين ويتخذ ممن يشاء منهم شهداء، والله على ما يشاء قدير.

وللمتوسمين في هذا المقام وقفة تأمل واعتبار في المقابلة بين قول المشركين حين قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم، وبين قول رب العالمين حين قال: قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، أي القولين أمضى وأقوم؟ لا شك أن قول الله رب العالمين هو الذى نفذ به القدر، أما قول الكفار فباء بالفشل والخسران، قال تعالى:

﴿وأرادو به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾

ما أعظم وقع هذا التذييل بهذه الآية، بعدما رأينا ما وقع فقد باءت جهودهم بالخسار عليهم في الدنيا والآخرة، أما إبراهيم فقد كانت الأيام التي قضاها في النار أفضل أيامه في الدنيا، فقد أرسل الله إليه ملكا بثوب من حرير الجنة وفراش من فرشها وقرن به الملك فكان يعبد الله ويصلي، ورزقه يأتيه من

عند الله، والناس ينظرون ويتعجبون حتى روي أن نمرودا قال له: إن ربك الذي رد عنك النار لعظيم فاعبده، ولم يتعرض له بعد ذلك بأذى، وقيل إن نمرود تقرب إلى رب إبراهيم بذبح أربعة آلاف بقرة، غير أن إبراهيم قال له: إن الله لا يقبل منك ما دمت تشرك به، ولكن النمرود لم يفارق دين قومه خوفا على ملكه من الزوال، ولو آمن لصار إلى ملك عظيم لا يزول، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

ثم إن إبراهيم لما خرج من النار هاجر أرض قومه هو وابن أخيه لوط الذي آمن به وزوجه سارة، هاجروا أرض العراق بإذن ربهم إلى أرض الشام التي بارك الله فيها بخصوبة التربة، وجودة الثمار ووفرتها كما بارك فيها بالنبوءات ﴿**ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين**﴾ يقول الله تبارك وتعالى: ونجيناه ولوطا من العذاب الذي أصبنا به قومه من بعده، روي أن الله أهلكهم بالبعوض وأبادهم به، وهذا مكر من الله بهم فقد كانوا يعتدون بقوة ملكهم وصلابة أبدانهم فأهلكهم الله بأضعف شيء فلم يستطيعوا له دفعا، وساقت العناية الإلهية إبراهيم ومن معه إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام، وقد استقر إبراهيم بعد في بيت المقدس كما استقر لوط في سدوم وبينهما مسيرة يوم وليلة، وقد بارك الله تعالى في أرض الشام بخصوبة تربتها وجودة ثمارها، ورخاء العيش، ثم بارك فيها للعالمين بإرسال أكثر الرسل والأنبياء هداة البشر منها، ثم قال تعالى:

﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاًّ جعلنا صالحين وجعلناهم أيمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾

سأل إبراهيم ربه أن يؤتيه ولدا صالحا قال: ﴿**رب هب لي من الصالحين**﴾ فاستجاب الله له فأعطاه إسماعيل الغلام الحليم، ثم إن الله أعطاه

إسحاق نافلة من غير دعاء جزاء له على صدق بلائه في ذبح إسماعيل، ثم وهب له من إسحاق يعقوب نافلة أي زيادة، فقد أطال الله عمره حتى رأى يعقوب كهلا صالحا ثم قال تعالى: ﴿**وكلًّا**﴾ أي وكلا من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿**جعلنا صالحين**﴾ والوصف بالصلاح يشمل كل خلق حسن يتصف به الرجل وكان صلاحهم بجعل من الله أي بتوفيق منه وحسن تأديب، ومن أعظم النعم على الرجل صلاح ذريته بعد صلاحه هو، ثم قال تعالى :

﴿ **وجعلناهم أيمة يهدون بأمرنا** ﴾

الإمام كل من يقتدى به في الخير أو الشر، والمقصود هنا أن الله جعل من إبراهيم وذريته أيمة في الخير يهدون الناس الصراط المستقيم بأمر الله لأن الله كلفهم بعد أن هداهم بدعوة الناس إلى الهدى، وهذا واجب الهداة الصالحين في كل زمان وهم الذين يؤثر كلامهم في الناس، من أراد الله به منهم خيرا، أما من لم يكن في نفسه صالحا فكيف يصلح لإمامة الناس ودعوتهم إلى الصلاح؟ وفاقد الشيء لا يعطيه، والإمامة في الخير رتبة عظيمة يطمح لها المؤمن كما جاء في دعاء عباد الرحمن في خواتم سورة الفرقان ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً** ـ الفرقان٧٤﴾ ثم قال تعالى:

﴿**وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾

أوحى الله أن يفعلوا الخيرات، وفعل الخيرات يشمل جميع أنواع العبادات والطاعات، إلا أنه خصص الصلاة والزكاة بالذكر لعظم مقامها في الإسلام، فالصلاة عمود الدين وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فمن أقامها فقد أقام الدين، والزكاة برهان الإيمان فمن أتاها في وقتها لمن يستحقها طيبة بها نفسه فقد أقام البرهان حقا أنه من الابرار لقوله تعالى :﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ـ آل عمران ٩١﴾ وأوحى الله لنبيه بهذا ليعلمنا إقام الصلاة وإيتاء الزكاة

شرعا في كل الشرائع التي نـزلت من السماء، وجاء تخصيصها بالذكـر بعد فعل الخيرات ليفيد أنـه لا يقبل الله من عبد عملا من فعل الخيرات مـا لم يقم الصلاة ويؤتي الزكـاة فهما من قواعد الإسلام العظمى، فمن أضاع الصـلاة ومنع الزكاة فقد هدم بنيان الإسلام وليس من الله في شيء، ثم قال تعالى:

﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾

أي وكانـوا لنا لا لغيرنا عـابدين، موحدين لنـا لا يشركون بعبادتنـا أحدا، والعبـادة التوحيـد والإتيـان بالأوامـر واجتنـاب النواهي والإخـلاص في ذلك لله ابتغاء مـا عنده وما عنـد الله خير وأبقى، وهذا الكلام من الله في وصفهم يـراد به الإقتداء بهم **﴿أولئك الذين هـدى الله فبهداهم اقتده** ـ الأنعام ٩٠**﴾** وفى قصة إبـراهيـم تثبيت لقلب النبى ﷺ ولمن معـه مـن المؤمنين أن يصبروا على كيـد الكافرين فإن العاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين:

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ
ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا
حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا
بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ
الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ
ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ
سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

بعد عرض قصةإبراهيم مع قومه في إسهاب يعرض الله خبر لوط عليه السلام في اختصار، وقد بسطت في سور أخرى من القرآن، وكذلك يأتى بعد ذكر لوط ذكر نوح عليه السلام وما آل إليه أمره وأمر قومه، وفي ذلك عبرة لأولى الألباب، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ .

واذكر نبى الله لوطا إنا آتيناه حكما وعلما، قيل الحكم هو النبوة، أعطاه الله النبوءة والحكمة والعلم والفهم السديد والفقه في الدين وقد كان آمن بعمه إبراهيم قبل النبوة وهاجر معه من أرض بابل إلا أن هجرته كانت إلى سدوم فأرسله الله إلى أهل هذه القرية يدعوهم إلى توحيد الله وينهاهم عن الفواحش، ولكن القوم عصوه ولم يستمعوا له ولجوا في معاصيهم، ولقد أنذرهم بطشة الله فتماروا بالنذر فأذاقهم الله من العذاب ما ترك منه آية للذين يخافون العذاب الأليم، أمطر الله عليهم مطرا من حجارة من سجيل، فيها عذاب لهم وجعل أرضهم عاليها سافلها، وصارو إلى عذاب الله يوم القيامة وبئس المصير، ونجى

الله نبيه لوطا أي جنبه العذاب لم يمس منه بسوء هو والذين آمنوا معه وهم قليل، ونجاه من القرية التي كان قومها يعملون الخبائث يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويأتون في ناديهم المنكر جهارا، ويقطعون السبل لأجل الفاحشة وقيل إن رجالهم أكتفوا بالرجال ونساءهم اكتفين بالنساء، ولا شك أنهم مع شركهم بالله يعملون فواحش أخرى فعاقبهم الله بعد إنذار لوط إياهم فلم يستمعوا له، بل راودوه عن ضيوفه الملائكة الذين جاءوا لإهلاكهم فعصمهم الله منهم وطمس أبصارهم، فنجى الله لوطا ومن معه من المؤمنين منهم ومن العذاب الذي أصابهم، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين أي أهل قبح وشر خارجين عن طاعة الله متعدين لحدوده وقد قلبوا الأوضاع السليمة، فقلب الله عليهم أرضهم جعل عاليها سافلها والجزاء من جنس العمل، وأدخل الله عبده لوطا ومن معه من المؤمنين في رحمته إنه من عباد الله الصالحين، وكذلك يرحم الله الصالحين من عباده .

﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾

القصة الرابعة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة هي قصة شيخ المرسلين سيدنا نوح عليه السلام في قومه وكيف نصره الله منهم، ذكر الله القصة هنا بإيجاز له وقعه البديع في النفوس، وقد بسطت في مواضع أخرى من كتاب الله، ولكل موضعه ومقامه ودلالته وتأثيره وكذلك يصرف الله الآيات، وفي كل من قصص القرآن عبرة لأولى الألباب. وهنا يقول تعالى:

﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾

واذكر يا محمد عبدنا نوحا حين نادانا داعيا لنا فاستجبنا له دعاءه فنجيناه

وأهله الذين آمنوا معه من الكرب العظيم وهو الغرق والهلاك، لم يذكر هنا صيغة النداء وقد ذكرت في مواضع أخرى من القرآن مثل قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ **رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المومنين** ـ الشعراء ١١٧/١١٨﴾ وكان هذا النداء بعد صبر ألف سنة إلا خمسين عاما، وبعد اجتهاد شيخ المرسلين في تبليغ رسالات الله ليلا ونهارا سرا وعلانية فجاءه نصر الله ونجاه من الكرب العظيم الذى كان يلاقيه منهم كلما دعاهم، ومن الكرب العظيم الذي أصابهم ولم يفلت من العذاب إلا المؤمنون القلائل الذين أقلتهم سفينته، قال تعالى:

﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾

جاءت تعدية النصر هنا بمن والأصل أنها تكون بعلى وذلك لتفيد معنى زائدا فقد ضمن معنى التنجية والإبعاد ومعناه: نصرناه عليهم حتى انقذناه وأبعدناه من القوم الذين كفروا وكذبوا بآياتنا، وكانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم حتى لا يسمعوا الآيات التي كان يتلوها عليهم نبى الله نوح إنهم كما وصفهم الله كانوا قوم سوء أي شر ومنكر فاسقين عن أمر الله، مكذبين لرسله، فأهلكهم الله بالغرق العام ولم ينج منهم أحد، وغرقت معهم البهائم والوحوش، وكذلك شؤم الكفر وسائر الذنوب ينال الأرض وما عليها، ونعوذ بالله من مصير الظالمين ونسأله أن ينصرنا من القوم المفسدين.

﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعةً لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾

القصة الخامسة من قصص الأنبياء في قصة داود وابنه سليمان النبيين الرسولين من أنبياء بني إسرائيل، ذكر الله جانبا مشرقا من جوانب هذين الرسولين الكريمين وهو جانب الحكم بين الناس بالعدل ثم ذكر ما أيد الله به كلا منهما من الكرامات والمعجزات ما يقوي أمرهما .

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾

واذكر يا محمد أخويك داود وسليمان حين حكما في الحرث قيل إنه كان الحرث أشجار عنب نفشت فيه غنم قوم، والنفش هو انتشار الغنم في حرث ترعى في الليل ولا راعي لها فأفسدت الحرث، فلما أصبح الصباح جاء صاحب الحرث إلى نبى الله داود عليه السلام يشتكي ما صنعت المواشى في حرثه وبعد التثبت والفهم حكم النبى داود بالغنم لصاحب الحرث مقابل ما أفسدت فيه لأنه قوم الفساد وقوم الغنم فوجدهما سواء، فحكم بها لصاحب العنب، وهو حكم عدل لا جور فيه، ولكن أصحاب الغنم مروا على سيدنا سليمان عليه السلام فعرضوا عليه أمرهم فظهر له في القضية رأي غير رأي أبيه فقال لو كنت مكان أبي لحكمت بحكم آخر فارتفع الأمر إلى داود فدعا الخصيمن وسأل سليمان عن رأيه في القضية فوجده صوابا واستحسنه وحكم به وهو أرفق بهما، حكم سليمان أن تبقى الغنم تحت تصرف صاحب الحرث يستغلها حتى ينجبر الحرث ويؤتي ثمره ويكون الحرث تحت مسؤولية صاحب الغنم يسقيه ويقوم عليه فإذا حضر نفعه وزال نقصه رده إلى صاحبه، وهو حكم أعدل، فيه دقة الفهم لأن فيه مقابلة الفروع بالفروع والمحافظة على الأصول، فما دام أصل الحرث باقيا وإنما فسدت الغلة فليكن أصل الغنم باقيا لصاحبه ولتكن غلة الغنم لصاحب الحرث مقابل غلته الضائعة حتى إذا صلح حرثه وحضرت غلته رد الغنم على أصحابه وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلماً﴾

فقد فتح الله لسليمان من الفهم ما لم يكن عند داود وفيه إشارة إلى أن العلم والفهم ليس وقفا على الكبار دون الصغار، بل قد يتجاوز الصغار مبالغ الكبار، وفضل الله يؤتيه من يشاء. وقوله تعالى:

﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾

أي حاضرين عالمين معنى ذلك أن حكمهما كان عدلا وصوابا، ولم يكن ظلما وزوراً لأن الله تعالى لا يشهد الزور إنما كان حكم سليمان أقوم وأدق صوابا لأن فيه الرفق بالخصمين جميعا من غير أن يضيع حق المظلوم منهما. ثم قال تعالى:

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾

سخر الله الجبال تردد التسبيح مع سيدنا داود عليه السلام وكذلك الطير عندما يقرأ الإنجيل ويردد تسابيحه وأذكاره تجتمع الطير حوله وفوقه أسرابا تؤوّب أي ترجّع التسبيح والذكر معه، وليس ترديد الجبال هو ترجيع الصدى بل هو ترديد إرادي مثل ترديد الطير وفى ذلك كرامة لداود عليه السلام ومعجزة من الله تبارك وتعالى ولذلك قال :

﴿وكنا فاعلين﴾

أي كنا فاعلين لما نشاء ونريد فلا تستبعدوا الأمر ولا تشكوا فيه فإن الله فعَّال لما يريد، على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ثم قال تعالى:

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾

أي علمنا عبدنا داود صنعة لبوس الحرب ليحصنكم من بأسكم أي من الضرب والطعن وذلك باتقان صنعه وتقدير سرد حلقات الدروع، نعمة من الله ألان الله له الحديد وعلمه هذه الصناعة ليقتات بصنعة يده، وأفضل ما أكل المرء ما كان من كسب يده، فهل أنتم يا آل داود شاكرون لله هذه النعمة العظمى التى حفظت أجسادكم من ضربات السيوف وطعنات الرماح؟ والاستفهام هنا يقصد به الأمر والإلزام وفيه استنهاض الهمم للقيام بواجب الشكر، وأن ذلك من شأن العقلاء ذوي الأخلاق الحسنة.

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾

يقول الله تبارك وتعالى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره رافعة بساطه إلى الأرض التي باركنا فيها، قال أهل العلم: هي أرض الشام التى بارك الله فيها بخصوبة التربة وطيبها ووفرة المياه وجودة الثمار، وهي مسكنه ومركز ملكه، وكان لسليمان، بساط صنعته الجن ترفعه الريح تجري به عاصفة أو رخاء كما يريد سليمان وكانت تقطع في غدوها مسيرة شهر وفي رواحها مثل ذلك تسخيرا من الله تبارك وتعالى لسليمان الذي آتاه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وكان يتفقد أقطار مملكته الواسعة في أسرع ما يمكن هو وجنوده وأعيان مملكته، وكان بساطا عريضا واسعا تجري به الريح إلى حيث يريد قال الله تعالى: **﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾** وهذا التعقيب مثل قوله تعالى:

﴿وكنا فاعلين﴾

أي وكنا بكل شيء من سير الريح ومقادير عصفها ورخاوتها وما يقع في مملكة سليمان عالمين، وعلم الله محيط بكل شيء.

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾

يقول الله تبارك وتعالى وسخرنا لسليمان جنودا من الشياطين وهم كفرة الجن سخرهم الله عز وجل لعبده سليمان وجعلهم طوع أمره وإرادته، يستعملهم في شتى أنواع الأعمال، وجعل الله عليهم ملائكة رقباء يحفظونهم لخدمة ملك سليمان وطاعته، ومن يزغ منهم عن أمر الله يذقهم الله من عذاب أليم، يلهبه الملك بسوط من نار فيحرقه ولذا فهم يعملون له ما يشاء من أعمال في البناء والنقل وصنع التماثيل: والغوص في البحار يستخرجون منها اللآلىء والجواهر والمرجان، قال تعالى:

﴿وكنا لهم حافظين﴾

أي حافظين فحفظهم لخدمة ملك سليمان فيما يأمرهم به من أعمال، فهم لا يعصونه ولا يفلتون من سلطانه ولا يفسدون ما عملوه بل هم له مسخرون ليل نهار، وقد لبثوا زمنا، قيل عاما كاملا يعملون في بناء بيت المقدس بعد وفاته وما علموا موته ولو علموا ذلك لانطلقوا من حينهم وتركوا العمل، ولكنهم بقوا يعملون وينصبون وهذا كله من حفظ الله لهم، وما سلطان سليمان إلا ظل من سلطان الله تعالى.

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرّاحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾

القصة السادسة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة يذكرها الله تبارك وتعالى بعد قصة داود وسليمان مختصرة يعرض منها جانب الإعتبار لتكون

ذكرى للعابدين الصابرين، يقول الله تبارك وتعالى: واذكر عبدنا أيوب حين نادى ربه وتضرع إليه ودعاه يشكو إليه ما أصابه من ضر في نفسه وأهله وماله، ولم يبق له من أهله إلا أمراته، أبقاها الله له لتخدمه صيانة له عن كشف حاله لغيرها من الناس، وكذلك يصون الله أنبياءه ويستر عليهم، ابتلى الله عبده سيدنا أيوب عليه السلام بأشد أنواع البلايا في نفسه وأهله وماله فصبر لبلاء الله وكشفت محنة الله إياه عن عنصر طيب، ومعدن خالص، وقلب منيب، ونفس مطمئنة صابرة لبلاء الله راضية بقضائه غير ساخطة ولا جازعة، فكان سيدنا أيوب عليه السلام إماما للصابرين، وقد صبر في البلاء، قيل مدة ثماني عشرة سنة وعن قتادة ثلاث عشرة، أصابه الله في ماله فذهب كله وكان ذا مال كثير وثروة متنوعة من حرث وأنعام وجنات، وأصابه في أهله وكان له أولاد كثيرون قيل عشرون ولدا فانهدم عليهم البنيان فماتوا كلهم، وأصابه بالمرض في بدنه فلازمه حتى بقي في بلائه منعزلا عن الناس وحيدا، جفاه كل الناس حتى أصدقاؤه ولم يبق أحد يتردد عليه إلا المرأة المؤمنة المخلصة (رحمة) عليها السلام، وقد ابتلاه الله بهذه الأنواع من البلايا ليرغم به الشيطان وليجعله مثلا أعلى يقيم به الحجة على المبتلين، فمن اقتدى به في الصبر فاز بالثواب، ومن لم يصبر فلا عذر له، وروي أن الله أقام الحجة بأربعة من عباده الأنبياء على أربعة أصناف من الناس، أقام الحجة بسيدنا سليمان على الأغنياء ليشكروا كما شكر، وأقام الحجة على المبتلين بسيدنا أيوب ليصبروا كما صبر،وأقام الحجة على الفقراء بسيدنا عيسى عليه السلام ليصبروا على الفقر ويحسنوا التوكل على الله، وأقام الحجة على الموالي بسيدنا يوسف عليه السلام ليحسنوا عبادة ربهم وخدمة مواليهم، ثم إن الله كشف ما بعبده أيوب من ضر ففجَّر له عينا فاغتسل بها فزال ما به من ضر، وفجَّر له عينا أخرى فشرب منها فرد الله عليه صحته وجماله، ثم إن الله رد عليه أولاده ورزقه من أهله مثلهم قيل كان له عشرون ولدا فزاده الله

مثلهم وتلك عاقبة الصبر والإيمان وحسن الرضا بقضاء الله والتوكل على الله، وللآخرة خير وأبقى، وقد أثنى الله على عبده أيوب بثلاثة نعوت من الثناء الحسن فقال فيه: ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ ثم إن الله بعد أن أخبرنا بخبر أيوب وما آل إليه من الفرج أخبرنا بسبب ذلك وعلته وغايته ومغزاه فقال:

﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

أي كان ذلك لطفا منا به ورحمة من عندنا ومن تغمدته رحمة الله صار إلى أحسن العواقب في الدنيا وفى الآخرة، وفى ابتلاء أيوب وصبره وكشف الله البلاء عنه ذكرى للعابدين من عباد الله الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وقد جعل الله تعالى في قصص أنبيائه ورسله عبرة لأولى الألباب .

﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾

ثلاثة أنبياء من أنبياء الله يذكرهم الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين بإيجاز تقتضيه الحكمة الربانية ويراد بذلك الإقتداء والاعتبار ويثني عليهم ربهم بأنهم من الصالحين، وهي أعظم شهادة من الله لهم ولمن سلك طريقهم من المؤمنين والله يزكي من يشاء وهو العليم الحكيم، واذكر لقومك إسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين، أي كل هؤلاء من الصابرين، إسماعيل ابن إبراهيم، وهاجر، وإدريس بن شيت، وذو الكفل، قيل هو إلياس، وقيل زكريا، وقيل يوشع بن نون سماه الله ذا الكفل لأن الله تعالى جعل له كفلا من رحمته زيادة، فهو المجدود على الحقيقة وذلك جزاء صبره، والله يعلم مقادير الأعمال، وهو الذي يجزي كلا بما يستحق ويضاعف لمن يشاء، وقيل إن ذا الكفل هو الذي تعهد لليسع وتكفل له أن يخلفه على بني إسرائيل، وذلك أن

اليسع لما كبر وأراد أن يستخلف خليفـة على بني إسرائيل فقـال: من يتكفل لي بثـلاث استخلفـه، أن يصـوم النهـار، ويقـوم الليل، ولا يغضب، فلم يتكفل لـه بذلـك إلا شاب اسمه (عـوبديـا) وإنه ثبت على مـا تكفل به فكـان من أفضل الصابرين، فصبر إسماعيل على الـذبح، وصبر إدريس على الجد والكد والأسفار في طلب العلم والحكمة، وله في ذلك أخبـار عجيبة، وصبر ذو الكفل على الوفاء بما تكفل بـه فأثنى الله على الثـلاثـة بالصبر وأدخلهم في رحمتـه، وشهـد أنهم من الصالحين وجعلهم أيمة يقتدى بهم، وقيل إن ذا الكفل لم يكن نبيا.

﴿وذا النـون إذ ذهب مغضبـا فظـن أن لن نقـدر عليـه فنـادى في الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحـانك إني كنت من الظـالمين فاستجبنـا لـه ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المومنين﴾

ذكر الله في هـاتين الآيتين قصة سيدنا يـونس بن متّى عليه السلام مـوجزة كما تقتضى حكمته أن يطوي قصص بعض أنبيائه في آيـات من كتابه ويبسطها في أخـرى، وقد يـذكـر في موضع مـا لم يـذكره في مـوضع آخـر وباستقـراء تلك المواضع تكتمل الصورة التى أراد الله تعالى إظهارها وهنا يقول: واذكر يا محمد ذا النـون حين ذهـب مغاضبـا لقـومه فظن أن لن نقـدر عليـه أي ظن أن لن نضيق عليـه وهو من القـدر لا من القدرة، وذو النـون هـو يونس لقبـه الله بهذا اللقب لشأنـه مع الحوت الذي يسمى النـون كما سماه صاحب الحوت في موضـع آخر، وذلـك أن نبى الله يونس غضب من قومه حين دعاهم ودعاهم فلم يستجيبوا له وأنـذرهم عذاب الله فتماروا بـالنـذر فهـرب وتركهم قبل أن يـأذن الله له، فصـار بذلك آبقا ومليما أي فاعـلا ما يلام به فابتلاه الله بـالتقام الحوت إياه، فلما صار في بطن الحوت علم أن ذلك عقوبة من الله له على تسرعه في الهروب من قومه، فنادى في الظلمات ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمـة الليل، نادى متضرعا إلى ربه أن لا

إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اعترف لربه أنه ظلم نفسه فأصبح من جملة الظالمين وقدم بين يدى ندائه كلمة التوحيد وهي أفضل ما قاله النبيون من قبله ومن بعده، وذلك هو التوسل الذي ينبغى أن يتوسل به المتوسلون، سبح الله أي نزهه عن الظلم فسمعت نداءه الملائكة فشفعت له عند الله فقبل الله شفاعتهم فيه، لأنه عرف الله في الرخاء فعرفه في الشدة، لقد كان تسبيحه مألوفا عند ملائكة الله فضجت له بالدعاء إلى الله تقول: اللهم إن هذا صوت معلوم من مكان مجهول اللهم ارحم عبدك يونس. سمع الله تسبيحه ودعاءه ففرج عنه، قال تعالى:

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننج المومنين﴾

هكذا بنون العظمة يقول الله العظيم الجليل الحليم فاستجبنا لعبدنا يونس ونجيناه مما كان فيه من الغم في بطن الحوت فنبذه الحوت بأمر الله ربه في العراء، وأنبت الله عليه شجرا من يقطين وهو شجر القرع اللين الأوراق، جعل الله منها فراشه وغطاءه يظله من الشمس لأن جلده كان قد تهرى من حرارة بطن الحوت الذي مكث فيه أياما قال تعالى **﴿وكذلك ننج المؤمنين﴾** الذين يسبحوننا في الرخاء ويتوسلون الينا بالعمل الصالح والتضرع بالدعاء، فهذه كرامة من الله ليونس وبشارة للمؤمنين جميعا أن ربهم حفي بهم سميع لندائهم يفرج عنهم وينجيهم من الغم، فما على المغموم منهم إلا أن يسبح الله ويعترف بذنوبه ويخلص لله في الدعاء موقنا بالإجابة والله يحب أن يسمع تضرع عبده وشكواه وهو عند ظن عبده المؤمن فليظن به ما شاء من خير .

﴿وزكرياء إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾

تأتي قصة زكـريـاء مطـوية في آيتين كـالتي قبلها ويـذكر الله جـانبا واحـدا وهو تضرع زكـريـاء لربـه حين طلب الـولـد الصـالح واستجـابة الله لـه وعلـة تلك الاستجابة وهي صلاح زكرياء وأهله وحسن عبادتهم لربهم وخشوعهم له، يقول الله تبارك وتعـالى: واذكر عبدنـا زكريـا حين نادى ربه رب لا تـذرني فردا، أى لا تتركنى فـرداً وحيـدا وأنت خير الـوارثين، أي وأنت خير البـاقين، لك البقـاء وحدك ولك ميراث السموات والأرض، قال يارب لا تذرنى فردا وحيدا وهب لي من لـدنك وليا يـرثني ويرث من آل يعقـوب واجعله رب رضيـا ترضى أخـلاقه وسجـاياه، ولم يقصـد زكـريا بـالميراث ميراث المال لأن الأنبيـاء لا يورثـون، ولا يهتمون بـالمال ومن يرثـه، لكنه يقصـد ميراث النبوءة والحكمـة والقيام بـالتوراة وعلى أمـور بيت المقـدس وقـد خـاف عليهـا من الضيـاع، فطلب من الله ولـدا صالحا فـاستجاب الله نداءه ووهب لـه يحيى النبى الصالح السيـد الحصور البر التقي الـرضي، وأصلح الله لزكـرياء زوجـه العاقر العجـوز فجعلها تحمـل وتلد بإذن الله.

وروي عن ابن عباس أن عمـر زكرياء يـومئذ كـان مائة سنة وعمـر زوجه تسعا وتسعين فتحققت فيها معجزة الله فـرزق منها ولدا سماه الله يحيى لم يجعل له من قبل سميا، فكـان خير خلف لخير سلف، قام بـالأمر بعد أبيـه أحسن قيام، قال الله تعالى:

﴿إنهم كـانوا يسـارعون في الخيرات ويـدعوننـا رغبا ورهباً وكـانوا لنـا خاشعين﴾

أي إن كلا من زكرياء وأهله وولـده، وقيل إنهم كلا من المذكورين في هذه السورة من الأنبياء كانوا يسارعـون في فعل الخيرات ويدعون ربهم رغبة في رضاه ورحمته، ورهبـة من سخطه ونقمته وعـذابه، وكانوا لله خـاشعين متدللين مخبتين،

وفي ذكر هذه الأوصاف إيذان بأنها هي العلة التى استجاب الله بها لزكرياء عليه السلام فهي عبرة لأولى الألباب حتى يتمسكوا بها ويقتدوا بالصالحين من عباد الله إن رغبوا أن تكون دعواتهم مستجابة وعملهم مقبولا.

﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾

بعد قصة زكرياء العجيبة التي فيها خلق الولد من شيخ وعجوز عاقر، تأتي قصة مريم العذراء البتول التي فيها ما هو أعجب، وهو أن امرأة تلد ولدا من غير أب، وفيها امتحان لمريم عليها السلام، وكذلك يبتلي الله من يشاء من عباده ليرفعهم عنده درجات بصبرهم على البلاء، وفي هذه الآية يطوى الله تبارك وتعالى قصة التي أحصنت فرجها من غير ذكر اسمها وقد ذكر في مواضع أخرى، حيث ذكرت القصة مفصلة في سورة مريم وفي سورة آل عمران. يقول الله تبارك وتعالى : واذكر خبر التي أحصنت فرجها من الفاحشة ومن الحلال فبعث الله لها جبريل عليه السلام فنفخ في جيب قميصها، والقصة معروفة كما هو مذكور في سورة مريم فحملت وولدت عيسى عليه السلام فجعل الله منها ومن ولدها آية للعالمين ليعلم الناس أن الله قادر على أن يغير سنته في خلقه وأن إرادته إذا تعلقت بأمر فإنه يكون، وأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وقد انتشر خبر مريم وابنها في العالمين كما أراد الله، وضل من النصارى من يزعم أن المسيح ابن الله وما من إله إلا إله واحد سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾

يقول الله تبارك وتعالى إن هذه أمتكم أمة واحدة دينها واحد وهو الإسلام

وأنـا ربكم ايها الناس فـاعبدوني أي فـأطيعوني ووحـدوني ولا تشركوا بي شيئـا، تلك هى الأمـة التى أرسل الله الـرسل لتكوينهـا أمـة واحدة لا تختلف في دينهـا وإن اختلفت شرائعها مـا بين رسول ورسول، فقد روي عن النبى ﷺ أنـه قال: (نحن معـاشر الأنبياء أبنـاء علات أبـونا واحد وأمهـاتنا شتـى، أبونـا الإسلام وأمهاتنـا شرائعنا) واختلاف الشرائع لا يفـرق هذه الأمـة الواحدة مـا دام دينها الإسـلام ومـا دام التشريع من الله الـواحد القهـار، وهـو ربنـا إياه نعبـد وإيـاه نستعين، وهـذه الجملة خـلاصـة لما سبق من ذكر سبعـة عشر نبيـا وذكر مـريم العذراء البتول، وكل أنبياء الله ورسله من عرفناه منهم، ومن لم نعرف، أمرهم الله بهذا الأمر وهو الأمر الذي جـاء لتحقيقه خاتم النبيين، وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ وعليهم أجمعين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ
لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ
﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا
قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ
ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ
فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ
عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا
يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ
ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا
فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

فى الآيـة التفات وذلـك أنه بعـد خطـاب الله النـاس جميعا أن يعبـدوا الله وحده ويكـونوا أمـة واحدة ولا يتفـرقوا لأن دينهـم واحد، وربهم واحـد، يتحول الأسلوب إلى الغياب فيخبر الله تعالى نبيه فيقول:

﴿وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾

هؤلاء الناس الـذين أمروا أن يكونوا أمة واحدة لم يمتثلـوا أمرهم بل تقطعوا دينهم فـرقا وأحـزابـا وتمزقوا شيعـا، فمن مـوحد ومن يهودي ونصراني وصـابىء ومجوسي ووثني، ثم إن كل هؤلاء تقطعوا شيعا وأحزاباً والله أعلم بهم وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وقال تعالى :

﴿كـل إلينـا راجعـون ﴾

أي كل من هؤلاء المتقطعين إلينا يوم القيامة يرجعون فنحكم بينهم.

﴿ فـمن يعمل من الصالحت وهـو مومن فـلا كفران لسعيه وإنـا له كاتبـون ﴾

يقـول الله تعـالى فمن يعمل من الصـالحات من امتثال الأوامـر واجتنـاب النواهي وفعل الخيرات وهو مـؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخـر فلا كفران أي لا نكران ولا بطلان لسعيـه وعمله، وإنا له كاتبون، لكل منهم كتـاب تدون فيه أعماله فـلا يبخس منها شيئـا، والله يحصي عليهم أعمالهم ويكتبهـا لهم، يقول الله هذا لأن النـاس يطمئنون إلى الكتـابة، وإلا فعلم الله محيط بكل صغيرة وكبيرة لا يضل ولا ينسى ولكن ليطمئن عبـاده جعل لهم ملائكة كـراما حـافظين يكتبون لهم أعمالهم، ويقرن الله في هـذه الآية وفي كثير من آيـات القرآن العمل الصـالح بـالإيمان فإنه لا ينفع عمل بـدون إيمان كما أنه لا ينفع إيمان القلب بـدون عمل الجوارح، فـالإيمان الحقيقي النـافع يوم القيـامـة فهو الإيمان الـذي يثمـر العمل

الصالح الـذي هو عبادة الله بما شرع، ومن قـال الإيمان قول بـلا عمل فقد ضل ضـلالا بعيدا، وأسنـد الله النفي إلى المصدر الـذي هـو الكفران ليكـون أبلغ في النفي وفيه تنزيـه الله تبارك وتعالى أن ينسب إليه الكفر ولو بطـريقة النفي، وهذا المعنى مثل قولـه تعالى: ﴿**ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وهو مـومن فأولئك كان سـعيهم مشـكوراً** ـ الإسراء ١٩﴾ وقوله: ﴿**وكان الله شاكرا عليما** ـ النساء ١٤٦﴾ إن الله يضاعف الحسنات ولا يظلم بزيـادة السـيئات، وقال تبارك وتعـالى:

﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾

اضطرب المفسرون في هذه الآية وفسر بعضهم الـرجوع إلى الدنيا، وجعلوا (لا) زائدة، والذي يتضـح من معناهـا ولا لبس فيه: أن الـرجوع هو البعـث يوم القيـامـة للحســاب، والـرجـوع إلى الله كما جـاء في قـــولـه تعـالى: ﴿**كل إلينـا راجعون**﴾، يقول الله تعالى: ﴿ **وحـرام على قريـة**﴾ أي ممتنع على كل قـرية أهلكها الله عدم الرجـوع إليه للحساب، ولابد لكل قريـة مسها الهلاك في الدنيا أن تبعث يوم القيامة، وترجع إلى الله لتنال جـزاءها، وهذا مناسب بعد ذكر جزاء المحسنين المؤمنين أن يذكر جزاء الكافـرين، كل ينال جزاءه الأوفى عند الله، ولا يشك أحد في البعث والرجـوع إلى الله، وفي ذكر الآية عود على بـدء، فقد ذكر في أوائل هذه الســورة إهلاك الله للقـرى الظالمة وإنشـاء الله بعدهم قـوما آخـرين، وذكر هنـا أن الله سيبعثهم وأنهم إليه يـرجعون فيجـزيهم بما كانـوا يعملون، وفي هذا إنـذار للكافرين المكـذبين من قوم النبي ﷺ والذين من بعـدهم حتى تقوم السـاعـة، ثم يخبرنـا الله باقتراب السـاعـة وبعض أشراطهـا الكبرى كما فتحت السورة بذكر اقتراب الحساب وغفلة الناس عنه وإعراضهم. قال تعالى:

﴿حتى إذا فتحت يا جوج وما جوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾

بدئت الآية بحرف الغاية « حتى » ولم يذكر قبلها المُغَيَّا، والذي يتأمل السورة من أولها يفهم هذه الغاية جليا وذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر من قصص الأنبياء وأممهم في حلقات متعاقبة ولا يزالون مخالفين لأنبيائهم متقطعين أمرهم بينهم، ولا يزال هذا شأنهم حتى تأتي أشراط الساعة فتزعجهم، ويقترب الوعد الحق فيكون من أمرهم ما قصه الله علينا . قال تعالى:

﴿حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾

ياجوج وماجوج هما قبيلتان عظيمتان كثير عددهما، وهم كما ذكر الله تعالى في سورة الكهف يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وتقدم خبرهم وكيف جعل ذو القرنين بينهم وبين مجاوريهم ردما من حديد ونحاس، وقال لهم بعد تمام العمل: **﴿فإذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربي حقا** ـ الكهف ٩٨**﴾** فإذا اقترب الوعد الحق يدك الله السد دكا فينفتح الطريق بين الصدفين، وأسند الفتح هنا إلى يأجوج ومأجوج فكأنهم هم الذين فتحوا، لكثرتهم ونسولهم من كل حدب وصوب، قال تعالى:

﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾

الحدب كل ما ارتفع من الأرض من جدد وهضاب وشعاب ، فهم ينحدرون منها كالسيول المتدفقة أو كالجراد المنتشر على الناس، فيموج بعضهم في بعض وتكون فتن وحروب وهرج ومرج، وحينئذ يكون الوعد الحق وهو قيام

الساعة قد اقترب، وروى أن سد ياجوج وماجوج إذا دك فالساعة كالمرأة الحامل التي اقترب وضعها لا يدرى متى تصبح أو تُمسي . قال تبارك وتعالى:

﴿واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾

واقتربت الساعة التى هي الوعد الحق لا ريب فيه فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، جاءت هنا « إذا » الفجائية وهى تدل على حدوث أمور عظام، وأهوال لم تكن بالحسبان تشخص لها أبصار الناس يومئذ ولا يبقى يومئذ إلا الكفار.

وقد جاء في الأثر أن الساعة لا تقوم إلا على دين أبي جهل، والشخوص هو انفتاح الأبصار إلى خطر مهول مخوف تنظر إليه بحدة ولا تطرف، وقد أذهلتها الأهوال عن النظر العادي، وقد أسند الشخوص إلى الكفار الذين كانوا يستهزئون ويستعجلون الأمر ويشككون فيه، حتى إذا جاء وعد الله فإذا أبصارهم شاخصة وأفئدتهم هواء وألسنتهم تصرخ وتنادي.

﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾

جاء النداء في الآية غير مسند إلى عامله لأن الأمر فيه دهشة واستعجال فلم يبق وقت لذكره والمشهد عظيم حقا، كأن تالي الآية يشهد ويسمع الأصوات المنكرة التى فيها الحسرات والاعترافات، قد كنا في غفلة من هذا الأمر وقد أنذرتنا الأنبياء والرسل ولكن كنا مكذبين غافلين وما ظلمنا الله بل كنا نحن ظالمين حين تمارينا بالنذر، فهم يعترفون ولكن لا ينفعهم الاعتراف، وقد فات الأوان وقضى الأمر، فمن كان معتبرا فليتعبر اليوم قبل أن يأتى أمر الله.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل

أو كسبت في إيمانها خيراً ـ الانعام ١٥٨ ﴾ نعم لقد كانوا ظالمين بما كذبوا رسل الله وكذبوا بالساعة واقترفوا الشرك وعظائم الأمور ولا يزال عرض المشهد مستمرا فلنستمع لجواب الله لهم.

﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾

يقال لهؤلاء الكفار الذين اعترفوا بظلمهم حينما اقترب الوعد الحق: إنكم أيها المشركون المكذبون أنتم وما تعبدون من دُون الله من الأوثان والشفعاء حصب جهنم أى وقودها الذي يحصب فيها ويرمى، أنتم وما اتخذتم من دون الله آلهة لها واردون أي داخلون، فلا شك أن غمهم يزداد عندما يرون معبوداتهم في جهنم تصلاها معهم وتزيدهم ضيقا وعذابا وقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم وتنفعهم، فإذا بها تحصب معهم في جهنم، وفي ذلك من الخزى والعذاب ما فيه، فالآية ذكرت النوعين من العذاب الجثماني والنفساني ثم قال تبارك وتعالى:

﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾

في الأسلوب التفات، ففي هذه الآية يأتي الكلام بصيغة الغياب بعدما كان قبلها بصيغة الخطاب يريد الله عز وجل أن يخزي هؤلاء المشركين، ويزيد في تعذيبهم بإدخال آلهتهم معهم في النار، وهي حجارة لا تحس بالعذاب لكن ورودها في جهنم يزيد في عذاب عابديها، ولو كان هؤلاء الأصنام آلهة كما زعمتم ما وردوها وكلّ من الأصنام وعابديها واردوها وهم فيها خالدون. ثم قال تعالى:

﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾

أي لهؤلاء الكفار زفير في العذاب يخرج من أجوافهم لشدة اغتمامهم

وحـزنهم وحسراتهم ولا يعلم إلا الله مبلغ مـا يلتهب في أجوافهم مـن حرّ النـدم والحسرات وهـذا مـا يدل عليـه التعبير بـالـزفير، ﴿ **وهم فيهـا لا يسمعـون**﴾ أصمهم الله كما تصامموا في الدنيا عن سماع الحق، وهم في النار عمي كما كانوا في الـدنيا عمين عن رؤيتـه وقد جـزاهم الله جزاء وفـاقا، والجزاء يكـون من جنس العمل، والعـذاب يشتـد إذا كـان المعـذب لا يـرى من أين يأتيـه العـذاب ولا يسمع. وقد يـرد الله إليهم السمع في فترة المحاورة أو عند نداء أهل الجنـة إياهم وعند جـواب خزنـة جهنم لهم ليسمعوا مـا يزيدهم خـزيا وإبـلاسا وعـذابا ثم يرجعون إلى حالتهم ونعوذ بالله من مصير أهل الشقاء.

﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهـم فيما اشتهت أنفسهم خالـدون لا يحزنهم الفـزع الاكبر وتتلقاهم الملائكـة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾

بعد عـرض مصير أهل الشقاوة يأتي الكلام على أهل السعادة على طـريقة القـرآن، يزاوج الـوعد والـوعيد ليكـون ذلك أوقع في نفوس السـامعين وأبلغ في موعظتهم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعـدون** ﴾ الضمير في (عنها) لجهنم أي إن الـذين سبقت لهم من ربهم الكلمة الحسنى أنهم السعداء أولئك مبعـدون عن النار لايصلونها ولا يسمعون حسها وزفيرها ،وقـوله تعالى ﴿**سبقت لهم منا الحسنى** ﴾فيه أن بدايـة الأمور من الله فهم موفقون لما قدر الله لهم من البر والإحسـان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء وعلى الإنسـان أن يعمل ولا يغتر فكل ميسر لما خلق لـه، كما جـاء في الحديث الشريف. وقوله تعالى :

﴿أولئك عنها مبعدون ﴾

فيه أن الله هو الذي يبعدهم عن نار جهنم وحرها بتوفيقهم إلى التوبة في الدنيا حتى يكون ذلك سببا في إبعادهم عنها يوم القيامة، وفى هذه الآية رد على الذين طعنوا في المسيح بن مريم وأمه عليهما السلام بعد نزول قوله تبارك وتعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جَهَنَّم**﴾ قالوا فالمسيح بن مريم وأمه عُبدا من دون الله، وكثير من الصالحين فهم إذن في النار، فرد الله عليهم بهذه الآية وقطع شبهاتهم بهذه الآية الكريمة فهي رد محكم في صدور المشككين الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما ذنب من عبده الناس وهو ينكر هذا منهم ولا يرضاه، أو عبدوه بعد موته، ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثم قال تعالى:

﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾أي وهؤلاء السعداء خالدون في النعيم في الذي تشتهيه أنفسهم في الجنة، لهم فيها ما يدعون، وهنا لم يقل خالدون في الجنة بل قال فيما اشتهت أنفسهم وفى هذا ما فيه من تضخيم نعيمهم وتمتعهم به جزاء على ما صبروا في الدنيا على طاعة ربهم ونهي أنفسهم عن شهواتها من أجل الله .

﴿**لا يحزنهم الفزع الاكبر**﴾

والفزع الأكبر هو الموت هو هادم اللذات فقد أمنهم الله منه حين يقال لهم يا أهل الجنة خلود فلا موت أبدا، كما يقال لأهل النار يا أهل النار خلود فلا موت أبدا حينئذ يعظم النعيم لأهل النعيم كما يعظم العذاب على أهل الشقاء والعياذ بالله، وقيل الفزع الأكبر هو فزع يوم الحشر فهم لا يفزعون لأن الله أمنهم بالبشارات:

﴿**وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾

وتتلقاهم ملائكة الله على أبواب الجنة بالبشارات تستقبلهم كما يستقبل

الوفود المكرمون يقولون لهم هـذا يومكم الذي كنتم توعدون قد أتى وتحقق وعد الله لكم. فهـذه خمس كـرامات لأوليـاء الله الـذين سبقت لهم من ربهم الحسنى يـذكرهـا الله في كتـابه ولابـد ستقع لهم يـوم القيـامة لا ريب فيهـا والله لا يخلف الميعاد، وفى ذكرهـا اليوم ترغيب للمـؤمنين أن يسارعوا إلى هذه المنـازل الكريمة وفى ذلك فليتنـافس المتنافسـون، نسأل الله أن نكون بفضلـه وتوفيقه مـن أوليائه الأبرار .

﴿يوم نطوي السماء كطى السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾

السجل هو ظرف الكتاب أى الطومار الذي يضم أوراق الكتاب والكتابة ويطلق أيضا على الكـاتب الذي يكتب الكتـاب ثم يطويه، وكـذلك يطوى الله السماوات عند قيام السـاعة وهو حدث عظيم، هو لابـد واقع، يوم الفزع الأكبر، وفى ذكره إنذار لنا وتذكير لمن يخاف الآخرة . ويقول الله تعالى :

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾

أي إنا نفني هـذه المخلوقات كلهـا ثم نعيدهـا كما بدأناهـا على غير مثال سـابق ونبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وهـذا الإفناء وهـذه الإعادة وعـدُ علينا لازم، ألزمه الله على نفسه ولم يلزمه عليه أحد. قال تعالى:

﴿إنا كنا فاعلين ﴾

أي إنا كنا قادرين وفاعلين لما نريـد لايعجزنا شيء، ويأتى التعبير بالجملة الإسميـة وبنُون العظمـة لإثبات وصف القـدرة لله تعالى حتى لا يشك شـاك في بعث الخلق و إعادتهم بعـد الفناء، وضرب الله المثل بـالبدء وأقام بـه الحجة على الإعادة لإن الإعـادة أهون وهما عند الله سـواء والله فعال لما يـريد موَفّ بـوعده لا

يخلف الميعاد.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي
أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾

يقول الله تبارك وتعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون، الزبور قيل هو زبور سيدنا داود عليه السلام، وقيل جنس الكتاب لأن الكتاب يسمى زبورا، وهذا المعنى أقرب، وقوله من بعد الذكر أى بعد كتابتنا إياه في اللوح المحفوظ، وقد جاء تسميته بالذكر في حديث رواه البخارى أن النبى ﷺ قال: « كان الله قبل ولاشىء، وكان عرشه على الماء ثم خلق الله السموات والأرض وكتب في الذكر كل شىء » كتب الله في اللوح المحفوظ ثم أنزله في الكتب المنزلة أن الأرض يرثها عبادي الله الصالحون.

اختلف أهل التفسير في المعنى المراد من الأرض فقيل هى أرض الجنة وقيل هى بيت المقدس يرثها المؤمنون وهى أرض الدنيا والصواب فيما نرى ويرى كثير من العلماء أنها أرض الجنة لأنه جاء هذا المعنى في القرآن الكريم في خواتم الزمر ﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنةحيث نشاء** ـ الزمر ٧٤﴾ وما فسر القرآن مثل القرآن ويقوى هذا المعنى إضافة العباد إلى الياء إضافة تقريب وتشريف والتعبير بالميراث وهو أخذ الشيء باستحقاق مع بقائه في يد الآخذ. ثم قال تعالى :

﴿ إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾

أي إن فيما أنزلناه في هذه السورة من الوعد والوعيد لبلاغا وذكرى لقوم عابدين يؤمنون بالله ويعبدونه ويخافون يوم الوعيد، ويؤكد الله الخبر بإن واللام ليفيدنا أن القرآن كاف للموعظة والتبليغ ومن لم يكفه فهو مكابر جاحد.

﴿وما أرسلنٰك إلا رحمة للعالمين ﴾

أي وما أرسلناك يامحمد إلا رحمة للعالمين فمن آمن بك فهو في رحمة الله ومن كفر بك فقد أبى رحمة الله وفر منها إلى سخط الله، وجاء التعبير بالقصر بإنما ليفيد أن الغرض الوحيد من إرسال محمد ﷺ ما هو إلا رحمة للناس كافة

﴿قل إنما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾

قل يا محمد لهؤلاء الكفار إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد لا شريك له فهل تستجيبون لي وتسلمون لربكم وتوحدونه؟ أي فأسلموا خير لكم، والاستفهام هنا يراد به التحريض، والأمر والقصر في الجملة بإنما يفيد الغرض من الوحي وهو الدعوة إلى توحيد الله الخالق بالعبادة ونبذ الطواغيت سواه، هذا هو الاسلام الذي يدعو خاتم النبيين إليه كما دعا إليه آدم ونوح وإبراهيم وسائر أنبياء الله ورسله عليه السلام أجمعين **﴿إن الدين عند الله الاسلام** ـ آل عمران١٩﴾.

﴿فإن تولوا فقل آذ نتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾

يقول الله تعالى: فإن تولى هؤلاء القوم المكذبون عنك وأعرضوا عن كلام الله فقل لهم أني أنذرتكم وأعلمتكم وجاهرتكم على سواء أي مستوين في هذا

الإنذار لا يشذ منكم أحد ولا يقول أحد لم يبلغنى الإنذار وكنت غافلا، فقد آذنتكم بغضب من الله ولا علم لى بموعد انتقام الله منكم أقريب هو أم بعيد؟ إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكم موعد لن تخلفوه، وأجله عند الله ربي وربكم، وفي هذا إنذار لهم وتحديد لموقف الرسول وأنه مبلغ لا دخل له في شؤون الله ولا علم له بالغيب، إن العلم إلا لله إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون إن ربى يعلم ما تجهرون به من التكذيب والاستهزاء، ويعلم ما تبطنونه من الضغن والأحقاد وما تكتمون من الكيد والمكر، لا يخفى عنه من أمركم شيء، ولكنه حليم يمهل ولا يهمل، وما تكيدونه من كيد فكيد الله أمتن وما تمكرونه من مكر فمكر الله أعظم وهو خير الماكرين:

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾

وقل لهم يا محمد لا أدري لعل إملاء الله لكم مع علمه بكم وقدرته عليكم لعله فتنة لكم لتزدادوا إثما ولعله متاع إلى حين فتمتعوا فسوف تعلمون.

قُل رَّبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢

أمر من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ أن يدعو ربه وهو حفي به أن يحكم بينه وبين قومه بالحق وقد لقنه هذا الدعاء وألهمه إياه ليجيبه، ولتكون العاقبة للمتقين كما استجاب للرسل الذين تقدمت أخبارهم في هذه السورة المباركة، وقد حكم الله له يوم بدر، وقال بالحق ولا يكون حكم الله إلا بالحق لأن أمر قومه باطل، وإذا جاء الحق زهق الباطل، وهذا الدعاء يشبه المباهلة لأنه قالها جهارا وهم يستفتحون عليه، وخاب كل جبار عنيد.

﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾

وربنا الذي آمنا به وتوكلنا عليه وهو رب الجميع، وقصد هنا الإسم لا

الـوصف والكفار ليسـوا من ربوبيتـه في شيء بهذا المعنى لأنهم أشركوا بـه غيره ﴿الـرحمن﴾ وهم يكفـرون بالـرحمن وهذا تـورك عليهم وأحق الناس بحفـاوة الرحمن ورحمته من آمن به وتـوكل عليه وبلغ رسالاته إلى عباده، فالإضـافة إضافة حفاوة واختصاص وتكريم .

﴿المستعان على ما تصفون﴾

الالف والـلام يؤذنـان بقصر الإستعانـة في الرحمن لان مكـرهم عظيم فهم يصفـون نبيئه بـالافتراء والجنـون والسحر وينشرون ذلـك في قومهم وفي النـاس حتى لا يؤمنوا بـه فناسب أن يستعان بالله وحده على ما يصفـون، فهو ولينا من دونهم وهـو مولانـا فنعم المولى ونعم النصير، وعلى الله فليتـوكل المؤمنون وإليـه يلتجيء المستضعفون وبـه يعتصم عباد الله المظلومون ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

●○●

تم تفسير سورة الانبياء

○●○

من قوله تعالى ﴿	إلى قوله ....﴾	الآيات من : إلى	الصفحة من : إلى
﴿ويوم يقول نادوا شركائي...	... وما أنذروا هزؤاً﴾	٥٦:٥٢	٧٦:٧٢
﴿ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربّه...	.. وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾	٥٩:٥٧	٧٨:٧٦
﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح...	.. وعلّمناه من لدنّا علما﴾	٦٥:٦٠	٨٣:٧٩
﴿قال له موسى هل اتبعك...	.. ولا ترهقني من أمري عسرا﴾	٧٣:٦٦	٨٦:٨٣
﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما...	.. قد بلغت من لدُنّي عُذرا﴾	٧٦:٧٤	٨٧:٨٦
﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية...	.. مالم تستطع عليه صبرا﴾	٧٨:٧٧	٨٩:٨٧
﴿أما السفينة فكانت لمساكين...	.. يأخذ كل سفينة غصبا﴾	٧٩:٧٩	٩٠:٨٩
﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين...	.. زكاةً وأقرب رحما﴾	٨١:٨٠	٩٠:٩٠
﴿وأما الجدار فكان لغلامين...	.. ما لم تسطع عليه صبرا﴾	٨٢:٨٢	٩٣:٩١
﴿ويسألونك عن ذي القرنين...	.. ثم اتبع سببا﴾	٩٢:٨٣	١٠٠:٩٤
﴿حتى إذا بلغ بين السدّين...	.. لا يستطيعون سمعا﴾	١٠١:٩٣	١٠٩:١٠٠
﴿أفحسب الذين كفروا...	.. إنا أعتدنا جهنّم للكافرين نزلا﴾	١٠٢:١٠٢	١١٠:١٠٩
﴿قل هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالا...	.. واتخذوا آياتي ورُسلي هُزُواً﴾	١٠٦:١٠٣	١١٤:١١٠
﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...	.. لا يبغون عنها حولا﴾	١٠٨:١٠٧	١١٦:١١٤
﴿قل لو كان البحر مداداً...	.. ولو جئنا بمثله مدَداً﴾	١٠٩:١٠٩	١١٨:١١٦
﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم...	.. ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾	١١٠:١١٠	١٢٢:١١٨
● ﴿ سورة مريم ﴾ ●			
﴿كهيعص. ذكر رحمة ربّك...	.. واجعله ربِّ رضيّا﴾	٦:١	١٢٨:١٢٥
﴿يا زكريا إنّا نبشرك بغلام...	.. وقد بلغت من الكبر عتيّاً﴾	٨:٧	١٢٨:١٢٨
﴿قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن...	.. أن سبحوا بكرة وعشيا﴾	١١:٩	١٣٠:١٢٩
﴿يا يحيى خُذ الكتاب بقوّة...	.. ويوم يبعث حيّا﴾	١٥:١٢	١٣٢:١٣٠
﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت...	.. فلن أكلّم اليوم أنسيًّا﴾	٢٦:١٦	١٤٠:١٣٢
﴿فأتت به قومها تحمله...	.. قول الحق الذي فيه يمترون﴾	٣٤:٢٧	١٤٤:١٤٠

تم بحمد الله

رقم الإيداع
٦٩/١٩٩٦م